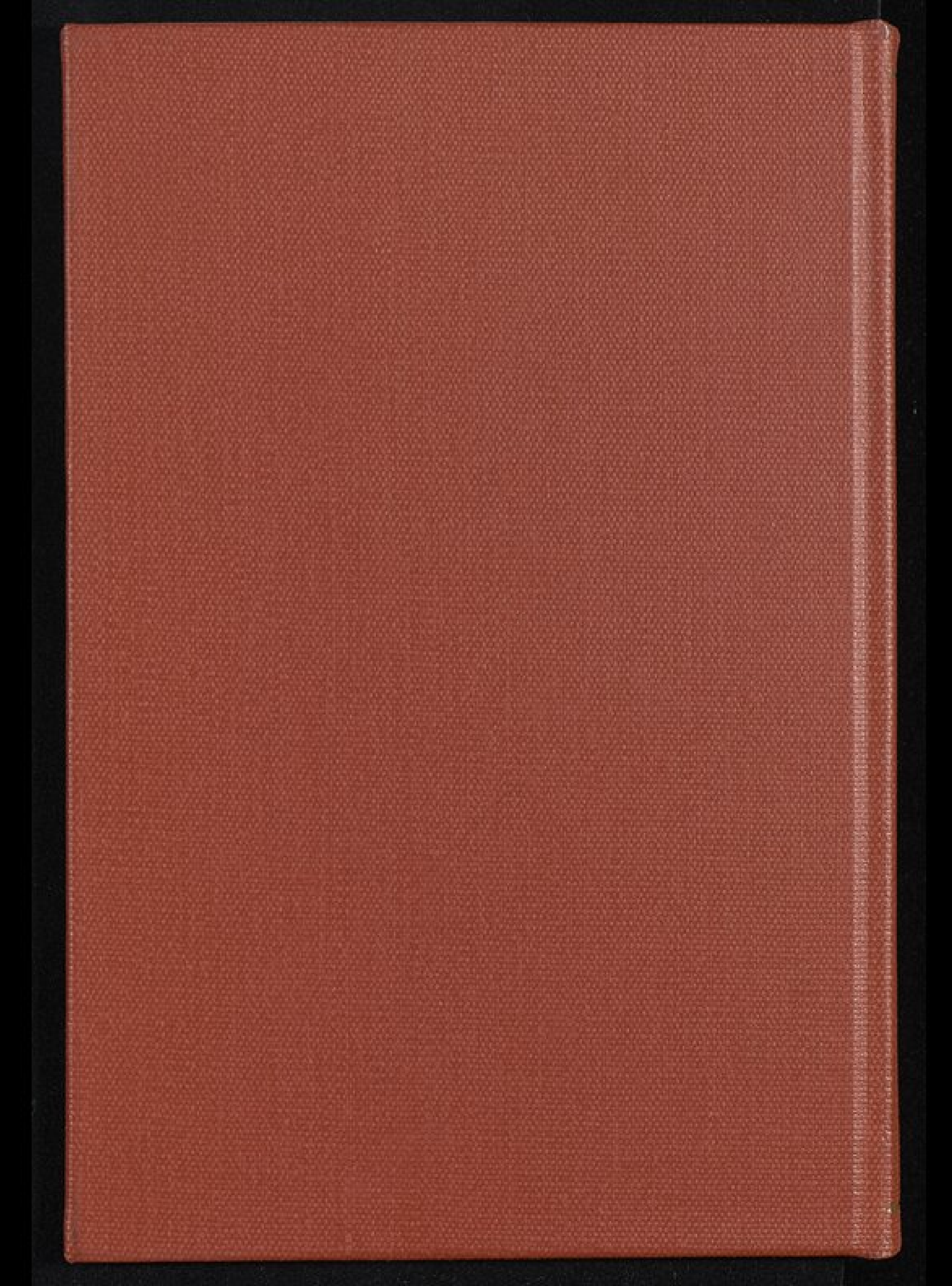


وزارة التربية والتعليم

الفتوة عند العرب

أو

أحاديث الفروسية والمثل العليا

تأليف

عمر الدسوقي

الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

١٨ شارع كامل صدقي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مقدّمة

الأمة العربية اليوم فى يقظة عقلية وسياسية لا ريب فيهما ، وقد قضت رَدَحاً طويلاً من الزمن فى غفلة تامة ، وجهل مطبق ، واستكانة غريبة للحوادث التى صُبَّت فوق رأسها تباعاً منذ أن مُزِّقت أوصال الدولة العباسية ، فغشيها من الهم ما غشيها ، وفقدت على توالى الأيام مقوِّمات شخصيتها ، ونسيت ذلك الماضى المجيد الذى تألق فى سماء التاريخ نوراً ساطعاً باهراً ، اهتدت به الإنسانية فى مهيع التقدم والمدنية ، بعد أن كانت تتعثر فى حِنْدس الجهالة والبغى . وفقد العرب الثقة بأنفسهم ، وشكُّوا فى قدرتهم على استرجاع ذلك المجد .

أتراهم اليوم ، وهم فى نشوة اليقظة يلتفتون إلى ذلك الماضى العريق ، والتراث التليد ؟ فيلتمسون منه زاداً يغذى مشاعرهم ، ويثبِّت إيمانهم بأنفسهم ، ويدعِّم شخصيتهم ، ويدفعهم إلى درج المجد دفعاً حميداً ، ويهبهم العزة ، والقوة المعنوية ؛ حتى يقفوا أمام تيار الغرب الجارف ، فلا يكتسحهم فى طيات أمواجه ، وتعود الأمة العربية مسيخة مشوهة لا هى بالعربية فيحترمها ، ولا هى بالغربية فيهابها ؟

للغرب مدنيته المادية العتيدة ، شادها على العلم البحت ، ونسى فى غمرة المادة كل ما تهدف له الإنسانية من مثل عليا نحو الخير والسعادة ، وانتصبت المادة وحشاً ضارياً عملاقاً ، بشع الخلقة محدد الأنياب ، مُشْرَع البراثن ، يبطش بكل الفضائل الجميلة ، ويفتك بقوى الخير فتكاً ذريعاً ، ويجر وراءه الإنسانية بيد غليظة أيِّدة جاسية إلى هوة سحيقة مالها من قرار .

لا يعرف إلا شرعة الغاب ، وقانون القهر والغلبة ، وسلطان البطش والظلم ؛ فلا يرق ولا يعفو ، ولا يعدل ولا يحلم ، ولا يؤاسى ولا يسخو ، لا يغيث ملهوفاً فى كُربته ولا يقيل كابياً من عثرته . بل الويل للضعيف الذى لا يقوى على انتزاع الغلبة والظفر ، والذى لا يعرف الخداع والمداهنة ، والحيلة والغيلة ؛ حتى يفلت من سطوة القاهرين ، ونقمة العتاة الغاشمين .

أجل ! إن المدنية الغربية قد ذللت قوى الطبيعة للإنسان ، ومهدت له سبل الرفاهية والمتعة ، فوطىء الجو بساطاً ممهداً ، وطوى المسافات البعيدة فى لحظات ، وغاص فى أعماق البحار ، وكشف عن الجراثيم ، واخترع آلاف المخترعات . وهى إلى جانب هذا قد عنيت بالتنظيم والترتيب والتنسيق فى كل شئون الحياة عناية فائقة ، ولا يكابر فى هذا ولا يجحده إلا كل جاهل معاند .

ولكن المدنية الغربية قدمت للإنسان مع كل هذا معاول الهدم والتخريب ، والإيذاء والتعذيب ؛ فشعر بقوته ، وفتن بجبروته وعظمته ، ونسى فى حُميّا نشوته كل معانى الخير والجمال ، واضطربت بين يديه المقاييس الخلقية ، وانطلقت غرائز الشر من عقالها تحت ستار الحرية الشخصية والاجتماعية ، ونجم عن ذلك أن تحطمت الفضائل فى نفوس الأفراد ، وتهدمت الروابط بين الأسر ، وفسدت الصلات بين الأمم ، وصارت القوة لا العدالة

شريعة الحياة ، واندلعت نيران الحروب فتذوق حرها المحاربون والآمنون على السواء .

ولقد فتن بعض شبابنا بلألاء الحضارة الغربية ، ودعا دعوة منكرة إلى أن نقطع كل صلة لنا بالعرب و بالحضارة العربية ، و بالمثل التى قررتها ؛ لأنه لا يعرف إلاّ النذر اليسير عن حقيقة العقلية العربية ، وعنه كنه أخلاقهم ومثلهم العليا وحضارتهم ، ولأنه رأى الغرب قويًا بمادته غلاّبًا بآلته ، يستعمر الأمم التى نسيت ماضيها ومجدها ، والتى لم تجاره فى علمه وتنسيقه وترتيبه ؛ ونسى أنه بعكوفه على نفايات الحضارة الأوربية ، وقطعه كل صلة له بماضيه ، إنما يسعى للتهلكة ، وأنه يأخذ السموم التى فتكت بهذه الأمم ، وأودت بمجتمعاتهم ، وأذهبت من قلوبهم الحميّة ، فانحلت أخلاقهم ، وازدروا كل معانى النخوة والشرف وقوة الكفاح ، وداسوا الفضائل ، واستهانوا بمعانى الخير . ولقد قدمت لنا الحرب العالمية الماضية نماذج لهذا الانهيار الخلق : فأمة متوحشة لا تؤمن إلاّ بالبطش والقهر ، كأنها وحوش الغاب انطلقت من مغاورها تفتك بكل من يتصدى لها ، وأخرى فزعت ، وتملك الرعب أزمة فؤادها ، ولم تجد لها من أخلاقها عاصمًا يدرأ عنها عادية الشر ، ولا حصنًا تلجأ إليه إبان المحنة ، فخرت صاغرة قبل أن تُلطم ، وآثرت أن تحتفظ بتراثها المادى عن أن تجول جولات صادقات فى ميدان الشرف والجهاد ، فكانت مثلا زريًا للتدهور وتحلل الأخلاق . ونحن اليوم نرى العجب العجاب من صراع الغرب والمبادىء الفتاكة المنتشرة بين بنيه ، وضلاله فى الوصول إلى السعادة ، وسعيه الحثيث للقضاء على مدنيته التى بناها على المادة .

أمّا نحن العرب فنملك ثروة روحية جليلة ، تكرم فى الإنسان معنى الإنسانية ، وترفع فى عينه قيم الفضائل الجميلة ، وتوثق بين بنى الإنسان رابطة من الأخوة الصادقة ، وتقيم ميزان العدالة الاجتماعية بين الطبقات على أساس من الرضا والتعاون ، وتضع لأصول المشكلات حلولاً ترتكز على الحق لا على الهوى . وإن من العقوق لمجدنا ودينا ، وللإنسانية ألاّ نتقدم إلى الدنيا بهذه الثروة الروحية علّها تهتدى إلى سواء السبيل .

إن أقوم طريق نسلكه ، ونحن نرى هذه الفتن الدامية هو أن نقتبس من علم الغرب ومدنيته ما يمكننا من أن نعيش فى بُلَهنية ورفاهية ، ويساعدنا على درء العدوان ، وصد نزوات الطامعين المعتدين ؛ حتى نعيش أحراراً كراماً أمجاداً ، وأن نستعيد من ماضى العرب الجميل ، وإنسانيتهم الخيرة معانى الفضيلة والخير ، فلا تنسينا مدنية الغرب المثلَ العليا التى يجب أن يهدف لها المجتمع الإنسانى ، والتى كانت طابع العرب أيام تاريخهم الذهبى .

وتجد الأمة العربية اليوم ، وهى فى طريق اليقظة العقلية والسياسية عوائق جمة تعترض سبيلها ، وتثبط عزمها ، وتحاول أن تثنيها عن هدفها ، بل حرباً مرة قاسية ، تعتمد على الغدر والحيلة ، والكذب والنفاق ، والقوة والقهر ؛ لتخمد هذه الجذوة التى اشتعلت بعد خمود ، وتقف هذا التيار الذى تدفق بعد ركود ، وتزلزل عقيدتها فى نفسها ، وتظهر العرب بمظهر الأمة المفككة المنحلة التى لا تصلح للوجود . حرباً يشنها الغرب الذى استمرأ منها الدعة والطمأنينة إلى بطشه وعدوانه ، وقوته وسلطانه ، فظل أمداً غير قصير يخدعها عن نفسها ، ويستنزف دمها ليسمن ويتخم . فكيف يتيح لها

اليوم أن تستكمل يقظتها ، وتقف على قدميها ، وتستعيد مجدها ؟

وحربًا يوقد أوارها اليهود الذين لفظتهم ديار الغرب بعد أن ضاقت بهم ذرْعًا ، وسئمت مكرهم وجشعهم ونفاقهم ، وكفرانهم بالنعمة ، ومكنت لهم من أرضنا يتخذون منها وطنًا مزعومًا .

وحربًا يهيجها ذوو الأثرة منا ، الذين لا يراعون فى أمتهم ضميراً ولا رحمة ، ولا ينظرون للخطر المحدق بها من كل صوب ، فيسعون إلى المجد الزائف ، والتملك البغيض ، بتقطيع أوصال هذه الأمة بعد أن التأمت ، والتمكين للأعداء بإذكاء نار الفرقة بين أبناء العروبة ؛ جريًا وراء شهوة عارمة لا تعرف للعقل سلطانًا ، ولا تقدر عواقب تلك النزوة الطائشة .

ولعل من خير ما يقدم للأمة العربية اليوم هو بعض صفحات مشرقة مجيدة من تاريخها العظيم ، تفيض بالخير ، والسخاء ، والرحمة ، والعدل ، والشجاعة ، والرفق ، والبطولة ، والوفاء ؛ فتعرف نفسها على حقيقتها ، وتستمد منها القوة فى كفاحها المرير مع عداتها الغادرين ، فتسير بخطى ثابتة صوب الهدف المنشود ؛ ولعل تلك الفضائل التى تكمن فى قرارات نفوسنا ، والتى تحلى بها أسلافنا تظهر مرة أخرى للوجود ، فيرى العالم وجهًا آخر للإنسانية ، غير ذلك الوجه البغيض الذى تسيطر عليه المادة ، ويتكلم بلغة الحديد والنار .

هذا وشبابنا يسمع عن ذلك الماضى المجيد ، ولا يعرف كيف يصل إليه ، وكيف يتمثله ، وهو مطمور مغمور فى ثنايا الكتب القديمة ، قد علاه غبار القرون ، وسجل بلغة تعلو عن مستواه وإدراكه ، وفى صورة موجزة حائلة اللون . وهيهات أن يبعث مثل ذلك الماضى فى نفسه الإعجاب ، ويدفعه إلى التقليد والاحتذاء ، وهو على حالته تلك .

فإذا تقدمت اليوم إلى الشباب العربى بأحاديث القوة والفتوة والفروسية ، والمثل العليا عنـد أسلافه الأمجاد ، وأخذت هذه الصور الصغيرة الحائلة ، وكبرتها ، وجلوتها حتى تبدو واضحة السمات ، نضرة زاهية ، فإنى ولا ريب أحقق رغبة من رغباته ، وأضع بين يديه نماذج للإنسانية فى أوج سموها النفسانى ؛ لتكون له قدوة ، وليؤمن إيماناً راسخاً بأنه من قوم لهم فى المجد والفضيلة باع طويل وقدم ثابتة .

ولعلى بذلك أسهم فى خدمة الأدب العربى ، فأعرض بعض صفحاته عرضاً جديداً ، وألبس بعض صوره لباساً قشيباً ، وأزيل عنها صدأ الدهر ، وحوادث الأيام ، محافظاً على سماتها وقسماتها الطبيعية الصحيحة دون تزيد إلا ما يقتضيه سد الرتق ، وإيضاح اللون ، ويتطلبه الفن .

ولعل بعض شبابنا الذين يهفون إلى استلهام الأدب الغربى بمحنه ورزاياه ونفاياته ، وسمومه ، ويعرضون عن استلهام الأدب العربى بعظمته وقوته وكبريائه ووضوحه يرون أنهم حادوا عن الجادة ، وأنهم ظلموا الأدب العربى لجهلهم بذخائره ونفائسه ، واغتروا بالأدب الغربى ، وهو نتاج بيئة غير بيئتنا ، ومجتمع قد كثرت علله وأوصابه ، وتعقدت مشكلاته وأدواؤه ونخرت فيه الآفات التى تصيب الأمم المترفة ، المتكالبة على المادة ؛ أدب ولده الاضطراب النفسى ، والكبت ، والحرمان والضيق ، والظلمة — ظلمة الجو وظلمة الحياة — فجاء سخفاً وهذياناً تمثل فى تلك المدارس الأدبية الحديثة : من (واقعية) تنحدر إلى تصوير أحط الغرائز الدنيا فى الإنسان ، إلى (رمزية) مبهمة غامضة لا يعرف المرء من ورائها فكرة أو معنى ، ولا تعنى بمجتمع أو إنسان ، إلى

(سريالية) مخرّفة تهذى بخزعبلات العقل الباطن ، وهواجس اللاّوعى ، وتحتفل بأضغاث الأحلام ، وتتنكر المنطق والعقل والشعور ، وأوضاع المجتمع والدين والفضيلة .

ولما كان الحديث عن الفتوة العربية يذكرنا بالفروسية الغربية إبان القرون الوسطى رأيت أن أمهد لهذه الصور الأدبية ، ونماذج الفتوة ، ببحث تاريخى يوضح معنى الفتوة عند العرب فى جاهليتهم ، وكيف تغنى الشعراء بأخلاق الفتيان الأماجد وفضائلهم ، وكيف أن هذا المجتمع البدائى كان فيه من التراحم والتعاون ، والأخذ بيد الضعيف والمنكوب والمكروب ما تتضاءل أمامه أرقى مجتمعاتنا التى طغت عليها المادية اليوم .

ثم كيف هذّب الإسلام معانى الفتوة الجاهلية ، وأسبغ عليها من هديه ورونقه ، ثم كيف تطورت هذه الفتوة الإسلامية حتى صارت وقفاً على طبقة خاصة من الناس ، لهم تقاليدهم وتعاليمهم وزيهم .

ووازنت بين هذه الفتوة العربية ، وبين الفروسية الغربية ، واجتهدت فى تعرف الصلة بينهما ، وإلى أى حد تأثر فرسان الغــــرب ، بتقاليد الفتوة العربية .

أما صور الفتوة العربية ذاتها ، فقد وجدت منها فى ثنايا كتب الأدب والتاريخ فيضاً زاخراً ، وحرت فى أيها أختار وأيها أدع . فإن تركت بعض الصور الفتانة ، والنماذج الأخاذة ، والأمثلة القوية ؛ فذلك لأنى لا أستطيع فى كتابى هذا استيعاب كل ما تحدث به الأدب والتاريخ عن أسلافنا وفرسانهم وأبطالهم .

على أن أحاديث هؤلاء الفرسان وأخبارهم ، ونوادر فتوتهم كانت مبعثرة فى كتب شتى ، ولها روايات عدة ، فاجتهدت أن أجمع شتات هذه الأخبار والأحاديث وأن أؤلف بينها حتى تخرج الصورة زاهية واضحة . ثم وضعتها فى إطار جديد يحببها للقراء ، ألا وهو الإطار القصصى .

هذا جهد المقل أقدمه لشباب مصر بخاصة والعروبة بعامة ، أرجو أن يحقق ما أصبو إليه والله الموفق للصواب .

عمر الدسوقى

معنى الفتوة

الفتوة فى اللغة من الفَتَاء وهو الشباب . والفتى فى الأصل الشاب ، فالفتوة هى القوة ؛ لأن الشباب مصدرها عادة ، وقد سموا الليل والنهار فَتَيان لقوتهما ، ومَن أقوى من الليل والنهار فى إذلال كل عزيز ، وإضعاف كل قوى ؟ ومن ذلك قول الشاعر :

ما لبث الفَتَيان أن عصفا به   ولكل قُفْل يسَّرا مِفتاحا

ومنه قول الآخر :

يا عَزُّ هل لك فى شيخ فتًى أبداً   وقد يكون شبابٌ غير فتيان

أى هل لك فى شيخ قوى المُنَّة ، سليم الجسم ، متين البنيان ، يفوق بقوته بعض الشباب ؟ ؛ ومن ذلك قول الآخر :

إذا عاش الفتى مائتين عامًا   فقد ذهب اللَّذاذةُ والفتاء

واشتقاق الفتوة من الفتاء بمعنى الشباب تدل على أن الفتى لابد أن يكون قوياً شجاعاً ، فيه عزم ومضاء ، وهذه صفات الشباب ، ويقول الشيخ المسنّ : تَفَتَّيْتُ ، إذا تخلق بأخلاق الفتيان : من القوة الجسمية ، واحتمال المشاق ، والمهارة فى الطعن بالرمح ، والضرب بالسيف ، قال الفِنْدُ الزِّمانى(١) وقد طَعن بالرمح طعنة أودت برجلين :

أيا طعنة ما شيخ   كبير يَفَنٍ بالى(٢)

---

(١) الفند الزمانى : هو شهل بن شيبان بن ربيعة بن زمان الحنفى من فرسان ربيعة وشعرائها المشهورين ، حضر حرب البسوس .

(٢) اليفن : الشيخ الهرم .

تقسيم المأتم الأعلى   عَلَى جَهْدٍ وإعوال[١]
تفتَّيتُ بهـا إذ كـ   ـرِهَ الشَّكَّةَ أمثالى[٢]

ولـكن الفتوة تطورت إلى معانٍ أخرى غير القوة الجسمية ، فاستعملت بمعنى السخاء والـكرم ، قال صاحب القاموس : الفتى : الشاب والسخى الـكريم ، والفتوة : السخاء والـكرم .

وفسرها صاحب الأساس بأنها الحرية والـكرم ، والحرية تعنى الشجاعة والقوة وإباء الضيم .

وقال القشيرى[٣] : « أصل الفتوة أن يكون العبد ساعياً أبداً فى أمر غيره » . ونقل عن الفُضيل أنه قال : « الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان »

والحارث المحاسبى يقول : « الفتوة أن تُنْصِفَ وَلا تُنْصَفَ » . وقال غيره : « الفتوة إظهار النعمة وإسرار المحنة » .

وهكذا استعملت الفتوة فى القوة المعنوية قياساً على القوة الجسمية .

فالحرية والـكرم والسعى فى أمور الناس ، وقضاء حاجتهم ، وإظهار النعمة وإسرار المحنة ، وأن ينصف المرء غيره ، وينـكر نفسه ، كل هذه صفات الرجولة الـكاملة . ولذلك قال القُتَيْبى[٤] : « ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث ، وإنما هو بمعنى الـكامل الجزْل من الرجال ، يدلك على ذلك قول الشاعر :

---

(١) المأتم الأعلى : أى لا يرجى منها شفاء ، وأراد بالأعلى أنه قتل رئيسين .
(٢) الشكة : ما يلبس من السلاح .
(٣) راجع الرسالة القشيرية .   (٤) لسان العرب .

إن الفتى حَمّالُ كل مُلِمَّةٍ   ليس الفتى بمُنَعَّمِ الصبيان

ويؤيده قول عبد الرحمن بن حسان :

إن الفتى لفتى المكارم والعلا   ليس الفتى بِمُغَمْلَجِ الصبيان (١)

وقول شاعر الحماسة (٢) :

فقلت لها لا تنكريني فقلما   يسود الفتى حتى يشيب ويصلعا

والحق أن العرب تعني بالفتوة : الشجاعة ، والإيثار ، والسخاء ، والوفاء ، وكثيراً من الصفات الحميدة . والفتى عندهم هو السيد الذي نال السؤدد والشرف بخلاله الكريمة ، وأفعاله العظيمة ، ويقال : هذا فتى الحي أي سيده ، والكامل الجزل من رجاله ، قال ابن أُهْبان الفَقْعَسى يرثى أخاه :

فتى الحى، إن تلقاه فى الحى، أو يُرى   سوى الحى أوضَمَ الرجالَ المشاهدُ

إذا نازعَ القومَ الأحاديثَ لم يكن   عَيِيًّا ، ولا ربًّا على من يقاعِدُ (٣)

طويل نجاد السيف ، يصبح بطنُهُ   خَميصا ، وجاديه على الزاد حامدُ (٤)

أى أنه اتصف بالفتوة والرئاسة ، سواء كان فى الحى بين قومه ، أو خارج الحى فى غير قومه ، أو فى محفل من المحافل ، ومشهد من المشاهد ، حيث يوجد الأشراف والرؤساء ، فهو فى كل هذه الأماكن فتى ، أى سيداً .

ثم وضح صفاته بأنه متحدث غير عيي اللسان ، وليس به كبر ، وهو

---

(١) المغملج : الذى لا يثبت على حال واحدة ، يكون مرة سخيا وأخرى كزا ، وتارة مقدما ، وأخرى جبانا . . . الخ .

(٢) الحماسة لأبى تمام ج ١ ص ١١٧ .

(٣) أى ليس عييا ولا متكبرا .

(٤) خميصاً : جائعا . وجاديه : طالب جوده .

طويل القامة ، فارس ، يؤثر ضيفه على نفسه ، ويكرمه حتى يحمد زاده ، ويشكره على قراه ، ويبيت هو جائعاً .

وقال آخر من شعراء الحماسة :

ألا لا فتى بعد ابن ناشِرَةَ الفتى ولا عُرْفَ إلاّ قد تولى فأدْبَرا

أى ذهبت الفتوة والرئاسة بعد ابن ناشرة ، كما ذهب المعروف وأدبر .

وهم يدعون الفتى عند الشدائد ، وفى الملمات ؛ قال طرفة بن العبد .

إذا القومُ قالوا من فتى؟ خِلْتُ أننى دُعيتُ فلم أكسل ولم أتبلَّدِ

وقد وصف طرفة نفسه ، وعدد سجاياه فى قوله بعد ذلك :

ولستُ بحلاَّلِ التلاعِ مخافةً ولكن متى يسترفدِ القومُ أرْفدِ

فهو كريم ، لا يلجأ إلى مجارى الماء من رءوس الجبال ، خشية أن يراه ضيف ، ولكن ينزل إلى الوادى ويرفد كل من طلب رفده :

وإن تبغنى فى حَلْقة القوم تلقنى وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد

أى أنه من ذوى الرأى والمشورة ، وممن يطلب اللذة بشرب الخمر فى الحوانيت ؛ ليسقى غيره كرمًا .

وينعت نفسه بعد ذلك بأنه فارس شجاع ، يأبى الضيم ، ويجهد الأعداء :

وإن أُدْعَ فى الجُلَّى أكن من حماتها وإن يأتك الأعداء بالجهد أَجْهَدِ [(١)]

إذا ابتدر القومُ السلاحَ وجدتنى منيعًا إذا بَلَّتْ بقائمه يدى [(٢)]

---

(١) الجلى : الأمر العظيم الجليل ، وأكن من حماتها : أى ممن يدفع ويقاتل .

(٢) ابتدر القوم : سارعوا . منيعاً : لا يوصل إليه . بلت بقائمه يدى : أى ظفرت به يدى ، وتمكنت من قائم السيف ومقبضه .

ويذكرنا قول طرفة : « من فتى » بقول بَشامة بن حزن النهشلي :

لو كان فى الألف منا واحدٌ فدعوْا (من فارس ؟) خالهم إياه يعنونا

فهم يدعون الفارس فى الملمات والشدائد ، كما يدعون الفتى ؛ فكأن الفتى هو الفارس الشجاع ، وإن كان الفتى أعم معنى .

ومن الكلمات القريبة من الفتوة المروءة ، وهى كلمة تداولها العرب كثيراً ، ولقد وضح البيرونى [1] الفرق بين المروءة والفتوة بقوله : المروءة تقتصر على الرجل فى نفسه وذويه وحاله ، والفتوة تتعداه وإياها إلى غيره . والمرء لا يملك إلا نفسه ، وقُنيتَه التى لا يُنازع فيها أنها له ، فإذا احتمل مغارم الناس ، وتحمل المشاق فى إراحتهم ، ولم يضن بما أحلَّ الله له ، وحرَّمه على من سواه ، فهو الفتى الذى اشتهر بالقدرة عليها ، وعُرف بالحلم ، والعفو ، والرزانة ، والاحتمال ، والتعظم بالتواضع ؛ ترقى إلى العلياء وإن لم يكن من أهلها ، وسوّد باستحقاق لا عن خلود دار » .

ويؤيد قول البيرونى من أن الفتى لا يحتاج إلى النسب العريق فى وصوله إلى السيادة والشرف قول ابن هَرْمَة :

قد يدرك الشرفَ الفتى ورداؤه خَلَقٌ ، وجيب قميصه مرقوع

وقال البيرونى : ولهذا حُدَّت الفتوة بأنها : « بشر مقبول ، ونائل مبذول ، وعفافٌ معروف ، وأذى مكفوف » .

إذا المرء لم ينهض بنفس إلى العلا فليس العظام الباليات بمفخر

---

(١) هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ فى كتابه « الجماهر فى معرفة الجواهر » طبعة حيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٥ ص ١٠ ، ١١ .

« وربما أفرط الفتى فتجاوز إفراط إيثار الغير على الملك إلى بذل النفس أنفةً من تحمل العار ، أو دفعًا للظلم ، وحفظًا لحق الجوار ؛ إما بالبسالة كالمذكورين فى صعاليك العرب ، فمنهم الذين فدوا أضيافهم والمستجيرين بهم بأنفسهم ، حتى إن فيهم من خرج به فعله إلى سخف أو جنون ، من حماية الجراد النازل حول خبائه ، وقتاله دون صيدها . وإما بالكرم والسماحة كحاتم الطائى الذى غرر بنفسه فى هِبَة الرمح لخصمه ، وقد أشفى على الهلاك ، وبلغت نفسه التراق ، فاحتال باستيهابه الرمح ، فاستنكف حاتم عن ردّه ودفعه إليه ، وككعب بن مامة الإيادى بإيثار القرين بحصته من الماء المقسوم بالحصى ؛ إذ قال : اسق أخاك النَّمِرى ، فسقاها إياه ، حتى هلك هو عطشًا

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها   والجود بالنفس أقصى غاية الجود »

وقال آخر :

وليس فتى الفتيان من راح واغتدى   لشرب صَبوح أو لشرب غبوق

ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى

لضر عدو أو لنفع صديق

ومن هذا نرى أن الفتى أعمّ من الفارس ، وأن الفتوة كذلك أعم من الفروسية ، وأعم من المروءة ، فقد يكون الفارس شجاعًا ولكنه غير كريم ، أو يكون معتديًا ظالمًا ، أو نَزِقًا طائشًا ، أو خِبًا غادرًا ، وليس كذلك الفتى عند العرب .

أما ذو المروءة فيتحلى بكثير من الصفات الحميدة ، ولكنه كما يقول البيرونى : « تقتصر المروءة على الرجل فى نفسه ، وذويه وحاله » .

وعلق البيرونى على قول على بن الجهم :

ولا عارَ إن زالت عن الحر نعمة ولكنّ عاراً أن يزول التجمل

بقوله : « عنى بالأول الفتوة ، وبالأخير المروءة » فالحر قد تزول عنه النعمة ، لأنه أنفق ماله فى سبيل سواه ، وآثر غيره بما ملكت يداه ؛ حتى عاد فقيراً معدماً ، فلا عار عليه حينذاك ، ولكنّ العار أن تنخزل نفسه ويصل إلى الابتذال ، بل عليه أن يظهر التعفف ، ويخفى الضيق فإن فعل ذلك فهو من أهل المروءة » .

وإن كانت المروءة قد أخذت أحياناً[١] بعض معانى الفتوة كما فى قول بشار :

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

وقال الجرجانى فى التعريفات : المروءة هى قوة النفس ، مبدأ لصدور الأفعال الجميلة عنها ، المستتبعة للمدح شرعاً وعقلا وعرفاً .

وقال فى التعريفات عن الفتوة : « الفتوة فى اللغة : الكرم والسخاء ، وفى اصطلاح أهل الحقيقة هى أن تؤثر الخلق على نفسك بالدنيا والآخرة » .

وهو يشير إلى معنى الفتوة عند المتصوفة ، وليست هى الفتوة عند العرب فى أول نشأتها كما سنذكر فيما بعد عند تطور معنى الفتوة فى الإسلام .

وقد رأى جولد تسهير فى كتابه « المروءة والدين » : أن المروءة عند أهل الجاهلية كانت تقابل الدين فى الإسلام ، ثم قامت مقام مبدأ معنوى تدور عليه الأخلاق الكريمة ، من حيث أنها كانت تجمع بين السخاء

---

(١) راجع بحثا عن المروءة للدكتور بشر فارس فى مباحث عربية ص ٦٣ .

والوفاء وحفظ الجوار ، والأخذ بالثأر[١] .

فجولد تسهير يقرب معنى المروءة من معنى الفتوة ويجعلها شيئاً واحداً تقريباً ، وإن كانت لا تزال الفتوة على الرغم من هذا التقريب أعم . وتعريف ابن قتيبة للفتى بأنه الكامل الجزل من الرجال هو ما أراده العرب من هذه الكلمة

قال أبو البلهاء فى يزيد بن مَزْيد الشيبانى يرثيه :

نعم الفتى فُجعَتْ به أخوانه ... يوم البقيع حوادثُ الأيام

سهلُ الفناء إذا حللت ببابه ... طلق اليدين مؤدَّب الخدام

وإذا رأيت صديقه وشقيقه ... لم تدر أيهما ذوو الأرحام

وقالت الخنساء ترثى صخراً :

أمطعمكم وحاملَكم تركتم ... لدى غبراء منهدم رجاها

لبيك عليك قومُك للمعالى ... وللهيجاء إنك ما فتاها

وقد مدح دريد بن الصِّمة يزيد بن عبد المدان بقوله :

إذا قارعوا عنه لم يقرعوا ... وإن قدموه لكبش نطح

وإنْ حضر الناس لم يخزهم ... وإن وازنوه بقِرن نجحْ

فذاك فتاها وذو فضلها ... وإنْ نابح بفَخار نبح

وقال أوس بن حجر يرثى فضالة بن كَلَدة :

إن الذى جمع السماحة والنَّجـ ... ـدة والحزم والقوى جُمِعا

الألمعىُّ الذى يظن بك الظـ ... ـنَّ كأن قد رأى وقد سمعا

والمُخلف المتلف المرزَّأ لم ... يمتع بضعف ولم يمت طَبَعا

---

(١) Muruwa und Din ص ٣١ ج ١ .

والحق أن الفتوة تعنى الشمائل الآتية :

الشرف ، والسخاء ، والشجاعة ، والوفاء بالوعد ، والحلم ، وحماية الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، والتواضع ، والعفو ، والرزانة ، وقوة الاحتمال .

وقد أخذت كلمة الفتوة معانى جديدة فى الإسلام ، وإن حافظت على المعنى العام لها فى الجاهلية ، قال ابن عربى فى الفتوحات المكية[١] : « الفتى : مابين الثامنة عشرة والأربعين من العمر ، ويتصف بالقوة ، والأخلاق الحميدة ، ويستخدم قوته فى خدمة الله ، ونصرة الضعيف ، وليس له عدو ، ولكن له حساد ومنافسون » .

وقال فى مكان آخر من الفتوحات المكية عند الكلام عن معرفة مقام الفتوة وأسراره .

إن الفتوة ما ينفك صاحبها ... مقدماً عند رب الناس والناس

إن الفتى من له الإيثار تحلية ... فحيث كان فمحمول على الراس

ما إن تزلزله الأهوا بقوتها ... لكونه ثابتاً كالراسخ الراسى

لا حزنَ يحكمه ، لاخوف يشغله ... عن المكارم حالَ الحرب والباس

فالفتوة عند المتصوفة قد زادت عن معناها الأصلى عند العرب ، واستخدمت فى أغراض دينية ، وسنرى فيما بعد كيف تطورت فى الإسلام إن شاء الله .

أما الفتى عند العرب فهو من كملت فيه صفات السيادة ، وأهله خُلقه

(١) راجع الفصل ٤٢ من الفتوحات المكية عن الفتوة والفتيان .

لأن يكون زعيم قومه ، وملجأهم فى كل ملمة ، هو من أراد ذو الأصبع العدوانى من ابنه أُسَيد أن يكون بوصاته له :

« ألِنَ جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك ، وأكرم صغارهم ، كما تكرم كبارهم يكرمك كبارُهم ، ويكبرُ على مودتك صغارُهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، واعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ ، فإن لك أجَلًا لايعدوك ، وصُنْ وجهك عن مسألة أحدٍ شيئاً ، فبذلك يتم سؤددُك » .



الفتوة عند العرب

— ١ —

نشأة الفتوة

نشأت الفتوة عند العرب نشأة طبيعية فى الصحراء الشاسعة ، كما تنبت الأزهار البرية العَبِقَة الشذا فى مجرى السيل على سفح الجبل ؛ فالصحراء قد فرضت على العرب أخلاقاً خاصة ، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حِوَلا ، صارت لهم على مر السنين جِبِلة وطبيعة وفطرة ، وصارت عنواناً لهم بين العالمين .

ولا عجب فالصحراء : فضاء متسع رحيب ، يملأ جوانب النفس خشية ورهبة ، وبحر من الرمال المختلفة الألوان لا ساحل له ، وجبال جرداء سامقة يرتد عنها البصر وهو حسير ، وصخور صماء عاتية ، وشمس قوية محرقة تصب شآبيب من شواظ يتلظى لهباً ، وريح زفوف ، وسيول متدفقة ، وماء عذبٌ ، وظل كريم .

فهذه الطبيعة الخشنة قد انعكست على نفس العربى قوة وصرامة وَجَلَداً ، لا يرهبها ، ولا تتضعضع نفسه أمام جبروتها ، لا يخشى الليل ورهبته ، ولا يفزع من السفر وشدته وقسوته ، وما هو إلا أن يعزم على أمر فلا يرده عن عزيمته شىء مهما عظم :

إذا هَمَّ هَمّاً لم يَرَ الليل غُمَّةً ... عليهِ ولم تصعب عليهِ المراكب

جليدٌ كَرِيم خِيمُه وطباعه ... على خير ما تبنى عليه الضرائب[1]

---

(١) الخيم : الطبيعة والجبلة ، والضرائب : الطبائع .

لم يكن العرب فى البادية يسكنون القصور المحصّنة ، أو البيوت المسوّرة ، ولم يكن لهم شرطة يسهرون عليهم ، أو حامية تصد عنهم الغارات ، بل كانوا يقيمون فى بيوت من الشعر والوبر تهزها الريح كما هبت ، ويجرفها السيل إذا تدفق ، وليس لهم حارس إلا مقابض سيوفهم ، وأسنة رماحهم ، وليس لهم حمىً إلا ظهور خيولهم ، وإلا شجاعة قلوبهم ، وعِظَمُ نفوسهم .

يعيش العربى فى خطر دائم فى أحضان تلك الطبيعة القاسية ، تعصف الريح فتسفى الرمال ، وتقوض بيته ، وتُكفىء قدره ، وتطفىء ناره ؛ ويهدر السيل فَيجتاح داره ، وينفر إبله . وتبخل السماء فيشح زاده ، ويهزل نَعَمه ، ويهدده الجوع فى حياته ؛ ويجوع الوحش فلا يجد أمامه إلا النَّعم والإنسان يسكّن بلحمها سُعار بطنه .

ولذلك أرهفت حواس هذا العربى ، ونمت نمواً عظيما ، ولا ريب فى أن نماء الحواس وقوتها ، وتأديتها وظيفتها الطبيعية على خير وجه ، يزيد فى قوة العقل وحسن تصرفه ؛ لأن الحواس هى الطريق الذى تدلف منه المعلومات إلى العقل ، فإذا كانت مرهفة قوية ، غير بليدة أو مضطربة ، كان ما يصل إلى العقل صحيحاً واضحاً ، فأدى عمله تاماً متقناً ، وصحت نظرته إلى الأشياء ، وحكمه على الأمور ؛ وتفسد ببلادة الحواس وانقباضها آلة العقل ، وتفسد بفساد العقل القدرة الإيجابية فى الحياة ، وينقطع التصرف الإرادى المحكم ، وتضيع صورة العدل فى وزن الأشياء واستثمارها .

ومن البدهى أن الحالة النفسية وليدة الحالة الحسّية ، وأن اضطراب الحس مفض إلى اضطراب أعمال الجسم : من التنفس والهضم والتمثيل ، والانتظام الجنسى ، مما يسوق الاضطراب فيه إلى الهلاك والتحلل .

فسعة المجال فى الصحراء أمام حواس الإنسان ضرورية لتربية هذه الحواس ، والحواس السليمة النامية تؤدى إلى قيام الجسم بوظيفته الطبيعية أداء منتظما لا اضطراب فيه ، كما تؤدى إلى وجود عقل سليم ، وحكم صحيح ، وحياة معتدلة .

لقد أفاد العرب من رحابة الصحراء وبعد آفاقها حدة ظاهرة فى البصر تميزوا بها عن سواهم ، وقوة فى السمع كادت تبلغ درجة الكمال ، وأما حاسة الشم فكانت موضع فخارهم ، والفضل فى قوه هذه الحاسة عندهم يعود لتعرضهم المباشر للرياح فوق ظهور الإبل ، وعلى صهوات الخيل ، وفى ظلال الخيام التى لا تمنع الريح والنسيم عنهم .

إن ضيق المجال أمام الحواس لا يؤدى إلى إنهاك قوى الجسم وإضعافه فحسب ، بل يؤدى كذلك إلى التردى فى مهواة الضعف العام فى عصبه ومشاعره ومعقولاته ، بل وفى رزقه ، وينتهى به الأمر إلى الرضى بالذل ، وإلى العجز عن وقاية نفسه من الظلم[١] .

صار العربى فى صحرائه يشتم الخطر قبل قدومه ، ويعرف عن الطبيعة وأحوالها وتقلباتها ما لا يعرف كثير من الناس فى حياتنا المتمدينة المتحضرة ، وهو لا يستسلم لهذه الطبيعة ، ويروح فى نوم عميق ، وإلا صار فريسة لها أو لوحوش الفلاة .

ولقد علمته هذه الطبيعة الصبر والجلد والكفاح المر حتى صار كما يقول تأبط شرا[٢] :

(١) راجع التصوف فى نظر الإسلام لأحمد صبرى شومان ص ٨٢ وما بعدها .

(٢) هو ثابت أبو زهير من بنى فهم ، اشتهر بسرعة عدوه وشدة فتكه ، وكان من الشعراء الصعاليك .

قليـــلُ التشكى للمُهِمّ يصيبُـه كثيرُ الهوى شتّى النوى والمسالك

يظلّ بمُوماةٍ ويُمسى بغــيرها جَحيشاً ويَعْرورَى ظهور المهالك[١]

ويجعــل عينيه ربيئة قلبــه إلى سَلّةٍ من حَــدِّ أخلق صائك[٢]

أو كما يقول أبو كبير الهذلى[٣] يصف تأبط شرا :

فإذا نبـــذتَ له الحصاة رأيتَهُ ينزو لوقعتها طمور الأخيـــل[٤]

لقد أكسبته الصحراء أخلاقاً فطرية عالية ، والفطرة فى الإنسان هى الخير ، وفى ذلك يقول « السير تيلر » : « من الجلى أن الناس فى المجتمع البدائى يعيشون فى مستوى خلق عالٍ ، وهذا شيء يسترعى الانتباه ، لأنه يبين ما يسمى الخلق الفطرى أو الخلق الطبيعى ، وفى هذا المجتمع لا نرى للديانات أى تأثير أخلاقى قوى كما نراه فى المجتمعات المتحضرة . فالحق الذى لا مرية فيه أن معاملة بعضهم لبعض قلما تتأثر بأمر سماوى أو خوفٍ من عقاب إلهى[٥] » .

إن الفضيلة لا تتوقف على المعرفة ، وليست هى المعرفة كما يقول سقراط ، ولـكن الفضيلة الحقة هى العمل بها ، والحياة الفاضلة ذاتها ؛ حتى لقد دعا فلاسفة القرن الماضى فى أوروبا مجتمعاتهم الفاسـدة التى لوثتها المدينـة إلى أن يتخذوا من « البدائى النبيل » نموذجاً فى الأخلاق يحتذونه[٦] .

---

(١) الموماة : المفازة التى لا ماء فيها ، والجحيش : المنفرد ، ويعرورى : أى يركب ظهر المهالك .

(٢) الربيئة : الرقيب ، وسلة : مرة من سل السيف إذا جرده ، والأخلق : الأملس ، والصائك : القاطع ، والمعنى : إن العين رقيب القلب ، فإذا كرهت العين شيئا نبهت القلب فاستل السيف

(٣) هو عامر بن حليس أحد بنى سعد هذيل وهو شاعر مخضرم صحابى .

(٤) نبذ له الحصاة : رماه بها ليعرف مقدار استغراقه فى نومه ، وطمور الأخيل : أى يثب كما يثب الصقر .

(٥) Anthropology. vol. II P. 135. by Sir E. B. Tylor

(٦) نفس المرجع ص ١٣٦ .

إن الحياة فى المجتمع البدائى ترينا بوضوح عجيب صدق النظرية المهمة التى يرتكز عليها علم الأخلاق ، وهى : أن السعادة والفضيلة يسيران معاً ، وفى الحق إن الفضيلة هى الطريق إلى السعادة[١] .

لقد خلعت الصحراء بقوانينها الصارمة على العربى خُلق الفتوة ، والفتوة مجموعة من الفضائل النفسية صُهرت فى بوتقة الصحراء ، حتى صارت حلية نادرة الحبات ، تحلى بها هؤلاء العرب منذ عرفهم التاريخ . وسنبين فى الفقرات التالية سمات الفتوة كما عرفها العرب ، وكيف كانت أثراً من آثار بيئتهم .

---

(١) نفس المرجع السابق .

٢ — الشجاعة

عاش العربي في الصحراء ، وهو في جهاد مستمر ، وكفاح طويل مرير ، محافظةً منه على حياته ؛ فليس بالصحراء من معالم الحيـــاة إلا النذر اليسير ، وليس بها أنهار جارية ، أو وديان خصبة ممرعة ، أو حدائق غناء ، إلا في أمكنة قليلة تعتمد على الغيث ، و بعض العيون المتفجرة ؛ ولذلك اشتد حرصه على الماء ، وسعى في سبيله سعياً متواصلا لا هوادة فيه ، واقتضى ذلك منه رحيل دائم في فيافٍ واسعة ، يواجه مخاطرها في كل ثنية ، و يستقبل تغيرات الطبيعة أينما سار .

وَمن يكُ مثلي ذا عيـــال ومقتراً ... من المال يطرح نفسه كلَّ مطرح
ليبلغ عذراً أو يصيب رغيبـــة ... ومُبلغ نفسٍ عذرَها مثل مُنجح

فامتزج بهذه الطبيعة والصحراء امتزاجاً تاماً ، وصار قلبه جَلْدًا لا يرهب ، ولا يفزع ، وصارت عنده مناعة ضد الضيم والتبلد ، لأنه إن كف عن السعي في سبيل المـاء الذي هو قِوام حياته هلك مسغبة وظمأ . لذلك عظمت قوى الـكفاح في العربي ، كما عظمت ثمرات هذه القوى في نفسه ، فصار من أصح أهل الأرض بنية ، وأوفرهم قوة ، وأروعهم قامة ، وأبينهم عافية ، وأكثرهم احتمالا لمـا لا يُطاق من الشدائد والمشقات . وقد جعله هذا الصبر الذي فرضته عليه الصحراء عِدْلا لعشرات من الناس من حيث الطاقة البشرية ، بل عدلا لمئات من هؤلاء الذين يقتلهم ظمأ ساعةٍ ، أو جوع يوم ، أو ضربة شمس تصيبهم بالهلاك وتقضي عليهم .

وأول ما تتطلبه الشجاعة من صفات : أن يكون الفتى قوى الجسم ، عظيم الصبر ، شديد الجلد . وهل مثل السعى الدائم فى سبيل الرزق ، والرحلة المستمرة فى الهواء الطلق ، وتحمل أشعة الشمس ، وتخطى الحزون ، وجوب القفار ، والركوب المستمر على ظهر الراحلة أو الجواد ، عوامل تصح بها الأجسام وتقوى ؟

يعيش العربى فى الصحراء تغمره الشمس بضوئها النافذ إلى قرار بدنه ، وناهيك بالشمس شفاء من كل مرض ، وغذاء لكل جسد . وشمس الصحراء زاهية قاسية تذيب رءوس الضّباب ، ولكن العرب اعتادوها ولاءموا بين شدتها وحياتهم ، وعرفوا أثرها العظيم فى صحة أبدانهم حتى لقد سئل أحد الأعراب « كيف البدو فيكم ؟ » فقالوا : « نأكل الشمس ونشرب الريح » وفى شدة أثر الشمس ووقع حرورها فى الأجسام العربية يقول سويد اليشكرى

كم قطعنا دون سلمى مَهْمَهاً ... نازح الغور إذا الآل لمع[1]

فى حَرُور ينضج اللحم بها ... يأخذ السائر فيها كالصَّقَع[2]

ولا جدال كذلك فى أن هواء الصحراء هو أصح هواء يحيا فيه إنسان ، ولقد كان العربى يعيش دوماً فى هذا الهواء ليلا ونهاراً ، فخباؤه تخفق فيه الرياح ، وهو فى دأبه وكده فى سبيل الحياة يستقبل الرياح أينما توجه ، والهواء للإنسان كالماء للسمك لا يستطيع العيش إلا به ، وإذا كان الهواء نقياً صافياً كان

---

(١) سويد بن أبى كاهل اليشكرى من شعراء ربيعة ، وهو مخضرم ، وكانت قصيدته هذه التى مطلعها :

بسطت رابعة الحبل لنا ... فوصلنا الحبل منها ما اتسع

تسمى اليتيمة . الآل : السراب .

(٢) الصقع : حرارة تصيب الرأس .

أنقى للدم ، وأجلب للقوة ، وأصح للجسم . وهل مثل هواء الصحراء التى لم تفسدها المدنية بمصانعها وزحمتها هواء ؟

لقد توفرت للعربى إذاً عوامل الصحة من شمس ساطعة ، وهواء نقى ، وعملَ هو ، أو فرضت عليه بيئته عوامل أخرى ساعدته على تمام الصحة وكمال القوة ، فجعل قوام غذائه اللبن ، واللبن هو الغذاء الكامل الذى يتضمن كل ما يتطلبه الجسم من العناصر الصالحة للتغذية ، وفى صورة يسهل على الجسم الإفادة منها ، كما أنه لا يترك بعد هضمه فضلات تجهد الكلى أو تزيد حموضة الجسم [1] ؛ وكان يطحن الحبوب بالرحى ، ويبقى معها عند صنع الخبز قشورها ونخالتها ، وهذا الخبز هو أصح أنواع الخبز دون نزاع .

ولم يكن العربى ممن يفرط فى الطعام أو يفتنّ فى طهيه أو يكثر من ألوانه ؛ لأن بيئته لم تكن تساعده على ذلك لو أراد . والإفراط فى الطعام، و كثرة ألوانه ، والافتنان فى طهيه مما يجلب الأدواء الكثيرة للأجسام .

ونحن نعانى فى حياتنا المدنية اليوم كثيراً من الأمراض الفتاكة ؛ لأن أطعمتنا لا تسير على قانون الفطرة والبساطة ، ولإننا عنينا بها أكثر مما يجب ؛ حتى تكون شهية لذيذة ، وإن لم تكن غنية بعناصرها المفيدة .

وفضلا عن هذه العوامل الطبيعية التى عملت على تقوية جسده ، فقد استلزمت الصحراء منه أن يكون قوى البنية ، أيِّداً شديد العضل مفتول الساعد ؛ لأن النزاع على المرعى والماء وهما قوام هذه الحياة ، كان على أشُدِّه فى تلك البيئة التى كثيرا ما بخلت فيها السماء بمائها . فكان يدفعه الحرص على الحياة

---

(١) راجع كتاب الأغذية للأستاذ حسن عبد السلام .

هو وقومه ، والفرارُ من الموت جوعاً وظمأ إلى الغارة على جيرانهم الذين أوتوا فضلا من خير أو مرعى ؛ حتى لا تضار نعمهم فيهلكون بهلاكها . وقد يكونون عرضة لمن يغير عليهم طمعاً فى مالهم ، إذا حزبه الضر ، وألهب معدته الجوع ، وخشى الفناء والهلكة . وكانوا يبتغون الماء ، ويرتادون منابت العُشب ؛ ليرعوا أنعامهم التى عليها بلاغهم فى ريهم وحمولهم ، وشِبَعهم ، فتنازعوا على المرعى وتدافعوا على النُّجعة ، ونشبت بينهم دواعى الخلاف التى كثيراً ما تنتهى بالاحتكام للسيف . والاحتكام للسيف يقتضى يداً قوية متينة التركيب ، وجسماً مفتولاً لا مترهلاً ولا هزيلا ، وأصبح من دواعى فخارهم لكل هذه الأسباب الطبيعية والضرورية أن يكون الفتى :

فتىً قُدَّ قَدَّ السيف لا متضائلٌ ولا رَهِلٌ لَبَّاته وأباجِلُه[1]
إذا جدَّ عند الجد أرضاك جِده وذو باطل إن شئت أرضاك باطله
يسرك مظلوماً ويرضيك ظالما وكُلُّ الذى حَمّلته فهو فاعله[2]

والشجاعة تقتضى أن يكون الفتى ذا عزيمة وحزم ، لا يتردد ولا يتلوم ، وإلا قضى عليه تردده ، وتقاعسه ؛ فهو يناجز فرساناً شجعاناً ، فلا بد أن يكون قوى الجنان نافذ الرأى ، ذا بصيرة فى المآزق .

إذا هَمَّ لم تُرْدَع عزيمة همه ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبا
إذا هَمَّ ألقى بين عينيه عزمه ونكَّب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائمَ السيف صاحبا

(١) الرهل : الاسترخاء ، واللبات : ج لبة وهى المنحر ومحل القلادة ، والأباجل : ج أبجل وهو عرق غليظ يكون فى الفخذ والساق .

(٢) أى يأخذ بيدك إذا كنت مظلوماً ويرضيك بمعاونته لك أو النصيحة إذا كنت ظالماً .

أو يكون كما وصفه لقيط بن يَعْمُر الإيادى :

لا مُتْرَفاً إنْ رخيُّ العيش ساعده ... ولا إذا حَلَّ مكروه به خَشَعاً
لا يَطْعَم النومَ إلا ريثَ يبعثه ... هَمٌّ يكاد حشاه يقطع الضِّلَعا
مُسَهَّدُ النوم تعنيه أمورُكمُ ... يروم منها على الأعداء مُطَّلَعاً
ما انفكَّ يحلبُ هذا الدهرَ أشطرَهُ ... يكون متبِعاً طوراً ومتَّبَعاً
فليس يشغَلُه مالٌ يُثَمِّرُهُ ... عنكم ولا ولد يبغى به الرِّفَعا
مستنجداً يتحدى الناسَ كلَّهم ... لو صارعوه جميعاً فى الوغى صَرَعاً

ثم إنه ذو حيلة ، إذ جدَّ الجد رأيته يعتمد على قوة ساعده ، كما يعتمد على نفاذ بصيرته ، وحسن تأتيه للأمور ، يعرف غايته ، ويتحقق من هدفه دون تهور أو تبلد .

إذا المرء لم يحتل وقد جَدَّ جِدُّه ... أضاع وقاسى أمرَه وهو مُدْبِرُ
ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا ... به الخَطب إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حُوَّلٌ ... إذا سُدَّ منه مَنْخِرٌ جاش مَنْخِرُ[1]

إن الحياة فى الصحراء عودته أن يعتمد على نفسه فى الشدائد وأن يسائل نفسه فى كل أمر : ما نصيبى من العمل فيما عَرَض من الأمور ؟ فهو يلقى على نفسه تبعة ثقيلة ، لا يتوا كل أو ينتظر من سواه أن يبدأ العمل ، وإلا قضى عليه . كل فتىً يعتقد أنه المسئول الأول عن شئون نفسه وعشيرته وقبيلته فى الحرب ، وفى الرفد وإكرام الضيف ، وتحمل الديات ، وفض الخصومات . وإذا بلغ الأفراد فى مجتمع ما هذا القدر من الشعور بالتبعة زخرت حياة المجتمع بجلائل

(١) قريع الدهر : المجرب للأمور . الحول : البصير ذو الحيلة . وسد منه منخر : أى إذا ضاقت عليه المسالك وجد له منفذاً آخر بحيلته .

الأعمال ، وتبارى الأفراد فى التجويد والإتقان ليتميز بعضهم عن بعض ؛ لأن مجرد العمل لم يعد ميزة . وهذه لعمرى هى الحياة الصحيحة التى تفضى إليها صحة الأبدان والحواس والعقول . وعلى العكس من ذلك المجتمعات الحضرية التى يتواكل فيها الأفراد ، وينتظرون من سواهم البدء . وتنقلب الأعمال أمانىّ وآمالا ، وأحلاماً وخيالات وأوهاماً .

وإذا ضاقت عليه السبل ، ولم يجد من الموت بُدًّا رأى من العار أن يفر ويولّى ظهره للمحن والشدائد ، بل عليه أن يقتحم غمراتها ، وأن يعمِد إلى حيلته ودهائه أو إلى سيفه يفرج به الكربة ويزيل الغمة ، فلعلّ فى ذاك نجاته ؛ لأنه لا يدرى إذا هرب كم بقى له من العمر :

ولم ندر إن جِضْنَا من الموت جَيْضَةً ... كم العمر باقٍ والمدى متطاول[١]

إذا ما ابتدرنا مأزِقًا فرَجَتْ لنا ... بأيماننا بيض جَلَتْها الصياقل[٢]

إنهم يفضلون الموت على العيشة الذليلة ، والرضا بالضيم كما قال المتلمس :

ألم تر أن المرء رهن منيـة ... صريع لعافى الطير ، أو سوف يُرْمس

فلا تقبلن ضيما مخافةَ ميتة ... وموتَنْ بها حراً وجلدك أملس

وما الناس إلا ما رأوا وتحدثوا ... وما العجز إلا أن يُضاموا فيجلسوا

وفى البيت الأخير يتمثل قانون الحياة العربية ، فالناس فى ميزان الحق : أعمال صالحة يرونها من أنفسهم فيتحدثون عنها ، ويفخرون بها ، فإذا لم يستطيعوا العمل الذى يفخرون به ، ويتحدثون عنه بأن خضعوا ، وفقدوا القدرة على العمل ، وجلسوا للضيم ، فهذا هو العجز .

---

(١) جضنا : حدنا عن الموت .

(٢) البيض : السيوف ، والصياقل : ج صيقل وهو صانع السيف .

إن الحياة جهاد ، وصراع وجلاد . ومن يغشاها موطِّنًا نفسه على الفَلْج والغَلَبة فى معمعتها أو الموت دون هدفه كان النُجح حليفه ؛ والفوز نصيبه ؛ لأن الإنسان إذا لم يحب الموت وهو فى معترك الحياة آثر السلامة ، وتجنب مواطن الظفر ، وسار بلا إرادة تبعاً لتلك المواطن وتلمسها ؛ وخروج المرء عن إرادته يدعوه إلى الخضوع لإرادة غيره من الذين يلتمس إرضاءهم ليحيا . وهذا الضغط على النفس هو الذى يجعل للمرء نقاباً على وجهه فوق رغباته ، وينشىء له خِزانة فى أسفل عقله يُلقى فيها بحطام آماله ، ويقبر بها أمانيه المكبوتة .

ولما كانت نفس العربى سليمة قوية تبعًا لسلامة جوارحه ، وصحة حواسه ، ولم تتعرض لما يفسد فطرتها كانت نفساً خيرة ؛ والخير يأبى إلا الظهور والوضوح ؛ ولذلك نرى الفتى العربى ينفر من الضغط على نفسه ، لأن الخير الذى فيه لا يقبله ، وبذلك يأبى الضيم ؛ لأن الضيم فى أية صورة من صوره نوع من الضغط[1] ، وإباؤه الضيم ونفوره من الذل جعله محباً للموت ، فخير له أن يموت شجاعاً من أن يعيش ذليلا جبانًا ، بلا إرادة . وعند ما يأتى الموت لا يجد له أمنية فى الحياة إلا قد قضاها فلا يأسىَ على شىء فى هذه الدنيا ، ولا يحرص على البقاء ، وبهذا صار قويًا عزيزاً .

فإنى فى الحرب الضَّروس موكَّلٌ ... بإقدام نفس ما أريد بقاءها
متى يأت هذا الموتُ لا تُلْفَ حاجةٌ ... لنفسىَ إلا قد قضيت قضاءها

---

(١) التصوف فى نظر الإسلام لأحمد صبرى شومان ص ١٢٨ .

بل إنه يرى فى إقدامه على الموت حياة ؛ لأنه سيُذكر بالخير إن مات ، أو ينتصر فى المعركة إن عاش :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياةً مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تَدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدِّما(١)

ويقول زيد الخيل :

أنا الفارس الحامى الحقيقةَ والذى له المكرمات واللُّهى والمآثر(٢)
وقومى رءوس الناس ، والرأس قائد إذا الحربُ شبَّتها الأكف المساعِرُ
فلست إذا ما الموت حوذر وِرْدُه وأترع حَوضاه وَجَمَّحَ ناظر(٣)
بوقافةٍ يخشى الحتوفَ تهيباً يُباعدنى عنها من القبِّ ضامرُ(٤)
وَلكننى أغشى الحتوف بصَعدتى مجاهرةً إنَّ الكريمَ يُجاهِرُ(٥)

ويقول دريد بن الصِّمة :

أبى القتلَ إلا آل صِمةَ إنهم أبوا غيره والقَدْر يجرى إلى القَدْر

وتقول الخنساء :

نُهينُ النفوسَ ، وَبذل النفو سِ يوم الكريهة أبقى لها

إن بيع النفوس رخيصة فى ميدان القتال دفاعاً عن العرض، أوذوداً عن الحرمات هو أقصى ما تصل إليه النفس الإنسانية فى شجاعتها ، وهو أكبر دليل على إيمان ثابت بمصير النفس الإنسانية وتكريمها ، وفى ذلك يقول البرذع بن عدى :

(١) الأعقاب : ج عقب وهو مؤخر القدم ، والكلوم : ج كلم وهو الجرح .
(٢) الحقيقة : كل مايدافع عنه . (٣) جمح ناظره : شرد من الخوف .
(٤) القب : إما وسط المعركة أو رئيس القوم ، وضامر : جواد مدرب ضامر .
(٥) الصعدة : قناة الرمح .

وأجعل مالى دون عرضىَ إنه على الوُجد والإعدام عِرض مُمَنَّعُ
وأصبر نفسى فى الكريهة إنه لدى كل جنب مستقَر ومصرع

ويقول أبو قيس بن الأسلت الأوسى :

لا نألم القتل ونجزِى به الـ أعداء كيلَ الصاع بالصاع

ولا بدع إذا وصل العرب فى صحرائهم إلى هذه المنزلة من الشجاعة فإن طبيعة الخصب والرخاء ، واعتدال المناخ ، ويسر الحياة تميت فى النفس الإنسانية حوافز الكفاح والنضال ، فتموت من وراء ذلك كثير من الفضائل ، ويصبح انكباب الناس على ما تحت أقدامهم من لذات القوت ، ومُتع النساء ، وما يصحب التهالك على صيانة هذه اللذات والمتع من شهوة بناء القصور، وغرس الحدائق ، وصناعة التحف ، وزخرفة الأوانى عاملاً من عوامل الحرص على الحياة ، وعدم الرغبة فى المغامرة والمخاطرة ، والجبن عن منازلة الأبطال فى ميادين القتال .

وليس كذلك العرب فى الصحراء ، فلا مجال للاكتناز والغنى المفرط ، وليس ثمة قصور ودور ، وإنما هى أخبية تطوى ومتاع قليل . أضف إلى هذا إيمانهم — من واقع الحياة — بأن الأجل محدود ، لايغنى فيه حذر من قدر ، ولا ينفعهم تقاعسهم فى ميدان القتال شيئاً . كل هذا جعلهم يتخذون من الموت سبيلاً للحياة ، وملأ قلوبهم شجاعة فائقة واستهتاراً بالمخاطر . ولعلّ عنترة قد عبر عن هذا المعنى أجمل تعبير وأتمه بقوله :

بَكرتْ تخوفنى الحتوف كأننى أصبحتُ عن غَرض الحتوف بمعزِل
فأجبتها إن المنية مَنْهَلٌ لا بد أن أُسقى بكأس المنهل

فاقنَىْ حياءكِ لا أبالك واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

كانوا يقتتلون على الماء والمال والغنيمة ، والقتال على الماء والغنيمة قانون الفطرة فى بقاء الأصلح ، وكانت العصبية القبلية شديدة بينهم ؛ حتى لا يذلوا ، ويتخطفهم الناس من حولهم ، وتستباح حرماتهم ، وينتهك حماهم[1] . ولقد عبر عن هذا المعنى عمرو بن براقة بقوله :

ومن يطلب المال الممنع بالقنَا يعش ذا غنى أو تَخْتَرِمْه المخارم
وكنتُ إذا قومٌ غزونى غزوتهم فهل أنا فى ذا يالَهَمْدَانَ ظالمُ
متى تجمع القلب الذكىّ وصارماً وأنفاً حميا تجتنبك المظالم

وكانت كل معركة تستتبع ثأراً ، وكل ثأر يلد معركة ، والثأر كان حق الأبناء للآباء أو حق الآباء للأبناء ، أو المرء لعشيرته وذويه ، أو القبيلة لأفرادها المدافعين عنها حتى لا تهان وتستذل وتستأصل .

ولولا الحروب على الثأر ما استرجع المهزوم مكانه من النصر بعد الهزيمة ، وما شفى الموتور صدره من حفيظة الوتر ، وما أخذ الوافون بالود حقوق الذاهبين من خلانهم وحلفائهم وإخوتهم ، فلا تذهب الجناية بدون قصاص[2] .

ولذلك كثرت حروبهم وتعددت أيامهم ، وفى الحروب مران على أعمال الفتوة ، وإظهار مزايا الشجعان وحسن بلائهم . لقد كانوا يفرحون بالخطوب والشدائد ؛ ففيها امتحان لشجاعتهم ، وبلاء لمقدرتهم على مقارعة الحوادث

---

(١) النابغة الذبيانى للمؤلف ص ٥٩ . (٢) نفس المرجع ص ٦٠ .

وصلاحهم للبقاء والسيادة ، وتنويه بذكرهم بين قومهم وسواهم ، وفيها عزة لهم ولقبيلتهم ، فيهابها الأعداء ، ولا يطمعون فيها . وفى الخطوب مغنم عاجل ، ومجد آجل ، فلا تعجب إذا سمعتَ شاعرهم يقول :

ما تعترينى من خطوب مُلمةٍ إلاّ تشرفنى وتُعظم شأنى

أو ما يقول الآخر :

وإذا حُملت على الكريهة لم أقل بعدَ العزيمة ليتنى لم أفعل

كان الفتى العربى يقتحم الخطوب بقلْب ثَبْت ، وشجاعة بالغة المدى ، واثقاً من شجاعته وبأسه ودُربته وحُنكته فى حُميّا القتال ؛ إنه يبغى من اقتحامه المكاره الحمد والصيت ، والبقاء فى عزة وحرية :

إذا خام أقوامٌ تقحمتُ غَمْرةً يهابُ حُمَيّاها الألدُّ المُداعِس[1]

لعمرُ أبيكَ الخير إنى لخادم لضيفى ، وإنى إن ركبت لفارس

وإنى لأشرى الحمد أبغى رَبَاحه وأتركُ قِرْنى وهو خزيان ناعس

ولا يعنى اقتحامه الخطوب وحبه الموت تهوراً وطيشاً ، ولكنه كان إلى شجاعته هذه حذِراً يقظاً فى ميدان القتال ، لا يستسلم لسلطان الغفلة ، وإذا أنهكه التعب ولعب بجفونه النوم لا يخضع له خضوع من يترك أزِمّة أمره فى يد المقادير والفرص ، ولكنه يأخذ منه بحذر ، ويهبُّ من سِنته حين يَجِدُّ الجِدُّ سوياً قوياً :

وإذا يَهُبُّ من المنام رأيته كرتوب كعب الساق ليس بزُمّلِ[2]

(١) خام : جبن ، والغمرة : الشدة . والحميا : الشدة كذلك ، والألد : الشديد الخصومة . المداعس : من الدعس وهو الطعن .

(٢) الرتوب : القيام والانتصاب ، والزمل : الضعيف .

ما إن يَمَسُّ الأرضَ إلا مَنكِبٌ ... منه ، وحَرْفُ الساقِ طيَّ المِحْمَلِ

وإذا رميت به الفجاجَ رأيتَه ... يَهْوِى مخارِمَها هُوِىَّ الأجْدَلِ[1]

وإذا نظرت إلى أسِرَّة وَجْهِه ... بَرَقَت كبرق العارض المُتَهَلِّلِ

صعبُ الكريهةِ لا يرام جنابهُ ... ماضى العزيمة كالحسام المِقْصَلِ

يحمى الصحابَ إذا تكونُ كريهةٌ ... وإذا هُمُ نزلوا فمأوى العُيَّلِ

إذا هبَّ من نومه رأيت رتوبه وقيامه وانتصابه فى استوائه وشدته مثل كعب الساق ، لا لين فيه ولا ضعف ، كأنه الرمح الردينى صلابة ومتانة . إنه ينام نوماً عجيباً فيمس الأرض بأحد منكبيه و بحرف ساقه ، لايستغرق فى نومه أو يستلق على ظهره ، ثم هو غير سمين بل تراه مطوياً كأنه حِمالة السيف ؛ وإذا قذفت به فى فجاج الأرض وطرقها الواسعة رأيته يهوى وينقض على جبالها كأنه الصقر القوى . وإذا نظرت إلى وجهه رأيته مشرقاً كأنه البرق الساطع ، لم تنل منه الصعاب أو تكفكف من غَرْبه الأسفار ، وهو فى الحرب صعب المراس شديد الوطأة ، لا ينال جنابه أحد لمناعته ، وهو ماضى العزيمة كالسيف القاطع ، وهو عماد أصحابه يوم الوغى ، يذود عنهم لفرط شجاعته وقوة عزيمته ، ومتانة ساعده ، وخبرته بالحروب ، وتحمله التبعات ، وهو مأواهم إذا نزلوا ، يغدق عليهم من سيب يده ، وفضل كرمه .

ولم تكن البيئة الصحراوية وحدها هى التى أكسبتهم هذه الصفات الحميدة ، والشجاعة المثالية ، ولكن كان للأمهات العربيات فضل كبير فى تنشئة أولادهن طُلَّابَ مجد ، وأمثالاً عالية فى الشجاعة ، فالمرأة كانت تدرك

---

(١) مخارم : ج مخرم وهو منقطع أنف الجبل ، والأجدل : الصقر .

قيمة الشجاعة فى هذه البيئة الوعرة ، وما يكتنفها وقبيلتها من أخطار تهددها فى كل حين ، وهى تدرك كذلك قيمة الفتى الشجاع عند القبيلة ، وأنها تنتظره ليذود عنها ، ويدرأ كيد أعدائها ، ويكسب لها المجد والشرف ؛ فلا يُسْبى نساؤها ويمتهن فتياتها ، ويستذل شيوخها ، ويهزم رجالها ، ولذلك كانت ترضعه من لبنها صفات المجد ، وطلب السؤدد ، فينشأ والرجولة ملء إهابه والعزة تفيض من فؤاده ، والأنفة من الصغائر والصَغار ترتسم على صفحات وجهه .

كانت المرأة العربية ترقِّص ولدها بأشعار ناصعة جميلة ، توحى له بالخير ، وتغريه بالمجد . استمع إلى « شيماء » ترقص محمداً الكريم فى بادية بنى سعد :

يا ربنا أبق لنا محمدا   حتى أراه يافعاً وأمردا
ثم أراه سيداً مسَوَّدا   واكبت أعاديه معاً والحُسَّدا
وأعطه عزاً يدوم أبدا

واستمع إلى أم الفضل بنت الحارث ترقص ولدها عبد الله بن العباس :

ثكِلتُ نفسى وثكلتُ بِكرى   إن لم يسد فِهْراً وغير فهر
بالحسب الوافى وبذل الوفر   حتى يوارَى فى ضريح القبر

واستمع إلى هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ترقص ولدها معاوية بقولها :

إن بُنَىَّ معْرِق كريمْ   محببٌ فى أهله حليم
ليس بفحاش ولا لئيم   ولا بطخرور ولا سئوم [1]
صخرُ بنى فهرٍ به زعيم   لا يخلِف الظن ولا يخيم [2]

---

(١) الطخرور : الضعيف غير الجلد .
(٢) يخيم : يجبن . وصخر بنى فهر : هو صخر بن حرب أبو سفيان والد معاوية .

وكانت « منفوسة » بنت زيد الخيل ترقص ولدها من دريد بن الصِّمة فتدعوه إلى التشبه بأبيه أو أخيها فى الفروسية والبطولة . وكانت ترى أن أباها « زيد الخيل » أكبر من أن يدركه ابنها من دريد بن الصمة ، فكانت ترقصه وتقول له :

أشبه أخى أو أشبهن أباكا ... أما أبى فلن تنال ذاكا
تقصُر عن منــاله يداكا

وإذا كانت المرأة موتورة نَشَّأت ولدها تنشئه طالب الثأر ، ولقنته منذ حداثته الأولى كيف ينتقم من أعدائه وأعداء أمه وعشيرته ، وها هى ذى « كبرة المنقرية » تغذى ولدها « شملة » أفاويق الوِتر والقصاص فى قولها :

فإن يك ظنى صادق وهو صادق ... بشملةَ يحبسهم بها محبساً أزْلا[1]
فيا شَملُ شمِّرْ واطلب القوم بالذى ... أصبت ، ولا تقبل قصاصاً ولا عَقلا[2]

لم يكن هؤلاء النسوة يدللن أولادهن ذلك الدلال الذى يضعف شخصيتهم ويسىء إلى مستقبلهم ، بل كن يدفعن بهم إلى طريق الشرف ، والرئاسة ، واحتذاء آثار الأبطال ؛ ولذلك ظهر بين العرب كثير من الفتيان ذوى الشخصية القوية ، والنفوس المعدة لتسنم ذروة المجد ، ولا أدل على ذلك من تلك الشخصيات العظيمة الباهرة التى اشتهرت فى الإسلام حين دانت للعرب دولٌ عظيمة ، وتطلّب الحكم الجديد خبرة ومهارة ، وعقولاً نيِّرة ، فتجلت تلك العبقريات الكامنة ، وظهرت على مسرح التاريخ متألقة على غير مثال

(١) أزلا : شديداً ، أى أنه سيحيط بالأعداء ، ويحصرهم ويثأر منهم .
(٢) أى لا يقبل الدية .

سبق فى قيادة الجيوش ، والقضاء ، والخلافة ، والتنظيم المبتكر . ولا شك أن هذا كله يرجع إلى النشأة الأولى ، وإلى الحياة التى تشربتها نفوسهم فى الحداثة : حياة تجعل منهم شخصيات بارزة ، فكثرة الرعاية والتدليل للأطفال فى حداثتهم تخرج شخصيات ضعيفة[1] ، وهذا ما لم يفعله نساء العرب مع أولادهن .

ومما دعا إلى كثرة الشجعان بين العرب امتداح الرأى العام للشجاع القوى الذى يلبى النداء زميعاً إذا دُعى للنجدة ، أو كانت قبيلته أو عشيرته أو حلفاؤه فى محنة . وللرأى العام سلطان قوى يتأثر به الفرد وتتأثر به الجماعة . والعرب كانوا يمتدحون الشجاع ، ويهزءون بالجبان الهيابة الرعديد ، الذى يخيم عن الذود عن المحارم ، وينكُص على عقبيه فى حومة الوغى .

إذا فكر شخص ما فى نفعه الخاص أو نفع جاره القريب دفعه الرأى العام ، والحرص على مصلحة المجموع إلى أن يبعد هذه المنفعة الخاصة ، وأن يضحى بماله أو بنفسه فى سبيل الجميع ، إن القبيلة تستطيع مجتمعة أن تسحق الخسيس النذل الجبان ، وأن ترفع إلى أوج الشهرة والفخر هذا الذى غامر بحياته فى سبيلها[2] ، فأى فتى يحجم إذا كان لابد من الأقدام إلاَّ من تبلد حسه ، وفسدت نفسه ، والعرب كانوا على النقيض من ذلك تهيئهم البيئة وتعدهم الأمهات ، ويدفعهم الرأى العام لأن يكونوا نماذج خيالية فى الشجاعة والاستهتار بالموت .

لقد اعتنى العرب — كما رأينا — بأجسامهم ، فاكتملت قوتهم ، وعظم

(1) Anthropology. by R. R. Marett, P. 237.
(2) Anthropology. by Sir E. B. Tylor. Kt. V, II. P. 137.

احتمالهم للخطوب والشدائد ، وتعودوا خوض الغمرات والمحن ، واستهانوا بالحرب والموت . وقد تطلبت منهم الحروب الكثيرة التى شبت بينهم أن يعنوا عناية خاصة بأدوات الظفر والقتال . وأول هذه العدد — بعد القوة الجسمية — جوادٌ أصيلٌ ، يعرف كيف يصبر فى المعركة ، والسيوف تقعقع وتلمع من حوله ، والسهام تصب عليه ، ويعرف كيف يقدم ، ويشق حجب الغبار ، ويكرُ بصاحبه ، لايجفل أو يكبو أو يرتد عن المعركة .

شديد مجامع الكتفين طِرْفٌ به أثرُ الأسنة كالعلوب[١]

ولهذا اعتزوا بالخيل ، وعرفوا لها منزلتها ، وعدوها بمثابة أولادهم ، وكان يهنىء بعضهم بعضاً إذا ولدت فرس ، ويحتفلون بمقدم المهر المولود احتفالاً يدل على عظيم مكانتها فى قلوبهم ، فحينما تضع الفرس وليدها تجتمع الأسرة حولها ، وتستقبله بالصياح والتهليل وإمارات الفرح ؛ لأنه هبة من الله وبركة منه ، ثم يأخذه أحد أفراد الأسرة بين ذراعيه ، ويسير به مدة فى موكب صاخب . وبهذه الطريقة يتعود المهر منذ نشأته الأولى ألاّ يخاف شيئاً ، وأن يكون هادئاً وسط الميدان وقعقعة السلاح وجلبة الجيوش ، ثم يعود به إلى أمه ، وهنا يقول رب الأسرة اللهم اجعله مصدر سعادة وبركة وصحة لنا ، فيؤمن أفراد الأسرة على دعائه[٢] .

ولقد فضلها بعضهم على أولاده ، يجوعون ولا تجوع . ولا بدع فهى التى تحمى الأسرة ، وتجلب لها الرزق ، وبها يدافع رب الأسرة عن عياله .

---

(١) البيت لضبعة العبسى . الطرف : الكريم من الخيل ، والعلوب ، ثلم السيف .

(٢) Général Daumas, Les chevaux du Sahara, P. 91,

مفداة مكرمة علينـــا يجاع لهـال العيـال ولا تجاع [1]

ومما يدل على إعزازهم لخيولهم الأصيلة أنهم كانوا يضنون بهـا أن يختلط نسبها بغير الأناث المعرقة فى النسب ، بل يختارون لها إناثاً مشهورة معروفة بنجابتها .

وإن اختيار أنثى غير مُنَسَّبة لجواد أصيل كتزويج رجل أبيض شريف من زنجية دميمة [2] .

ولا عجب فالخيل من أقوى عُدد العربى وسط الصحراء ، وهى التى تجلب لهم الخير .

الخير ما طلعت شمسٌ وما غربت معلقٌ بنواصى الخيـــل معقود

وهى معاقلهم التى يلجئون إليها إذا جد الجد ، كما قال لبيد :

معاقلنـا التى نأوى إليهـــا بناتُ الأعوجية والسيوفُ [3]

ولذلك قال أخو بنى عامر يحذر قومه من إهمالهم لخيولهم ، وعدم عنايتهم بترويضها ، وإعدادها فى كل آونة لخوض غمرات القتال :

بنى عامر : ماذا أرى الخيل أصبحت بطاناً ، وبعض الضُّر للخيل أمثـل

بنى عامر إن الخيول وقايةٌ لأنفسكم والموت وقت مؤجـل

أهينوا لها ما تـكرمون وباشروا صيانتها ، والصون للخيل أمثـل

---

(١) البيت لعبيدة بن ربيعة التميمى وقد طلب منه أحـد الملوك فرسه (سكاب) فمنعهامنه وقال قصيدته المشهورة :

أبيت اللعن إن (سكاب) علق نفيس لا يعـار ولا يبـاع

Delard, L'Art équestre 1859 (٢)

(٣) الأعوجية : نسبة إلى أعوج جواد أصيل مشهور عند العرب .

متى تـكرموها يـكرم المرء نفسَه وكل امرىء من قومه حيث ينزل

ومما يدل على عنايتهم بالخيل ، وإعزازهم لها تمييزها بأسماء ، كأنها أناس عاقلة ولا سيما العتاق منهـا ، وقد كان لزيد الخيل ستة جياد أشاد بها فى شعره وهى : الهطَّال ، والـكُميتُ ، والوَرد ، وكامل ، ودؤول ، ولاحق . ومن الخيول المشهورة أعوج ، والوجيه ، وداحس ، والغبراء ، والنعامة وغيرها ، وقد ألف أكثر من كتاب فى الخيول المنسبة المشهورة ، وكانت كتب الخيل من أول ما ألف فى العربية[١] .

وقد بلغ من معزتهم لها أنهم كانوا يذودون عنها فى حومة الوغى ؛ لأنها تخوض بهم المعركة ، فإذا أصابها شىء ضعف الفارس ، وقلت مناعته ، ولذا وجب عليه حمايتها .

أقيه بنفسى فى الحروب وأتقى بهـاديه إنى للخليل وصول[٢]

فهذا الفارس يرى فى الجواد خليلاً له ، وأى خليل أصدق من هذا الذى يرافقه والموت دان ، والسيوف تقطر منها المنايا ، ويصبر معه على السراء ، وينجيه من البأساء ، ويتبادل وإياه المنفعة على حد قول ضبيعة العبسى :

يقيـنى باللَّبـان ومَنْـكِبيه وأحميه بمُطَّرِدِ الـكعوب[٣]

وأدفيـه إذا هبت شمـالٌ بَليلٌ حَرْجَفٌ عند الغروب[٤]

---

(١) راجع كتاب نخبة عقد الأجياد فى الصافنات الجياد تأليف محمد باشا نجل الأمير عبد القادر الجزائرى ، وراجع كذلك مشاهير الجياد فى الجاهلية والإسلام لأحمد زكى باشا وراجع بلوغ الأرب للألوسى الجزء الثانى ، والعقد الفريد ، والأغانى وغيرها

(٢) هادى الفرس : صدره وعنقه .

(٣) اللبان : الصدر ، ومطرد الـكعوب : الرمح

(٤) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب ، والبليل . المبلولة من الندى .

أو قول آخر :

أتقي دونه المنايا بنفسي وهو يغشي بنا صدور العوالي

فإذا مت كان ذاك تراثي وسِخالاً محمودة من سِخالي[1]

وكان الجواد يخوض المعمعة كما يخوضها الفارس ، ويصبر على حرها ، إذا كان أصيل العِرْق . يُثْخَن بالجراح فلا ينفر ، أو يلين ، كما وصفه عنترة بقوله :

إذ لا أزال على رِحالة سابح نَهْدٍ ، تعاوَرَهُ الكُماة مُكَلَّمِ[2]

ما زلت أرميهم بغُرَّةِ وجهه ولَبانه حتى تسربل بالدَّم

فازورَّ من وقع القنا بلَبانه وشكى إلىَّ بعَبْرة وتحمحم[3]

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

بل كانوا يعودون الخيل أن تطأ القتيل ، وتجهز عليه ، مثل فرس زيد الخيل الذي ظلع في أثناء المعركة فأخذه بنو الصَّيداء فصلح عندهم فناشدهم زيد الخيل أن يردوه وقال لهم :

يا بني الصيداء ردُّوا فرسي إنما يُفْعَل هذا بالذليل

لا تُذيلوه فإني لم أكن يا بني الصيدا لمهري بالمُذيل[4]

عَوِّدوه كالذي عودتهُ دَلَجَ الليل وإيطاء القتيل[5]

---

(١) السخال : ج سخلة وهى ولد الشاة .

(٢) الرحالة : سرج من جلد الشاة . نهد : غليظ ، تعاوره : هذا يطعنه مرة ، وذاك أخرى ، والكماة : ج كمى وهو التام السلاح . ومكلم : به كلوم وجروح كثيرة .

(٣) ازور : مال ، ولبانه : صدره . (٤) أذاله : أهانه ولم يحسن القيام عليه .

(٥) انظر مهذب الأغاني ج ٢ س ٧٩ .

ويقول زيد الخيل واصفاً إحدى غاراته على بنى فزارة ، ومشيراً إلى ما قام به جواده فى المعركة :

فما زلت أرميهم بغرّة وجهه وبالسيف حتى كلّ تحتى وبلّدا
إذا شكّ أطرافُ العوالى لبانه أقدّمهُ حتى يرى الموت أسودا

كانت الخيل جُنّة الفرسان فى حومة الوغى ، يعدون بها ويكرون ، وتحميهم من طعنات الرماح ، وحد الظُّبى . وإذا اشتدت المعركة وحمى وطيسها ، وضاق المعترك نزلوا عن الخيول ، وهم لاينزلون عنها إلاّ إذا كانوا شجعاناً واثقين من قوتهم وفتوتهم ، وخبرتهم باستعمال السيوف ، فلا ينزل إلاّ أولو البأس والنجدة والشدة . استمع إلى ربيعة بن مقروم يصف فرسه فى المعركة ، وكيف نزل عنه حين دُعى للنزول :

وإذا جرى منه الحميم رأيته يهوى بفارسه هوِىّ الأجدل[1]
وإذا تعلل بالسياط جيادُها أعطاك نائبَه ولم يتعلل[2]
ودَعَوا نزالِ فكنتُ أوّل نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل

فهم لشجاعتهم لا يعتصمون بظهور الخيول ، بل حالهم فى القتال على الخيل كحالهم بدونها . ومن أنس فى نفسه الشجاعة والمقدرة على القتال وهو راجل نزل ، ومن رأى أنه فى مأمن على ظهر جواده ، وأنه إن نزل لن يكون مفلّجاً اعتصم به ، ولذلك كان من دواعى فخرهم أن ينزلوا عن الخيل حين تشتد المعركة ، ويلتحم الفريقان ، ويضيق المجال أمام الجياد حتى لا تستطيع

(١) الحميم : العرق ، وهو أيضاً الماء الحار . الأجدل : الصقر .
(٢) إذا كانت بعض الخيول تحتاج لأن تضرب بالسياط فجواده لأصالته يعطيه خير ما عنده من العدو دون حاجة إلى تعلة أو ضرب أو حث .

العدْو ، وفى هذا يفتخر المهلهل بقوله :

لم يُطيقوا أن ينزلوا فنزلنـا ‏ ‏ وأخو الحرب من أطاق النزولا

ومدح النابغة بنى غسان بقوله :

إذا استُنزلوا عنهن للطعن أرقلوا ‏ ‏ إلى الموت إرقال الجمال المصاعب[1]

هكذا كانت الخيل عند العرب أصيلةً مُعْرِقة ، متخـيَّرةً ، قوية ، متينة التركيب ، تلائم الفتى القوى الصُلب ، الذى أعـد نفسه مُحميًا الحروب وأوارها :

والحربُ لا يبـــقى لجا ‏ ‏ محــها التَّخيلُ والمِراحُ

إلاَّ الفـــتى الصَّبَّارُ فى النـ ‏ ‏ جدات والفرسُ الوَقاح[2]

والـكر بعـــد الفر إذ ‏ ‏ كرُه التقـدم والنّطـاح

ولذلك كانوا ينشئون الخيول تنشئة خاصة :

تميمٍ فَلَوْناه فأُكْمِلَ خَلْقه ‏ ‏ فتَمَّ وعَزَّته يداه وكاهِلُه[3]

* * *

ويحتاج الفتى لاستكمال عدة الغلبة والظفر بعد قوته الجسمية ، ومرانه على احتمال المشاق ، وخوض المـكاره ، و بعد جواده الفاره المعرق السبّاق . . . إلى شِكَّة تامة يعدها للنائبات : سيف عَضْبٌ ، ورمح لَدْنٌ ، ودرعٌ سابغة ، وبيضة تلمع ، كما أعدَّ عبد القيس بن خُفاف البُرْجُمى عدته حين قال :

وأصبحتُ أعددت للنـائبا ‏ ‏ ت عرضاً بريئاً وعضباً صقيلا[4]

---

(١) أرقلوا : أسرعوا . والمصاعب : جـ مصعب وهو الفحل من الإبل .

(٢) الوقاح : الشديد الحافر . ‏ ‏ (٣) فلوناه : فطمناه .

(٤) العضب : السيف القاطع ، وصقيلا : مصقولا لامعا مجلوا .

ووقعَ لسانٍ كحد السِّنانِ ورمحاً طويل القناة عَسُولا
وسابغة من جياد الدُّرو ع تسمع للسيف فيها صليلا
كمتن الغدير زهته الدَّبور يَجُرُّ المدجَّجُ منها الفُضولا

وقد يزيد فى عدته القوس والسهام ليرمى بها ، وليكون كامل الشكة محتاطاً لكل مايطرأ عليه مثل حُسَيْل بن سُجَيح الضَّبِّى حين أعد نفسه :

بمُطَّرِدٍ لَدْنٍ صِحاحٍ كعوبه وذى رونق عَضْب يقُد القَوانسا
وبيضاء من نسج ابن داود نَثْرةٍ تخيرتُها يوم اللقاء الملابسا
وجِرْمِيَّةٍ مَنْسُوبَةٍ وسَلاَجِمٍ خِفافٍ ترى عن حدها السُّمَّ قالسا

فعدته رمح مستقيم لدن يهتز فى يده ، صحاح كعوبه ، وسيف له رونق وماء ، قاطع بتار يقد أعالى الخوذات ، ودرعٌ بيضاء عريقة فى القدم من نسج سليمان بن داود محكمة النسج حتى ترد السهام والظُّبى ، وقد تخيرها يوم اللقاء مَلْبَسَه ؛ ثم قوس متخذة من شجر الجِرْم فهى متينة نادرة ، وهى كذلك منسوبة معروفة الأصل ، وسهام طوال ، خفاف ، تقذف السُّمَّ ، كما وصفها سويد اليشكرى بقوله :

وارتمينا والأعادى شُهَّد بنبالٍ ذات سم قد نقع

هذه كانت شِكَّة الفارس وعُدَّته كما قال زيد الخيل :

يومَ لامال للمحارب فى الحر ب سوى نصر أسمرَ عسَّالٍ(١)
ولجامٍ فى رأس أجردَ كالجذ ع طُوالٍ وأبيض قصَّالٍ(٢)

(١) الأسمر : الرمح . العسال : الذى يهتز يصفه بأنه لدن حتى لا ينقصف .
(٢) أجرد : قصير الشعر وهى من صفات الجودة فى الخيل . قصال : قاطع من صفات السيف .

ودِلاصٍ كالنِّهْيِ ذات فضول　　ذاك فى حلبة الحوادث مالى(١)

أو كما قال مالك بن كعب الخزرجى الأزدى يصف عُدَّته :

عَلَيَّ فضفاضَةٌ كالنِّهيِ سابغةٌ　　وصارم مثل لون الملح مصقولُ

ولدنةٌ فى يدٍ سمراء تقلبهـا　　بعاملٍ كشهاب النار موصول

أو عدة عمرو بن معد يكرب التى يقول فيها :

أعـددت للحـدثان سـا　　بغَـةً وعَـدَّاء عَلَنْدى(٢)

نَهْـداً وذا شُطَبٍ يَقُـ　　دُّ البَيْضَ والأبدان قدّا(٣)

ولعلك تتخيل فتيان العرب وهم فى سلاحهم هذا :

قومٌ إذا لبسوا الحديد كأنهم　　فى البَيْضِ والحلق الدِّلاصِ نجوم

وقد يطول لبسهم لهذه العدة ، فتصدأ على أجسادهم ، وقد تـكون لها رائحة كريهة كما وصفهم النابغة بقوله :

سَهِكِينَ من صَدِأ الحديد كأنهم　　تحتَ السَّنَوَّرِ جِنَّةُ البَقَّار(٤)

والسُّهـكة هى الرائحة الـكريهة التى تنشأ من اختـلاط العرق بالحديد وصدأه ، والسَّنوَّر السلاح التام . فـكأنهم برائحتهم هذه ، وسلاحهم الـكامل جنة وادى البقار .

وكان العرب عامة يعنون بالسِّلاح ، ويحبون اقتناءه ، ويفتنون فى اختياره . ولا عجب فإنهم فى بيئة تقـدر السلاح ومنفعته ، ففضلاً عن أنه

---

(١) الدلاص : الدرع الملساء ، والنهى : الجدول . ذات فضول : سابغة .
(٢) علندى : غليظ شديد يصف جواده .
(٣) نهدا : ضخماً طويلا . البيض : الخوذة ، والأبدان : الدروع .
(٤) البقار : وادى اشتهر بأن الجن تسكنه .

عدتهم فى الحروب ، فإنه جِدٌّ ضرورى لهم فى الصيد ، وللصيد فى جزيرة العرب منزلته فكثيراً ما يحتاجون إليه لغذائهم ، بل إن منهم من يعتمد عليه فى معيشته ؛ يصطادون الظباء وحمر الوحش ، والوعول البرية ، و بقر الوحش وغيرها .

ومما يدل علىَ عظيم مكانة السلاح عندهم أنهم يقرنونها بأحب شىء لديهم وهو النساء ، ترى ذلك فى تشبيهاتهم ، فالقوس إذا رنت وخرج عنها السهم ذكّرتهم بالشكلى المعوِلة كما يقول الشنفرى :

إذا زَلَّ عنها السّهم رنَّت كأنها مرزَّأةٌ ثكلى تَرِنُّ وتُعْوِلُ

ونظرات المحبوبة تُصمى كما تصمى السهام ، والرمح فى لدونته وسمرته يشبه المحبوبة فى عودها . حتى وصفوا المحبوبة بأن قدّها سَمهرىٌّ ، والسمهرى هو الرمح نسبة إلى سَمهر صانع الرّماح .

أما السيوف فإذا لمعت فإنها تذكرهم بابتسامة الحبيبة كما قال عنترة :

ولقد ذكرتكِ والرِّماح نواهل منى و بِيض الهند تقطُر من دمى

فودِدت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ولكن جمهرة فتيان العرب يؤثرون السيوف على سواها ، ويعدونها أفضل أسلحتهم :

ولو سُئِلتْ عنا جَنوب لخبرت عَشِيَّة سالت عَقْرباء بها الدم(١)

عشيةَ لا تغنى الرماح مكانها ولا النبلُ إلاّ المشرفى المصمم(٢)

وفى ذاك يقول عنترة :

(١) عقرباء : منزل من أرض اليمامة قريب من قرقرى .

(٢) المشرفى : الأصح أنه نسبة إلى مشارف الشام وهى قرى قريبة من الريف الشامى واحدها مشرف مثل خيبر ودومة الجندل .

أكرُّ على الفوارس يومَ حرب ولا أخشى المهنَّدة الرِّقاقا
وتطربنى سيوف الهند حتى أهيم إلى مضاربها اشتياقا

ولقد سأل عمرُ بن الخطاب عمرو بنَ معد يكرب عن السلاح ، فقال : يسأل أمير المؤمنين عما بدا له . قال : ما تقول فى الترس ؟ قال : هو المِجَن ، وعليه تدور الدوائر . قال : فما تقول فى الرمح ؟ قال : أخوك ، وربما خانك فانقصف ، قال : فالنَّبـل ؟ قال : منايا تخطىء وتصيب . قال : فما تقول فى الدرع ؟ قال : مثقلة للراجل ، مَشغلة للفارس ، وإنها لحصن حصين ، قال : فما تقول فى السيف ؟ قال : هناك لا أمّ لك . فضربه عمر بالدِّرة ، وقال : بل لا أم لك(١) .

ومما يدل على محبتهم للسيف كثرة الأسماء الدالة عليه ، حتى قاربت المائة ، وكانت هذه الأسماء صفات ، والصفات تكثر للشىء حين تزيد العناية به ، والتغنى بمحامده وآثاره ، ولا عجب فكثيراً ما احتكموا للسيف فى خصوماتهم كما قال الشمَيْذَر الحارثى :

ولـكنَّ حكم السيف فيكم مسلَّطٌ فنرضى إذا ما أصبح السيف راضيا

ولقد بالغوا فى امتداح سيوفهم ، فوصفوها بالحدة ، وقوة المضاء والقطع ، قال النابغة :

فهم يتساقَون المنيَّـةَ بينهم بأيديهم بيضٌ رِقَاقُ المضارب(٢)
يطيرُ فُضاضاً بينها كلُّ قَوْنَسٍ ويتبعُها منهم فَراشُ الحواجِبِ(٣)

---

(١) العقد الفريد ص ٥٠ . (٢) البيض : السيوف .
(٣) فضاضاً : ما انفض وتفرق ، والقونس : أعلى البيضة التى توضع على الرأس من الفولاذ ونحوه . وفراش الحواجب : العظام الرقيقة التى تكون فى أسفل الجمجمة فوق الحنك والحلق . والضمير فى يتبعها يعود على (كل قونس) .

فالسيوف لحدتها ، وقوة ضرباتهم بها تُطير كل بيضة من الفولاذ قطعا ، و بعد أن تطيح بالخوذة تطير العظام الرقيقة للجمجمة ، وليس ذلك فحسب ، بل إنها :

تَقُدُّ السَّلوقىَّ المضاعفَ نسجُهُ   وتوقد فى الصُّفَّاح نارَ الُحباحِبِ [١]

فهـذه السيوف لمضائها ، وشدة الضرب بها تقطع الدروع المضـاعفة النسج ، تنفذ من بدن العدو ، حتى تصل إلى الأرض فتقدح الشرر من الحجارة العِراض .

على أن مثل هذه القوة التى مكنت الفارس العربى من أن يقد بحد سيفه درع خصمه وينفذ إلى بدنه حتى تصل ضربته إلى الأرض ، وتقدح بها الشرر قد ادعى مثلها لشارلمان « فقد قَدَّ الفارس وفرسه بضربة من حد سيفه ، مع أنه كان لابساً درعاً يغطى كل جسمه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه » [٢] .

وكان الفتى العربى إذا رأى أن خصمه قد حاد عن طريقه ، وتجنب ظُبةَ سيفه ، هجم عليه حتى يصل إليه ، وهذا منتهى الشجاعة والبأس . استمع إلى شاعرهم يقول :

إذا الـكُماة تنحَّوْا أن يُصيبهمُ   حَدُّ الظُّباةِ وصلناها بأيدينـا
ونركبُ الـكُرْهَ أحياناً فيفرجه   عنـا الحفاظ وأسيافٌ تواتينا

---

(١) السلوق : الدرع نسبة إلى سلوق من ساحل أنطاكية بالشام ، والدرع مؤنثة وقد تذكر كما هنا . والصفاح : الحجارة العراض . والحباحب : ذباب له شعاع بالليل .

(٢) Chateaubriand, Etudes Historiques, étude Sixiéme : Moeurs des barbares.

وإلى الأخنس بن شهاب بن شَريق التغلَبي :

وإنْ قَصُرتْ أسيافُنا كان وصلها ... خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وفى الحق إن الفتى العربى كان فى شجاعته ، واستهتاره بالموت منقطع النظير ، لو رأيته وقد حمى الوطيس وهو يجول ويصول ، ويقتحم غمرات الموت ، ويتحدى أسباب المنية فى جرأة وقوة لحسبته من الجن .

فإنك لو رأيت الخيل تعدو ... عوابسَ يتخذن النقْع ذَيْلا

رأيتَ على متون الخيل جِناً ... تفيد مغانما وتفيد نيلاً

أو كما قال النابغة :

بكلِّ مُجرَّبٍ كالليث يسمو ... على أوصال ذَيَّالٍ رِفَنِّ[1]

وجُرْدٍ كالقداحِ مُسَوَّماتٍ ... عليها معشر أشباه جنِّ[2]

أو لحسبته أسداً يدافع عن أشباله وعرينه ، أو بحراً متدفقاً ، أو سيلاً جارفاً على حد قول عوف بن عطية بن الخَرِع :

ألم تر أننا مِرْدَى حروب ... نَسيلُ كأننا دُفّاعُ بَحْرِ[3]

ونلبس للعدو جلود أُسْد ... إذا نلقاهمُ وجلود نمْر

أو قول خِداش بن زهير بن ربيعة :

فعانقْنا الكُماة وعانقونا ... عِراكَ النمْرُ واجهت الأسودا

كان الفتى إذا قويت مُنّته ، وكملت عُدّته ، ولبّى نداء الواجب فى ميدان

---

(١) الأوصال : ج وصل وهى المفاصل. وذيال : كثير شعر الذيل ، ورفن : طويل الذيل .

(٢) الجرد : الخيل القصيرة الشعر فى جسدها وهو من علامة العتق . شبه الخيل الضامرة بالسهام ، ومسومات : معلمات ، لها دراية بالحرب .

(٣) مردى حروب : نقذف بأنفسنا فى أتونها المشتعل .

الوغى ، لا يحسب للحياة حساباً ، ويعد من الشرف البالغ ، أن يقتل دون عرضه ، وحسبه ، وحِماه . ولذلك فهو يقاتل غير مفكر فى الموت ، لأنه شىء طبيعى فى الحرب .

فما فى تساقى الموت فى الحرب سُبَّةٌ على شاربيه فاسقنى منه واشربا

وهذه ظاهرة فى الشعوب القوية التى تثبت لبلاء الدّهر ، وتصهرها الحوادث فى بوتقتها ، وتعدها الأيام للسيادة والشرف . كان العرب يقاتلون تدفعهم حمية شديدة وقلوب جريئة ، وتؤيدهم مهارة فائقة ، ودُربة تامة ، وسيوف إذا هزوها لم تَــكْبُ ، وإذا ضربوا بها لم تَنْبُ ، وتعدو بهم جيادٌ مُعلَّمة ، وخيولٌ مطهمةٌ . ولا تراهم يبكون على من قتل فيهم إبان المعركة قتلة الشرف ، مع عظم الفجيعة : لأنه أدى ما تفرضه عليه طبيعة الحياة .

ولا تراهم وإن جلّت مصيبتُهم مع البكاة على من مات يبكونا

وكان بعض الفتيان لفرط اعتدادهم بأنفسهم ، ووثوقهم من شجاعتهم ، مع كثرة عُداتهم ، وطلاب الوِتر منهم ، يميزون أنفسهم بشارات وعلامات تدل عليهم فى حومة القتال ، يتحدون عداتهم ، ومن يريدون أخذ الثأر منهم ، فكأنهم يقولون لهم : ها نحن أولاء إذا استطعتم معنا صبراً ، أو نلتم منا وتراً ، أو كانت لديكم الشجاعة لقتلنا . استمع إلى طريف بن تميم يقول :

أوَ كلما وردت عكاظَ قبيلةٌ بعثوا إلىّ عريفهم يتوسّمُ
فتوسمونى إننى أنا ذاكمُ شاكٍ سلاحى فى الحوادث مُعْلِمُ
تحتى الأغرُّ وفوق جلدى نَثْرةٌ زَغْفٌ ترد السيف وهو مُثَلَّمُ (١)

(١) النثرة : الدرع المتينة . زغف : لينة واسعة محكمة .

أو إلى الحُصَين بن الحمام المُرّى يقول :

فلست بمبتاعِ الحياةِ بسبَّةٍ ولا مُرْتَقٍ من خشية الموت سُلَّما
ولكن خذونى أىَّ يومٍ قدرتم علىَّ فجزوا الرأس أن أتكلما
بآية أنى قد فجعتُ بفارس إذا عَرَّدَ الأقوام أقبل مُعْلِما[1]

وكانت بعض القبائل تميز نفسها فى الحرب بزى خاص ، أو إشارة معينة لتعرف من بين حلفائها ؛ اعتداداً منها بقوتها و بلائها ، وثقتها بالنصر ، يدل على هذا قول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بِيضٌ حسانٌ نحاذر أن تُقَسَّم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقَوْا كتائب مُعْلِمينا
ليستلبُنَّ أفراساً وبِيضاً وأسرى فى الحديدِ مُقرَّنينا

ويدل على ذلك ما روى عن يوم النُّتاءة[2] الذى هزمت فيه قبائلُ غَطَفان بنى عامر . ومن حديث هذا اليوم أن بنى عامر خرجوا يريدون غطفان ؛ أخذاً بترة قديمة ، فأصابوا من نَعَمِ عبس وذبيان ما أرضاهم ، ثم عادوا إلى ديارهم فضلوا سبيلهم ، فى وادى النّتاءة ، وأرسلوا رَجُلاً إلى قنة الجبل علّه يكشف لهم عن مَسْلك يهتدون به إلى ديارهم، فرأى فوارس يحثون خيولهم صوب بنى عامر ، فأخبر قومه بذلك ، فقالوا صفهم ، فقال : أرى قوماً كأنهم الصبيان على متون الخيل ، أسنة رماحهم عند آذان خيلهم ، قالوا : تلك فزارة . قال : وأرى قوماً بيضا جِعَادا[3] ، كأن عليهم ثياباً حمراً ، قالوا : تلك أشجع . قال وأرى

---

(١) عرد الأقوام : خاموا وجبنوا عن المعركة وهربوا .

(٢) انظر خبر هذا اليوم فى العقد الفريد ج ٣ ، وفى ابن الأثير ج ١ ص ٣٩٥ وفى الأغانى ج ١٠ ص ٣١٣ .

(٣) الجعد : الخفيف من الرجال ، وقيل الشديد .

قوماً نسوراً ، وقد علوْا خيولهم آخذين بعوامل[١] رماحهم يجرونها . قالوا : تلك عَبْس[٢] أتاكم الموت الزؤام[٣] .

وعلى الرغم من تلك الشجاعة الفائقة البالغة حد التهور ، ومن الاستبسال فى القتال والحرص على الموت ، والقوة العارمة التى كانت تحرك سيوفهم ، وتدفع رماحهم ، والمهارة والدربة والخبرة فى تفويق السهام والرمى عن القوس ، فإن هؤلاء الفتيان الذين نبتوا على أديم الصحراء ، وتضوعت فضائلهم كما تضوع الخزامى كانوا على شمائل فى الحرب تنم عن إنسانية متأصلة ، وعن قدرة عقلية غلابة ، تمكنهم من كفكفة نزواتهم ، والحد من شِرّتهم ، وعدم الاسترسال فى الانتقام أو الأخذ بالثأر تلبية لنداء العقل ، أو العاطفة النبيلة ، أو عملاً بالتقاليد الحربية المتوارثة ، وهى تقاليد شريفة ، تدل على أريحية ورجاحة بصيرة .

وكان العرب لا يقتلون عيون الأعداء وجواسيسهم ، بل يطلقون سراحهم إذا أسروهم لينبئوا عدوهم بمبلغ قوتهم واستعدادهم ، وهم يصدرون فى هذا عما كَمَن فى قلوبهم من جرأة وتحد ، ولأن طبعهم يأبى الغدر كما يأبى إلا المجاهرة بالعداوة :

ودسُّوا فارساً منهم عشاءً   فلم نغدر بفارسهم لدينا

بل منهم من كان يستنكف أن يطعن خَصْمه المدبر عنه ، والمنهزم دونه ؛ شجاعة منه وكرم نفس .

---

(١) عامل الرمح وعاملته : صدره دون السنان .

(٢) فزارة وأشجع وعبس : قبائل من غطفان .   (٣) الزؤام : الكريهة .

محرَّمةٌ أكفالُ خيلي على القنا ودامية لبّاتها ونحورها
حرامٌ على أرماحنا طعنُ مدبر وتندقُ منها فى الصدور صدورها

بل منهم من بكى على خصمه بعد مصرعه ، كما بكى قيسُ بنُ زهير على حذيفة بنِ بدر فى حروب داحس والغبراء فى قوله :

تعلمْ أن خير الناس ميتٌ على جَفر الهباءة لا يريمُ
ولولا ظلمُـه لظللتُ أبكى عليـه الدهرَ ما طلع النجوم

وفى قوله :

شفيتُ النفس من حَمل بنِ بدر وسَيْفى من حُذيفةَ قد شفانى
شفيت بقتلهم لغليل صدرى ولـكنى قطعت بهم بنـانى

بل كانوا ينصفون أعداءهم ، ويعترفون بقوتهم وجلدهم وصبرهم ، وإثخانهم فيهم ، ويعاملونهم بعد المعركة معاملة الند الكريم للند الكريم ، ويعلمون أن الحرب سجال ، يوم ينتصرون فيه ، وآخر يكبو فيه جَدُّهم . استمع لقول عباس ابن مرداس السلمى ينصف أعداءه :

فلم أر مثل الحى حياً مُصبَّحاً ولا مثلنا يومَ التقينا فوارسا(١)
إذا ما شددنا شَدة نصبوا لنـا صدور المذاكى والرِّماح المَداعِسا(٢)
إذا الخيل جالت عن صريع نكرُّها عليهم فما يرجعن إلا عوابسا(٣)

---

(١) مصبحاً : يغار عليهم وقت الصبح ، وهو وقت لا يكونون فيه مستعدين للقتال .
(٢) المذاكى : ج مذك وهى الخيل التامة السن ، والكاملة القوة : والمداعس : من الدعس وهو الطعن أى ثبتوا فى وجوهنا ونصبوا صدور الخيل والرماح للدعس .
(٣) لا نكتفى بأن نصرع منهم واحداً ، بل نكر عليهم بخيولنا ، فترجع تلك الخيول عابسة الوجوه لما لاقت من العنت والشدة من خصومنا .

أو قول عبد الشارق الجهنى :

فلما لم ندعْ قوساً وسهماً مشينا نحوهم ومشوْا إلينا
شددنا شَدةً فقتلتُ منهم ثلاثَةَ فتيـة وقتلت قَيْناً
وشدوا شـدة أخرى فجروا بأرجل مثلهم ، ورموا جُوَيْنا
وكان أخى جوينٌ ذا حفـاظ وكان القتـل للفتيان زينا
فآبوا بالرِّمـاح مكسَّرات وأُبنـا بالسيوف قد انحنينـا

وكان الفتى إذا وعد عدوه المنهزم وعداً وفَى به له ، كأن يكف عنه حتى يشرب ، أو حتى يتنـاول رمحه أو سيفه . فلا تغلبه شهوة النصر لضرب الضعيف ، أو الأعزل ، بل يعد ذلك نذالة وخِسَّةً ، وزراية بشجاعته . وهاك مثلاً نـكتفى به يدل على وفائهم ، وتحـكمهم فى عواطفهم :

حنق عمرو بن الإطنابة ملك الحجاز على الحارث بن ظالم المُرِّى لقتله خالداً ابن جعفر الـكلابى وهو نائم انتقاماً لمقتل زهير بن جذيمة سـيد عبس ، وقال عمرو بن الإطنابة يتوعد الحارث بن ظالم :

أبلغ الحارث بن ظالِمٍ الرِّعـ ـديد والنـاذِرَ النذور عَليَّا
إنما يَقتُلُ النِّيامَ ولا يَقـ ـتل يقظـانَ ذا سلاح كَمِيّاً
ومعى شِكَّتى : مَعابِلَ كالجمـ ـر وأعددت صارما مشرفيا[1]
لو هبطتَ البلاد أنسيتُكَ القتـ ـلَ كما يُنَسِّى النسىءُ القَسِيَّا

فلما بلغ الحارث شعره ازداد حنقاً وغيظاً ، فسار حتى أتى ديار بنى الخزرج ، ثم دنا من قبة عمرو بن الإطنابة ، ونادى أيها الملك أغثنى فإنى جار مكثور[2] ،

(١) المعابل : ج معبلة وهى فصل عريض طويل يجعل فى السهم .
(٢) مكثور : مغلوب .

وخذ سلاحك ، فأجابه وخرج معه ، حتى إذا برز له عطف عليه الحارث ، وقال أنا أبو ليلى — معرفاً بنفسه — فاعتركا ملياً من الليل ، وخشى عمرو أن يقتله الحارث ، فقال له : يا حارث ، إنى شيخ كبير ، و إنى تعترينى سِنة ، فهل لك فى تأخير هذا الأمر إلى الغد ، فقال : هيهات ! ومن لى به فى غد ؟ فتجاولا ساعة ، ثم ألقى عمرو الرمح من يده ، وقال : يا حارث ! ألم أخبرك أن النعاس يغلبنى ، قد سقط رمحى فا كفف . فكفّ ، ثم قال عمرو : أنظرنى إلى غد ، قال : لا أفعل ، قال : فدعنى آخذ رمحى . قال : خذه . قال : أخشى أن تعجلنى عنه ، أو تفتك بى إذا أردت أخذه . قال : وذمةِ ظالمٍ لا أعجلتك ، ولا قاتلتك ، ولا فتكت بك حتى تأخذه . قال : وذمة الإطنابة لا آخذه ، ولا أقاتلك . فانصرف الحارث إلى قومه . وقال يرد على شعره :

بلغتنا مقالةُ المرء عمرو ... فأنِفنا وكان ذاك بَدِيّا
قد هممنا بقتله إذ برزنا ... ولقيناه ذا سلاح كميا
غير ما نائم تعلل بالحلـ ... ـم مُعِداً بكفه مشرفيا
فمننا عليه بعد عُلو ... بوفاء ، وكنتُ قِدْماً وفيا[1]

هذه هى الشجاعة العربية التى تحلى بها فتيانهم ، وكانت من أبرز صفاتهم : شجاعة فيها قوة ، وتحد للمنية ، وفيها دُرْبَة وتفوق فى استعمال الأسلحة المختلفة ، وفيها إنسانية وكرم و إنصاف للأعداء ، و وفاء للوعد .

وقد ظلت هذه الفضيلة السامية ميزة للجنس العربى فى شتى الأقطار التى نزح إليها بعد الفتح الإسلامى . ولم يفقدها إلا بعد أن تضافرت عوامل عدة على إضعافه و إفساد نفسيته ، و بُعد عهده بالصحراء البيئة الطبيعية له .

---

(١) مهذب الأغانى ج ١ ص ١٣٠ .

(٢) الكرم

ومن أبرز الصفات التى يتحلى بها الفتى الكرم . بل إن كثيراً ممن عرّفوا الفتى عند العرب قالوا : إنه الشاب السخى الكريم ، والفتوة هى الشباب والكرم .

والكرم من السجايا التى نبتت فى الصحراء ، ونمت نمواً طبيعياً ، واحتلت منزلة سامية فى نفوس العرب . وهو على ثلاثة أنواع : كرم اليد ، وكرم القلب ، وكرم العقل .

١ — كرم اليد

وهو من الصفات التى ترشح صاحبها للسيادة والرئاسة ، وذلك لأن الحياة فى الصحراء — كما ذكرنا آنفاً — فيها قسوة عظيمة على قاطنيها ؛ فكثيراً ما تشح السماء ، وتجدب الأرض ، ويلوح شبح الفاقة والجوع فى بعض أنحاء الجزيرة العربية ، فإن لم يتقدم مَن عنده فضل من غنى أو زاد لإنقاذ حياة سكان تلك البقاع المجدبة هلكوا جوعاً ومسغبة .

فعظّم العرب الكرم ، لأنهم جميعاً معرضون لمثل تلك المحن التى تصيبهم بين آونة وأخرى ، والتى لا يجدون لها حيلة إلا بتقدم ذوى اليسار والجود لإغاثتهم . فكأنهم بتعظيمهم الكرم ، وتقديمهم الأسخياء للرئاسة إنما يدافعون عن كيانهم وحياتهم .

ثم إن الكرم دليل الحرية الخلقية ، والحرية الخلقية هى إرادة المرء

الإعطاء أكثر من الأخذ وهى العناية والتفكير فى حياة غيرك من الناس [1]. ولا شك أن الذى يعطى أكثر مما يأخذ ويعنى بشئون سواه ، ويفكر فى أمرهم وحياتهم ليرأب ما بها من صدع ، ويسُد ما بها من ثلمات ، ويخفف ما هى عليه من بؤس وما تعانيه من ألم ، هو المرشح الذى تقدمت به صفاته للرئاسة ، فليس الرئيس سيداً يأمر وينهى ويتحكم ويتملك ، ولكن الرئيس الحق هو الذى يحسن القيام على شئون مرءوسيه ولذلك شاع بين العرب هذا المثل المشهور « سيد القوم خادمهم » .

وإن سيادة الأقوام فاعلم لها صُعَداء مطلبُها طويل
أترجو أن تسود ولن تَعَنَّى وكيف يسود ذو الدَّعةِ البخيل

فالرئيس إذاً يجب أن يكون فتىً حُراً كريماً . وقد مر بنا تعريف صاحب الأساس للفتوة بأنها : الحرية والسخاء ، ولعله عنى تلك الحرية الخلقية التى وضحناها ؛ فالبيئة الصحراوية المجدبة هى التى رشحت الكرماء للسيادة والرئاسة . ثم إن الصحراء العربية مترامية الأطراف ، والسفر فيها شاق عسير ، ودروبها مضلة ، ومهما تزود المسافر فى طريقه ، فهو عرضة لأن ينفَد زاده من طعام وماء ، فإذا صُدت فى وجهه أحياء العرب التى يأوى إليها هلك فى هذه الفيافى ، وانقطع به السبيل .

وإذا لم يعمل الكرماء على نجدة هؤلاء الذين امتحنوا بنفاد زادهم ، أو ضلوا طريقهم وتقطعت بهم السبل ، تعطلت الحياة فى الصحراء ، وكسدت التجارة ، وزاد الناس ضيقاً فى معيشتهم ؛ لأن كثيراً من ملبسهم ومأكلهم

---

(1) Anthropology. by R. R. marett, P. 241.

وزينتهم ، وآلات قتالهم يجلبها التجار من خارج الجزيرة ، كما أن فضل ما ينتجونه من وبر وتمر وغيرهما يباع فى البلدان المجاورة . فمن مصلحتهم العامة تيسير السبل على هؤلاء الذين يعبرون الصحراء فرادى وجماعات ، حتى لايهلكوا جوعاً . ولقد عبرت غنية بنت عفيف أم حاتم الطائى فى ردها على من لامها على كرمها عن هذا المعنى ، وهو أنها ذاقت الجوع مرة فآلت على نفسها ألا ترد بعد اليوم جائعاً بقولها :

لعمرك قِدْمًا عضنى الجوع عضة   فآليت ألاّ أمنع الدهرَ جائعا

فقولا لهذا اللائمى اليوم أعفنى   وإن أنت لم تفعل فعَضّ الأصابعا

هذا وقد كثرت الحروب بين العرب فى سبيل العيش ، فاختلفوا على المرعى والماء ، وزادت حرارة الصحراء فى حدة انفعالهم ، واستجابتهم لدواعى القتال ؛ ولذلك تراهم مغيرين أو مُغاراً عليهم . وفى الغارات تتعرض نعمهم للنهب ، فيفقدون بذلك المورد الذى يقوم بأوَدهم ، ويُنكبون فى مقوّمات حياتهم . فإن لم يسرع الكرماء لإصلاح حالهم تعرضوا للهلاك المبين .

ويظهر فضل الأسخياء من ذوى اليسار عند طول الحرب ، واشتداد الضائقة بالمتحاربين حتى يملوا القتال ، ولا يدفعهم إلى الاستمرار فيها سوى اللجاج والعناد ، هنالك يتقدم أجواد الحى وعقلاؤهم فيصلحون ذات البين ، ويتحملون ديات القتلى بالغة ما بلغت حتى يرضى الفريقان ، وتحقن الدماء ، ويصلح حال القبيلتين بعد أن أفسدتها الحرب .

كل هذه الأسباب جعلت العرب يشيدون بالكرماء ، ويخلعون عليهم برود الحمد والثناء موشّاةً مفوفة ، وصار مما يعمل له الفتى العربى أن يكتسب

هذا الحمد وهذا الثناء .

لقد كان الكرم أول الأمر قانوناً فرضته طبيعة الصحراء ، ثم صار سجية متأصلة فيهم ، وفضيلة من الفضائل السامية التى تصدر عن تفكير سليم ، وتوضع فى موضعها المناسب . قال : أكثم بن صيفى فى حكمه :

« خير السخاء ما وافق الحاجة وخير العفو ما كان بعد المقدرة » .

فليس كرمهم سفها وخُرقاً ، أو إسرافاً ، وإنما هو البذل فى الوقت الملائم للشخص المحتاج إليه ، فى الظرف الملائم . وهذه هى الفضيلة التامة ، وهى وسط بين نقيصتين كما عرّفها أرسطو ، فالكرم وسط بين البخل والإسراف ، ولا تكون فضيلة إلا إذا صدرت عن تفكير واختيار ووضعت فى موضعها الملائم لها[1] .

لقد كان الكرماء يجودون ، وكان المعتفون والضيفان يثنون عليهم ، ويسجلون هذا الكرم فى أشعارهم ، وأهونْ بزاد يقدم للمحتاجين والعانين ومن انقطع بهم السبيل ، أو نكبهم الدهر بعد ميسرة ، أو أصابتهم محنة السماء وجدب الأرض إذا كان جزاؤه مدحاً يخلّد الذكر ، ويرفع الاسم ، ويذيع الشهرة ، ويعلى فى المنزلة ، ويبوئ صاحبه ذِروة الشرف والرئاسة ، على حد قول شاعرهم :

فأوسعنى حمداً وأوسعتُه قِرىً وأرْخصْ بحمدٍ كان كاسبَه الأكلُ

ومن الطبيعى أن البخيل الذى يرد قاصده ، وهو لن يلجأ إليه إلا مضطراً ،

---

(١) راجع : History of Ethics. by Sidgwick P. 61 and The Nicomachean, Ethics. Aristotle's Ethics P. 34 – 36.

لن يسلم من لسانه وسيكون بخله أحدوثة تشيع بين العرب، فيعرفون أنه خرج على القانون الفطرى الذى فيه نجاتهم وحياتهم. ولذلك كانوا يتقون هذا الذم ما استطاعوا إليه سبيلا حتى وإن باتوا على الطوى، وقدموا آخر ما عندهم لضيفهم، كما قال أحدهم:

وعِرضىَ أبقى ما ادّخرتُ ذخيرةً ‏ ‏ ‏ وبطنىَ أطويه كطىِّ ردائيا

أو كما قال عمرو بن الأهتم

وكلُّ كريم يتقى الذم بالقِرى ‏ ‏ ‏ وللحق بين الصالحين طريقُ
لعمركَ ما ضاقتْ بلادٌ بأهلها ‏ ‏ ‏ ولكنَّ أخلاق الرجال تضيق

وليس المال فى ذاته غرضاً يهدفون إليه إذا لم يُعن صاحبه على الكرم، وإغاثة الملهوف، وكسب الحمد، واتقاء المذمّة، وحماية العرض من أن يلوكه الناس حين يصفونه بالبخل والكزازة. كما قال حسان بن ثابت:

أصون عرضى بمالى لا أدنّسهُ ‏ ‏ ‏ لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال إنْ أوْدى فأكسِبُهُ ‏ ‏ ‏ ولستُ للعرض إن أودى بمحتال[١]

أو كما قال الآخر:

أجَلَّكَ قومٌ حيث صرتَ إلى الغنى ‏ ‏ ‏ وكل غَنى فى القلوب جليـــلُ
وليس الغنى إلا غِنىً زيّن الفتى ‏ ‏ ‏ عشيَّةَ يَقْرى أو غداة يُنيـل

وكثيراً ما لامهم نساؤهم على إسرافهم فى الكرم، وبيوتهم فى حاجة إلى ما يبذلونه للضيوف، ولقد ردّ هؤلاء الأسخياء على نسائهم بأن هلاك المال فى

---

(١) أودى: ذهب، أى هو يستطيع استرجاع المال بالجد والكد، ولكنه لا يسترجع العرض، إذا طعن فيه وشاع بين الناس بخله

سبيل الضيف — وإن هلك العيال — مفخرة تخلد الإنسان . أما البخل والشح وكزازة اليد فعارٌ أىّ عار . وليس المال بمخلّد صاحبه إذا هو شحّ به .

ألا بَكرتْ مىٌ علىّ تلومنى ... تقول ألا أهلكتَ مَن أنت عائله
ذرينى فإن البخل لا يُخَلِّدُ الفتى ... ولا يُهلِكُ المعروفُ من هو فاعلهُ

ويقول آخر لأمه ، وقد عاتبته على جوده :

أرينى جواداً مات هَزْلاً لعلنى ... أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلاً مُخَلَّدا

ويقول ثالث ، وقد عذله أهله على كرمه :

بكر العواذل بالسّوادِ يلُمننى ... جهلاً يقلن : ألا ترى ما تصنع ؟
أفنيتَ مالك فى السّفاه ، وإنما ... أمرُ السفاهة ما أمرنك أجمع

إلى أن يقول :

لتنوبَ نائبةٌ فتعلَمَ أننى ... ممّن يُغَرُّ على الثناء فيُخْدَعُ
إنى مُقَسِّم ما ملكتُ لجاعلٌ ... أجراً لآخرةٍ ودنيا تنفع

ومن أحسن ما قيل فى هذا الموضوع قول قيس بن الخَطِيم ، وقد بيّن أن الحرص لا يغنى الإنسان ، بل إن الجود قد يكون سبيلا للغنى ، فينمو المال ويزداد ، وأن الغنى غنى النفس وإن كان صاحبها فقيراً ، وأن فقر النفس شقاء لصاحبه ولو كان ثريًا :

ولا يُعطى الحريصُ غنىً لحرص ... وقد يَنمى على الجود الثّراء
غنىُّ النفس ما عَمِرَتْ غنىٌ ... وفقرُ النفس ما عمرت شقاء
وليس بنافع ذا البخل مالٌ ... ولا مُزْرٍ بصاحبه السّخاء

ولقد كانوا يجودون لأنهم يلتذون بالجود ، وصنع المعروف ، ويرون

فى الكرم لذةً لذاته ، بغض النظر عن الثناء والحمد والذكر الحسن ، وذلك — طبعاً — حين يصير الكرم عادة وجبلة لا يستطيع صاحبه إلا أن يكون كريما ، على حد قول حاتم الطائى :

وقائلةٍ أهلكتَ بالجود مالنا ونفسَكَ حتى ضرَّ نفسَكَ جودُها
فقلتُ دعينى إنما تلك عادتى لكل كريم عادةٌ يستعيدها

أو على حد قول الآخر :

ولم أر كالمعروف أمّا مذاقه فحلو ، وأمّا وجهه فجميل

ولا ريب أن شعور العربى باللذة والسعادة حين يعطى ، أو يَقرى ضيفه ، ويزيل ما به من وحشة ، ويطرد ما ألم به من مسغبة وجَهْد ، يدلُّ على أن عادة الكرم قد تأصلت فى نفسه ، وأنه لا يجود أداء لواجب ، أو إطاعة لقانون ، أو خوفاً من قدح ، أو طمعاً فى محمدة ، وإنما يجود لأن الجود يشبع فى نفسه رغبة ، ويدخل عليها مسرة . وهذه هى الغاية القصوى فى تربية الفضيلة ، وناهيك بالكرم فضيلة اجتماعية ، تحتال الشرائع والقوانين على حمل الناس عليها ، وتعويدهم إياها ، تارة بالزكاة ، وأخرى بالضرائب حرصاً على منفعة المجموع ، وإيجاد مجتمع يسوده الرضا والهناءة ، حين يشعر الفقير أنه موضع عناية الثرى ، وأنه يدفع بعض ماله ليواسيه ويبره ، ويداويه ويعلمه ، وحين يشعر الغنى أنه أدى بعض ما يجب عليه نحو أخيه فى الإنسانية والوطن . وكثيراً ما احتال الأغنياء على التهرب من دفع الزكاة أو الضريبة ؛ لأن نفوسهم لم تعمر بعد بهذه الأخوة الإنسانية ، ولم ترتق فيهم النزعة الدينية أو الوطنية .

أمّا هذا العربي ربيب الصحراء فقد وصل إلى ما تطمح إليه اليوم أرقى المجتمعات البشرية ، وتجده هدفاً عزيز المنال فى ذلك العالم المادى ، على الرغم من سطوة القانون وعزته . لقد كان لبعض هؤلاء الأجواد من العرب فلسفة خاصة فى الكرم يردّون بها على من يلومهم ويصدرون عنها فى كل أعمالهم ، فهم يجودون عن فكرة وعقيدة ؛ هذه الفكرة هى أن الرجل إذا كزّت يده فى حياته ، واكتنز المال ، فلن يأخذه معه فى قبره منه شيئاً ، بل سيذهب إلى القبر صفرَ الكف ، وأن ماله سيقتسمه وارثوه من بعده ، وقد يسعى أحد ورثته لاكتساب الحمد بالبذل والعطاء ، بينما هو لم يكسب فى حياته إلاّ المذمة ، وإهانة العرض ، فهو يشقى فى جمع المال ؛ لينال غيره الشرف وحسن الأحدوثة وذلك نهاية الحمق فى نظرهم .

وعلى الرغم من أن هذه الفكرة غير بعيدة الغور ، بل هى مما يصل إليه كل إنسان بالغاً ما بلغ من العلم ، إلاّ أن جمهرةَ الناس لا يهتمون بها ، وتغلبهم على تصريف شئونهم فى الحياة أمور أخرى ، تنسيهم فى غمرة المعترك الدنيوى وجهادهم فيه ساعةَ الموت ، ومصيرهم بعد الفناء وترك الدنيا ، فلا يزدادون إلا كزازة . ومنهم من يفطن لهذه الفكرة ولكن يكون لها فى نفسه أثر عكسى ، فيكب على اللذاذات المهلكة ، ويبعثر ماله ذات اليمين وذات الشمال ، كما فعل طرفة بن العبد حيث يقول :

وما زال تَشْرابى الخمورَ ولذّتى ... وبيعى وإنفاقى طريفى ومُتْلدى
إلى أن تحامتنى العشيرةُ كلُّها ... وأُفرِدتُ إفرادَ البعير المعبَّدِ[1]

(١) المعبد : الأجرب .

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى   وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدى
فإن كنتَ لا تَستطيعُ دفعَ منيتى   فدعنى أبادرْها بما ملكتْ يدى

أما منطق الأجواد من فتيان العرب فهو المنطق السليم ، وهو خير ما يدل على رقيهم الخلق ، ونظرتهم الصائبة فى الحياة . استمع إلى حاتم الطائى يقرر هذه الفكرة فى وضوح وقوة :

فنفسَك أكرمْها فإنك إن تَهُنْ   عليكَ فلن تلقى مدى الدهر مُكرِما
أهنْ للذى تهوى التِّلادَ فإنه   إذا متَّ كان المالُ نَهْباً مُقسّما
ولا تشقينْ فيه فيسعدَ وارثٌ   به حين تغشى أغبر الجوف مظلما
يقسّمه غُنما ويشرى كرامة   وقد صِرْتَ فى خط من الأرض أعظماَ
قليلاً به ما يحْمدَنّكَ وارث   إذا نال مما كنتَ تجمع مغنما

وقد كرر هذا المعنى فى غير هذه القصيدة بقوله :

أماوىَّ لا يُغنى الثراء عن الفتى   إذا حشرجتْ يوماً وضاق بها الصدرُ
أماوىَّ إن يُصبح صداى بقفرةٍ   من الأرض لا ماءٌ لدىَّ ولا خمرُ
ترَىْ أن ما أنفقتُ لم يك ضرنى   وأن يدى مما بخلتُ به صِفر

هذا وقد بلغ العرب فى الكرم غاية لم تصل إليها أمة من الأمم قديماً وحديثاً ، فإذا أعطوْا أعطوْا على البديهة ، وأسرعوا فى البذل بدون تلوم ، أو تسويف ، أو بذل وعود ، ولو لم يعرفوا السائل . ويحتقرون ما مَنحوا ولو استكثره طالب الرِّفد ، وفى ذاك يقول شاعرهم مادحاً فتىً من هؤلاء الأسخياء :

قد كنتَ تعطينى الجزيلَ بداهةً   وأنتَ لما استكثرتُ من ذاك حاقر

ويقول زهير بن عروة المازنى :

فنعمَ بنــو العم والأقربون لدى حُطْمةِ الزمن المُمْحل[1]

ونعم المواســون فى النائبا ت للجار والمُعتفى المرمِل[2]

ونعم الحماةُ الكفاةُ العظيمَ إذا غائظ الأمر لم يُحلَل

ميامينُ صُبْرٌ لدى المعضلات على موجِع الحدث المعضل

مباذيلُ عفواً جزيلَ العطاء إذا فضــلة الزاد لم تُبذَل

هم سبقوا يوم جَرْى الكرام ذوى السبق فى الزمن الأوّل

بل كنت ترى أحدهم يَبَشُّ ويُسَرُّ ، ويتهلل وجهه إذا جاءه من يطلب منه حاجة ، كأنما هو الذى أصابه المعروف ، لا الذى أعطاه ، على حد قول زهير بن أبى سُلمى فى هَرِم بن سِنان المُرّى :

وأبيضَ فياضٍ يداه غمامةٌ على مُعْتفيه ما تَغِبُّ فواضله

تراه إذا ما جئتــه متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

أو قول الآخر :

وإنك لا تدرى إذا جاء سائل أأنت بما تعطيه أم هو أسعد

ولعل مبعث هذه المسرة ، أن الفتى العربى يشعر — حين يقصد الناس رفده — أنه صار ركناً مكيناً من أركان المجتمع فى القبيلة ، أو فى أحياء العرب ، يلجأ إليه المرملون والضعفاء وطلاب الحاجات ، وأنه سائر فى طريق المجد الذى يوصــله إلى سيادة قومه ورئاستهم ، فإذا وصل إلى تلك المنزلة حافظ عليها

---

(١) حطمه بفتح الحاء وضمها وسكون الطاء : السنة الشديدة .

(٢) المعتفى : طالب العطاء ، والمرمل : من لا زاد عنده .

ما وسعه جهده وماله بالبذل وإرضاء الناس ، فيحمل الكَلّ ، ويغيث الملهوف ويفك العانى ، ويطعم الفقير ، وينتصف للمظلوم . ذلك لأن السيادة لم تكن مبنية على الغلبة والقهر والاستبداد ، وإنما كان منشؤها الاحترام والإجلال ، لما امتاز به الرئيس من صفات دفعته إلى الصدارة فى مجتمعه هذا . ومن أقوى هذه الصفات الكرم ، لأن حاجة القوم إليه أشد ، فهم ينزلون الرئيس منزلة الوالد الذى يحنو عليهم ، ويرعى شئونهم .

فلهذا كله كانوا يرحبون بالضيف ، ويسعدون للقياه . كانوا يبشون للضيف أحياناً وهم يعلمون جدّ العلم أنهم فى ضيق وعُسر ، وأن ليس فى استطاعتهم تقديم ما يتكافأ مع أريحيتهم ، ولكن البشر والإيناس فى عرفهم يُذهب الوحشة ، بل هو بعض القِرى ، لأن الأمر ليس زاداً يؤكل فحسب ، وإنما هو إشعار الضيف فى هذه البادية الواسعة بأنه نزل بين أهله . وقد يكون أهله فى ميسرة فيقدمون له طعاماً طيباً ، وقد يكونون فى معسرة فيقدمون له ما عندهم ، وقد قال حاتم طيء فى هذا :

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ... ويُخصِب عندى والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يَكثر القِرى ... ولكنما وجه الكريم خصيب

وتراهم فى غاية الأسف والهم والألم إذا نزل بهم ضيف ، وليس عندهم ما يقدمونه له ؛ ولعل حادث الحطيئة مع ضيفه الذى سجله فى قصيدته المشهورة التى مطلعها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مُرْمِلٍ ... ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

أبلغ دليل على تأصل الكرم فيهم ، فمع أن الحطيئة وأولاده لم يذوقوا

طعاماً منذ ثلاث ليال ، ولم يعرفوا للبُر مذ خلقوا طعما ، وقد عصب بطنه من الجوع ، وهو ببيداء موحشة ليس بها أنيس ، فإنه حين رأى شبح الضيف من بعيد كثر همُّه وحزنه ، ولم يعد يفكر فى نفسه وأولاده ، وكيف يحتال لهم ، بل أخذ يفكر فى ضيفه هذا ، ويناجى ربّه علّه يرزقه بما يَقرى به ضيفه :

رأى شبحاً وسط الظلام فراعه ... فلما رأى ضيفاً تشمَّر واهتما
وقال : هيا ربّاه ضيفٌ ولا قِرىً ... بحقك لا تحرمه تا الليلةَ اللَّحما

بل أعجب من موقف الحطيئة موقف ابنه على حداثة سنه ، وما به من سغب ونصب حيث قال :

وقال ابنه لما رآه بحَيْرةٍ ... أيا أبتِ اذبحنى ويَسِّر له طُعما
ولا تعتذر بالعُدم علّ الذى ترى ... يظن لنا مالاً فيوسعنا ذما

ولقد تعجب بعد هذا لموقف الحطيئة ، فإنه همّ بذبح ابنه إكراماً لضيفه لولا أن رأى قطيعاً من الأُتن الوحشية عن بعد كأنما أرسلتها العناية الآلهية فداء للصبى الكريم :

فروّى قليلاً ثم أحجم برهة ... وإن هو لم يذبح فتاه فقد همّا
وبينا هُما عَنّت على البعد عانة ... قد انتظمت من خلف مِسْحلها نظما[1]

فانظر إلى أى حد بلغوا فى العناية بالضيف ، وتقديمه على الأهل والولد ؛ وذلك لأنه لا يأتيهم إلا وهو محتاج قد عضه الجوع ، واشتد به السَّغب ، وانقطعت به السبيل ، وأولادهم وأهلوهم يقدرون ما هم فيه من ضنْك وضيق

---

(١) العانة : القطيع من حمر الوحش . والمسحل : حمار الوحش .

يد ، ولكن هذا الغريب لا يعرف أمرهم على حقيقته ، وقد يظن بهم كزازة فيوسعهم ذماً ، لأنهم انتهكوا قانون الصحراء ، وواجب الرِّفد والضيافة .

وقصة[١] حاتم الطائى مع أولاده الذين تركهم ينامون ، وهم يتضاغون من الجوع ، وحديثه مع امرأته يعللها كى تنام ، ثم مجىء جارته تشكو له ما وصلت إليه وأولادها من المسغبة ، وذبحه فرسه ، وإطعامه الحى جميعاً ، مع معزته لفرسه ، واحتياجه إليها ؛ إكراماً لهذه الجارة وأولادها ، وتركه بنيه وزوجته بدون طعام ، بل تركه نفسه ، وعدم مَسِّه شيئاً مما قدمه للحى — لدليل على هذا الإيثار العجيب الذى لا نرى له ضريباً إلا بين هؤلاء العرب الذين عاشوا فى الصحراء ، فعلمتهم كيف يميتون غرائز الأثَرة ، وحب التملك ، وحب البقاء .

ولا ريب أن مجتمعاً تسوده هذه الروح ، ويوجد فيه أمثال هؤلاء الكرماء الذين يقدرون واجب الإنسان تجاه أخيه الإنسان ، ويمدون للمعوزين والمحتاجين والمعدمين يد المساعدة بدافع نفسانى ، ووازع إنسانى ، ويصدرون عن طبيعة خيرة ، ونفوسٍ تأصل فيها النُبْل ، لهو مجتمع جدير بأن يسود ، ولقد قيل : « إن العرب جميعاً أعلنوا الحرب على الفاقة والعوز . شكا المحتاجون أمرهم لذوى اليسار والسَّعة فطارد هؤلاء الفقر ، وأمطروه وابلاً من سهام كرمهم حتى ركع أمامهم طالباً الرحمة ، وردوه على عقبيه ، بعد أن كسوه بالذهب والحرير ، واستلوا من صدره البغضاء والحسد ، فصار لسانه يلهج بالمديح المستطاب ، والثناء والعطر »[٢] .

(١) القصة فى العقد الفريد ج ١ .
(٢) Wacyf Ghali, Tradition Chevaleresque des Arabes. p. 231

كان الأجواد الموسرون إذا أعطوا أعطَوْا غَدَقا لا يعُدّون ، ولا ينظرون للمستقبل ولا يفكرون فى العواقب ، فلا يبقون على ما بأيديهم . استمع إلى النابغة الجَعْدى يمدح فتى كريماً :

فتى كملت خيراته غير أنه — جواد فما يبقى من المال باقيا

واستمع إلى آخر كلما أثرى جاد بماله ، ثم هو يشكو من أن ماله يقصر عن نداه .

إنى وإن لم ينَلْ مالى مدى خُلقى — فياضُ ما ملكتْ كفاى من مال
لا أحبس المال إلا ريثَ أُتلفُه — ولا تغيرنى حالٌ إلى حال

واستمع إلى آخر يمدح فتى كريماً كلما أثرى تخرّقَ ، وأتلف ماله فى الجود

فتى إن هو استغنى تخرّقَ فى الغنى — وإن قلّ مالٌ لم يَضع متنَه الفقرُ

بل إن أحدهم ليطلب المال حتى ينفقه فى سبيل الكرم ، ويكتسب به حسن الأحدوثة :

كريمٌ رأى الإقتار عاراً فلم يزل — أخا طلب للمال حتى تموّلا
فلما أفادَ المالَ عاد بفضله — على كل من يرجو جداه مؤمّلا

وقال الآخر :

دعينى للغنى أسعى فإنى — رأيت الناس شرهم البخيلُ

وليس معنى هذا أن كل الكرماء كانوا من ذوى الغنى واليسار ، ولكن الكريم عندهم هو الذى يجود ، وما عنده قليل ، ويسخو بكل ما يملك وهو فى أشد الحاجة إليه . وهذا أكبر دليل على تأصل صفة الكرم فى نفسه ؛ إذ تتنازعها غريزتان قويتان ، حب البقاء وحب التملك ، وهو بانتصار كرمه على

هاتين الغريزتين العاتيتين اللتين لهما أكبر الأثر فى حياة الإنسانية ، يبرهن على سمو نفس ، وقوة عزيمة ، وعلى أنه رجل فضيلة من الطراز الأول . ولهذا ضربوا المثل بكرم هؤلاء العرب الجفاة فى صحرائهم ، وتضاءلت فَعَال الخلفاء والموسرين فيما بعد أمام كرمهم ؛ لأنهم كانوا يجودون والزاد قليل ، والمال معدوم ، وليسوا بأرباب سلطان وصولجان ، ولقد قال أحدهم :

جُهد المقلِّ إذا أعطاك نائلَه ومكثرٌ فى الغنى سِيَّان فى الجود

لا ، بل إن جهد المقل فى نظر المنصفين خيرٌ من مكثر الغنى ؛ لأن الأخير إنما يعطى من فضل ماله ، يعطى وهو يعلم أنه لن يموت مَسْغَبَةً وجوعاً ، ولهذا قال المقنع الـكندى فأجاد :

ليس العطاء من الفُضُول سماحةً حتى تجود وما لديك قليلُ

وقال آخر :

سأقدح من قِدرى نصيباً لجارتى وإن كان ما فيها كَفافاً على أهلى (١)
إذا أنتَ لم تُشْرِك رفيقك فى الذى يكون قليلاً لم تشاركه فى الفضل

ومن سِمات كرمهم أنهم لا يمنون به ، ولا يذكرون صنيعهم ، ولا يفخمونه ، بل يحقرونه ، وهم يعلمون أن المن يبطل جميل ما فعلوا ، ويشوه الخير الذى قدموا ، ومن أمثالهم : « أحى معروفك بإماتة ذكره ، وعظِّمه بالتصغير له» (٢) ولا يلتبسْ عليك ما تسمع من فخارهم بكرمهم ، وعدم منهم على من أكرموه ،

(١) سأقدح : سأغرف وأعطى بالقدح . والـكفاف : ما يكف الإنسان عن السؤال ويكون على قدر الحاجة لا يزيد ولا ينقص .

(٢) العقد الفريد ص ٦٥ ج ١ .

فهم يفتخرون بالكرم من حيث هو صفة ، ولكنك لا تسمع منهم أبداً أنهم أكرموا فلاناً ، أو قدموا يد المساعدة لفلان ، بل يدعون فعلهم يعلن عن نفسه ، ويتغنى به ضيوفهم ، وأسرى أياديهم . يفتخرون بالكرم عامة ليحثوا غيرهم على مكارم الأخلاق .

ولولا خلال سَنَّها الشعر ما درى　　بناةُ العلا من أين تؤتى المكارم

وليبرهنوا على أنهم سادة ، ولكن لا يفسدون صالح أعمالهم بذكر حوادث معينة :

المنعمون وما منّوا على أحد　　يوماً بنُعمى ولو مَنُّوا لما مانوا[1]

وقال ربيعة بن مقروم يمدح مسعود بن سالم بن أبى سُلمى :

وقد سمعتُ بقوم يُحمدون فلم　　أسمع بمثلك لا حلماً ولا جودا

ولا عفافاً ولا صبراً لنائبة　　وما أنبىء عنك الباطلَ البيدا

لا حُلمك الحلمَ موجودٌ عليه ولاَ　　يُلْفَى عطاؤك فى الأقوام منكودا

وقال الحطيئة :

أولئك قوم إن بنوْا أحسنوا البنا　　وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وإن كانت النعماء فيهم جزوْا بها　　وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدُّوا

وقال ذو الإصبع العدْوانى :

إنى لعُمرك ما بابى بذى غَلَقٍ　　على الصديق ، ولا خيرى بممنون

ولا لسانى على الأدنى بمنطلق　　بالمنكرات ولا فتكى بمأمون

لا تخرج النفسُ منى غير مُغضبةٍ　　ولا ألين لمن لا يبتغى لينى

(١) مانوا : كذبوا .

ولقد قالوا : « للمعروف خصال ثلاث : تعجيله ، وتيسيره ، وتستيره ، فمن أخل بواحدة فقد بخس المعروف حقه ، وسقط عنه شكره »[١] .

وعلى من يمنون ، وهم فى كثير من الأحيان لا يعرفون الطارق الغريب ، الذى يدلف إلى أبياتهم طالباً الرِّفد ، لا يعرفون له اسماً ولا نسباً ؟ وكيف يمنون وهم مُعرّضون فى أن يكونوا فى مثل موقفه هذا يوماً من الأيام ، حين تجدب الأرض ، أو تطوح بهم الفيافى والقفار إبّان الرحلة ؟ :

ومُستنبحٍ باتَ الصَّدى يَستتيهُهُ إلى كل صوت، فهو فى الرحل جانح[٢]
فقلت لأهلى : ما بُغــام مطية وسارٍ أضافته الكلاب النوابحُ ؟[٣]
فقالوا : غريبٌ طارقٌ طوّحَتْ به متونُ الفيـافى والخطوب الطوارح

وهو يضيفهم ولا يعرفهم ، ويدعونه أباهم ، وليس بينه وبينهم نسب ، ولا يحاول أن يعرفهم ، وإنمـا هو يؤدى الواجب بشهامة وأريحيـة ؛ لأنه لا ينتظر شكراً على كرمه ، أو لا ينتظر منهم فى مستقبل الأيام جزاء . وإن كانوا سيحفظون له هذه اليد ، وسيتغنون بسخائه ، وفى ذلك يقول مُرَّةُ بن مَحكان التميمى السّعدى :

أُدعى أباهم ، ولم أُقْرَفْ بأمهمُ وقدْ عَمرتُ ولم أعرف لهم نسبا

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٦٥ .

(٢) المستنبح : من يطلب نباح الكلاب ليستهدى به فى طريقه ، ويستتيهه : من تاه يتيه إذا ضل . والجانح : المائل .

(٣) البغام : مد الصوت بالحنين ، وأضافته الكلاب : جاوبته على نباحه بنباح مثله تدعوه لأن يقدم .

ويقول آخر :

حضأتُ له نارى ، فأبصر ضوءها وما كادَ لولا حضأةُ النار يُبصِرُ[1]

دعته بغير اسم هلُمّ إلى القرى فأسرى يَبوعُ الأرض والنار تَزهِرُ[2]

* * *

ومن مظاهر هذا الكرم :

١ — أنهم كانوا يتلطفون مع الضيف ، ويهشون له ويبشون ، وينزلونه منزلة عيالهم وأولادهم ، وناهيك بما للعيال والأولاد من منزلة فى القلوب ، وقد قالوا فيهم :

إنما أولادنا بيننـــــا أكبادنا تمشى على الأرض

استمع إلى جابر بن حيّان يقول :

وما وجدَ الأضيافُ فيما ينوبهم لهم عند عِلاتِ الزمان أبًا مثلى

أو استمع إلى الحطيئة ، وهو من هو خشونة وبداوة ، وجفاء طبع :

فبـات أبوهم من بشاشته أبًا لضيفهمُ والأم من بشرها أمّا

بل ذهبوا إلى أبعد من هذا ، فأنزلوا أنفسهم من الضيف منزلة العبد من السيد يتعب نفسه ويجهدها فى سبيل راحته ، والقيام بشئونه ، كما قال حاتم :

وإنى لعبد الضيف ما دام نازلاً وما شيمةٌ لى غيرها تشبه العبدا

ينزل الضيف فلا يسئلونه : من هو ؟ ومن أى البلاد أتى ؟ ولكن يسرعون لإغاثته ، والقيام بحقه ، ويشعرونه من أول وهلة أنه بين أهله ، كأ

---

(١) حضأت النار : رفعتها ليهتدى بها .

(٢) يبوع الأرض : يقطعها فى خطوات سريعة .

بعيداً عنهم فقدم بعد غيبة ، وعلى طول اشتياق ، من كثرة إيناسهم ، ولطف ترحابهم ، كما قال النَّمَرى :

وداعٍ دعا بعد الهدوء كأنما ... يقاتل أهوالَ السُّرى وتقاتِلُه

فلما سمعت الصوتَ ناديتُ نحوه ... بصوتٍ كريم الجَدِّ حلوٍ شمائِلُه

فأبرزت نارى ، ثم أثقبتُ ضوءها ... وأخرجت كلبى، وهو فى البيت داخله

وقلت له : أهلاً وسهلا ومرحباً ... رَشَدتَ ، ولم أقعد إليه أسائله

ولعلك تشعر بالسبب الذى حداهم للترحيب بمثل هؤلاء الضيوف ، والإسراع فى نجدتهم من قول الشاعر : « كأنما يقاتل أهوال السُّرى وتقاتله » فقد كان صوت الطارق ضعيفاً خافتاً ينبىء عن جهد وكلال ، وكأنه خارج من معركة عنيفة ، يقاتل فيها الليل ووحشته ، وبرده ، وضلال الطريق ، ووحوش الفلاة ، ويقاتل فيها تعب الرحلة والإنجاد والاتهام فى البيداء . ولذلك كله وجب على من سمع نداءه أن ينقذه ، ويقدم له ما يدخل الطمأنينة على قلبه ، ويزيل وحشته ؛ ومن عدم المروءة أن يعوقه عن الراحة بالجلوس إليه يسائله .

٢ — ومن مظاهر هذا الكرم أن العرب كانوا لا يبخلون على الضيف بأعز شىء لديهم ، بل يعمدون إلى أسمن ناقة ، وأكنزها لحما ، وأكثرها شحما ، وينحرونها له :

فأعضضتُه الطُّولى سناما وخيرَها ... بلاء ، وخير الخير ما يُتَخَيَّر

فقد جعل هذا الفتى الكريم سيفه يعض أطول نوقه سناماً ، وخيرها بلاء ، وأحسنها نعمة ؛ ومن نعمة الناقة أن تكون كريمة الأولاد ، غزيرة اللبن ، سريعة السير .

ويقول مُضَرِّس الربعى :

وإنى لأدعو الضيف بالضوء بعدما كسى الأرض نضَّاحُ الجليد وجامده
لأكرمه إن الكرامة حقُّه ومثلان عندى قربُه وتباعده
أبيت أُعشيه السَّديفَ وإننى بما نال حتى يترك الحىَّ حامده

إنه يسعى فى سبيل الضيف ، ويجتذبه بناره ، التى يوقدها على الربوات ، ليهتدى بها الضال ، ويأنس بها السَّارى ، فى وقت أمحلت فيه الأرض ، وغطاها الجليد ، ما بين نضاح ، ينزل رذاذاً لبرودة الهواء ، وجامد متماسك . إنه يدعوه ليكرمه ، لأن الكرامة من حق هذا السَّارى فى البيداء ، والليل مظلم ، والريح قَر ، تَقِفُّ منها الأعضاء وتيبس ، فهو أشد ما يكون حاجة إلى نار تدفئه ، وطعام يغذيه ، وجليس يذهب وحشته ، وهو يقدم له السديف — أى شحم السنام — وهو أطيب شىء فى الناقة ، وإن اقترح الضيف شيئاً أعده له ؛ حتى يترك الحى ولسانه يلهج بالحمد ، ويتغنى بالثناء ، سواء كان هذا الضيف من ذوى قرباه ، أو ممن طوحت به الفلوات لا يدنيه منه نسب أو جوار .

٣ — ولما كان كثير من العرب كرماء ، ولقاؤهم حسناً ، سعى الأجواد منهم فى أن يتميزوا عن سواهم بجلب الضيفان ، لا ينتظرون حتى يطرق بيوتهم طارق ، أو يناديهم غريب ، ويطلب رفدهم ابن سبيل ، بل يعملون على أن يدعوا هؤلاء الضيوف بشتى الوسائل :

(ا) فمن نار تُشَب على الرُّبى والجبال ليلاً ؛ ليعلم من تقطعت به السبل ، أو نفد زاده أن ثمة قِرىً وناراً ، وجليساً أنيساً ، ومبيتاً طيباً :

له نارٌ تُشَبُّ على يفـاعٍ ... إذا النيرانُ أُكسبت القِناعا
ولم يك أكثر الفتيان مالا ... ولكن كان أرحبَهم ذِراعا

وهذا حاتم طيء يأمر غلامه يساراً أن يوقد النار على يَفاع من الأرض فى الليلة الباردة ، الشديدة الريح ، فإن جلبت النار ضيفاً فيسار حُرٌّ ؛ لفرح حاتم بضيفه :

أوقدْ فإن الليـلَ ليلٌ قَرُّ ... والريح يا واقد ريح صِرُّ[1]
عَلَّ يرى نارَكَ من يَمُرُّ ... إن جلبت ضيفاً فأنتَ حُرُّ

وقد مرَّ بنا غيرُ مثل على هذه الوسيلة التى يجلبون بها الضيوف .

(ب) ومن كلب يعوِّدونه أن ينبح للضيفان ؛ حتى يهتدوا بصوته ، فإذا أقبلوا هشَّ الكلبُ لهم وبَشَّ ، وتلقَّاهم عن بُعدٍ بالترحاب . ولقد كانوا يقلدون صوت الكلب ؛ فإذا ردَّ عليهم تبعوا صوته وهم فى ظلمة الليل الدامس حتى يصلوا إلى بيوت الحى فيجدون القِرى :

ومُسْتَنْبِحٍ تستكشط الريحُ ثوبَه ... ليسقطَ عنه وهو بالثوب مُعْصِمُ[2]
عوَى فى سواد الليل بعد اعتسافه ... لينبح كلب ، أو ليفزع نُوَّمُ[3]
فجاوبه مستسمِعُ الصوتَ للقِرى ... له عند إتيان المهبِّين مطعَمُ[4]
يكاد إذا ما أبصرَ الضيفَ مقبلا ... يكلمه من حبه وهو أعجمُ

كانت هذه الكلاب تألف الضيوف ، فلا تزعجها ، بل تتود لها ، ولم

---

(١) قر : بارد ، وصر : شديد البرودة .
(٢) مستنبح : يطلب نباح الكلاب بتقليد أصواتها . تستكشط الريح ثوبه : تحاول نزع ثوبه لشدتها . (٣) اعتسف الطريق : ضل .
(٤) المهبين : الأضياف الذين يهب القوم للقائهم .

يكن أصحابها بأقل منها حباً لهؤلاء الضيوف ، فلا يسئلون من هم ، وإنما يرحبون بهم أجمل ترحاب :

يُغْشَوْنَ حتى ما تهرُّ كلابهم   لا يَسئلون عن السواد المقبل

وقال آخر :

ومستنبحٍ تهوى مساقطُ رأسه   إلى كل شخص فهو للسمع أصْوَرُ(١)

حبيبٌ إلى كلب الكريم مُنَاخُه   بغيضٌ إلى الكَوْماء، والكلبُ أبصرُ

إن الكلب يحب نزولَ الضيف ؛ لأنه سينال من فضل طعامه ، وأما الناقة الكوماء ، العظيمة السنام ، فتبغض نزول الضيف ، لأنها ستُنْحَرُ له ، والكلب أبصر منها وأهدى سبيلا .

وقد كانوا يُعِزون هذه الكلاب ؛ لأدائها هذه المهمة الشريفة لديهم ، الأثيرة عندهم ، وهى هداية الضيوف . استمع لرجل يوصى بكلبه ، ويطلب أن يكرم بعد وفاته :

أوصيك خيراً به ، فإن له   خلائقاً لا أزال أحمدُها

يدلُّ ضيفى علىَّ فى غسق اللـيـ   ـل إذا النار نام مُوقدها

(ح) ومن ذلك أنهم إذا صنعوا زاداً أو طعاماً تلمسوا من يشاركهم فيه على حد قول حاتم لامرأته :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسى له   أكيلا فإنى لست آكله وحدى

أخا طارقاً ، أو جار بيت فإننى   أخاف مَذَمّات الأحاديث من بعدى

---

(١) المساقط : ج مسقط أى السقوط ، يعنى يميل رأسه إلى كل شخص يقدره إنسانا ليلتجىء إليه لأنه ضل الطريق . والأصور . المائل

(ء) وكانوا يتعرضون للضيوف ، بأن ينصبوا خيامهم على قارعة الطريق ليراها الرائح والغادى ، ويطرقها بيسر كل عابر إن شاء ، كما قال طرفة بن العبد :

ولست بحلال التـلاع مخافةً ولـكن متى يسترفد القوم أُرفد

أو كما قال غيره :

أغشى الطريق بقبتى ورواقها وأحُلُّ فى نَشزِ الرُّبى فأقيم
إن امرءاً جعل الطريق لبيته طُنُباً ، وأنـكر حَقَّه للئيم[1]

فهو يضرب قبته على الطريق ليغشاها ذوو الحاجات ، وطلاب الضيافة ، وإن كان يقيم فى نَشَزٍ من الأرضِ ، لأنه أطيب هواء وأصح للبـدن ، ومن يتخذ الطريق موضعاً يضرب فيه خيمته ، ولا يؤدى حقه من قِرى الأضياف فهو لئيم ، لأن الناس سيقصدونه ، فإذا ردَّهم عرَّضهم للخزى ؛ وذلك منتهى اللؤم ، إذ تظاهر بالـكرم ، وعمل عَمَل الـكرماء ، وهو ليس منهم .

(هـ) ومن العرب من كان ينصب الجفان الواسعة فى عرض الطريق ، ويملؤها طعاماً طيباً ، ليأكل منها الناس . وكان عبد الله بن جُدْعان التيمى يفعل ذلك ، وفى القاموس : « وربما كان يحضر النبي صلى الله عليه وسلم طعامه » ، وكانت لعبد الله هذا جفنة يأكل منها القائم والراكب لعظمها ، بل كانت جفنته يأكل منها الراكب على البعير ، وسقط فيها يوماً صبي فغرق ومات[2] .

---

(١) النشز : المرتفع من الأرض ، والطنب : حبل البيت ، أى جعل الطريق مكان حبـل البيت .

(٢) بلوغ الأرب ج ١ ص ٨٩ .

وفى غريب الحديث لابن قتيبة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كنت أستظل بظل جَفْنةِ عبد الله بن جُدعان صَكَّةَ عُمَىّ »[١] ، يعنى فى الهاجرة ، وكان ابن جدْعان هذا يملأ جفنته ، ويدعو إليها الناس ، ليطعموا منها ، وقد مدحه أمية بن أبى الصلت بقوله :

له داعٍ بمكةَ مُشْمَعِلٌ ... وآخرُ فوق دارته ينادى

إلى رُدُحٍ من الشِّيزى مِلاءٍ ... لُبابَ البُرِّ يلبَكُ بالشِّهاد[٢]

وقد لا ينتظرون من يأتى ملبياً دعوتهم إلى هذه الجفان العظيمة التى يضعونها على قارعة الطريق ، بل علموا أن بعض الناس متعفف ، يطوى بطنه على الجوع طىَّ الرداء ، ويعصب عليها حجرا ، ويقبع فى بيته لا يشارك الناس فى الولائم العامة ، فيذهب الأجواد إليه ، ويجدونه مُرْمِلاً[٣] ، معدماً ، فيخففون بجودهم حَزَنه ، ويفرجون ضيقه .

استمع إلى الهذيل بن مَشْجعة كيف يسعى إلى هذا الذى آثر أن يلزم خباءه ، فيقتسم معه زاده ، وفى السنة المجدبة ، التى تهلك الحرث والنسل يخلط إبله الصحيحة بإبل غيره الجربى ؛ كرماً منه وأريحية :

ومتى أجئه فى الشدائد مُرْمِلاً ... أُلقِ الذى فى مِزْودى بوعائه[٤]

---

(١) سميت الهاجرة صكة عمى كما روى أبو حنيفة فى الأنواء نسبة إلى رجل من عدوان اسمه « عمى » وكان فقيه العرب فى الجاهلية ، قدم مع قومه حاجاً فى وقت شديد الحر ، فقال لهم من أتى مكة غداً فى الظهيرة كان له أجر حجتين فصكوا الإبل .

(٢) المشمعل : النشيط ، والردح الواسعة ، والشيزى : خشب كانت تصنع منه الجفان والشهاد : العسل .

(٣) المرمل : الذى قد نفد زاده .

(٤) المزود : وعاء الزاد .

وإذا تتبعت الجلائفُ ما لَنَا   خُلطت صحيحتنا إلى جَرْبائه[١]

واستمع كذلك إلى زُرْعَةَ بن عمرو يقول :

وأرمَلةٍ تنـــوء على يديها   من الضراء أو قَصَص الهُزالِ[٢]

خَلطْتُ بِغَثِّها سِمَنى فأضحت   شريكةَ من يُعَدُّ من العيال[٣]

إن الرجولة الحقة ، والمروءة الكاملة ، وتأصل السخاء فى نفوس فتيانهم وأجوادهم كانت تدعو أحدهم إلى إيثار غيره بما يملك ، ولو كان فى ذلك ضره ، وما أحسن أبيات عُروة بن الورد العبسى التى يقول فيها :

أتهزأُ منى أنْ سمنتَ وأن ترى   بوجهى شحوب الحق والحقُّ جاهدُ[٤]

وإنى امرؤ عافى إنائىَ شِرْكةٌ   وأنتَ امرؤٌ عافى إنائِكَ واحدُ[٥]

أقسِّم جسمى فى جسومٍ كثيرةٍ   وأحسو قَراحَ الماء والماء باردُ[٦]

فهو لفرط جوده يؤثر غيره على نفسه ، وقد أجهده القيام بحق سواه ، ومراعاة شئون الناس وإطعامهم ؛ حتى إنه ليقسم جسمه فى جسوم كثيرة ،

---

(١) الجلائف : ج جليفة وهى السنة المجدبة الشديدة . وكانت الإبل تجرب لجوعها وإذا جربت لا تلد ، ولا تدر لبناً فيجوع صاحبها .

(٢) تنوء : تنهض بجهد ، وتعتمد على يديها من الضر الذى لحقها أو دنو الموت منها .

(٣) الغث : المهزول .

(٤) شحوب الحق : لأن الحق وتوفر الهمة فى إقامته وأداء الحقوق هو السبب فى شحوب جسمه وهزاله : إذ يجوع ليطعم سواه .

(٥) العافى : طالب المعروف ، شركة : خلق كثير : أى أنا امرؤ يقصد أنائى خلق كثير للطعام ، أما أنت فلا يقصد إناءك أحد بل تأكل وحدك .

(٦) أقسم جسمى : أى قوت جسمى . والقراح : الماء الذى لا يخالطه غيره . والماء البارد كناية عن زمن الشتاء الذى تمس فيه الحاجة إلى الطعام .

ويكتفى بحسو الماء القراح دون الغذاء إبان الشتاء ، مع أن الجسم فى حاجة إلى ما يدفئه ؛ لأنه أعطى طعامه لغيره . فأى نفس كانت نفس عروة !

ولا بِدْع إذا قال عبد الملك بن مرْوان[1] : ما كنت أحب أن أحداً من العرب ولدنى إلا عروة بن الورد لقوله هذه الأبيات .

ومن أعجب ما روى عن جودهم قصة كعب بن مامة [2] الإيادى ، وقد كان فى سفر مع رُفقة له ، فضلوا الطريق ، ولم يبق معهم إلا قليل من الماء فصاروا يتقاسمونه بالحصاة ، يضعونها فى الإناء ويصبون فوقها من الماء ما يغطيها حتى يعدلوا فى قسمتهم ، فلما أراد كعب أن يشرب نصيبه رأى رفيقاً له فى السفر من النَّمِر بن قاسط يحدِّد إليه النظر كأنه يشتهى ما بيد كعب من الماء ، وقد عرف فيه الجود المفرط والسخاء لدرجة الإيثار ، فقال كعب لمن يقسم الماء : أعط أخاك النَّمَرى ، ومضى يومه هذا بدون شرب ، يفتك به الظمأ ، ويشوى حشاه ، فلما كان اليوم الثانى ، وأراد أن يشرب نصيبه ، فعل النَّمَرى معه فعلته من أمسه ، فآثره كعب على نفسه ، وقال لمن يقسم الماء : أعط أخاك النَّمَرى ؛ ولما أراد القوم الرحيل عجز كعب عن القيام معهم ؛ إذ أضر به العطش وأقعده ، فقالوا : « يا كعب : قد قرب الماء ، فرد معنا فإنَّك ورَّاد » ، ولكنه لم يستطع الجواب ، فعلموا أنه يجود بروحه فى سبيل غيره ؛ حتى ضرب به المثل فى الإيثار والجود ، فقال الشاعر :

كعبٌ وحاتم اللذان تقسَّما ... خِطط العُلى من طارف وتليد

---

(١) العقد الفريد ج ١ س ٦٦

(٢) بلوغ الأرب ج ١ س ٨١ العقد الفريد ج ١ س ٨٣ .

هذا الذى خلفَ السحاب ، ومات ذا   فى الجهد مِيتَة خِضرِمٍ صنديد[1]
إنّ لا يكن فيها الشهيد ، فقومه   لا يسمحون به بألف شهيد

وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز :

وما كعب بنُ مامة وابن سُعْدى   بأجودَ منك يا عمرُ الجوادا

وفى مثل كعب هذا يصدق قول الشاعر :

يجود بالنفس إن ضنّ الجواد بها   والجود بالنفس أقصى غاية الجود

(و) — ومن ذلك أن أثرياء العرب فى الجاهلية إذا رأوا قومهم قد مسهم الضُّر من شدة القحط ، وبرد الشتاء ، وندرة اللبن واللحم ، عَمَدوا إلى لعب الميسر بالقداح على جزور ، ومن ربح منهم جعل أجزاء الجزور طعاماً لذوى الحاجة وأهل المسكنة . ولذلك افتخروا بالمشاركة فى الميسر ، لأنه وسيلة من وسائل الكرم ، وإطعام ذوى المسغبة ، ومن عضهم الفقر ، ونكأهم الزمان . ومن لا يُسهم فى هذا ذُمَّ ، وكانوا يُسمونه بَرَما ، وفى ذلك يقول متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكاً :

ولا بَرَماً تهْدى النساء لعِرْسه   إذ القِشْع من برد الشتاء تَقَعْقَعا[2]

ويقول النابغة الذبيانى مفتخراً :

هلاَّ سألتِ بنى ذبيان ما حسبي   إذا الدخان تَغَشَّى الأشمط البرَما[3]

---

(١) الخضرم : الكثير من كل شىء ، والجواد : المعطاء والسيد الحمول ، والصنديد : الشجاع أو الشريف الكريم .

(٢) القشع : الجلد اليابس ، وتقعقع : صوت من شدة الريح فى الشتاء .

(٣) خص الأشمط بالذكر لأنه أجزع للبرد من الشاب ، ولو جعله شاباً لكان أبلغ فى التعبير عن شدة البرد وأجود فى المعنى ، يقول : إنه لا يستخس نفسه فيتنحى عن الميسر وفيه إطعام الفقراء .

وهبت الريح من تلقاء ذى أُرُلٍ تُزْجِى مع الليل من صُرّادها صِرَما[1]

إنى أتم أيســارى وأمنحهم مثنى الأيادى وأكسو الجفنة الأَدَما[2]

ويقول العَرَنْدس فى قوم من العرب :

هَيْنُون لَيْنُون أيسارٌ ذوو كرم سُوَاسُ مَكْرُمَةٍ أبناء أيسار[3]

ويقول لبيد فى معلقته :

وجزورِ أيســار دعوتُ لحتفها بمَغَالِقٍ متشابهٍ أجسامهــا[4]

أدعو بهن لعاقر أو مُطْفِل بُذِلت لجيران الجميع لِحامُها[5]

فالضيف والجارُ الجنيب كأنمــا هَبَطا تبالَةَ مُخْصِباً أهضامُها[6]

ويقول آخر :

وإذا تعــذَّرت السَّواعد والتوت جالَ المُفَدَّى وَسطْها المضبُوحُ[7]

---

(١) الصراد : شدة البرد أو السحاب لا ماء فيه ، وأرل : جبل ببلاد غطفان .

(٢) الأيسار : ج يسر وهم المتقامرون ، والياسر : الضارب بالقداح . يقول : إن نقص المتقامرون أخذت ما بقى منهم فتممتهم ، ومثنى الأيادى : أى أعطيهم نصيبين .

(٣) العرندس : أحد بنى بكر بن كلاب ، وسواس مكرمة : أى يروضون المكارم ويلون أمرها .

(٤) لحتفها : لنحرها ، والمغالق : القداح . ومتشابه أجسامها : كلها على قدر واحد

(٥) بهن : أى بهذه المغالق والقداح . والعاقر : الناقة التى لا تلد ، والمطفل : ذات الولد والعاقر أسمن والمطفل أغلى ، واللحام : ج لحم .

(٦) الضيف : النازل غير المقيم ، والجار الجنيب : أى الجار الذى لجأ إليهم ومنزله بجوارهم ، وتبالة اسم موضع كثير الخصب باليمن : والهضم : المطمئن من الأرض والجمع الأهضام والهضوم .

(٧) السواعد مجارى اللبن فى الضرع . إذا تعذر اللبن لشدة القحط جال المفدى يعنى القدح ، والمضبوح : الذى ضبح من أثر النار ؛ لأنه يقوم بها .

أغلى به رخوُ الإزارِ مُعَـــذَّلٌ فغـــدا يُمارُ له دمٌ مسفوح[1]

ويقول متمم بن نويرة :

إذا ابتـدر القومُ القداحَ وأوقِدتْ لهم نارُ أيسار كفى من تَضَجَّعا[2]

ويقول الغَنَوى :

إذا شهد الأيسارُ أو غاب بعضهم كفى الحىَّ وضاحُ الجبين أريبُ[3]

* * *

هذا بعض ما عساه يقال فى كرم اليد لدى عرب الجاهلية ، وكرم اليد أوضح صفات الفتوة ، وأكبر دليل على كفاءة الكريم لسيادة قومه وتزعمهم فهو يغيثهم إذا نكأهم الزمان . كأنه سيب السماء ، ويميلون عليه إذا دارت بر.وسهم حوادث الأيام ، فأفقدتهم توازنهم ، كأنه الحصن الركين ؛ وهو يحنو عليهم فى شفقة ورقة وحدب كما يحنو الأب الرحيم على فلذات كبده ، ولله در من قال يصف أخاه الفتى الكريم :

وكان أخى زعيمَ بنى حُيَىٍّ وكل قبيـــلة لهم زعيم

وكنت إذا الشدائد أرهقتنى يقوم بها وأقعـــد لا أقوم

---

(١) أغلى : أخذ به سهاماً كثيرة لكثرة فوزه ولذلك سمى المفدى لما يتكرر له من الفوز ، ورخو الإزار : كناية عن الفتى لأن لإزاره فضلة يجرها ، ومعذل أى يعذل كثيراً على الإنفاق . فغدا : أى القدح يمار له دم الناقة التى قامر عليها .

(٢) من تضجع من الفتيان ولم يأخذ ما بقى ، أخذ هو ما بقى حتى يتممهم ، والتضجع : التكاسل والإعراض عن العمل .

(٣) راجع بلوغ الأرب ج١ س ٧١ و ج ٣ س ٥٥ وكتاب الميسر والقداح لابن قتيبة س ٥٦ ، ومعجم البلدان لياقوت ج ١ س ٢٨٢ .

وهاك ما يقوله الحطيئة فى ابن حصن :

فدىً لابن حِصْنٍ ما أريحُ فإنه ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ فى المهالك

واستمع إلى عبد المسيح يصف ابن كُلال :

نميلُ على جوانبه كأنَّا نميل إذا نميل على أبينا

نقلِّبه لنخْبُرَ حالتيه فنخبُرُ منهما كرماً ولينا

وإذا كان الكرم سِمَةً واضحة من سمات الفتوة فقلما يكون الكريم غير شجاع ، إذ الشجاعة والكرم متلازمان ؛ فالشجاع يقدم على الخطر مضحياً بقوّته بل بنفسه ، والكريم يضحى بماله ، والنفس والمال أغلى ما يحرص عليه الإنسان . وكثيراً ما تغنى الشعراء بهاتين الخلتين مجتمعتين ، كما قال عنترة :

ولَلموْتُ خير للفتى من حياته إذا لم يَثِب للأمر إلاّ بقائد

فعالج جسيمات الأمور ولا تكن هَبيتَ الفؤاد همُّه للوسائد[1]

كَفى حاجةَ الأضياف حتى يُريحها عن الحى منا كلُّ أروع ماجد[2]

تراه بتفريج الأمور ولَفِّها لما نال من معروفها غيرَ زاهد

وليس أخونا عند شرٍّ يخافه ولا عند خير إن رجاه بواحد

إذا قيل مَنْ للمعضلات أجابه عظامُ اللُّهى منا طوالُ السواعد[3]

(١) الهبيت الفؤاد : الضعيف .
(٢) أروع : كريم .
(٣) اللهى : أجزل العطايا ، وطوال السواعد : كناية عن الكرم .

فعنترة يرى أن الفتى يجب أن يهب إلى الخير ملبياً نداءه من تلقاء نفسه لا أن يقوده قائد فإذا كان فى حاجة إلى قائد يقوده للخير ، أو يدفعه إليه دفعاً فأولى له أن يموت .

وينصح عنترة الفتيان بمعالجة الأمور العظيمة ، حتى يتمرسوا بالحياة ، وتعلو همتهم ، ويخطوا فى سبيل الشرف والسيادة خطوات تقربهم من الذروة ، ويحذرهم من الخمول ، والاستكانة إلى اللهو ، والجلوس لدى النساء .

وأخذ يصف كيف يقوم الفتى الحق بشئون قومه ، فهو يتعهد ضيفان الحى ، ويفرج الكرب ، ويُهرع للمعضلات ، ويساعده فى الشر والخير رجال قبيلته ، فكلهم سيد شريف حتى إذا قيل : من للأمور الجسيمة والشدائد ، والسنوات المجدبة ؟ لبى النداء رجال عظام العطايا تندى أكفهم بالخير .

واستمع إلى آخر يصف الكرم والشجاعة معاً[1] :

يلقى السيوفَ بوجهه وبنحره ... ويقيمُ هامَتَه مقام المغْفَرِ[2]

ويقول للطِّرف اصطبر لِشَبَا القنا ... فعقَرتُ رُكْنَ المجد إن لم تُعقَرِ[3]

وإذا تأمّل شخص ضَيْفٍ مُقْبلٍ ... مُتسربلٍ أثواب عيش أغبرِ

أوما إلى الكَوماء هذا طارق ... نحرتنى الأعداء إن لم تُنحرى[4]

وهاك آخر يصف فتى كريماً شجاعاً :

كريمٌ يَغُضُّ الطَّرْفَ فضلُ حيائه ... ويدنو وأطرافُ الرماح دوانى

---

(١) أمالى ج ١ ص ٤٣ .
(٢) المغفر : الخوذة .
(٣) الطرف : الجواد .
(٤) الكوماء : الناقة السمينة .

وكالسيف إن لا ينته لان متنهُ ... وحدّاه إن خاشنته خشنان

وقد أبدع سُلْمِيُّ بن ربيعة إذ وصف نفسه بصفات الفتوة مجتمعة فى قوله[١] يخاطب امرأته :

تَرِبتْ يداكِ وهل رأيت لقومه ... مِثلى على يُسْرى وحين تَعِلَّتى[٢]

رجلا إذا ما النائباتُ غَشَيْنَهُ ... أكفى لمُضلِعةٍ وإن هى جَلَّت[٣]

ومُناخِ نازلةٍ كفيتُ ، وفارسٍ ... نَهِلتْ قناتى من مَطاهُ وعَلَّت[٤]

وإذا العذارى بالدُّخان تقنَّعت ... واستعجلتْ هَزْمَ القدور فملَّتِ[٥]

دارت بأرزاق العُفاةِ مَغالقٌ ... بِيَدَىَّ من قمع العِشار الجِلَّةِ[٦]

ولقد رأبتُ ثأَى العشيرة بينها ... وكفيت جانبها اللَّتيا والَّتى[٧]

وصفحتُ عن ذى جهلها ورفدتها ... نُصْحى ولم تُصِب العشيرة زَلَّتى

وكفيتُ مولاى الأجَمَّ جريرتى ... وحَبَسْتُ سائمتى على ذى الخَلَّةِ[٨]

---

(١) أمالى ج ١ ص ٨١ .

(٢) تربت يداك : صارت فى التراب أى خسرت ، وحين تعلق : حين فقرى .

(٣) مضلعة : أمر شديد تضلع صاحبها أى تميله للوقوع . وجلت : عظمت .

(٤) مطاه : ظهره ، والنهل : الشرب للمرة الأولى ، والعلل الشرب للمرة الثانية .

(٥) هزم القدور : صوت غليانها .

(٦) العفاة : طلاب العطاء ، والمغالق . سهام الميسر سميت بهسا لأن بها يغلق الخطر وهو السبق الذى يراهن عليه ، والقمع : الأسنمة واحدتها قمعة ، والعشار : ج عشراء وهى التى أتت عليها عشرة أشهر من حملها ، والجلة الكثيرة .

(٧) الثأى : الفساد ، ورأبت : أصلحت .

(٨) الأجم : الذى لا رمح معه ، والخلة : الحاجة .

ومثله قول رجل من بنى فزارة :

لا يُبعد الله قوماً إن سألتهمُ ... أعطَوْا و إن قلتُ ياقوم انصروا نصروا

وإن أصابتهم نعماء سابغــة ... لم يَبْطروها وإن فاتتهم صبروا

الـكاسرون عظاماً لا جبُورَ لها ... والجابرون فأعلى الناس من جبروا

وكذلك قول الشَّماخ بن ضرار :

وأشعثَ قد قَدَّ السِّفارُ قميصَه ... يجر شِواءً بالعصا غير مُنضَج

دعوتُ إلى ما نابنى فأجابنى ... كريمٌ من الفتيان غير مُزَلَّج[1]

فتى يملأ الشِّيزىَ ويُرْوى سنانه ... ويضرب فى رأس الـكمىِّ المدجَّج

فتى ليسَ بالراضى بأدنى معيشة ... ولا فى بيوت الحى بالمتولَّج[2]

وما أحسن قول الحطيئة فى الفتيان الـكرماء الشجعان :

أولئك آباء الغريب وغاثة الصـ ... ـريخ ومأوى المرمِلين الدرادق[3]

هذا وأمامى فيضٌ زاخر من أقوال الشعراء الذين مدحوا الفتيان الأمجاد بالشجاعة والـكرم معاً ، ولست بمستطيع فى هذا المقام تسجيل كل ما قيل ، وحسبى ما اخترته هنا لأستدل به على أن الفتى ، وهو الـكامل الجزل من الرجال كما ذكرنا آنفاً يجب أن تتوفر فيه من خلال الفتوة الـكثيرة خَلتان شريفان هما الشجاعة وكرم اليد .

---

(١) المزلج : الناقص المروءة .

(٢) المتولج : الذى يدخل البيوت ويلزمها .

(٣) المرمل : الفقير ، والدرادق : الصغار .

٢ — كرم القلب

عرفنا الفتى العربى فيما سلف من هذا الكتاب شجاعاً، سمحاً، كريم اليد. ولكنه لا يتحلى بهذه الخلال الكريمة فحسب، بل يجب أن يتصف بالحلم، وكرم القلب، وسعة الصدر؛ ليكون فتى قومه.

وكرم القلب صفة مميزة لكبار الرجال، الذين تصغر فى عيونهم الحوادث مهما جل شأنها، وعظم خطرها لدى الدهماء، وهو دليل ناصع على أن كريم القلب قد بلغ فى مدارج الإنسانية مرتبة عالية؛ لأن الغضب، وشدة الانفعال وحدة الطبع، والثورة الجامحة التى لا يسيرها عقل، ولا يضبطها تفكير، تنزل بالإنسان إلى مرتبة الحيوان الذى تسيطر عليه القوة الغضبية، والغرائز الدنيا.

إن تحكم الإنسان فى عاطفته، وقهر نفسه — وما أصعب قهرها — يتطلب إرادة صارمة، وعزيمة قوية صلبة، ومراناً طويلاً مريراً على كبح جماح شهواته، وهذه فتوة وبأس لا يصل إليهما إلاَّ ذوو النفوس العالية التى تنأى بمنزلتها عن دنيا الدهماء، وتتطلع إلى الشرف والسؤدد. ولذلك جُعل الحلم من أهم الشروط التى يجب أن يتصف بها رئيس القبيلة، وصار من الأمثال العربية الخالدة: «آلة الرياسة سعة الصدر». وذاك لأن رئيس القبيلة أب لأفرادها، ويجب أن ينظر إلى أمثالهم وأخطائهم نظرة الأب إلى أخطاء أبنائه؛ ولأنه قاض يفصل فى مشكلاتهم، ولو كان سريع الانفعال، ضيق الصدر، حاد الطبع، جاءت أحكامه غير متزنة ولا عادلة.

قال[١] معاوية بن أبى سفيان لِعَرَابَةَ بن أوس بن حارثة الأنصارى : بأى شىء سدت قومك يا عَرَابة .

قال : بأنى كنت لهم كما كان حاتم لقومه .

قال : وكيف كان ؟

فأنشده :

وأصبحتُ فى أمر العشيرة كلِّها — كذى الحلم يُرْضى مايقول ويُعْرَفُ

وذاك لأنى لا أعادى سَرَاتهم — ولا عن أخى ضرَّائهم أتسكفُ

وإنى لأُعطى سائلى ولربما — أكَلَّفُ ما لا أستطيعُ فأكْلُفُ

وإنى لمذمومٌ إذا قيل حاتم — نبا نبوةً . إنَ الكريم يُعَنَّفُ

وعَرَابة الأوسى هذا هو الذى قيل فيه :

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجد — تلقَّاها عرابةُ باليمين

إن الحليم كريم القلب ، لأنه يبذل رِقَّته ، وعفوه ، ويظهر احتمالا للشدائد فى وقت ينتظر منه الغلظة ، والانتقام ؛ ولأنه يضحى بشهوة نفسه ، ورغبتها العارمة على مذبح السيادة والشرف .

استمع إلى معن بن أوس كيف يغالب شهوة نفسه ، ويكظم غيظه ، ويحلم حين الشدة ، ويصفح حين الإساءة[٢] :

وذى رَحِمٍ قلَّمتُ أظفار ضِغْنِهِ — بحلمى عنه وهو ليس له حِلْمُ

---

(١) أمالى ج ١ س ٢٧٤ . (٢) الأمالى ج ٢ س ١٠٢ .

فإن أعفُ عنه أُغْضِ عيناً على القذى ... وليس له بالصفح عن ذنبه عِلم
فما زلتُ فى لينى له وتعطفى ... عليه كما تحنو على الولد الأم
وخفضٍ له منى الجناحَ تألفاً ... لتدنيَه منى القرابة والرَّحِمُ
وصبرى على أشياء منه تُريبنى ... وكظمى على غيظى وقد ينفع الكظمُ
لأستلَّ منه الضِّغنَ حتى استللته ... وقد كان ذا ضِغْنٍ يضيقُ به الجِرْمُ

ومعن بن أوس هذا هو القائل[1] ، من قصيدة له يعاتب بها صديقاً أساء ، ويحذره عاقبة جهله وسفهه :

وإنى على أشياء منك تريبُنى ... قديماً لذو صَفح على ذاك مُجْمِلُ[2]
ستقطعُ فى الدنيا إذا ما قطعتنى ... يمينك فانظر أىَّ كف تبدَّلُ
وفى الناس إن رثَّتْ حبالك واصِلٌ ... وفى الأرض عن دار القِلى مُتَحَوَّلُ[3]

فأى قلب كريم قلبُ معن بن أوس الذى يصفح عن السيئة ويغضى عن الخطيئة ، ويلين لخشونة صاحبه حتى يستل منه الضغن ، ويغسل بماء حلمه وَضَرَ فؤاده ، ويعيده إليه مخلصاً ! !

استمع إلى شاعر آخر يصف قوماً بالحلم ، وتأمل تلك الخلال الحميدة التى كساهم بها الحلم :

تخالهم للحلم صُماً عن الخنا ... وخُرْساً عن الفحشاء عند التهاتُر

---

(١) الحماسة ج ٢ ص ٩ .
(٢) أى مهد إليك الجميل .
(٣) القلى : الهجران .

ومرضى إذا لاقوْا حياءً وعِفَّةً وعند الحروب كالليوث الخوادر[1]

لهم ذل إنصاف ، ولين تواضع بهم ولهم ذلت رقاب المعاشر

كأن بهم وَصْماً يخافون عاره وما وصمُهم إلا اتقاء المعايرِ

يترفعون عن سماع الفحشاء وعن النطق بها إذا ما تهاتر الناس فى الخصومات أَنَفَةً منهم ، وبعداً عن الصَّغار والنزول إلى ساحة البذاءة ، وإذا لقيتهم خلت أنهم مرضى حياءً منهم وعفة ، ولينا ، ولكنهم فى الحروب أسودُ آجام شجاعة وجرأة . فيهم ذلة المنصفين الذين يعطون الناس حقوقهم ولا يتكبرون عليهم ، وفيهم لين المتواضعين . وبذلك كله سادوا وذلت لهم رقاب معاشرهم . ولترفعهم عن السَّفه ، وعفة ألسنتهم ، وعدم بذاءتهم تحسب أن بهم عيباً يخافون أن يعيرهم الناس به إذا اشتبكوا معهم فى خصومة وجدال ، وما عيبهم إلا خوف ما يشينهم ، ويخدش كرامتهم .

وفى هذا يقول شاعر آخر :

أحلام عادٍ لا يَخاف جليسهم إذا نطقوا العوراءَ غربَ لسان

إذا حُدِّثوا لم تخش سوءَ استماعهم وإن حَدَّثوا أدَّوْا بحسن بيان

ولا تحسب الحلم عند فتيان العرب ضعفاً ، فحاشا للعربى أن يوصف بالضعف ، ولكنه كان فضيلة نفسية تملكُ العقلُ فيها أَزِمَّة النفس ، وسيطر عليها سيطرة تامة وهى فى عنفوانِ غضبها ، فتراءت هادئة وادعة ، وهى تفور وتحتدم .

إن الحلم عند العرب لا يسمَّى حلما إلاَّ إذا كان صاحبه قادراً على الإساءة ،

---

(١) الخوادر : ج خادر وهو الأسد الذى يسكن الأجة .

فكظم غيظه ، وردع نفسه ، وقابل العدوان بسعة الصدر ، وعفا عمن أساء إليه ، ولذلك قيل فى أمثالهم : « العفو عند المقدرة » .

وفى هذا يقول المهلهل بن ربيعة[1] فى إحدى مراثيه لأخيه كليب :

وإنك كنت تحلُم عن رجال ... وتعفو عنهم ولك اقتدارُ

وتمنع أن يمسّهمُ لسانٌ ... مخافة من يجيرُ ومن يُجارُ

إنه حلم المقتدرين الأقوياء ، لا حلم الضعفاء الجبناء ، الذى عبّر عنه المتنبى فيما بعد بقوله :

كلُّ حلم أتى بغير اقتدار ... حجةٌ لاجئٌ إليها اللئام

إنه الحلم الصحيح ، وكرم القلب ، الذى يملك صاحبه البذل ، والذى يقول فيه الشاعر :

يكف أذاه بعد ما بَذْلِ عُرْفِهِ ... ويحلُم حِلْماً لا يُذَمُّ ولا يُزْرى

وأى حلم أنبل وأعظم من حلم ذلك العربى الذى قتل أخوه ابناً له ، فقُدِّم إليه أسيراً مقيداً ؛ ليقتص منه ، فنظر إليه ، ثم فكر فى أمره وأصدر حكمه الكريم الذى أدّى إليه قلب سمح ، وطبيعة خيرة ، وبصيرة نافذة ، ونفسٌ ذُللت شهواتها ، وعُبِّدت أهواؤها :

أقولُ للنفس تأساءً وتعزيةً ... إحدى يدىَّ أصابتنى ولم تُرِدِ

كلاهما خَلَفٌ من فقد صاحبه ... هذا أخى حينَ أدعوه وذا ولدى

---

(١) شعراء النصرانية ج ٢ ص ١٦٣ .

ليس من اليسير أن يعفو المرء عن قاتل ولده الحبيب . وفَلذة كبده ، ومخلَّد ذكره بعد موته ، ووارث ماله وأمله المرجَّى فى هذه الحياة ، بالغةً ما بلغت قرابته منه ، ولكنها النفوسُ الأبية الكبيرة ، التى ترى الأشياء بعين الحكمة والعقل ، لا بعين العاطفة والهوى . إن هذا الرجل لو قتل أخاه قصاصاً منه لمقتل ولده يكون قد خسر خسارتين ، وفقد رجلين . ولن يسترد ولده بقتل أخيه ، ولكنه سيفقد به عَضُداً ، وقوة تعينه على نوائب الزمان . وصفحُه عنه سيجعله أسير معروفه ، وعبد إحسانه وسيزيده عناية بشئونه ، وإقبالاً على خدمته . هذه هى البصيرة النافذة ، لا العاطفة الطائشة ، وهذا هو الحلم الصحيح ؛ ولقد وصف هذا الحلم وذاك العفو العظيم الحارث بن وَعْلة الجَرْمى حين قال :

قومى هُمُ قتلوا أميمَ أخى ... فإذا رميتُ يُصيبنى سَهمى
فلئنْ عفوتُ لأعفُوَنْ جَلَلاً ... ولئن سطوتُ لأوهِنَنْ عَظْمى

ومن الحكم المشهورة لدى العرب منذ الجاهلية قولهم : « إذا ملكت فأَسْجِحْ » والإسجاح : حسن العفو . وترى هذا واضحاً جدَّ الوضوح فى ميدان القتال ، وعند الأخذ بالثأر فهؤلاء الذين يستطيعون أن يأخذوا السِّن بالسن والعين بالعين والأنف بالأنف ، وأن يثأروا لأنفسهم ممن وترهم ، وأن يصولوا ويجولوا فى ميدان الوغى ، يتغلبون على أنفسهم ، ويعفون عن أعدائهم فى ساعة النصر .

كَم من قِرنَينْ اشتد بينهما القتال ، وحمى وطيسه ، فإذا انكسر رمح أحدهما أو نبا سيفه ، أوكبا جواده ، وظل الآخر فى قوته وعدته ، لا ترى

القوى يعمد إلى انتهاز هذه الفرصة التى جاء بها القدر ، أو التى أوجدها هو ، فيقتل غريمه وهو أعزل من السلاح . بل ينتظر حتى يسترد سلاحه ليكون النصر أتم ، ولتكون غلبته لغريمه ثمرةَ شجاعته وقوته وخبرته بفنون القتال .

لقد تمكن دريد بن الصِّمة من ربيعة بن مُكَدَّم ، ووجد رمحه قد انكسر غِبَّ معركة حامية قَتلَ فيها ربيعةُ ثلاثةً من خيرة فرسان دريد ، ومع ذلك قال له دريد حين رآه بدون سلاح : « مِثلُك لا يُقتل[1] ، ولا أرى معك رُمحاً ، والخيل ثائرة بأصحابها ، فدونَكَ هذا الرمحَ : فإنى منصرف إلى أصحابى فمثبطهم عنك » .

ولقد مرت بنا حادثه الحارث بن ظالم المرِّى مع عمرو بن الإطنابة[2] ، وكيف أنهما بعد أن تجاولا ساعة ألقى عمرو رمحه ، وقال يا حارث ألم أخبرك أن النعاس يغلبنى ؟ ، قد سقط رمحى فاكفف ، فكفَّ ، ثم قال عمرو : أنظِرنى إلى غد ، قال : لا أفعل ، قال : فدعنى آخذ رمحى ، قال : خذه ، قال : أخشى أن تُعجلنى عنه ، أو تفتك بى إذا أردت أخذه ، قال : وذمةِ ظالم لا أعجلتك ، ولا قاتلتك ولا فتكت بك حتى تأخذه ، قال : وذمة الإطنابة لا آخذه ، ولا أقاتلك ، فانصرف الحارث إلى قومه ، وأنشد شعراً قال فيه :

قد هممنا بقتله إذ بَرَزنا ولقيناه ذا سلاحٍ كمِيّا
غيرَ ما نائم تعلل بالحلم مُعِداً بكفه مَشْرفيا
فمننَّا عليه بعد علو بوفاء وكنتُ قِدماً وفيا

---

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) مهذب الأغانى ج ١ ص ١٣٠ . وراجع ص ٥٧ من هذا الكتاب .

وكم من رجل طُلَّ دمه وهام على وجهه فى الفيافى خوفاً من عُداته ، حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رَحُبت ، وتمكن أعداؤه منه وظنَّ أنه قد حان حَيْنُه ، وألاَّ منجاة له من الموت ، وهبوه الحياة كرماً منهم وأريحيَّة قلب . وحادثة بشر بن أبى خازم مع أوس بن حارثة بن لأم الطائى مشهورة فى كتب الأدب(١) وذلك أن بشراً أغراه أناس على هجاء أوس — وكان أوس من أجواد العرب الذين يضرب بهم المثل ، من ذلك قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز .

وما كَعبُ بنُ مامةَ وابنُ سُعدى بأجودَ منـــك يا عمر الجوادا

وابن سعدى هو أوس بن حارثة . فلما هجا بشرٌ أوساً ، أقسم أوس إن تمكن منه ليحرقنه ، وكان بشر قد أخذ على هجائه أوساً مائة من الإبل ، فأغار أوس عليها واكتسحها . وهرب بشر ، وصار لا يستجير أحداً إلا قال له : قد أجرتك إلا من أوس بن حارثة . ثم تمكن من بشر ، ودخل على أمه سُعدى ، وقال لها : لقد أتينا ببشر الهاجى لك ولى ، قالت : أو تطيعنى ؟ قال : نعم ؟ قالت أرى أن ترد عليه ماله ، وتعفو عنه ، وتحبوه ، وافعلُ مثل ذلك فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه ، فخرج فقال : إن أمى سُعدى التى كنتَ تهجوها قد أمرت فيك بكذا وكذا، فقال لا جَرمَ ، والله لا مَدَحتُ حتى أموتَ أحداً غيرك وفيه يقول :

إلى أوسِ بنِ حارثةَ بنِ لأْمٍ ليقضىَ حاجتى فيمن قضـــاها

فما وطىء الثرى مثلُ ابن سُعدى ولا لَبِس النعال ولا احتـــذاها

---

(١) الكامل للمبرد ، وبلوغ الأرب ج ١ ص ٨٣ .

وهناك عشرات الأمثلة التى تثبت تأصل هذه الصفة الكريمة فى نفوس فتيان العرب ، ونبل معاملتهم لأعدائهم ، وأقرانهم فى ميدان القتال ، وعند الظفر بهم ، وسنرى فيما بعد كيف أن هذه التقاليد الشريفة قد ظهرت فى كل مجتمع عربى بعد سيادة الإسلام وانتشاره ، وأنها كانت الدرس السامى الذى تلقنه فرسان أوروبا إبان العصور الوسطى من فتيان الصحراء العربية .

هكذا كان الحلم عند العربى ، وهكذا كان كرم قلبه ، ولكن ليس معنى هذا أنه كان يصبر على الإهانة ، ويغضى على الضيم والمذلة ، ويقبل فى خضوع أن يطأطىء رأسه لأعدائه . إن الحليم يتصف بسعة الصدر ، وينظر إلى الأمور نظرة حكيمة ، يقدر فيها العواقب . ولكن إذا أهين ثار ، وغضب غضبة شديدة لكرامته وقد اشتهر من أمثال العرب قولهم : « اتقوا غضب الحليم » ، وذلك لأنه لا يغضب إلا للأمر الجليل ، وهو قادر على أن يثأر لشرفه المهان ، وكرامته المخدوشة ، استمع إلى فتى من هؤلاء الذين عُرفوا بكرم القلب ، وسعة الصدر ، كيف يحذر هؤلاء الذين غرهم حلمه شديدَ غضبه[1] .

ما بالُ مَنْ أسعى لأجبرَ عظمه ... حفاظًا وينوى من سفاهته كَسْرِى

أعودُ على ذى الذنب والجهل منهمُ ... بحلمى ولو عاقبتُ غَرَّقهم بَحْرِى

أناةً وحلماً وانتظاراً بهم غداً ... وما أنا بالوانى ولا الضَّرَع الغُمْر[2]

أظن صروفَ الدهر والجهل منهمُ ... ستحملهم منّى على مركبٍ وَعْرِ

---

(١) هذا الشعر لابن أذينة الثقفى راجع الأمالى ج ٢ ص ١٧٢ .

(٢) الضرع : الصغير من كل شىء أو الصغير السن الضعيف . الغمر : من لم يجرب فى الأمور .

ألم تعلموا أنى تُخـــاف عَرَامتى　　وأن قَنَاتَى لا تلين على الـكَسْر[1]

إن أشد ما كان يخشاه الفتى العربى هو أن يوصف بالذِّلة والضعة ، ولاشك أنه يثور ثورة حادة إذا ظن أنه أهين ، وكيف يقبل الإهانة ، وهو الشجاع ، الذى لا يهاب المنايا ؟ وهو الجواد الذى يضحى بأثمن شىء لديه فى سبيل شرفه وعرضه ، إنه كان يضع الحلم حيث يجب أن يوضع كما قال الشريف الرضى :

وللحلم أوقاتٌ وللجهل مثلُها　　ولـكننى للحلم أدنى وأقربُ

يحلُم مع قومه ، ولا سيما سفهاؤهم ، ويحلم مع عشيرته الأقربين ؛ لأنه رئيسهم ، ولأنه إذا عاقبهم على جهلهم خسرهم ، وإنما كان يدارى هؤلاء وهؤلاء ، ويدارى طيشهم بحلمه ، ونزقهم بسعة صدره ، ولأنه يعلم أنهم لا يقصدون امتهان كرامته ، ولا خدش شرفه ؛ لأن كرامته من كرامتهم ، وشرفه من شرفهم ، تقضى بذلك تقاليد القبيلة وعرفها السائد .

ويثور حين يجب أن يثور ؛ حين يرى من المذلة والعار أن يغضى على المهانة ، ويصبر على الإذلال ، ويرضى بالضيم .

ولا يقيمُ على ضَـــيْمٍ يُرادُ به　　إلا الأذلانِ عَـــيْرُ الحىِّ والوَتِدُ

إنه كان حكيماً فى تصرفه ، وقد صدق فيه قول الشاعر :

ووضعُ الندى فى موضع السيف بالعُلا　　مُضِرٌ كوضع السيف فى موضع الندى

وإن تصرفه مع هؤلاء الذين يزدرونه ويحقرونه ، ويريدون إذلاله لهو تصرف

---

(١) عرامتى : شدتى وشراستى .

عادل جميل ، وفى ذلك يقول أرسطو : « عقاب الأعداء أجمل من التساهل معهم ؛ لأن مقابلة المثل بالمثل عدالة ، وكل ما هو عدل فهو جميل ، والشجعان لا يرضون الهزيمة[1] » .

ولقد ثار عمرو بن كلثوم ، وهو ضيف الملك عمرو بن هند ملك الحيرة حين سمع أمه تصيح قائلة : واذلاه ! يا لتغلب ! فغلى الدم فى عروقه وأخذته الحمية ووثب إلى سيف ضرب به رأس عمرو بن هند ، وقال معلقته المشهورة التى يشير فيها إلى هذه الحادثة بقوله :

بأى مشيئةٍ عمرَو بنَ هندٍ ... نكون لقَيْلِكم فيها قَطينا ؟[2]
بأىِّ مشيئةٍ عمرَو بنَ هند ... تُطيع بنا الوشاةَ وتزدرينا ؟
تهدَّدْنا وأوعدْنا رويداً ... متى كنا لأمك مَقْتَوينا ؟[3]
فإن قناتنا يا عمرو أعيت ... على الأعداء قبلك أن تلينا
إذا ما المَلْكُ سام الناسَ خَسْفاً ... أَبَيْنَا أن نُقِرَّ الذلَّ فينا
ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا[4]

ويقول عنترة فى العزة :

لا تسقنى ماء الحياةِ بذلةٍ ... بلْ فاسقنى بالعزِّ كأسَ الحنظلِ

---

(١) الخطابة لأرسطو ترجمة الدكتور ابراهيم سلامه ص ١٧٣

(٢) القيل : هنا الخدم والعبيد ، والقطين : المتجاورون .

(٣) مقتوى : خادم ، وهى كلمة حميرية .

(٤) الجهل : السفاهة والطيش .

ماء الحيـــاة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أكرم منزل

وأنّى له أن يقبل الذلة والمهانة ، وهو الأبى الشجاع الذى اتخذ شعاره قول عمرو بن براقة :

متى تجمع القلبَ الذكىّ وصارماً ... وأنفاً حمياً تجتنبْك المظـــالم

ولا تظنن أن العرب جميعاً يتحلون بهذه الخلة الحميدة ، خَلة الحلم وسعة الصدر ، وكرم القلب . كلا ! فإن الحلم كان نادراً ، والحلماء قليلون وإلا لما كان الحليم مقدَّماً على الناس ، يرأسهم ، ويتزعمهم ، ويفصل فى شئونهم ، وكيف يكون الحلم حلية جمهرة العرب ، وهم فى بيئة صحراوية مجدبة يشتد فيها أوار الشمس ، وتقل فيها الخيرات ، فيزيد ذلك فى سرعة انفعالهم ، وحِدة طباعهم ، وضيق صدورهم ؟ زد على ذلك أن هذه الحياة عودتهم كثيراً من الحرية التى أساء بعضهم غايتها ؛ واعتقد كل امرىء فى نفسه السمو والسعادة والقوة فكان ذلك مدعاة لطيشه وسفهه . ولذا كان من سمات الشرف ، ومؤهلات الرياسة أن يتصف الفتى بالحلم ، بين قوم سريعى الغضب ، حادِّى الطباع ، وبذلك تميز الفتيان عن سواهم من عامة العرب بتسامح الأقوياء ، وعفو المقتدرين ، وأناة المتبصرين ، وكرم الأعزة ، وصفح الأُباة النبلاء ، لا يعرفون الضِّغن ، ولا يستقر فى قلوبهم السمحة : « وليس رئيس القوم من يحمل الضِّغْنَا » ، ولا يفقدون اتزانهم ، إذا طاشت أحلام سواهم ، ولذلك بوئوا منزلة سامية فى المجتمع العربى . وتغنى الشعراء بصفحهم الجميل ، وردّدته ألسنة الزمن .

٣ — كرم العقل

كرم العقل هو سماحته ، ومرونته ، وتقبله للحقائق ، وعدم كزازته وتعصبه ، ونفوره من الأوهام والخرافات ، وإدراكه لما حوله إدراكاً صحيحاً لا يشوبه شك ، أو يغمره غموض .

والفتى العربى قد نشأ على أديم الصحراء ، ذلك البساط الطبيعى الفسيح الظاهر المعالم ، الذى يمتد فيه البصر ، مسافات شاسعة ، فلا يقف فى سبيله عائق ، يَلُفُّه ضوء غامر قوى ، يجلى كل شىء أمامه فيرى الطبيعة قوية بينة باهرة . ومثل هذه البيئة الرَّحبة تنمو فيها الحرية وتسمُق دوحتها ، والرجل الحر يأبى أن يتقيد عقله بقيود ، أو أن يُحَدَّ فكره بحدود ، وفى ذلك يقول دوزى : « سعة العقل ورحابته قديمة عند العرب ؛ لأنهم أمة تعشق الحرية ، ومن العسير عليهم أن يقبلوا التحكم فى عقائدهم »[١] .

وقد قال مرثد بن عبد القلال ملك اليمن . « إنى أحكم على الأجساد لا الآراء ، وأطلب من رعيتى أن تطيع حكومتى ، أما عقيدتهم فمتروكة لحكم الله »[٢] .

ولهذه الحرية لم يعرف العرب فى دياناتهم الجاهلية نظام الكهنوت ، والعبودية للهيكل ورجاله ، يتحكمون فى عقائدهم ، وسائر شئونهم الدينية والدنيوية ، ويتوسطون بينهم وبين آلهتهم ، ويفرضون عليهم الجزية والطاعة

---

(1) Wacyf Ghali. Tradition Chervaleresque des Arabes. P. 248.
(2) Caussain de Perceval, T. I. P. 111.

العمياء ويمنحونهم الغفران إن أرادوا ، أو يطردونهم من رحمة الله إن سخطوا . وأنَّى للعربى أن يقبل هذا أو مثله وقد ألفت نفسه الفضاء الفسيح ، وامتلأ فؤاده بهذا الإحساس القوى الطبيعى بأنه حر طليق لا تقيده أرض ، ولا تعرقل تفكيره تلك القيود والعوائق التى تحد من حريته الشخصية ؟ ! .

ولما كان هذا الفتى العربى يعيش فى كنف الطبيعة ، وتحتضنه صباح مساء ، لا يهرب منها بين جُدُر كثيفةٍ ، وفُرُش وثيرة ، وقصور ضخمة ، وإنما تتلقاه بين ذراعيها إذا أصبح كادحاً فى سبيل رزقه ، وإذا أمسى سامراً مع خِلَّانه ، وتطل عليه من عَلُ بشمسها الوهاجة نهاراً ، ونجومها المتلألئة ليلاً ، يراها وهو على ظهر ناقته أو فى خبائه . ويسمع دوىّ الرعد وقصفه ، وزمجرة الريح ، ويصطلى بوقدة الهاجرة ، وزمهرير الشتاء ؛ صار الفتى العربى منذ حداثته وهو بعدُ غضُّ لين العود صديقاً لهذه الطبيعة التى ألفها فى حالىْ خيرها ورضاها ، وشرها وسخطها ، ونجم عن ذلك كما ذكرت فى غير هذا الكتاب[1] «انكماش العقل الباطن عند هذا العربى ربيب الصحراء ، وبسطت الطبيعة فى عقله الواعى ، ولم تدع له الطبيعة بضوئها الشديد نهاراً ، ونورها الباهر ليلاً أن يختزن فى نفسه سراً ، أو أن تكون ثمة هاوية فى عقله تتساقط فيها الرغبات التى لا تحقق ؛ لأن كل رغبة حيل بينه وبين تحقيقها يعلم جدَّ العلم ، وبكل وضوح لماذا لم يحققها .

وبانكماش العقل الباطن صارت كل أفكار العربى بين يديه ظاهرة جلية ،

---

(١) كتاب النابغة الذبيانى للمؤلف ص ٤٦ — ٤٧ .

وصارت وجهة نفسه وجهة يقين لا شك ، و بذلك ألغيت الوساطة فى الشعور والتفكير والتعبير .

وهذا هو السر فيما نلمسه فى الشعر الجاهلى ، وفى التفكير العربى من صفاء الفكرة ووضوحها، والقصد إلى الهدف دون التواءأو غموض ، فى أوجز لفظ ، ومن أقصر طريق » .

وهذا هو السر فى أن العربى كريم العقل ، سمح النفس ، يتناول حقائق الحياة فى أوجز الصور وأقومها ، ولعل من أسباب ذلك أنه نشأ نشأة طبيعية . بسطت فى قوة جسمه ، وصيرته صحيح الحواس ، تام البناء والتركيب . ونعلم أن العقل يسترفد معلوماته من الحواس ، فإذا كانت الحواس صحيحة كاملة النمو لم يصل إلى العقل إلا الصحيح التام من المعلومات — بغض النظر عن قيمة هذه المعلومات — ولهذا كان عقل الفتى العربى سليما، وحكمه على الأشياء صحيحاً . ولقد اشتهرت عندهم الحكمة القائلة « العقل السليم فى الجسم السليم » .

وتقول بنت الخس معبرة عن رأى العرب فى العقل وأخلاق الفتيان ، كما فهمته إياها الصحراء :

أشدُّ وجوهِ القول عند ذوى الحجا مقــالةُ ذى لُبٍ يقول فيوجز
وأفضــلُ غُنْمٍ يستفاد ويُبْتغى ذخيرةُ عقل يحتويها ويُحرِزُ
وخيرُ خلال المرء صِدْقُ لسانه وللصدق فضلٌ يستبين و يبرُزُ
و إنجازُكَ الموعودَ من سبب الغنى فــكن موفيا بالوعد تُعْطى وتُنجز
إذا المرء لم يَسْطع سياسةَ نفسِه فإن به عن غيرها هو أعجز

ويقول شاعر آخر :

ولا خيرَ فى حسنِ الجسوم وطولها ... إذا لم يزنْ حسنَ الجسوم عقولُ

ومن الأسباب التى جعلت عقل العربى سمحاً منبسطاً ، لا كزازة فيه ولا تعقيد ، أن المجتمع العربى خلا من تلك الفروق الاجتماعية ، ونظام الطبقات فليس ثمة أغنياء قد أبطرهم الغنى ، وأعمى بصائرهم ، وظنوا أنهم بالمال يشترون مَن دونهم من عباد الله ، الذين يعملون فى مصانعهم أو أرضهم . وليس ثمة فقراء قد أذلهم الفقر ، وضعضع نفوسهم ، وأمات فيها العزة ، وجعلها تتطلب المال ولو من أخسّ الطرق وأوضعها . بل إن العرب كانوا فى ميدان الحياة الاجتماعية سواء ، الفقير والغنى ؛ لأنهم جميعاً يسكنون الخيام لا القصور الشاهقة ، ويتوسدون الرمال لا الحشايا اللينة ، والسيادة فيهم ليس مردها إلى الغنى والثروة ، وإنما تُنال بالفضائل ، وحب أفراد القبيلة ورعاية مصالحهم ، ومواساة حزينهم ، والدفاع عن ضعيفهم ، وفك عانيهم وأسيرهم ، والجود على معدمهم ، والحلم على سفهائهم ، والمطالبة بتاراتهم ، وتحمل دياتهم . والسيادة ليست السيطرة بالقهر والغلبة ؛ وإنما امتلاك القلوب بالرفق والفضيلة . وشتان بين مجتمع هذا شأنه ، ومجتمع آخر لا يعرف إلا السيطرة : سيطرة القوة والمال والجاه ، وعبودية الفقر والسخرة .

إن العربى الفقير إذا ضاقت عليه الأرض ، وقُتِّر عليه رزقه ، لا يبرم ، ولا ييأس ، بل يرمى نفسه فى فجاجها العريضة ولسان حاله يقول .

إذا ما ضاق رزقك فى بلاد ... ترحلْ طالباً أرضاً سواها

فرزق الله فى الدنيا فسيحٌ ... وأرضُ الله متسعٌ فضاها

وقد ذكرنا فى كرم اليد كيف أن العرب جميعاً تعاونوا على قتل الفقر بينهم ، وكان من أهم صفات السيد الشريف سخاء اليد والجود بما لديه ولو كان آخر زاده ؛ ولهذا كله لم تتخلف فى نفس أى عربى نزعات مكبوتة ، وآمال ميتة ، تفسد عليه تفكيره فى وحدته ، وتذهب صفاء عقله ، بل قبل الحياة على علاتها ، بسرائها وضرائها . إذ أنه أدرك من طبيعة بلاده أن هذه الثروة التى نالها سواه قد تزول حين تضن السماء بمائها ، وتجدب الأرض ويصوح النبات . وأنه قد يرحل إلى غير موطنه فيصيب أرضاً خصبة ، وثراء عريضاً .

إن العربى فى حياته كلها كان ينظر إلى الأمور نظرة واقعية ولم يلجأ إلى ذلك الضرب من الحياة الذى صورته المشاعر الفزعة ، والنفوس القلقة . لأنه لم يشعر بالحرمان ، ومن ثم لم تكن أوهام وأحلام ، وإنما هى الحقيقة يفتتون بها ، ويسعون جهدهم لإدراكها .

وربما قيل : وكيف توفق بين هذه السماحة فى العقل ، وعبادة العرب للأوثان والأصنام ، وهى لا تدرك ولا تغنى عنهم شيئاً ؟ .

إن العرب لم تكن لهم ديانة ذات أصول وقواعد ومراسيم معينة ، ولقد وصلوا فى قرارة نفوسهم إلى معرفة خالق الوجود ، ووحدانيته فآمنوا به ، وإن حاولوا أن يصلوا إليه أحياناً عن طريق الأصنام ، فذلك لأنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى ذلك النضج العقلى التام ، ولم يكن حظهم من المعرفة كبيراً . وإذا سئلوا عن هذه الأصنام : أهى آلهة ؟ أنكروا فى قوة عقيدة ألهويتها ، واعترفوا بالله وقالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . ولقد سخر كثير منهم بهذه

الأصنام كما سخر امرؤ القيس بصنمه ذى الْخَلَصة حينما استخاره واستقسم لديه بالأزلام ، فخرج السهم ينهاه عن ذلك فقال :

لو كنتَ ياذا الْخَلَص الموتورا   مثلى وكان شيخُك المقبورا

لم تنهَ عن قتل العُداة زورا

وحطم الصنم(١) .

ولقد أقبل رجل من بنى مِلْكان بإبل له مؤبَّلَة يقفها على صنم القبيلة « سعد » ابتغاء بركته فيما يزعم ، فلما أدناها منه ورأته ، وكان يُهراق عليه الدماء نفرت منه ، فذهبت فى كل وجه ، فغضب الرجل وتناول حجراً رمى به الصنم وقال : « لا باركَ الله فيك إلٰها نفرت إبلى » ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ، وانصرف وهو يقول :

أتينا إلى (سعد) ليجمعَ شملَنا   فشتتنا (سعدٌ) فلا نحن من سعد

وهل (سعدٌ) الا صخرةٌ بتَنوفةٍ   من الأرض لايدعو لغىٍ ولا رُشد(٢)

ولما رأى عمرو بن الجموح وهو أحد سادات بنى سلمة وأشرافهم أن صنمه الذى يتقرب إليه قد ألقى فى موطن القذارة قال :

واللهِ لو كنتَ إلٰها لم تكنْ   أنتَ وكلبٌ وَسْط بئر فى قَرَن

أفٍ لملقاك إله مُسْتَدَنْ   الآن فتشناك عن سوء الغَبن(٣)

---

(١) بلوغ الأرب ج ٢ س ٢٠٧ .
(٢) المصدر نفسه س ٢٠٨ . والتنوفة : الصحراء .
(٣) مستدن : من السدانة وهى خدمة البيت وتعظيمه .

الحمـــد لله العليِّ ذى المِنن   الواهِبِ الرزاقِ ديَّانِ الدِّين[١]
هو الذى أنقذنى من قبـلِ أنْ   أكونَ فى ظُلمة قبرٍ مُرْتَهن[٢]

ولما رأى غيره أن صنمه تبول عليه الثعالب قال : « لقد هان من بالت عليه الثعالب » .

وكل هذا يدل على أن العربى لم يكن ينظر إلى هذه الأصنام نظرة جد ، وأنها آلهة بحق ، بل إذا رأى منها ما لا يستجيب له عقله أنكرها سريعاً ، ورجع إلى فطرته الصحيحة ، فهو يعتقد فى قرارة نفسه ، أنها لا تضر ولا تنفع ، وليس لها من أمر الكون وخلقه وتدبيره شىء : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنَّ الله » ، « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمَّن يملك السَّمْع والأبصار ، ومن يخرج الحىَّ من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يُدَبِّرُ الأمر فسيقولون الله » .

على أن العربى لم يخترع هذه الأصنام ، وإنما جُلبت له من خارج البلاد العربية جلبها لحى بن حارثة بن عامر الأزدى من البلقاء بالشام حيث اليهود والنَّبَط وغيرهم فى قصة معروفة[٣] . فهى طارئة عليـــه ، لم تتأصل عبادتها فى نفسه ، ويقدسها ذلك التقديس الذى جرى عليه بعض الأمم لآلهتهم مثل الأشوريين والإغريق والمصريين القدماء ، وبنوا لها الهياكل والمعابد ، ووضعوا لعبادتها النظم والقوانين ، وتعددت طبقات رجال الدين والكهنوت . ولكنه

---

(١) الدين : جـ دينة وهى العادة .
(٢) راجع بلوغ الأرب جـ ٢ ص ٢٠٩ .
(٣) راجع بلوغ الأرب جـ ٢ ص ٢٠١ والأصنام لابن الكلبى .

كان يتقرب إليها فى بساطة ، ويتركها فى بساطة ، وإذا قلت : ألم يكن العرب يعتقدون فى الجن ، وأنها تتراءى لهم ، وتتحدث إليهم ، وتلهم شعراءهم القول البليغ ؟ أو لم يكونوا يعتقدون فى الغيلان والأشباح ؟ أو هذه صفة العقول الراجحة الصافية التى لا تؤمن بالخرافات والأوهام ؟ ؟

كان العربى فى بيدائه دائب الحركة والسعى فى طلب الرزق ، وليست الصحراء العربية كلها واضحة السبل بينة المحجة ، ولذلك قد يضل فى أرجائها بعض من عُمّى عليه طريقه ، وغُمّ سبيله ، وهو فى تيهه هذا يستحضر معنيين ، لا معدى له ولطبيعته البشرية السليمة من أن يستحضرهما وهو رابط الجأش ثابت الجنان ؛ وهذان المعنيان هما : الهلاك ، والوحشة . أما الهلاك فيأتى من نفاد الزاد وكثرة التعب ، وقسوة الهاجرة ، وكان من الهلاك عند العرب اسم « الغول » الذى يغتال النفوس ويهلكها ، وأما الوحشة فنشأ منها بينهم اسم « الجن » وهو « سراب النفس » الذى يتطلع إليه العربى ، وقد « أجنته » الطبيعة بعد ظهورها ووضوحها ، وكادت تستتر عنه وتخفى معالمها فتهلكه .

فهو يرى هذا السراب رجلا مثله على مرأى منه ، فيتجه إليه فى مثل الشوق الذى يستشعره نحو أهله كلما أشرفت نفسه على الهلاك ، فيرى أعرابياً جالساً أمام خباء ، وبجواره قلوص . وهو مهيب السمات ، جليد القلب ، فهو يسلم عليه ، ويسأله شربة ماء أو لبن ، ثم يستزيد من حديثه ، فينشده الشعر ، ويستروية الأخبار ، ليكون فى ذلك ما يبدد وحشته . حتى إذا ما قضى هذا التائه وطراً من ذهاب الوحشة عنه مع عربى مثله ، عاد فبدا له أن ما رآه على الأفق إنما كان سراب نفسه . كسراب الماء فى الصحراء ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

وهكذا يعرف العربى أن ما لم يجده شيئاً من هذا الرجل الذى استنشده الشعر فى متاهات الصحراء إنما هو « الجن » الذى يظهر للتائهين ، عند ما تجهل الطبيعة على أصفيائها . لقد سمى العرب هذا السراب جنا ؛ لأنه لا يلوح لهم إلا إذا أجنتهم البيداء فى بعض مجاهلها ، وسترتهم عن معالمها المأمونة . وليس أدل على ذلك من تخصيص العرب أماكن يظهر فيها الجن ، فلا يظهر الجن فى كل مكان بالجزيرة ، وإنما يظهر فى المتاهات والأودية الموحشة مثل وادى « عبقر » و « أبرق الحنان » و « البقار[1] » الذى يقول فيه النابغة الذبيانى واصفاً جنداً مدججين بالسلاح ، قد اختلط صدأ السلاح بعرق أجسامهم ، فانبعثت منهم رائحة خاصة :

سَهِكين من صَدأ الحديد كأنهم ... تحت السَّنَوَّرِ جِنَّةُ البقّار[2]

وتمتاز الجن العربية فى أخبار العرب بأنها نموذج للعربى الكريم ، فهى مؤنسة غير مؤذية ، بل هى فى الغالب مصدر نعمة ، إذ كثيراً ما شعر التائهون كأن الجن توحى إليهم معرفة الطريق الذى أضلوه . كما أن الجن العربية تحفظ الجيد من أشعار العرب بالقدر الذى يحفظه بالطبع من يراها منهم . وهذه المزايا الإنسانية النادرة فى الجن العربية علامة من علامات الألفة القوية بين العرب ، وعناصر الطبيعة العظيمة المحيطة بهم . وهى آية من آيات التكافؤ فى المستوى الحيوى بينهم وبينها ، بحيث انعكست صورهم على آفاقها بهذا

(١) راجع فصلا ممتعاً فى هذا الموضوع للاستاذ أحمد صبرى شوعان فى كتاب التصوف فى نظر الإسلام ص ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) السهكة : الرائحة الكريهة . السنور : السلاح التام .

الخير والجلال . ولا عجب بعد ذلك أن يشتقوا « العبقرية » عندهم من مرائى وادى الجن فى « عبقر »[١] .

ونستطيع أن نتصور هذا العربى فى هذه المضلة وقد تقطعت به السبل ، وخشى على نفسه الهلاك ، وتجسمت له مخاوفه غولاً يريد أن يفتك به ، وما غوله فى الحقيقة إلا الظمأ الذى يشوى حشاه ، والجوع الذى يفرى أمعاءه ، ووقدة الهاجرة التى تصب على رأسه أتوناً مستعراً من حرارة الشمس ، والوحدة القاتلة التى تزيد فى وحشته ، فهو يتلمس الخلاص منها ، ويتراءى له على صفحة الأفق ذلك الرئى من الجن الذى صنعته أمانيه ، ليأنس به ، ويهتدى فى سبيله ، ويتزود من قِراه .

وهذا التصور أمر طبيعى ، وإن لم يتخيل العربى التائه فى هذه المضلات الموحشة ، والأودية المتقطعة ما تخيله من الجن والغيلان ، لم يكن سليم العقل معافى الحواس ، بل معتوهاً لا يدرك كنه الخطر المحدق به .

أما الجن الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فعلمهم عند رب العالمين ، ولا نتعرض لهم فى بحثنا هذا .

ولعلك أدركت من كل ما تقدم أن الفتى العربى ربيب الصحراء ، له عقل واقعى مرن ، لا يعرف الأوهام والترهات والخرافات والأساطير ، والفلسفات المعقدة التى ولدتها الفروق الاجتماعية الواسعة بين مختلف الطبقات فى المجتمعات الأخرى ، فتراءت فى هواجس الطبقات الفقيرة آلاماً مبرحة ، وأحلاماً مفزعة ، وعقداً عسيرة الحل ، وأخذ الكتاب والفلاسفة كل يقدم

(١) أحمد صبرى شوعان ص ٣١٥ .

ما يظنه حلا لهذه المشكلات ، فى قصة تارة ، وفى نظرية فلسفية أخرى .

والفتى العربى ذو العقل الكريم تزيده المحن والشدائد قوة ، فلا يعرف الجزع واليأس كما يعرفهما سواه على حد قول جَزْء بن ضرار :

إذا رنَّقتْ أخلاقَ قوم مصيبةٌ تَصفَّي لها أخلاقهم وتطيب

أو على حد قول ابراهيم بن كُنَيِّف النَّبهانىّ :

تَعزَّ فإنّ الصّبر بالحر أجملُ وليسَ على ريب الزّمان مُعوَّل
فلو كان يُغنى أن يُرَى المرء جازعاً لحادثةٍ أو كان يغنى التَّذلُّلُ
لكان التعزى عندَ كلّ مصيبةٍ ونائبةٍ بالحر أولى وأجمل
فكيف وكلٌّ ليس يعدو حِمامه وما لامرئ عما قضى اللهُ مَزْحَل
فإن تكن الأيامُ فينا تبدلتْ ببؤسٍ ونُعْمَى والحوادثُ تَفعل
فما ليَّنتْ منا قناةً صليبةً ولا ذلَّلتنا للتى ليس تجملُ
ولكنْ رحلناها نفوساً كريمةً تُحمَّلُ ما لا يستطاع فتحمِلُ[1]
وقَيْنا بحسن الصّبْر منا نفوسَنا فصحّتْ لنا الأعراضُ والناس هُزَّل

إن هذا الفتى العربى الذى وصف آنفاً بالشجاعة ، وكرم اليد والقلب وكرم العقل ، قد تجلت مواهبه هذه فى أوج عظمتها حين جاء الإسلام ، وسترى هذه الخلال متألقة فى كل مكان حلّ به ؛ إذ لم تفارقه ما حلَّته به البادية من مزايا أينما ارتحل ، ولا سيما تلك النظرة الواقعية إلى مشكلات المجتمع .

---

(١) أى رحلنا لها نفوسنا الكريمة وحملناها ما لا يستطاع حمله .

٣ – الوفاء بالوعد

من أجمل ما يتحلى به الفتى العربى الوفاء بالوعد ، بل إن الوفاء بالوعد شرط لا مناص منه للفتيان . وذلك لأن الصراحة لازمة للقوة والشجاعة ، فالشجاع هو الصريح الذى لا يخشى أحداً أو شيئاً . هو الذى يصارح الناس برأيه ، وهو الذى يثبت عليه لا يتزعزع ، ويدافع عنه باليد والسلاح ، ويقول كورنئ الكاتب الفرنسى الشهير : « الرجل الشجاع هو الذى يحافظ على كلمته »[1].

وكثيراً ما يكون فى الوفاء بالوعد ما يناقض مصلحة المرء الخاصة ، فليس من الفضيلة أن تفى بشىء لك فيه منفعة ، وفى إنجازه فائدة تعود عليك . بل إن الوفاء بالوعد يتطلب عادة أن يضحى المرء بوجهة نظره الخاصة ، أو بمصلحته الذاتية فى سبيل سواه .

فالوفاء بالوعد مبنى على الشجاعة ، وعدم الأثرة والمنفعة ، والتضحية . وهذه الصفات تتفق مع ما سبق أن وضحناه من سمات الفتيان ومزاياهم .

الوفاء بالوعد يخرج الإنسان من الوحشية إلى الحضارة ، فلا تعود القوة الغاشمة هى القانون والواجب ، ولا تعود المصلحة الخاصة هى القائد الذى يوجه أعمال الإنسان فى حياته . وحينما يسود الوفاء بالوعد فى مجتمع ما يسود الحياة الثقة والطمأنينة والإيمان : الثقة فى الكلمة تعطى ، وفى التوقيع يكتب ، وفى المعاهدات تمهر .

---

(1) Corneille, Le Menteur Acte 111.

إذا أعطى المرء وعداً ، وكان رجلاً جزلاً كامل الرجولة — كما كان فتيان العرب — فليس له أن يرجع فيه أو يحيد عنه ؛ أو يناقشه مرة أخرى ، بل قانون الفتوة يحتم عليه أن يمضى فى إنجازه ، ولو ناقض فائدته ، وعاد عليه بالضر .

وقد اشتهر فتيان العرب بالصدق ، والرجل الصادق هو الرجل الممتاز حقاً فى كل صفاته ، وليس الرجل الصريح أو المخلص فحسب . لا يعرفون الكذب ، لأن الكذب إمارة الجبن ، وفتيان العرب شجعان لا ريب فى ذلك .

إن هذه الطبيعة الصريحة الواضحة السمات والمعالم قد علمتهم ألا يقولوا إلا الحق ، لأنها بصفائها ووضوحها قد انعكست على نفوسهم . ثم إنهم قوم رحّل ليس لهم حكومة منظمة ، ولا قوانين مرسومة ، ولا قوة منفذة ، ولا محاكم ولا شرطة ؛ ولذلك كانت كلمة الشرف ، والوعد الصادق هى القانون الذى يقدسه كل عربى ويحرص على احترامه والخضوع له ، حرصاً على مصلحته الخاصة ، وعلى العدالة العامة فى المجتمع . وفى ذلك يقول هيردوت : « ليس ثمة قوم يحافظون على أيمانهم مثل العرب »[1] .

لقد كان العرب فى حروب دائمة بعضهم مع بعض فى سبيل الرزق وأسباب الحياة ، وهذا أمر طبيعى فى بيئة مجدبة شحيحة بخيرها . وكانوا إذا اشتبكوا فى معركة تقاتلوا فى قسوة بالغة ، فإذا وضعت الحرب أوزارها ، وعقد الصلح ، أمن الناس ، وأخذوا يجوبون أرجاء الصحراء طلباً للرزق ، وسعياً بالتجارة من غير أن ينتظروا هجوماً مفاجئاً ، أو أخذاً على غرة ، وأخذت

---

(1) Hérodote, 111, 8.

القبيلة فى الرحيل ، ورعى نَعَمِها من غير رهبة من عدو ، أو خشية من غدر ، لأن السيوف قد أغمدت ، والحقد قد توارى ولو إلى أجل ؛ وفى قدرة المرء أن يقابل أعداءه دون خوف ، بل يقابل من له عنده تِرة ، وذلك لأن القبيلتين قد اتفقتا على الكف عن العدوان ، مع أنهم كانوا غالباً من الأميين الذين لا يعرفون المعاهدات المكتوبة والصكوك والمواثيق المسجلة ، بل كانت تكفى الكلمة تقال ، يبرمها رئيسا القبيلتين فتصير نافذة على الجميع ، لأنها أقوى من القوانين المكتوبة ، والأنظمة التى يدافع عنها بالحراب فى المدنية الغربية اليوم .

فى هذا المجتمع الطبيعى الذى لم تلوثه مفاسد المدنية الحديثة ، وما فيها من نفاق ، وخداع ، وغدر ، وتنافس ذميم على عَرَض الدنيا ، كان العربى يخشى أن يُعرف بالغدر ، وتشيع عنه هذه الخَلة بين قومه وبين سواهم من القبائل ؛ لأن الغدر ونقض العهد ، وإخلاف الوعد ، يجعله رجلاً لا يُعتمد عليه فى النائبات ، فيهمله قومه ، ويتحاشاه طلاب الغوث والنجدة ، وينفر منه أعداؤه وأصدقاؤه ، وهيهات لرجل يتصف بهذه الصفة ، وتكون حاله كما ذكرت أن ينبُه اسمه ، أو يكون من ذوى الرأى والجاه فى قبيلته وهو ما يحرص عليه كل ذى مروءة .

ولقد بلغ من كراهية العرب لهؤلاء الذين يغدرون ، وينقضون المواثيق ، ولا يوفون بالعهود أن يشهّروا بهم فى سوق عكاظ فيرفعون لهم ألوية ليعرفهم الناس بغدرهم فلا يعاملونهم ، ويكون هذا تأديباً لهم وعظة لسواهم ، وفى ذلك يقول قُطبة بن أوس ينفى عن نفسه وعن قومه الغدر ، ويفخر بأنهم قوم أوفياء :

أَسُمَىُّ ويحكِ هل سمعت بِغَدْرَةٍ ... رُفع اللواء لنـا بها فى مَجْمع
إنا نَعِفُّ فلا نُرِيبُ حليفنا ... ونـكُفُّ شُحَّ نفوسنا فى المطمع

وفى هذين البيتين نرى سببين يجعلان المرء يغدر أحياناً ولا يفى بوعده ، أحدهما دناءة النفس ، وعدم عفتها ، فيحلو لها ما خرجت عنه ، فتحاول نقض الميثاق ، وثانيهما شحها وطمعها فتعتريها الكزازة بعد الجود ، وتندم على تسرعها فى الوعد ، وتحاول أن ترجع . والفتى الحق هو الذى يقاوم هذه الخسة فى نفسه من دناءة وشح فلا يطيعها ويحملها قسراً عنها على الوفاء بما وعدت .

وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة عديدة على تمسك العربى بكلمةٍ ينطق بها ولا يثنيه عنها سبب مهما عظم ، وهاك الحارثَ بن عباد يأسر عدى بن ربيعة المشهور بالمهلهل قاتل ولده بُجَيْر فى حرب البسوس ، وهو لا يعرفه ، فيسأله عن مكان المهلهل ، فيقول له هذا : أتطلق سراحى إن دللتك عليه ؟ فيعده بهذا ، فيخبره أنه المهلهل ، فلا يسعه إلاَّ البر بوعده على الرغم من أنه قاتل ولده ، ويكتفى بجز ناصيته ، ويطلق سراحه وهو يقول :

لَهْفَ نفسى على عَدِيٍ وقد أشْعَب للموت واحتوته اليدان

وهاك حاجب بن زُرارة التميمى يطلب من كسرى أن ينزح قومه إلى سواد العراق ، لأنهم فى ضيق من العيش ببلادهم ، فيطلب منه ضماناً على عدم إفسادهم حال العراق ، وإغارتهم على مدنه العامرة ، فيرهن له قوسه ، ويثير هذا ضحك حاشية كسرى ، ولكن كسرى يدرك عظم الرهينة فيتقبلها . وقد وفى حاجب لكسرى بما وعد إلى أن مات[1] ، وفى ذلك يقول أبو تمام :

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقوسها فخاراً على ما وطدت من مناقب

فأنتم بذى قار أمالت سيوفكم عروشَ الذين استرهنوا قوسَ حاجب

---

(١) راجع العقد الفريد ج ١ ص ٩٨ .

ويشير فى البيت الثانى إلى حادثة أخرى من حوادث الوفاء ، أعنى وفاء هانئ بن مسعود الشيبانى مع النعمان بن المنذر وحمايته لنسائه ودروعه حين لجأ إليه بعد أن غضب عليه كسرى ، ولما طلب منه كسرى هذه الودائع أبت نفسه العربية أن تغدر بما تعهدت به ، وهو يعلم عِظَم المخالفة ، وما تجره عليه وعلى قومه من مصائب . وقد ناصره قومه وأيدوه ، وحاربوا الفرس وهزموهم فى موقعة ذى قار سنة ٦١٤ م ليمكنوه من الوفاء بوعده . وسأقص عليك إن شاء الله قصة حنظلة بن أبى عفرة مع النعمان فى القسم الثانى من هذا الكتاب ، وكيف وفى بوعده مع أنه يعلم جِدَّ العلم أن فى هذا الوفاء ميتته ، وأنه مقتول لا محالة .

وسنرى فيما بعد أن هذا الخلق الكريم كان من أعظم ما اشتهر به العرب بعد الفتح الإسلامى ، ولم يجد منهم النصارى أو اليهود أى ميل للغدر ، ونكث بالوعد ، ونقض للعهد ، بل عاشوا فى ظلهم آمنين مطمئنين .

---

٤ ــ حماية الضعيف

وحماية الضعيف قانون طبيعى للفتيان ، لأنهم يشعرون بقوتهم الجسمية ، وقد تأصلت فى نفوسهم صفةُ البــذل والتضحية ، ومن أولى برعايتهم من الضعفاء ؟ إن التطوع لحماية الضعفاء أهم ما يميز الرجل الشهم الـكامل والفارس الحق .

« مهمة الفارس هى حماية المرأة والأرملة ، واليتامى ، والضعاف من الرجال الذين يطلبون المعونة والغوث »[1] . هكذا يقول « لا كورن دى سانت بالاى » ، وهذه هى صفة الفتيان الأمجاد الذين نعموا بالنشأة الطيبة بين أحضان الصحراء ؛ لأن هذه الصحراء ، والحياة القبلية ، فرضت عليهم أن يخففوا من الأخطار المحدقة بهم فتعاهدوا فيما بينهم على حماية المرأة ، والضيف والجار والضعيف .

إن هذه الفضيلة تتطلب من الفتى أن يتصف بكل صفات الفتوة الأخرى من شجاعة وكرم ووفاء ، وهى خلة ترقى بالإنسان إلى أفق سام من آفاق الإنسانية ؛ لأن من يتعرض لنَصَفَة المظلوم ضد الظالم ، وإغاثة الملهوف المـكروب ، والانتقام من القوى للضعيف ، ومد يد المساعدة للحق المهضوم ، ينصب نفسه بطلا من أبطال الخير ضد الشر المنتصر . وفى هذا كرم وسخاء دونه كل كرم وكل سخاء ، ونـكران للذات دونه كل نـكران .

---

(1) Mémoirs Sur L'ancienne Chevalerie, t. I, note 36 Sur la partie P. 129 Lacurne de Saint—Palay e.

من اليسير أن يعيش الإنسان فى هذه الحياة عيشة وادعة هيِّنة لينة ، بأن يغمض عينيه وفمه وأذنيه ، فلا يرى شيئاً ولا يقول شيئاً ، ولا يسمع إلا ما يهمه من قرب أو بعد أو يعود عليه بخير قلّ أو كثر . بيد أن روح الفتوة وشعار الفرسان يأبيان ذلك ؛ لأن كل ما يمس الإنسانية الضعيفة يمسهم . وكأن الله قد أقامهم فى هذه الأرض لتحقيق العدالة وهذه رسالة بالغة فى السمو أعلى منزلة .

وقد وضع فرسان الصحراء كل ما وهبهم الله من قوة وحول ومال وشجاعة فائقة لحماية البائسين ، ونجدة الملهوفين ، وإغاثة المحروبين بنفس الكرم والأريحية التى يبذلون بها المال . وتتجلى هذه الصفة فى عدة مظاهر :

١ — حماية الجار . والجار هو ذلك الشخص الذى ينزل بجوار آخر طالباً حمايته ، أو يلجأ إليه ليمنعه من أعدائه ، فإذا قبل جواره صار واحداً من أفراد أسرته وعشيرته وقبيلته ، وسمى حليفاً أو مولىً أو جاراً ، له كل ما لأفراد القبيلة من حق ورعاية ما دام فى جوارها متمتعاً بحمايتها .

وإذا كان قانون الصحراء يأبى على العربى أن يرفض ضيافة الغريب ، فكذلك فرض عليه أن يرحب بمن يلجأ إليه طالباً حمايته ، وكما أن الإنسان لا يستطيع أن يميز بين رب البيت وضيفه فكذلك لا يستطيع أن يميز الجار من جاره .

كان العربى يحمى جاره ما دام حياً ، وإذا اضطر للرحلة أوصى به أهله وأولاده وعشيرته ، وأعانته قبيلته فى المحافظة على هذا الجار . وقد يغضب كل الغضب إذا رحلَ عنه جاره وتنازل عن حمايته له ، ولجأ إلى سواه ، كما رحل

الحطيئة[١] عن الزِّبرقان بن بدر ، ولجأ إلى بَغيض بن شمّاس بن لَأْى ، وعد الزبرقان ذلك طعناً فى كرامته ، وأبى إلا أن يذهب إلى الحطيئة و بغيض كى يعود إلى جواره ، ولما خُيِّر الحطيئة اختار بغيضاً فسأله الزبرقان : « يا أبا مُليكة ! أفارقت جوارى عن سخط وذَم ؟ قال : لا » فتركه وظَلّ آل شماس ابن لأى يحرضون الحطيئة على هجاء الزِّبرقان وهو يقول لهم : لا ذنب للرجل عندى . حتى أرسل الزبرقان إلى شاعر آخر هجا بغيضاً فرد الحطيئة عليه وهجا الزبرقان ، ودافع عن بغيض بقوله :

والله ما مَعْشرٌ لاموا امرءاً جُنُباً … فى آل لَأْىِ بنِ شَمَّاسٍ بأكياس

ما كانَ ذنبُ بغيضٍ لا أبا لكمُ … فى بائسٍ جاء يحدو آخر الناسِ

لما بدا لىَ منكم غيبُ أنفسكم … ولم يكن لجراحى فيكمُ آسى

أزمعتُ يأساً مبيناً من نَوالكم … ولن يُرى طارداً للحر كالياس

جارٌ لقوم أطالوا هَوْن منزله … وغادروه مقيما بين أرماس

مَلُّوا قِراه وهرَّتْهُ كلابهمُ … وجرحوه بأنيابٍ وأضراس

دعِ المكارمَ لا ترحَلْ لبُغيتها … واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

من يفعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جوازِيَه … لا يذهبُ العُرْف بين الله والناسِ

وقد حبسه عمر بن الخطاب رضى الله عنه لهجائه الزبرقان ، وأخذ يستعطفه وهو فى سجنه فلم يلتفت إليه إلى أن قال له :

ماذا تقول لأفراخ بذى مَرَخ … زُغبِ الحواصلِ لا ماء ولا شجر

(١) انظر القصة كاملة فى الأغانى . ومهذب الأغانى ج ٢ ص ٣٥

أَلقيتَ كاسبهم فى قَعرِ مظلمةٍ فاغفِر عليكَ سلامُ اللهِ يا عمرُ

فبكى عمر وعفا عنه واشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم .

وكثيراً ما شبت الحرب مستعرة الأُوار ، قوية اللظى لأن جار القبيلة قد أهين أو أذل ، أو اعتدى عليه ، وخير مثل يضرب لذلك حرب البسوس . وقد كانت البسوس خالة جساس بن مرة ، وكان كليب وائل قد بغى وطغى وتجبر ، وقد بلغ من سطوته ألا يجير أحد من بكر وتغلب إلا بإذنه ، وحدث أن البسوس نزلت بجوار جساس فصارت فى حمايته ، ورأى كليب ناقتها بين أينقه فأنكرها ، فلما سأل عنها أخبروه بأنها للبسوس جارة جساس ، فقال كليب : أو قد بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير عليَّ بغير إذنى ؟ ارم ضرعها يا غلام ! فأخذ القوس فرمى ضرعَ الناقة فاختلط دمها بلبنها وراحت الرعاة فأخبروا جساساً بخبرها ، فثار ، وغضب لأن جارته وخالته أذِلَّت ، وقتل كليباً سيد مُضر ، وكان هذا سبباً فى حرب ضروس ، ظلت مشتعلة أمداً طويلاً . وقتل فيها خلق كثير من بكر وتغلب على السواء[1] .

وقد أعز العرب حلفاءهم والمتحرمين بجوارهم ، وأنزلوهم منزلة أنفسهم وأهليهم ، حتى إن قريشاً كانت تأبى أن تزوج بناتها من غير قرشى إلا أن يكون حليفاً لها . بل لقد بلغ من منزلة الجار الحليف لدى بعض القبائل أنه كان يُعد من الأهل ويرثه المجير إذا مات وهو بجواره[2] وكانوا يذهبون بالجوار إلى ما بعد الموت ، كما فعل عامر بن الطفيل مع الأعشى حين استجار به . فقال له أتجيرنى من الإنس والجن ؟ قال : قد أجرتك . قال : ومن الموت ؟

---

(١) انظر مهذب الأغانى ج ١ س ١٨٤ .

قال : نعم ، قال : وكيف تجيرنى من الموت ؟ قال : إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك الدية . قال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت .

ولقد كانت حماية الجار و إعزازه مفخرة يلهج بها شعراؤهم ، ويتمدح بها رجالهم ، وفى ذلك يقول أسد بن كرز يفتخر برد العداة عن جاره :

وما جار بيتى بالذليل فترُتجى ظُلامته يوماً ولا بالمتهضم

و يقول السموْل :

وما ضَرَّنا أنَّا قليل وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليل

و يقول عدى بن زيد يمدح بنى شيبان :

إنى حَمِدت بنى شيبان إذ خَمدت نيران قومى ، وفيهم شُبت النارُ

ومِنْ تكرُّمِهم فى المحل أنهمُ لا يعلم الجار فيهم أنه الجار

حتى يكونَ عزيزاً مِنْ نفوسهمُ أو أن يَبينَ جميعاً وهو مختار

كأنه صَدَعٌ فى رأس شاهقة من دونه لعتاق الطير أوكارُ

و يوصى المثقبُ العبْدى ابنه بإكرام الجار ومعرفة حقه فيقول :

أكرمْ الجار وراعِ حقه إن عرفان الفتى الحق كرم

و يقول : زهير :

وجار البيت والرجل المنادى أمام الحى عَقْدهما سواء[1]

و يدرك الجار أنه عزيز بين من لجأ إليهم ، وأنهم يمنعونه من الضيم ،

---

(١) الأغانى ج ٦ ص ٨٩ ، المنادى : المجالس فى الندى .

ويسدون مفاقره ومغارمه كما قال شقران مولى سلامان من قضاعة :

لو كنتُ مولى قيس عَيْلانَ لم تجد علىَّ لإنسان من الناس درهما
ولكننى مولى قضاعةَ كلِّها فلست أبالى أن أدين وتَغْرما

كان الفتى العربى يرحب بكل قادم إليه ، وكل لاجئ يطلب عونه ، لا يسأله : من هو ؟ وما أصله ؟ وما سبب خوفه ؟ بل يمنحه حمايته بدون تريث أو تلوم . وفى هذا ولا شك بعض المخاطرة ، فقد يكون اللاجىء مجرماً أثيماً . وكم من عظماء أضفوا حمايتهم على بعض المجرمين وهم أعداء الأسرة والعشيرة والقبيلة جمعاء . كان العربى يمنح حمايته لمن يطلبها بريئاً أو مجرماً ، ظالماً أو مظلوماً ضد كل إنسان ، ويعد من نقص المروءة أن يعلم المرء السبب الذى دفع اللاجئ إليه قبل أن يمد له يد المساعدة ويقبله ؛ فقد كان هذا سمة الضعف والجبن والخور ، وحاشا للفتى العربى أن يرضى الاتصاف بمثل هذه الصفات ، وأن يوصم بها ، بل إن فى هذه المخاطرة بحماية الضعفاء واللاجئين ، ولو كانوا ممن تنكرت لهم شتى القبائل ، دليلا على القوة والمكانة الأدبية بين القبائل ، ودليلا على الشجاعة الفائقة ، التى لا تحد بحدود ، ولا تقيد بقيود ، ولذة يسعى لها فتيان العرب ، حتى يلهج الناس بذكرهم ، ويشيدوا بمفاخرهم ، وهو المجد الذى ينشدونه ، وطيب الأحدوثة الذى يرجونه .

وكثيراً ما يرى اللاجىء أن خير مكان يأمن فيه على نفسه هو أن يرتمى بين أحضان عدوه ؛ ويعتقد حينئذ أنه فى حصن مكين ، لا يصل إليه منه سوء ، أو يمسه ضر ، لأن النخوة العربية ، وتقاليد الفتوة تأبيان على عدوه أن ينقض عهد الجوار ، ويخفر ذمته ، أو ينتقم منه ما دام متحرماً بذمامه ، لاجئاً إليه .

ولهذا كان الفتى العربى الذى يخشى الوقوع فى مثل هذا الإحراج ، ويريد الانتقام لشرفه المخدوش ، أو يأخذ بثأره من عدو مبين ، يضن عليه بالصفح والمغفرة ، يعلن على الملأ أنه يحمى كل لاجىء إلاّ أن يكون فلاناً ، فإذا تمكن من خصمه فى أى مكان كان فى حلٍ من أن ينتقم لنفسه من غير لوم أو تعذير . ويعلم هذا الخصم حينذاك أنه ليس فى مأمن إن دنا منه أو ألقى بنفسه فى طريقه ، ولذلك يتحاشاه إن كان غير قادر على مقارعته .

وقد يبلغ بعض الرجال من الشهرة والعظمة أو الإحسان درجة لا يستطيع بعض الناس أن يجيروا من يطلبونه بوتر أو قصاص ، ولذلك يعلن من يُطلب منه الجوار والحماية أنه يجير اللاجىء إليه إلا إذا كان فلاناً طريد فلان ؛ رعاية منه لحرمته وسابق فضله عليه .

وإذا أساء الجار ، ولم يرع حرمة البيت الذى آواه ، لخِسّةٍ فيه ، أو نزق وطيش ، استنكفوا أن يهينوه وهو متمتع بجوارهم . وقد حدث لفاطمة بنت الُخشرب[1] أم الربيع بن زياد أحد سادات بنى ذبيان ، أن جارها راودها عن نفسها فى غيبة أولادها ، فامتنعت عليه ، فلما بلغ به النزق والسفه مبلغاً كبيراً ، وخشيت العار ، نادت ابنها الربيع فأخبرته بما فعله ذلك الجار الأحمق ، فامتشق سيفه وأراد أن يقتله ، ولكن راجعته نفسه ؛ وقال : لا أريد أن أدنس اسم أمى وأريق دم جارى ، وعفا عنه ، وهى حادثة مشهورة فى كتب الأدب . وهذا لعمرى منتهى الحلم والكرم .

---

(١) وكانت فاطمة هذه تسمى أم الكملة ، وهى التى قالت فيهم المثل المشهور : أنهم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، ومن الأمثال التى ضربتها وصارت ذخيرة للعرب قولها : حسبك من شر سماعه ، فى قصة معروفة أيام حرب داحس والغبراء .

وقد بلغ من تطوعهم لحماية الضعفاء أنهم كانوا يجيرون الوحوش ، ويجيرون الطير ؛ رحمة منهم وفرط ثقة بمكانتهم وقوتهم ، وموقف عمرو بن العاص من اليمامة التى اتخذت من فسطاطه ملجأ ، وباضت فيه وفرخت ، ولم يشأ أن يزعجها بتقويض الفسطاط حين عزم على غزو الإسكندرية حتى يكبر أولادها ، وتأمن على نفسها وعليهم ، مشهورة فى كتب التاريخ والأدب .

٢ — ومن مظاهر حماية الضعيف تلبية دعوة المكروبين فى الحرب ، بدون تردد أو سؤال ، فكانوا إذا سمعوا الاستغاثة نهضوا للنجدة لساعتهم :

لا يسألون أخاهم حين يَنْدُبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا

ويكونون كما قال ودَّاك المازنى :

إذا استُنجدوا لم يسألوا من دعاهمُ ... لأيةِ حَـــرْبٍ أم بأى مكان

أو كما قال الحطيئة يصف فتياناً شجعاناً :

وفتيانِ صِدْقٍ من عَـدِىّ عليهمُ ... صفائحُ بُصرىْ عُلقت بالعـواتق

إذا ما دُعوا لم يسـألوا من دعاهُمُ ... ولم يُمسـكوا فوقَ القلوب الخوافق

وطاروا إلى الجُرْد العتاق فألجموا ... وشَدُّوا عـــلى أوساطهم بالمناطق

أولئك آباء الغريب وغَاثَةُ الصَّـ ... ـريخ ومأوىْ المـــرملين الدرادق

أحلوا حِياضَ المجـد فوق جباههم ... مكانَ النواصى من وجوه السوابق

وكان الفتيان يفخرون بتلبيتهم دعاء المكروب ، ونداء المحروب ، والشعر العربى غاصٌ بمثل هذا الفخر ؛ استمع إلى دريد بن الصِّمة يقول لامرأته حين عذَّرته بقولها : قد سننتَ وضَعُف جسمك ، وقُتل أهلك ، وفنى شبابك ،

ولا مال لك ، ولا عُدة ، فعلى أى شىء تعَوِّلُ إن طال بك العمر ؟ وعلى أى شىء يخاف أهلك إن قتلت ؟ ! :

أعاذلُ إنمـــــا أفنى شبابى ... رُكوبى فى الصريخ إلى المنادى

مع الفتيـــــان حتى كَلَّ جسمى ... وأقرحَ عاتقى حَمْلُ النِّجـــاد

أعاذلُ عُـــــدتى بدنى ورمحى ... وكل مُقَلَّصٍ شَكِس القيـــاد

ويبقى بعـــــد حلم القوم حلمى ... ويفنى قبـــل زاد القوم زادى

ولقد مرَّ بنا عند الكلام عن الشجاعة أكثر من مثـــل على سرعة استجابتهم للصريخ ، وإغاثتهم للملهوف ، وهذه سمة الفتوة الحقة ؛ لأنها تطوع وتضحية ، ودفاع عن ضعيف .

٣ — ومن حماية الضعيف فكُّ العانى الذى أُسر فى حرب ، وقد يكون ذلك عن طريق المغامرة فى سبيل إنقـاذه عَنوة ، أو عن طريق الفداء ، ودفع ما يطلبه مَن أسره من مالٍ . وهـذه مفخرة أخرى يتغنى بها الشعراء ، ويمدح الشجعان ؛ استمع إلى الخنساء تمدح أخاها صخراً بقولها :

إنى قد علمتُ وَجَـدَكَ بالحـ ... ـمد وإطلاقَكَ العُنَـاة الجِناحا

وبقولها :

ردَّادُ عادية فكَّاكُ عانيـــة ... كضيغم باسلٍ للقِرْن هَصَّار[1]

ويقول زهير يمدح هرم بن سنان :

أغرُّ أبيضُ فياضٌ يُفَكِّكُ عن ... أيدى العُنَاةِ وعن أعناقها الرِّبَقا

---

(١) عانية : أسيرة ، والضيغم : الأسد ، والقرن : ند المرء وكفؤه فى القتال .

ويقول حاتم الطائى يفتخر :

وقد علم الأقوام لو أن حاتماً　　أراد ثراء المال كان له وَفر
فإنىَّ لا آلو بمالى صنيعة　　فأوله زادٌ وآخره ذُخْر
يُفَكُّ به العانى ويؤكل طيباً　　وما إن تعرِّيه القِداح ولا الخمر

ويقول فى موضع آخر :

إذا كان بعضُ المال رَبًّا لأهله　　فإنى بحمد الله مالى مُعَبَّدُ
يُفَكُّ به العانى ويؤكل طيباً　　ويُعطى إذا مَنَّ البخيل المُصَرِّدُ[1]

٤ — ومن حماية الضعيف الدفاع عن المرأة ، وهذا هو أول شروط الرجولة الحقة ، والدفاع عنها — فضلاً عن أنه دفاع عن مخلوق ضعيف — ، دفاع عن العرض والشرف ، وهو أعظم مايهتم به العربى . وكان من العار البالغ عند العربى أن تؤسر نساؤه ، وفى ذلك يقول يزيد بن حنظلة يحرض قومه على الاستبسال فى القتال :

من فرَّ منكم فرَّ عن حريمه　　وجاره وفرَّ عن نديمه

وسأقص عليك فيما بعد بسالة ربيعة بن مُكَدَّم فى الدفاع عن امرأته ، ويسمى المدافع عن النساء والأعراض حامى الذِّمار ، وحماية الذِّمار ، خير مايفخر به الفتى العربى ليصون عرضه ويحمى عقيلته وفى ذلك يقول : زهيريمدح :

حامى الذمار على محافظة الـ　　ـجُـلَّى أمينُ مُغَيَّبِ الصَّدْرِ

ويقول عمرو بن كلثوم :

---

(١) المصرد : اسم فاعل من صرد تصريداً أى قتر وقلل ، وهو فى السقى دون الرى

على آثارنا بيضٌ كرامٌ ... نُحاذِرُ أن تُفارق أو تَهونا
ظعائنُ من بنى جُشَمِ بنِ بكرٍ ... خَلَطْنَ بميسَمٍ حسباً ودينا
إذا مارُحنَ يمشين الهُوَيْنا ... كما اضطربت متون الشاربينا
يَقُتْنَ جيادَنا ويقُلْنَ لستمْ ... بُعولتنا إذا لم تمنعونا

ومن حماية المرأة عدم التعرض لها بسوء ، والمحافظة على عفافها وعلى حرمتها على حد قول عنترة العبسى :

وأغضُّ طرفى إن بدَتْ لىَ جارتى ... حتى يوارى جارتى مأواها

وقول حاتم الطائى يفخر بعفته واحترامه لحرمات جاره :

وماضرَّ جاراً يا ابنةَ القوم فاعلمى ... يجاورنى ألاَّ يكونَ له سِتر
بعينىَ عن جارات قومىَ غفلة ... وفى السَّمْع منى عَنْ حديثهمُ وَقْرُ

وقول الخنساء فى أخيها :

لم ترأهُ جارة يمشى بساحتها ... لريبةٍ حين يُخْلى بيتَه الجارُ(١)

ورثى أعشى باهلةَ المنتشر بنَ وهب بقوله :

لايَهتِكُ الستر عن أنثى يطالعها ... ولا يَشُدُّ إلى جاراته النظرا

ويقول عمرو بن الإطنابة الخزرجى فى آداب الفتوة وسلوك الفتيان نحو جيرانهم وجاراتهم :

إنى من القوم الذين إذا انتدَوْا ... بدءوا بحق الله ثم النائل(٢)

---

(١) ترأه : تره .
(٢) انتدوا : جلسوا فى الندى أو النادى ؛ والنائل : عطاء السائلين .

المانعين من الخنا جاراتِهم   والحاشدين على طعام السائل[١]
والخالطين فقيرَهم بغنيهــــم   والباذلين عطاءهم للســائل

ومنعهم جاراتهم من الخنا يكون بعفافهم ، وحسن سلوكهم ، ويكون برعاية شئونهن ، وتفقد أحوالهن حتى لا تجبرهن حالات العسر والضيق إلى بذل ماء الوجه ، والتعرض للفتنة ، أو بيع العرض .

ولقد بلغ من حِفاظ العرب على نسائهم أن المرأة العربية الحرة لا تزنى ، ولا تعرف الخنا ، ولقد قالت هند بنت عُتبة زوجة أبى سفيان للنبى عليه السلام حين تلا عليهن قوله تعالى : « ولا يسرقْنَ ولا يزنين » : « أو تزنى الحرةُ يا رسول الله ؟ » وقالت : « ما أقبحه حلالاً فكيف به حراماً ؟ » .

إن العفة أكبر دليل على ما تتمتع به نفوس هؤلاء الفتيان من مناعة طبيعية ، وعلى أنهم قد علَوا بتلك النفوس إلى مرتبة سامية من منازل الإنسانية ؛ فالمعروف أن الغريزة الجنسية أقوى غريزة فى الإنسان ، لأنها تهدف إلى بقاء النوع ، حتى ذهب بعض علماء النفس إلى أنها هى التى تتحكم فى كل حركات الإنسان وسكناته ، وشتى أحواله ؛ ومع ذلك فهى من الغرائز الدنيا عند الإنسان ؛ تلك الغرائز التى حاول تهذيبها ، وسُنت لها قوانين الزواج والطلاق والمعاملات فى الجماعات المتمدينة منذ أن عرف الإنسان خطرها . والتحكم فى هذه الغريزة يفرق بين الإنسان والحيوان . وقهر النفس وإخضاع الغرائز لحكم العقل فتوة ما بعدها فتوة ؛ لأن فى ذلك شجاعة ، وصلابة ، وقوة إرادة ، وتضحية بنزوات ورغبات فيها لذائذ عاجلة ، وسمو بهذه الغرائز

(١) أى لا يطعمون الضيف وحده بل يجمعون الناس ليؤنسوه ويشاركوه .

إلى المجد والسؤدد والشرف .

***

و بعد فهذه هى الفتوة العربية فى صورتها الأولى ، أيام أن كان العرب أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، وليس لهم حكومة منظمة ، أو رئيس واحد يدينون له بالطاعة ، ولا يعرفون قانوناً سماوياً أو وضعياً ، وليس لهم من هادٍ سوى فطرهم السليمة ، وما توحى به تلك الطبيعة القاسية التى تحيط بهم ، وما تفرض عليهم صحراؤهم من عادات وطباع .

لقد جعلتهم هذه الأخلاق الكريمة التى دأبوا على التطبع بها قروناً قبل الإسلام ، حتى تمكنت من نفوسهم ، وأحلوها محل الشريعة المفروضة ودانوا لها جميعاً — أهلاً لأن يبعث فيهم خاتم الأنبياء . وسيد المرسلين ، ليكونوا «خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناس» ، وليحملوا نور الهداية وهاجاً إلى العالمين . لقد اختارهم الله من بين شعوب الأرض قاطبة لحمل هذه الرسالة الكريمة ، لأنهم تميزوا عن معاصريهم بخلال وسجايا وعُرفٍ كريم ، ولأنهم خير من يفهمها و يستجيب لها ، ويعمل بها ، وينقلها إلى الناس كافة فى جدٍ ودأب ، وتواضع ومرحمة ، ولذلك دانَ لهم العالم فى يسر ، وفى أمد وجيز ؛ لأنه كان يئن من الظلم والبغى ، ولأنه كان فى شوق بالغ إلى من يأسو جراحه ، ويأخذ بيده ، وينتشله من وَهْدَةِ الرذائل ، وحمأة المظالم ، ويدفعه إلى الطريق المستقيم : طريق النور ، والعدل ، والمساواة والمحبة برفق وحنان .

لقد كانت هذه الفتوة العربية التى نشأت فطرية فى الجاهلية نموذجاً جاً للعالم ، وجاء الإسلام فأقرها وهذَّبها ، وعنها أخذت أوربا أنظمة الفروسية كما سترى إن شاء الله .

الفتوة فى الإسلام

اشتهر الإسلام بأنه « دين الفطرة » ، والفطرة هى الخير ، والخير هو الغاية التى تهدف لها الإنسانية الكاملة . ولما كان العرب فى الجاهلية على الفطرة ، فقد جاء الإسلام مهذباً ، ومكملاً ، وموجهاً لهذه الفِطر العربية السليمة ، حتى يُعدَّهم لرسالة جليلة ، وهى هداية العالم ، ولذلك قال تعالى :

« كُنتُمْ خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناسِ ، تأمرون بالمعروف وتَنْهَوْن عن المُنكر ، وتؤمنون باللهِ » .

وقال تعالى :

« وجاهدوا فى اللهِ حق جهادِهِ ، هو اجتباكم ، وما جَعَلَ عليكم فى الدِّين من حَرَجٍ ملةَ أبيكُمْ إبراهيمَ ، هو سَمَّاكُمُ المسلمين من قبلُ ، وفى هذا ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناسِ » .

لقد اتصف فتيان العرب فى الجاهلية بكثير من خلال الخير ، ومكارم الأخلاق ، وكانوا قدوةً لقومهم وزعماء لهم ، ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » فالحديث الشريف يثبت أن عرب الجاهلية ، كان فيهم من يتحلى بمكارم الأخلاق ، وأن النبى عليه السلام قد جاء برسالته العظيمة ليتمم هذه المكارم الخلقية .

لقد كان النبى عليه السلام من أشرف العرب أُرومة ، وأمجدها بيتاً ، وكان يعلم جِدَّ العلم ما يتحلى به قومه من خلق ، وما يشينهم من صفات ، ويعلم أن العرب قد تعارفوا فيما بينهم على سجايا حميدة يحبونها ، ويتغنون بها ، وهى

تلك الصفات الكريمة التي ذكرناها آنفاً ، وأن الفتوة العربية تراها واجبة لازمة .
ولا أدلَّ على أن رسول الله كان يعجب بمن اتصف بهذه المكارم من عرب الجاهلية من موقفه مع سَفَّانة بنت حاتم الطائي ، وسأذكر الحديث كما روى عن عليِّ بن أبي طالب[١] ؛ لأن في المقدمة التي صدَّر بها كلامه مغزى عظيم ؛ قال على — كرم الله وجهه — ياسبحان الله ! ما أزهدَ كثيراً من الناس في الخير ! عجبت لرجل يجيئه أخوه في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا ، فلو كنا لا نرجو جنة ، ولا نخاف ناراً ، ولا ننتظرُ ثواباً ، ولا نخشى عقاباً لكان ينبغى لنا أن نطلب مكارم الأخلاق ، فإنها تدل على سبيل النجاة .

فقام إليه رجل فقال : فداك أبي وأمي يا أميرَ المؤمنين ! أسمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ؛ وما هو خيرٌ منه ؛ لما أُتينا بسبايا طيّ كانت في النساء جارية حَمَّاء[٢] ، حوراء العينين لَعْساء[٣] لمياء عَيْطاء ، شمَّاء الأنف ، معتدلةُ القوام . فلما رأيتها أُعجِبت بها ، فقلت : لأطلبنَّها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجعلها من فَيْئِي ، فلمَّا تكلمتْ أُنسيتُ جمالها ، لمَا سمعتُ من فصاحتها ، قالت : يا محمد ، هلكَ الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيتَ أن تخلِّيَ عنى ، فلا تُشْمِتْ بى أحياء العرب ؟ فإني بنتُ سيدِ قومى ؛ كان أبي يَفُكُّ العانى ، ويَحْمِى الذِّمار ، ويَقْرِى الضيف ، ويُشْبِعُ الجائع ، ويُفَرِّج عن المكروب ، ويُطْعِم الطعام ، ويُفْشِى السلام ، ولم يَرُدَّ طالبَ حاجة

---

(١) الأغانى ص ٩٣ ج ١٦ ، وسرح العيون لابن نباتة المصرى ص ٧٣ ، وقصص العرب للأساتذة جاد المولى وأبو الفضل ابرهيم وعلى البجاوى ج ٢ ص ٨٣
(٢) حماء : سوداء .
(٣) اللعس : سواد مستحسن فى الشفة ، لمياء : مثل لعساء ، وعيطاء : طويلة العنق

قطُّ ، أنا بنتُ حاتِمِ طيء . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا جارية ! هذه صفات المؤمن ، ولو كان أبوكِ إسلامياً لترحمنا عليه. خَلُّوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكام الأخلاق !

فعلى رضى الله عنه يرى أن مكارم الأخلاق ، وإن لم يكن مبعثها رغبة فى ثواب ، أو خشية من عقاب تكفى للنجاة ، أو تدل على سبيل النجاة ، وموقف النبى عليه السلام مع سفانة ، وثناؤه على والدها أكبر دليل على أنه كان معجباً بهذا الخلق الكريم الذى اتصف به أبوها ، مع أنه لم يكن مسلماً تأتيه الموعظة من ربه ، ويرى فى رسول الله أسوة حسنة ، ولكنه كان جاهلياً هدته الفطرة إلى الخير وإلى سبيل النجاة .

وهاك مثلاً آخر على إعجاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، بما كان يتحلى به عرب الجاهلية من مكارم أخلاق : رافق أبو بكر وعلى بن أبى طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سيره ، ثم انتهوا جميعاً إلى مجلس عليه السكينة والوقار ، وإذا مشايخ لهم أقدار وهيئات . فتقدم أبو بكر فسلم وقال : ممن القوم ؟ قالوا : من شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : بأبى أنت وقومى ؟ ليس بعد هؤلاء من عزٍّ فى قومهم . وهؤلاء غُرَرٌ فيهم ؛ وكان فيهم مَفروق بن عمرو ، وهانىء بن قبيصة والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شَريك ، وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالاً ولساناً ، وكانت له غديرتان[1] تسقطان على صدره . وكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر ، فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ فقال له : إنا لنزيد على

(١) الغديرة : الذؤابة وجمعها غدائر .

الألف ، ولن تغلب ألف من قلة ، فقال له : كيف المَنَعَةُ فيكم ؟ فقال : علينا الجهد ، ولكل قوم جَدّ [١] ، فقال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ فقال : إنا أشدُّ ما نكونُ لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجِياد على الأولاد ، والسِّلاح على اللِّقاح ، والنصر من عند الله ، يديلنا مرةً ويديلُ علينا مرة ، لعلك أخو قريش ؟ فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله ، فها هو ذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، ثم التفت إلى رسول الله فجلس ، وقام أبو بكر يظله بثوبه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك ، وأني رسول الله ، وأن تؤوني وتنصروني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله ، وكذَّبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد » .

قال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إحساناً ، ولا تَقْتُلوا أَوْلاَدَكم مِنْ إملاقٍ ، نَحْن نرزُقُكُمْ وإيَّاهُمْ ، ولا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ ولاَ تَقْتُلوا النَّفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحَقِّ ، ذٰلِكُم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكم تَعْقِلونَ ، وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليتيم إلا بالَّتِي هِيَ أَحْسنُ ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وأَوفُوا الْكَيْلَ والميزانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَها ، وإذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ، ولو كانَ ذَا قُرْبى وبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ، ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ ، وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ،

---

(١) الجد : الحظ .

وَلا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بِكُمْ عَنْ سبيله ، ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» .

فقال مفروق . وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش : فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وإيتاءِ ذِي الْقُرْبىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تذكَّرونَ » .

فقال مفروق : دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفِكَ قومٌ كذبوك وظاهروا عليك ، وكأنه أحبَّ أن يَشركه في الكلام هانئ بن قبيصة . فقال : وهذا هانئ بن قبيصة شيخُنا .

فقال هانئ : قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش ، وصدَّقتُ قولك ، وإني أرى أنَّ تركنا ديننا ، واتباعنا دينك لمجلس جلستَه إلينا ليس له أولٌ ولا آخر ، زَلَّةٌ في الرأي ، وطَيشَةٌ في العقل ، وقلة نظر في العاقبة ؛ وإنما تكون الزّلة مع العجلة ، وإن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً ، ولكن ترجع ونرجع ، وتنظرُ وننظر — وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة — فقال : وهذا المثنى شيخنا ، وصاحب حربنا .

فقال المثنى : قد سمعتُ مقالتك ، واستحسنت قولك يا أخا قريش ، وأعجبني ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة ، فإنا إنما نزلنا الصَّرَيَيْن [1] : اليمامة والسَّمامة . فقال له رسول الله وما هذان الصَّرَيَان ؟ فقال له : أما أحدهما فطُفُوف [2] البر وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كِسرى ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نُحْدِثَ حدثا ،

(١) كل ماء مجتمع صرى ، وتثنيته صريان .

(٢) طفوف : جمع طف وهو ساحل البحر وجانب البر .

ولا نؤوى مُحدِثا ، ولعلّ هذا الأمر الذى تدعونا إليه مما تكرهه الملوك ، فأما ما كان مما يلى بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ، وأما ما كان مما يلى بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول . فإن أردتَ أن ننصرَكَ ونمنعك مما يلى العربَ فعلنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أسأتم الردَّ ؛ إذ نصحتم بالصدق ؛ إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه . ثم قال رسول الله : « أرأيتم أن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ، أتسبحون الله وتقدسونه ؟ » فقال له النعمان ابن شريك : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش ؟ ! فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « إنّا أرسلناكَ شاهداً ومبَشراً ونذيراً وداعياً إلى اللهِ بإذنهِ وسِراجاً منيراً » ثم نهض رسول الله عليه السلام قابضاً على يدى أبى بكر والتفت إلى على ، وقال : يا على ! أية أخلاقٍ كانت للعرب فى الجاهلية ! ما أشرفها ! بها يتحاجزون فى الحياة الدنيا (١) !

والحق أن الإعجاب كان متبادلا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الأشراف من بنى شيبان ، الذين لم يهتدوا بعد بهداية الإسلام ؛ لقد أعجبوا بكلام النبى ، وموعظة القرآن ، واستحسنوا ما تضمنت من حَثٍ على مكارم الأخلاق ، التى يضعونها فى معاملتهم مقام القانون ، وآمنوا به ، أو أوشكوا أن يؤمنوا .

وأعجب النبى عليه السلام ، بصراحتهم وصدقهم ، كما أعجب باتزانهم

---

(١) راجع ابن كثير س ١٤٤ ج ٤ . والروض الأنف س ٢٤٦ ج ١ ، وقصص العرب ج ٢ س ٣٥٠ وما بعدها .

وعدم تسرعهم فى الأحكام ، وبتقديرهم لمن وراءهم من قومهم ، فلا يبرمون أمراً جللا مثل هذا من غير أن يرجعوا إليهم ، وأعجب كذلك بوفائهم بعهودهم لكسرى أنو شروان ، فلا يحدثون حدثاً أو يؤوون محدثاً ، وأعجب بتواضعهم وتقديرهم بعضهم لبعض ، فلا يستأثر أحدهم بكلام ، أو يدعى الرئاسة دون أصحابه ، بل يدعو صاحبه للحديث رافعاً لمكانته بقوله : وهذا شيخنا فلان ، ولذلك لم يسع النبى عليه السلام إلا أن يقول فى إعجاب : أية أخلاق كانت للعرب فى الجاهلية ما أشرفها ! بها يتحاجزون فى الحيـــاة الدنيا ! أى أن أخلاقهم تقوم مقام القانون ، ولهم فيها عصمة ، وهى التى تهديهم إلى سبل النجاة .

لقد جاء الإسلام منظماً لهذه الجماعة ، موجهاً هذه القوى المعنوية إلى وجهات أسمى وأشرف : لقد كانت الشجاعة فى الجاهلية تهدف إلى المجد الفردى أو القبلى ، فجاء الإسلام موجهاً لها ، إلى خدمة الأمة العربية جمعاء ، وإلى الدفاع عن مبدأ شريف ، ودين كريم ، مؤلفاً بين هذه القلوب المتحدة فى الوسيلة المختلفة فى الغاية ، فكان التأليف بين هذه القلوب الكريمة ، وجعلها قوة واحدة متحدة متجهة إلى غرض واحد من أهم وسائل الإسلام فى نشر دعوته قال الله تعالى لرسوله : « لو أَنفَقْتَ ما فى الأرضِ جميعاً ما أَلفتَ بين قلوبهم ، ولـكنَّ اللهَ أَلَّفَ بينهم » ، فالتأليف بين العرب يرجح بقيمته ما فى الأرض جميعاً من خير ؛ لأن حدوث هذا التأليف هو بشير اليقظة والعدل بين أهل الأرض جميعاً .

فالفرق بين رشد العقل الجاهلى ، ورشد العقل الإسلامى هو فرق بين

نتيجة العزلة بالبداوة ، والاكتفاء بوعى شؤون العرب وحدهم ، و بين التوسع الذى يشمل نظر العرب إلى موقفهم من العالم المحيط بهم ، و بخاصة إذا أوشك أن يطغى عليهم فيهلك فضائلهم .

وجاء الإسلام كذلك منظماً للكرم العربى ، سواء كان كرم اليد ، أو القلب ، أو العقل ، جاعلا معاونة الفقراء فرضاً بعد أن كانت أريحية وجوداً « والَّذِينَ فى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ معلومٌ للسائِلِ والمحرومِ » ، ليكون المجتمع مستنداً على دعامة قوية من التشريع ، فلا يترك أمر الزكاة إلى نخوة الأفراد إن شاءوا أعطوا ، و إن شاءوا منعوا ، ولكن إلى الحق الذى فرضه الله تعالى ؛ وحرض على الإحسان ، وجعل مثوبته عظيمة ؛ وذلك ليشبع الكرام والأجواد رغباتِ نفوسهم .

وجعل الصفح عن الإساءة ، وكظم الغيظ ، واحتمال الأذى من أكبر الصفات التى يجازى عليها فقال تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوٰاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والْكَاظِمِينَ الغيظَ ، والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المحسنينَ » .

وقال تعالى : « ولا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتى هِىَ أَحْسَنُ فإذا الَّذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ، وما يُلَقَّاهَا إلا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وما يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

ووضع أساس الكرم العقلى والتسامح فى قوله تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ » .

أما الوفاء بالوعد فقد حث عليه القرآن الكريم فى غير موضع : « والمُوفُونَ

بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا . والصَّابِرِينَ فى الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أولئكَ الَّذِينَ صدَقوا وأولئكَ هُمُ المتقونَ » ولم يعد الوفاء بالوعد قاصراً على الأفراد فى معاملاتهم الشخصية ، بل صار سِمة المسلمين فى جميع البلاد التى فتحوها ، وعاهدوا أهلها ، حتى ضُرب بهم المثل فى الوفاء وحسن المعاملة ، ولذلك دانت لهم الدنيا العريضة ، وأحبهم الناس ، وأعجبوا بدينهم فدخلوا فى هذا الدين أفواجاً .

لقد كان العرب المسلمون قدوة لغيرهم من الشعوب ، يتمثل فيهم الإسلام وتعاليمه روحاً وعملاً ، وخير المبادىء تأثيراً فى النفوس ما كان أصحابها يؤمنون بها عاملين على هداها ، لا يتنكرون لها أو يتهاونون فى تطبيقها على أنفسهم .

وأما حماية الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، والحرص على سعادة المرأة فكلها من الأمور التى حث عليها الإسلام ، ووعظ بها القرآن وجعل ثواب العاملين بها عظيماً ، فالله تعالى يوصينا : « بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى واليتامى والمساكين والجارِ الْجُنُبِ والصَّاحِبِ بالجنبِ وابنِ السبيلِ وما ملكتْ أيمانكم إنَّ الله لا يُحِبُّ مَنْ كان مختالا فخورا » .

وهذب النجدة فلم تعد نُصرةَ المستغيث ظالماً أو مظلوماً ، ولكن تحولت إلى دفاع عن الدين وحرمة المبدأ والعقيدة ، ونشر ألوية العدل والحرية بين الناس ، ولم تعد النُعَرة القبلية والعصبية الجاهلية هى الحافز للجهاد وامتشاق الحسام ، ولكن الدفاع عن الحق ، ونصرة الدين ، وسيادة المبدأ ، وإعزاز العرب بإسلامهم ودينهم هى الغاية وهى الدافع والحافز .

ولقد استغل الإسلام هذه الأصول الأخلاقية المتينة لدى العرب ، وهذبها ونماها ووجهها وجهة خيِّرة ، واعتمد عليها فى نشر مبادئه ، ووجدت الدعوة رجالا أفذاذاً نبتوا على أديم الصحراء فألهمتهم قوىً معنوية عظيمة ، وما أن

تشربت قلوبهم حب الإسلام ، وتفهم معانيه وغاياته ، حتى امتزجت الفتوة العربية بالمثل الأخلاقية الدينية ، وأضيف إلى المجد الفردى ، وإعزاز العشيرة ، الرغبة فى الثواب ، والرهبة فى العقاب ، والعمل على السعادة فى الدارين ، والسعى فى خير المجموع ، وتقوية أواصر المحبة بين المسلمين أياً كانت قبائلهم وأياً كان ما بينهم من عداوة وحزازات فى الجاهلية ، « واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جميعاً ولا تفَرَّقُوا ، واذكُروا نِعمَةَ اللهِ عليكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعداء فألَّفَ بَيْنَ قلوبِكم فأصبحتُمْ بنعمتِه إخواناً ، وَكُنْتُمْ على شَفا حُفرةٍ من النارِ فأنقذَكُمْ منها ، كذلكَ يُبينُ اللهُ لكُم آياتِه لعلَّكُمْ تهتدونَ » .

لقد صار السادة فى الجاهلية سادة فى الإسلام ، ووجدتْ أمامهم الفرصة العظيمة لتتجلى مواهبهم الخلقية والعقلية فى ميدان أوسع من ميدان العشيرة والقبيلة ، وفى بيئة أرحب من الصحراء المجدبة ، ولولا ما كانوا عليه من خلق عظيم زاده الإسلام وتعاليمه رقة ، ووجهه إلى الصالح العام ، ما رأيت منهم القواد الأفذاذ ، والسادة المحنكين ، والقضاة العدول والحكام القادرين ، يقفون فى جبين التاريخ وحدهم ، لأنهم يبهرون العالم بالأسس التى وضعوها ، والنماذج التى ضربوها على غير مثال سبق ، أو خبرة أو تجربة ، إلا وحى الفطرة ، وهداية الأخلاق ، وإرشاد الدين .

لقد أنضجتهم الصحراء وهيأتهم للقيادة والسيادة والحكم ، فلما جاء الإسلام أتاح لهم الفرصة ليعملوا ولتظهر مزاياهم على حقيقتها .

وسترى فى الفصول التالية كيف أن أخلاق الفتيان ، وتعاليمه الفتوة تجلت فى الإسلام ورجاله الأفذاذ ، وأنها تحولت من مزايا فردية إلى مبادىء عامة تطالب بها الأمة كلها ، ولم يزدها الإسلام إلا جمالا وكمالا وتهذيباً .

سيد الفتيان[١]

كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً للعالمين ، مثالاً كاملاً للرجولة الحقة ، والخلق العظيم ، وقد خطبته خديجة بنت خويلد لنفسها قبل مبعثه بخمسة عشر عاماً وقالت له : يا ابن عم إنى قد رغبتُ فيك لقرابتك ، وسِطتك فى قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك »[٢] .

ولما جاءها مخبراً بأنه رأى جبريل قالت له : « أبْشِرْ يا ابنَ عمّ ، واثبُت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هـذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتَقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق[٣] » . وهذه لعمرى صفات الفتيان الأمجاد . ويذكرنا بوصف سفّانه لأبيها عندما أُسرت[٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام لها : يا جارية : هذه صفة المؤمن .

وقد تطلبت الدعوة إلى الإسلام جهاداً طويلاً بالحجة تارة ، وبالقوة تارة أخرى مع هؤلاء الذين أرادوا القضاء على دعوته وهى فى مهدها ، فاستعمال القوة لم يكن لنشر الدعوة بالعنف ، ولكن لإخضاع الكفار ، وكف أذاهم

---

(١) هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس فى وصفنا له عليه السلام بسيد الفتيان تطاول على مقام النبوة الكريم ، فقد قال تعالى فى سيدنا إبراهيم « إنا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » .

(٢) ابن سعد ص ١٢٠ ، والسيرة النبوية لابن هشام ص ١٩٨ ج ١ .

(٣) ابن هشام ص ٢٥٠ ج ١ — (٤) راجع ص ١٣٤ من هذا الكتاب .

عن الدين الجديد ، وفى ذلك يقول جولد تسهير : « ولم يكن الغرض فيما يتعلق بالجهاد الإسلامى يتجه أول الأمر إلى تغيير عقيدة الناس بإدخالهم فى الإسلام بقدر ما كان يرمى إلى إخضاع الكفار[١] » .

والجهاد فى سبيل الله يتطلب من المجاهدين قوة وفتوة ، وكان فى تعاليم رسول الله ، وفى سلوكه الخاص ، نماذج عليا لأتباعه وأصحابه :

١ — فقد صارع رسول الله صلى الله عليه وسلم رُكانة بن عبد يزيد وصرعه ، فقد روى ابن اسحاق : « أن رُكانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب ابن عبد مناف كان من أشد قريش ؛ فخلا يوماً برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض شعابِ مكة ، فقال له رسول الله صلى عليه وسلم : يارُكانة ! ألا تتق الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ قال : إنى لو أعلم الذى تقول حق لاتبعتك ، فقال رسول الله : أفرأيت إن صرعْتُكَ أتفهم أن ما أقول حق ! قال : نعم ؟ قال : فقم حتى أصارعك . قال : فقام إليه رُكانة يصارعه ، فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعه ، وهو لا يملك من نفسه شيئاً ، ثم قال : عُدْ يامحمد ، فعاد فصرعه[٢] .

والمصارعة من أنواع الرياضة التى تتطلب قوة جسمية ، والقوة الجسمية أول ما يتحلى به الفتيان كما مر بك فى الفصول الأولى من هذا الكتاب .

٢ — وكان النبى عليه السلام يهتم بهذه الناحية الجسمية وتقويتها ، ويحث على الرياضة البدنية ، ويمارسها ، ففى مُسند أحمدوسنن أبى داود من حديث

---

(١) Goldziher · Vorlesungen über den Islam, P. 25

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣١ .

عائشة قالت : سابقنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلبثنا ، حتى إذا أرهقنى اللحم سابقنى ، فسبقنى ، فقال : هذه بتلك .

وفى رواية أخرى : أنهم كانوا فى سفر فقال النبى عليه السلام لأصحابه : « تقدموا » ، فتقدموا ، ثم قال : سابقينى فسبقتهُ ، ثم سابقنى وسَبَقنى ، فقال : هذه بتلك .

وفى صحيح مسلم عن سَلَمَةَ بنِ الأكوع قال : بينما نحن نسير ، وكان رجلٌ من الأنصار لا يُسْبَق أبداً ، فجعل يقول : ألا مسابقٌ إلى المدينة ، هل من مسابق ؟ فقلت : أما تُكرم كريماً ، وتهاب شريفاً ؟ قال : لا ، إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : قلت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، ذَرْنى أسابقِ الرجلَ ، فقال : إن شئتَ ، فسبقته إلى المدينة .

وقد ثبت أن الصحابة تسابقوا على الأقدام بين يدى رسول الله بغير رهان[1] .

٣ — وقد سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل ، ففى الصحيح من حديث ابن عمر قال : « سابقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بينَ الخيلِ ، فأُرْسِلَتْ التى ضُمِّرَت منها ، وأَمَدُها الحفياء إلى ثنيةِ الوَداعِ ، والتى لم تُضَمَّر أَمَدُها ثَنِيَّةُ الوَداعِ إلى مَسْجِد بنى زُرَيق[2] » .

وفى المسند من حديث أنس أنه قيل له : أكنتم تراهنون على عهد رسول الله قال : نعم ، والله لقد راهن رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس له

---

(١) الفروسية لابن القيم ص ٣ .

(٢) الفروسية لابن القيم ص ٣ : فى الصحيحين عن موسى بن عقبة أن بين الحفياء إلى ثنية الوداع ستة أميال أو سبعة ، ومن ثنية الوداع إلى مسجد بنى زريق ميل .

يقال له سَبْحة ، فسبق الناسَ ، فَبَشّ لذلك وأعجبه . وفى مسند أحمدَ كذلك عن ابنِ عمرَ أن النبى سابق بين الخيل وأعطى السابق .

وقد سابق رسول الله بين الإبل كما سابق بين الخيل ، ففى صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال : كانت العضباء لا تُسْبق ، فجاء أعرابى على قَعود ، فسابقَها فسبقها وكأن ذلك شَقّ على أصحاب رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : إنّ حقاً على الله عزّ وجلّ ألاّ يرفعَ شيئاً من الدنيا إلاّ وضَعه » .

٤ — وكان الصحابة يتناضلون بالرّمى عن القوس فى حضرته عليه السلام ، ففى صحيح البخارى عن سلمة بنِ الأكوع قال : مرّ النبى عليه السلام بنفر من أسْلم ينتضلون بالسوق فقال : ارمُوا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع بنى فلان ، قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله : مالكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال : ارموا وأنا معكم كلكم » .

وقد حثّ النبى عليه السلام على الرماية ، وإجادتها ، وشجع المسلمين عليها فقال : « إن الله ليُدْخِلُ بالسهم الواحد ثلاثةَ نفر الجنة : صانعَه المحتسب فى عمله الخير ، والرامىَ به ، والممِدّ به ، فارموا ، واركبوا ، وأن ترموا أحبُّ إلىّ من أن تركبوا » .

وقال عليه السلام كذلك : « لَيْسَ مِنَ اللهو محمودٌ إلا ثلاثة : تأديبُ الرجلِ فرسَه ، وملاعبَتُه أهلَه ، ورَمْيُه بقوسه ونبْله ، فإنهن من الحق ، ومَن ترك الرمى بعد ماعَلّمه رغبةً ، فإنها نعمةٌ تَرَكها » .

وفى صحيح مسلم عن عُقْبَة قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : « وأعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة : أَلاَ إِنَّ القوةَ الرمى ، ألا إن القوة الرمى » : وقال أيضاً : « مَنْ تَعلَّمَ الرمىَ ثم تركه فليس منا » .

وجاء فى سنن أبى داود ، والنسائى ، والترمذى عن عمرو بن عبسة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعتق رقبةً مؤمنة ، أعتق الله بكل عضوٍ منه عضواً منه من النار ، ومن رمى بسهم فى سبيل الله ، و بلغ العدوَّ ، فأصاب أو أخطأ ، كان له عتق رقبة » .

وكان النبى عليه السلام يفضل الرماية على أنواع السلاح الأخرى ، وروى عنه أنه كان يخطب وهو متوكىء على قوس ، وقال أنس : ماذكرت القوس عند النبى عليه السلام إلا قال : « ما سبقها سلاح إلى خير قط » ، والحق أن الرماية أنكى للأعداء وأشد فتكاً بهم ، وكم من كوكبة من الفرسان تحامت رامياً واحداً ، لأنه يضربهم عن بعد ولا يصلون إليــه ، وكان العارفون بفنون الحرب القديمة يَعُدُّون كلَّ سهم بمقام رجل ، فإذا كان مع الرجل مائةُ سهم عُدَّ بمـائة رجل ، والخَصمُ يخاف من النُشّاب أضعافَ خوفه من السيف والرمح[1] .

ولم يكن النبى عليه السلام يشجع صحابته على الرماية فحسب ، بل كان فارساً شجاعاً يتقدم أصحابه دائمـاً فى المعركة ، فقد روى فى الصحيحين من حـديث ثابت عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ليلاً فركب فرساً لأبى طلحة عريا ، فخرج الناس فإذا هم برسول الله قد سبقهم إلى الصوت قد استبرأ الخبر ، وهو يقول : لن تُراعوا .

---

(١) الفروسية لابن القيم ص ١٥ — ١٦ .

وذكر ابنُ إسحاق فى المغازى : أن رسول الله رمى عن قوسه يوم أحد حتى اندقت سِيَتُها ، فأخذها قتادةُ بنُ النعمان . وأنه لما كان يومَ أحدٍ ، وأسند ظهره إلى الجبل أدركه أبىُّ بنُ خلف ، وهو يقول : أين محمد ؟ لانجوتُ إن نجا ، قال ابن إسحق : وكان أبىُّ بن خلف يلقى رسول الله بمكة فيقول : يا محمد ! إن عندى العَوْدُ — فرساً له — أعلفه كلَّ يوم فَرَقاً[١] من ذُرة أقتلك عليها ، فيقول : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فلما أدرك أبىٌّ رسول الله اعترض له رجال من المؤمنين ، فأمرهم رسول الله فخلوا طريقه ، واستقبله مُصْعَب بن عُمَير أخو بنى عبد الداريقى رسول الله بنفسه ، فقُتل مُصعب ، وأبصر رسولُ الله تَرْقُوةَ أبى بن خلف من فُرجةٍ فى سابغة الدِّرع والبَيْضة فطعنه بحربته ، فوقع أبىٌّ عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فكسَر ضِلَعاً من أضلاعه ، فلما رجع إلى قريش ، وقد خدش فى عنقه خدشاً غير كبير ، فاحتقن الدم ، قال : قتلنى والله محمد . قالوا له : ذهب والله فؤادك ، إنه ما كان بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لى بمكة أ. نا أقتلك . فمات عدو الله بسَرِف[٢] وهم قافلون إلى مكة[٣] .

هـذا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا جسم رياضى ، متين التركيب ، قوى البنية ، فقد جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض عن صفة النبى عليه السلام : أنه كان عظيم الصدر عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، عَبْلَ العَضُدين والذراعين والأسافل ، رَحْبَ الكفين والقدمين ، رَبْعَةَ القَدِّ ، ليس

---

(١) مكيال يسع ستة عشر رطلا .
(٢) مكان قرب التنعيم بجوار مكة بين عسفان وقديد .
(٣) الفروسية ص ١٧ .

بالطويل البائن ، ولا القصير المتردد[١] . وقال أبو هريرة : «ما رأيتُ أحداً أسرعَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشيه كأنما الأرض تُطوى له ، إنا لنُجْهِد أنفسَنا وهو غير مكترث » . وهذا دليل صحة الجسم وسلامة تركيبه ، وقوة بنائه . والجسم السليم القوى أولُ إمارات الفتوة . ومما يدل على أن النبي عليه السلام كان يعنى بهذه الناحية الجسمية ما فعل هو وأصحابه حين اعتمروا بعد صلح (الحُديبية) بعام ، فقد رآهم كفار قريش يطوفون بالكعبة فقالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حُمَّى يثرب . فقال عليه السلام : رحم الله امرءاً أراهم من نفسه قوة ، واضطبع[٢] عليه السلام بردائه ، وكشف عَضُدَه اليمنى ، شأنَ الفتوة ، وفعلَ مثله المسلمون ، فطافوا بالبيت آمنين .

أما شجاعته عليه السلام فقد ضُرب بها المثل ، وأىُّ شجاعة أعظم من مواقفه المشهورة التى فر فيها الكماة والأبطال ، وتركوه فى حُفْنَة من خُلَصائه ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يُدبِر ولا يتزحزح ، وما من شُجاع إلا أحصيت له فَرَّة ، وحُفظتْ عنه جولة إلا رسول الله .

قال ابن عمر : ما رأيت أشجع ، ولا أنجدَ ، ولا أجودَ ، ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال على بن أبى طالب : إنا كنا إذ اشتد البأس ، واحمرَّت الحِدَق اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ، ونحن نلوذ بالنبى عليه السلام ، وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا .

(١) المتناهى فى القصر .

(٢) اضطباع المحرم أن يدخل الرداء من تحت إبطه الأيمن ويرد طرفه على يساره ، ويبدى منكبه الأيمن ويغطى الأيسر ، سمى به لإبداء أحد الضبعين (العضدين) .

ولقد مرَّ بك موقفه يومَ أُحد وثباته وصبره ، وما موقفه يوم حنين ، وشجاعته الفائقة فيه بمجهول . كان المسلمون يزيدون على اثنى عشر ألف رجل ، فأعجبتهم كثرتهم ، وكان فيهم كثيرٌ من الأعراب الذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم ، ومن مشركى(١) مكة الذين خرجوا يشاهدون ، ويغنمون ، فلما خرج كمينُ العدو على مقدمة جيش المسلمين ، وصب عليهم وابلاً من النبال كأنه الجراد المنتشر ، لووْا أعِنَّةَ خيولهم متفرقين ، فدب الذعر فى الجيش ، وفروا جميعاً حتى قال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وحتى قال أخ لصفوان ابن أمية : الآن بطل السحرُ .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبرح مكانه ووقف على بغلته فى قِلة ضئيلة من أصحابه ، وهو يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، وأمر عمه العباس أن ينادىَ الأنصار ، فلما سمعوا نداءه أجابوه ، والتفوا حول رسول الله ، ثم هجموا على أعدائهم هجمة قوية فكان النصر لهم . ولولا ثبات رسول الله ، وفائق شجاعته فى هذا الموقف لفُتن خلق كثير ، ولأصاب الوَهَن نفوس المسلمين . ولقد قال عليه السلام : « إن الصبر فى مواطن البأس مما يفرِّجُ اللهُ به الهم ، ويُنَجِّى به من الغم » .

وقد حدث له فى غزوة غَطَفَان حادثٌ دلَّ على عِظم شجاعته وثباته عليه الصلاة والسلام ، فقد نزل المسلمون على ماء يسمى (ذا إمَر) فعسكروا به ، فنزع عليه السلام ثوبه يجففه من مطر بلَّه ، وارتاح تحت شجرة ، والمسلمون متفرقون

(١) مثل صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، وكان عدد هؤلاء المشركين ثمانين رجلا فى هذه الغزوة .

فأبصره رجل يسمى دُعْثُور ، فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه ، وقال : من يمنعك منى يا محمد ؟ فقال : الله ، فأدركت الرجلَ هيبةٌ ورعب أسقطا السيف من يده ، فتناوله عليه السلام ، وقال لدعثور : من يمنعك منى ؟ قال لا أحد . فعفا عنه ، فأسلم الرجل ، ودعا قومه للإسلام (١) .

وأما كرمه عليه السلام فقد كان كذلك مضرب المثل ، قال جابر رضى الله عنه . ما سئل عليه السلام عن شىء وقال : لا ، وقال ابن عباس : كان عليه السلام أجود الناس بالخير ، وأجود ما كان فى شهر رمضان . وقد مرَّ بك فى أول هذا الفصل وصفُ خديجةَ له بقولها : إنك تَصِلُ الرَّحم ، وتحمِل الكلَّ ، وتكسب المعدوم ، و تَقْرِى الضيفَ . وتُعين على نوائب الحق .

وقد أعطى أبا سفيان بعد غزوة حنين أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل ، وكذلك ابنيه معاوية ويزيد ، فقال له أبوسفيان ، وهو الذى كان يعاديه بالأمس : بأبى أنت وأمى ، لأنت كريمٌ فى السلم كريم فى الحرب .

ورأى صفوانَ بنَ أميةَ يتطلع إليه وهو يوزع غنائم حُنَين ، وينظر إلى شِعْب مملوء بالنَّعم والشاه ، فقال له : هل يعجبك هذا ؟ قال : نعم ، قال : هولك ، فقال صفوان : ما طابت بمثل هـذا نفس أحد ، وكان ذلك الكرم والإحسان سببَ إسلامه .

ولما اجتمع عليه الأعراب وصاروا يقولون له : اقسم علينا ، حتى ألجئوه إلى شجرة فتعلق رداؤه بها فقال : « ردُّوا علىَّ ردائى أيها الناس ، فوالله إن كان لى شجرُ تِهامة نَعَماً لقسَّمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كَدوداً ».

---

(١) نور اليقين ص ١٢٤ .

وعلى الرغم من أن النبى عليه السلام قد أوتى خزائن الأرض ، وما أحَلَت له الغنائم ، وفُتح عليه فى حياته بلادُ الحجاز واليمن ، وجميع جزيرة العرب ، وما دانى ذلك من الشام والعراق ، وجُلب إليه كثير من أخماسها وجزيتها ، وصدقاتها ، وهاداه جماعة من الملوك ، فما استأثر بشىء منه ، ولا أمسك منه درهما ، بل صرفه فى مصارفه ، وأغنى به غيره ، وقوّى به المسلمين ، وقال : مايسرنى أن لى أُحُداً ذهباً يبيت عندى منه دينار ، إلا ديناراً أرْصُده لدَيْنى » .

وأتته مرة دنانير ، فقسمها ، و بقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه ، فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها ، وقال : الآن استرحت . وحُمل إليه عليه السلام تسعون ألفاً ، فوضعها على حصير وأخذ يقسمها ، فما قام حتى فرغ منها . ومع كل هذه الأموال التى تدفقت بين يديه ، وجاد بها على المسلمين ، والمؤلفة قلوبهم ، فقد مات ودِرْعه مرهونة فى نفقة عياله . فهل بعد هذا سخاء يد ؟ ! .

وأمّا كرم قلبه ، فقد كان فيه فذاً ؛ لأن الله أنعم عليه بهذه الخلة الكريمة ليتم رسالته ، ويتألف قلوب الناس . « ولو كنتَ فظاً غليظَ القلبِ لانفضوا مِنْ حَوْلِك » وقال تعالى لنبيه الكريم : « خُذِ العفوَ وأْمُر بالعُرف وأعْرِض عَنِ الجاهلين » ، وقد سأل عليه السلام جبريل عن تأويلها فقال: يامحمدُ إن الله يأمُرك أن تصلَ من قطعَك ، وتُعطى من حرمَك ، وتعفو عمن ظلمك . وقال الله تعالى : « واصبِر على ما أصابَك إنّ ذلك مِنْ عزْم الأمور » .

وقال تعالى : ولْيَعْفُوا ولْيَصْفَحُوا ألاَ تُحبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لكم والله غفورٌ رحيم » . وقال : « وَلَمَنْ صبرَ وغفرَ إن ذلك لَمِنْ عَزْمِ الأمور » .

وعلى الرغم من عِظَم ما أوذى به النبى عليه السلام فى سبيل دعوته ، ولاقى

من شدائد ينوء بحملها أشد الناس قوةً و بأساً ، وأعظمهم صبراً ، فإنه كان ينظر إلى هؤلاء الذين آذوه ، وأخرجوه من دياره ، ونكلوا بأصحابه ، نظرة المشفق الرحيم . ولمّا جُرح فى أحد ، وسقطت ثَنِيَّتاه ، ودخل طرفُ المِغفر فى وَجنته ، وسال دمُه ، ووقع فى الحفرة ، وطلب منه المسلمون أن يدعو على كفار قريش لم يزد على قوله : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

ولما فتحَ مكةَ ولان له عَصِيُّها ، وهى التى طردته وآذته ، وحرضت العربَ عليه ، وحاربته غير مرة. لم يزد على أن عفا وصفح حين تمكن منها ، وقال لهؤلاء الجفاة الغلاظ : ما تظنَّون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ولقد أحلّ دم بضعة نفر من أهل مكة لعظم جريمتهم فى حق المسلمين ، ولكنه عفا عنهم حين جاءوا تائبين طائعين مستجيرين ببعض الصحابة ، مثل عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى لجأ إلى عثمان بن عفان ، وعِكرمة بن أبى جهل الذى هرب وأراد أن يركب البحر فلحقت به زوجته وبنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وكانت قد أسلمت قبل الفتح ، وقد أخذت له أماناً من رسول الله فقالت لعكرمة : جئتك من عند أبر الناس وخيرهم .

ومنهم هَبَّار بن الأسود . وقد هرب واختفى ، حتى إذا كان رسول الله بالجِعِرّانة جاءه مسلما ، وقال: يارسول الله هربتُ منك ، وأردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرتُ عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك ، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا من الهلكة فاصفح الصفحَ الجميل ، فقال عليه السلام . قد عفوت عنك .

ومنهم صفوان بن أمية ، وكان قد اختفى ، وأراد أن يذهب ، ويلقى نفسه في البحر ، فجاء ابن عمه عُمير بن وهب الجُمَحِي ، وقال : يا نبي الله إن صفوان سيد قومه ، وقد هرب ليقذف نفسه في البحر ، فأمِّنه ، فإنك قد أمَّنت الأحمر والأسود ، فقال عليه السلام : أدرِكْ ابن عمك فهو آمن ، فقال : أعطني علامة ، فأعطاه عمامته ، فأخذها عمير ، حتى إذا لقي صفوان قال له : فداك أبي وأمي ، جئتك من عند أفضل الناس ، وأبَرِّ الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس ، قال صفوان : إني أخافه على نفسي ، قال : هو أحلم من ذلك وأكرم ، وأراه العمامة علامة الأمان ، فرجع إلى رسول الله . وقال له : إن هذا يزعم أنك أمنتني ؟ قال : صدق ، قال : أمهلني بالخيار شهرين ، قال : أربعة أشهر ، ثم أسلم وحسن إسلامه . ومنهم كعب بن زهير ، ولما ضاقت عليه الأرض بما رَحُبَت ، جاء المدينة بعد أن عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من فتح مكة ، وقال قصيدته المشهورة التي يقول فيها :

وقال كلُّ صديقٍ كنتُ آمله ... لا ألهينَّك إني عنك مشغول

فقلتُ خلّوا سبيلي لا أبالكم ... فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفعولُ

كلُّ ابن أنثى وإنْ طالتْ سلامتُه ... يوماً على آلةٍ حَدْباء محمولُ

أُنبئتُ أن رسولَ الله أوعدني ... والعفوُ عند رسول الله مأمول

مهلاً هداكَ الذي أعطاكَ نافلةَ الـ ... قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل

فلما قال :

إن الرسول لنورٌ يُستضاء به ... مهندٌ من سيوف الله مسلول

خلع عليه الرسول بُرْدته .

وكان من الذين اختفوا سُهيل بن عمرو ، فاستأمن له ابنه عبد الله ، فأمنه عليه السلام ، وقال : إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سهيل يجهل الإسلام ، فلما بلغت هذه المقالة سهيلا قال : كان والله برًّا صغيراً ، برًّا كبيراً . ثم أسلم بعد ذلك .

وبمثل هذا الخلق السمح ، والعفو الجميل عند المقدرة ، لانت لدعوته هذه القلوبُ الجاسية ، وصارت سيوفاً مشرعة تدافع عنه وعن دينه . وعن أنس قال : كنتُ مع النبي عليه السلام ، وعليه بُرْدٌ غليظ الحاشية ، فجذبه أعرابى بردائه جذبةً شديدة ، حتى أثّرت حاشية البرد فى صفحة عنقه ، ثم قال : يا محمد ؛ احمل لى على بعيرىَّ هذين من مال الله عندك ، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك . فسكتَ النبى ثم قال : المال مال الله ، وأنا عبده ، ثم قال : ويُقاد منك يا أعرابى ما فعلتَ بى ، قال : لا ، قال : لم ؟ قال : لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة ، فضحك عليه السلام ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر .

هذا لعمرى هو المثل الأعلى فى كرم القلب . وقد أثنى عليه الله سبحانه بقوله : « وإنكَ لعلى خُلُقٍ عظيم » .

وأمّا كرم العقلَ وحريته ، فقد بلغ فيه عليه الصلاة والسلام الغاية ، ولا أدلّ على ذلك من نفوره منذ حداثته من مفاسد البيئة التى نبت فيها ، فلم يشرب الخمر قط ، مع أنها كانت شائعة بين قومه شيوعاً عظيما ؛ لأنه رأى بفطرته السليمة ، وعقله الحكيم ، أنها تجنى على العقل ، وتدفع إلى كثير من الكبائر . ولم يسجد لصنم قط ، وكره عبادة الأوثان ، مع أن مكة كانت حافلة بهذه

الأوثان يعظمها قومه وآله كباراً وصغاراً ، وهو يراها كل يوم فوق الكعبة ، ولم يكن يحضر لها احتفالاً ولا عيداً مما يقوم به عُبَّادها ؛ بغضاً وشدة كراهية . وقال عليه السلام : « لما نشأت بُغِّضَتْ إلىَّ الأوثانُ ، وبُغِّض إلىَّ الشعر ، ولم أُهَمَّ بشىء ، مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدها ، حتى أكرمنى الله برسالته ، قلتُ ليلة لغلام كان يرعى معى : لو أبصرتَ لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمرُ كما يسمرُ الشباب ، فخرجت لذلك ، حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعُرْس بعضهم ، فجلست لذلك ، فضرب الله على أذنى فنمتُ ، فما أيقظنى إلا مَسُّ الشمس ، ولم أقض شيئاً ، ثم عرانى مرةً أخرى مثلُ ذلك » .

ولقد شهد ألدُّ أعدائه ، وأشدهم بغضاً لدينه بأنه كان راجح العقل ، كامل الخلق منذ نشأته ، فهذا النضر بن الحارث من بنى عبد الدار ، يقول لقومه حين اجتمعوا ليتفقوا على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم ، ويبشرهم النبى بالدين الجديد : لقد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صُدْغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر ! ! لا والله ما هو بساحر » .

ولما سأل هِرَقْلُ ملكُ الروم أبا سفيان عن النبى عليه السلام حين جاءه كتابه يدعوه فيه للإسلام : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله .

وكيف لا يكون أكرم الناس عقلاً ، وهو الذى جاء بالدين الحنيف الذى

حرَّر عقول البشرية من الأوهام والخرافات ، وشرع لهم أكمل تشريع ، وأحسن قانون ، وخاطب عقولهم قبل أن يخاطب عواطفهم ، وحثهم على أن يستخدموا حواسهم فى تفهم آيات الله ، وإدراك عظمته ؟ ! .

ولم يكن النبى عليه السلام فى تبشيره بالدين الحنيف فظاً ، أو متعصباً ، ولكنه كان يحاول الإقناع ، واجتثاث جذور الشك والريبة من صدور الكافرين ، وتبيان الحق ناصعاً جلياً ، بمنطق سليم ، وقول حكيم . وقد أمره الله بهذا حيث يقول : « أُدْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمة والموعظةِ الحسنة ، وجادِلْهُمْ بالتى هى أحسن » .

وقال تعالى : وقُلْ للذين أوتوا الكتابَ والأميين أأسْلَمْتُمْ ؟ فإن أسلموا فقدِ اهتدَوْا ، وإن توَلَّوْا فإنما عليكَ البلاغُ واللهُ بصيرٌ بالعباد » .

وقال تعالى : « ولاَ تجادلوا أهلَ الكتابِ إلاَّ بالتى هى أحسنُ ، إلاَّ الذينَ ظلمُوا منهم ، وقولوا آمنَّا بالذى أُنزِل إلينا وأُنزل إليكم ، وإلهُنا وإلهُكمْ واحدٌ ونحنُ له مسلمون » .

وقال تعالى : « ولوشاء ربُّكَ لآمَنَ مَنْ فى الأرضِ كلُّهم جميعاً ، أفأنتَ تُكرِهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » .

وقال تعالى : « فإنْ أعْرَضُوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إنْ عليكَ إلا البلاغ » .

وقال تعالى : « قُلْ أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ، فإنْ تولَّوا فإنما عليه ما حُمِّلَ وعليكُمْ ماحُمِّلْتُم ، وإنْ تُطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغُ المبين » .

ولقد امتثل الرسول الكريم عليه السلام لأمر ربه ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، وقابل سَفَه عقولهم ، برَحابة عقله ، وواسع حلمه ، وكلما أمعنوا في لجاجهم وعُتُوِّهم ، ازداد شفقة عليهم ورحمة بهم ، ولم ييأس من إقناعهم ، ومن استجابة عقولهم لدعوته ، على الرغم من قولهم : « قلوبُنا غُلْف » ، « وقالوا قلوبُنا في أكِنةٍ مما تدعونا إليه ، وفي آذانِنا وَقْرٌ ، ومِنْ بيننا وبينِك حِجابٌ » .

ومن دلائل هذا الكرم العقلي نهيُه عليه الصلاة والسلام عن الاعتقاد في كثير من أوهام العرب وخرافاتهم ، فلا زَجْرَ ولا طِيرَة ، ولا فأل ، ولا كهانة ، ولا عَرافة ، ولا أنصابَ ولا أزلام ، ولا غير هذا مما شاع بين العرب من مخلّفات الإنسانية البدائية ، التي لا يقرها العقل السليم في تمام وعيه .

ومما يدل على كرم عقله وتسامحه عليه السلام معاملته للنصارى الذين وفدوا عليه ، وقبوله الجزية منهم ، ولم يجبرهم على الإسلام ، فقد وفد عليه نصارى نجران وكانوا ستين راكباً ، معهم بُسُط فيها تماثيلُ ومُسوح ، جاءوا بها للنبي عليه السلام ، فلم يقبل البسط لما فيها من تماثيل ، وقبل المسوح ، ولما جاء وقت صلاتهم صلوا بالمسجد مستقبلين بيت المقدس ، ولما أتموا صلاتهم دعاهم للإسلام فأبَوا ، وقالوا : كنا مسلمين قبلكم ، فقال عليه السلام : يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولدًا ، قالوا : فمن مثل عيسى خلق من غير أب ، فأنزل الله قوله عزّ مِنْ قائل : « إنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كمَثَلِ آدمَ خلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ قالَ له كُنْ فيكون » . ودعاهم عليه السلام للابتهال فأبوا ، ورضوا بدفع الجزية ، فقبلها منهم .

وقد صالح صاحب أَيْلة ، وأهلَ جرباء وأذْرح وأهل ميناء ، وهم نصارى ،

بعد أن غزا ديارهم ، وأمّنهم على أموالهم ، ولم يُكرههم على الإسلام وكتبَ لهم عُهوداً فمن ذلك عهده عليه السلام لأهل أذرح وجرباء ، وصورته : « بسم الله الرحمٰن الرحيم ، هذا كتاب محمد النبى لأهل أذرح وجرباء إنهم آمنون بأمان الله ، وأمان محمد ، وإن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيّبة ، والله كفيلٌ بالنصح والإحسان للمسلمين » .

وقد كان هذا الكرم العقلى والتسامح العظيم من الأسباب الأولى التى عملت على نشر الإسلام بالرفق واللين ، لا بالقوة والعنف ، ويقول السير توماس أرنولد : « إن إخفاق بعض البعوث التى أرسلها النبى إلى القبائل تدعوها للإسلام دليلٌ على أن الجهود التى بُذلت كانت ذات صفة تبشيرية خالصة ، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة[1] » ويعزو السير توماس أرنولد انتشار الإسلام بين العرب إلى « المعاملة الحسنة التى تعودتها وفود هذه العشائر المختلفة من النبى عليه السلام ، واهتمامه بالنظر فى شكاياتهم ، والحكمة التى كان يصلح بها ذات بَيْنِهم » .

ويقول « قيطانى » فى كتابه تاريخ الإسلام : وقد أصبحت سرعة انتشار الإسلام بنوع خاص شيئاً ملموساً ؛ بسبب ما أظهره النبى من هيبة ، وما أبداه من روح التسامح والحرية ، وتحين المناسبات فى علاقاته بالذين تحولوا إلى الإسلام »[2] .

* * *

أمّا الوفاء بالعهد فهى خَلّةٌ مشهورة من خلاله الكريمة عليه السلام قبل

---

(1) Sir T. W. Arnold : The Preaching of Islam. ch. 1.
(2) Leon Caetani : Annali dell'Islam. Vol. 1. P. 663. Milano 1905.

البعثة و بعدها ، روى عن عبد الله بن أبى الحمساء قال : بايعت النبى عليه السلام ببيع قبل أن يُبْعَث ، و بَقِيَتْ له بقية ، فوعدته أن آتيه مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو مكانه ، فقال : يا فتى لقد شققت علىّ ، أنا هنا منذ ثلاثٍ أنتظرُك .

ولما سأل هرقل أبا سفيان عما يأمر به النبى عليه السلام قال : « يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، وينهى عما كان يعبد أباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة » ، وسأله : هل يَغْدِر إذا عاهد ؟ قال : لا . وهذه شهادة خَصْم أمامَ ملك عظيم .

ولما عاهد عليه السلام قريشاً فى صلح الحُدَيْبِية على أن من جاء المسلمين من قريش يَرُدُّونه ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يُلزَمون برده ، شق ذلك على المسلمين وقالوا : سبحان الله : كيف نَرُدُّ إليهم من جاءنا مسلما ، ولا يردون من جاءهم مرتداً ؛ فقال عليه السلام : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً . وعلى الرغم من عِظَم هذا العهد وخطره ، وأن فيه مشقةً على المسلمين الذين يهاجرون إلى النبى من قريش ، ويتحملون أينَ السفر والكلال ، ويتعرضون بعد ردهم لإيذاء قومهم وفتنتهم ، فقد وفىَّ به النبى عليه السلام ، ولم ينقضْ عهدَه معهم . جاءه أبو جندل ابنُ سُهيل يَحْجِل فى قيوده ، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة ، فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه ، فقال عليه السلام : « اصبر واحتسب ، فإن الله جاعلٌ لك ، ولِمَن معك من المستضعفينَ فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بينَ القوم صلحاً ، وأعطونا على ذلك عهداً فلا نغدر بهم » .

وتمكن أبو بصير عتبة بن أُسيد الثقفى من الفرار إلى رسول الله ، فأرسلت قريش فى أثره رجلين يطلبان تسليمه ، فأمره عليه السلام بالرجوع معهما ، فقال : يارسول الله : أتردنى إلى الكفار يفتنوننى فى دينى بعد أن خلصنى الله منهم ؟ فقال : إن الله جاعل لك ولإخوانك فرجاً ، فلم يجد بداً من إطاعة أمر رسول الله ، فرجع مع القرشيين ، ولما كانوا فى الطريق عدا على أحدهما فقتله ، وهرب منه الآخر ، فرجع إلى المدينة ، وقال : يا رسول الله ! وَفَتْ ذمتك ، أما أنا فنجوت ، فقال له : اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة .

ولقد حثّ القرآن الكريم على الوفاء بالعهد ، قال تعالى : وإذا قُلْتُمْ فاعدلوا ، ولو كان ذا قُرْبى ، وبِعَهْدِ الله أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وصَّاكم به لعلكم تَذَكرون » وقال تعالى : « وأَوْفُوا بعهدِ الله إذا عاهَدْتُم ، ولاتَنْقُضوا الأيْمَانَ بَعْدَ توكيدها ، وقَدْ جعلْتم اللهَ عليكم كفيلاً ، إن اللهَ يعلمُ ما تفعلون » .

وكان النبى عليه السلام أولَ مُمتثل لأوامر الله سبحانه وتعالى ، وأحسن قدوة للمسلمين « لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنة » . ولمَّا بلغ ملكَ عُمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام قال : « والله لقد دلّنى على هذا النبى الأمى : أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شىء إلاّ كان أول تارك له ، وأنه يَغْلِبُ فلا يَبْطَر ، ويُغْلَب فلا يَضْجَر ، ويَفِى بالعهد ، ويُنْجز الموعود ، وأشهد أنه نبى (١) » .

وأمّا حمايته للضعيف ، وما اشتهر به من الشفقة والرحمة والرأفة فقد أيدها الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه بقوله : « عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ ، حريصٌ

(١) نور اليقين ٢٨٢ .

عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيم » وبقوله : « وما أرسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالمين » ،
روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال : أأحسنتُ إليك ؟ قال
الأعرابى : لا ولا أجملتَ . فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كُفوا ،
ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إليه ، وزاده شيئاً ، ثم قال أأحسنتُ إليك ؟ فقال :
نعم ، فجزاكَ الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً ، فقال عليه السلام : إنك قلتَ ما قلتَ
وفى نفس أصحابى من ذلك شىء ، فإن أحببتَ فقل بين أيديهم ما قلتَ بين
يدىّ ؛ حتى يذهبَ ما فى صدورهم عليك . قال : نعم . فلما كان الغدأو العشى جاء
فقال عليه السلام : إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟
قال : نعم فجزاكَ الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام : « مَثَلى ومَثَلُ
هذا ، مَثَلُ رجل له ناقةٌ شَرَدَت عليه فاتَّبعها الناسُ ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ،
فناداهم صاحبها : خَلُّوا بينى و بين ناقتى ، فإنى أرْفَقُ بها منكم وأعلم ، فتوجه
لها بين يديها ، فأخذ لها من قُمام الأرض فردها حتى جاءت ، واستناخت ،
وشدَّ عليها رَحْلها ، واستوىٰ عليها ، و إنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال
فقتلتموه دَخلَ النار » .

ولقد أوصى بالضعفاء خيراً ، وأكثر من هذه الوصية ، « اتقوا الله فى
الضعيفين النساء والعبيد » ، وقال فى خطبة الوداع : « إنما النساء عندكم عَوَانٌ
لا يَملِكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ،
فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً » .

ولقد كان رحيما بالضعفاء ، ولو كانوا أعداء مشركين ، يقاتلونه ، و يصدون
عن دينه ؛ فقد أوصى الجيشَ الذى أرسله بقيادة زيد بنِ حارثة فى غزوة

مُؤْتَة[١] بقوله عليه السلام : « أوصيكمْ بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله فى سبيل الله مَنْ كفر بالله ، لا تَغْدِروا ، ولا تَغُلُّوا[٢] ، ولا تقتلوا وليداً ، ولا امرأةً ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلا بصومَعَة ، ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بيتاً » .

لقد شملت رحمته جميع الضعفاء من الأناسيّ : الوليد الذى لا يملك دفاعاً عن نفسه ، والمرأة ، والكبير الفانى ، والمتعبد فى صومعته ، كما شملت النبات الذى لا ذنب له ولا جريرة ، بل شملت الجماد ، فأى رحمة كانت ! .

ولقد أمره الله سبحانه أن يجير المشرك إذا لجأ إليه ، وطلّب حمايته . وهذا منتهى الفتوة والمروءة والرحمة بالضعفاء : « وإن أحدٌ من المشركين استجاركَ فأجرْه حتى يسمعَ كلامَ الله ، ثم أبلِغه مأمنَه » . وإذا كان حَدَبُه على الضعفاء قد امتد إلى المشركين الذين يلجئون إليه ، فما بالك بالمسلمين ؟ ! .

وفى أحاديثه الشريفة ، وجوامع كلمه فيضٌ من الرحمة والرأفة ، والتدخل لحماية المظلوم ورفع الظلم عنه ، والبر بالفقراء والمساكين ، والشفقة على الضعفاء والمنكوبين : « مَثَلُ المؤمنين فى توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مَثَلُ الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسَّهَرِ والحمَّى » .

وقال عليه السلام : ما أكرمَ شابٌ شيخاً لسنِّه إلاَّ قيَّضَ الله تعالى له من يكرمُه عند سِنِّه » .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٢٧ ، الطبرى ج ٣ ص ١٠٧ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٧٦ ، وكانت غزوة مؤتة فى السنة الثامنة من الهجرة ، ومؤتة موضع بالشام على مرحلتين من بيت المقدس .

(٢) لا تغلوا : ولا تخونوا .

وقال عليه السلام : إن الناس إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا على يده ، أوشكَ أن يعمَّهم اللهُ تعالى بعقاب » .

وقال عليه السلام : « إنّ أحبَّكم إليَّ وأقربكم منى مجلساً يومَ القيامة أحاسِنُكم أخلاقاً ، الموطّئون أكنافاً الذين يَألفون ويُؤلفون » .

ونختتم الكلام عن سيد الفتيان عليه الصلاة والسلام الذى تجلت فيه النبالة العربية ، والهدى الإسلامى ، والتأديب الإلهى بأجلى ما يتهيأ لبشر ، بهذا الحديث المأثور عنه ، والذى يدل أتم دلالة على ما يتطلبه عليه السلام من قومه وأتباعه من صفات الرجولة ، وإحقاق الحق ، ورفع الظلم ، قال عليه السلام : « لا يكن أحَدُكم إمَّعَةً[1] يقول : أنا مع الناس ، إن أحسنَ الناسُ أحسنتُ وإن أساءوا أسأتُ ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناسُ أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم » فهو فى هذا الحديث العظيم يحث على أن تكون لكل مسلم شخصية قوية ، لا تفنى فى سواها ، وأن يكون عمله عن عقيدة ، لا عن اتباع ، وأن يتدخل لرفع الظلم وإحقاق الحق ، وعمل الإحسان وألا يجارى السفهاء والظالمين فى سفههم وإساءتهم . وهو بذلك يدعو عليه السلام إلى الاستقلال فى الرأى الذى لا يجافى تعاليم الدين الكريم . وإن أمة يوجد فيها مثل هؤلاء لأمة جديرة بالسيادة ؛ لأن أخلاقها ذلَّلت لها الطرق المؤدية لسيادة العالمين ، وكذلك كانت هذه الأمة الكريمة « كُنتم خيرَ أمة أخرِجَتْ للناس ، تأمُرون بالمعروف وتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَر » .

وقال عليه السلام : « انصرْ أخاكَ ظالماً أو مظلوماً . قيل : أنصرهُ إذا

---

(١) الإمعة : المتردد الذى لا يثبت على شىء ، أو هو الذى لا يضر ولا ينفع .

كان مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : تحجزه عن الظلم ، فإن ذلك نصرُه » .

وهكذا رأينا فى سيدنا محمد عليه السلام كيف اتجهت خِلالُ الفتوة العربية إلى وجهة أعمّ وأكثر إنسانية ، ترمى إلى الهداية والحق ، ولم يعد الزّهوُ الشخصى ، والمجد القَبَلى ، والدفاع عن العشيرة ، واكتساب السمعة الحسنة هى كل ما يرجوه الفتى ، بل صار يعمل لخدمة الدين ، والمبدأ ، ويريد اكتساب الثواب والجنة ، فزاد ذلك من فتوته وحماسته ، ويقول قيطانى : « ذلك أن دخول الإسلام فى المجتمع العربى لم يدل على مجرد القضاء على بعض العادات البربرية فحسب ، وإنما كان انقلاباً كاملا لمُثل الحياة التى كانت من قبل[١] » .

---

(١) Caetani, vol, 11. P. 429

فتيان المسلمين

جعلت حرارةُ العقيدة السليمة ، وقوة اليقين المكين ، والقدوة الصالحة الطيبة ، من رجال العرب الذين اعتنقوا الإسلام ، وصحبوا الرسول ، واهتدوا بهديه ، واقتبسوا من نوره مُثُلاً عليا نادرة فى تاريخ البشرية ، حتى صار كلُّ واحدٍ منهم يَعْدِل أمةً كاملة ، فى رجولته ورجاحة عقله ، ونفاذ بصيرته ، وتمام فتوته ، وكيف لا يعدِل أمة وقد وُكِل إليهم بعد وفاة نبيهم الكريم أن يحملوا رسالته إلى العالمين ، فحملوها إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وفتحوا البلدان بأخلاقهم وهَدْيهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم وغَلَبهم . وكانوا حكّاماً عادلين ، وقضاة منصفين ، وقادة مُحَنّكين ، وساسةً دُهاةً قادرين ، وسفراء مُعْتزين موفقين ، مع أنهم ظلوا فى جزيرتهم قبل هذا الفتح المبين لم يبرحوها ، ولم يقتبسوا من غيرهم نُظُمه ومدنيته ، ولم يعرفوا شيئاً عن الإمارة والسفارة والقيادة ، ولكنه هَدْى الفطرة ، وتعاليم الإسلام الكريمة ، تمكنت من هذه القلوب العظيمة ، ففاضت على البشرية نوراً وعدالة وسماحة ووفاء ، وأنقذوا العالم من البغى والضلال والشِّقوة التى كان يعانيها على أيدى حكامه الفاسدين .

لقد كان صحابة الرسول هم القوة التى تمُدُّ المسلمين بالنور ، وتدفعهم إلى النصر ، وليس أدلَّ على ذلك مما فعله خالد بن الوليد حين أمره أبو بكر رضى الله عنهما بالتوجه من العراق إلى الشام لمعاونة جيوش المسلمين فى حربهم

ضد الروم ، حيث أراد الاستئثار بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذهم معه ، ولكنَّ المُثَنى بن حارثة الذى خلَّفه على جيوش المسلمين فى العراق غضب لهذا الاستئثار بصحابة الرسول وقال له : « والله لا أُقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكرٍ كلّه ، فى استصحاب نصف الصحابة ، أو بعض النصف ، ووالله ما أرجو من النصر إلا بهم فكيف تعرِّينى منهم ؟ »[1]

والسرُّ فى هذا أن الصحابة آمنوا عن عقيدة ، وامتلأت قلوبهم بمحبة دينهم ، وهَدْى نبيهم ، فهم أحرى الناس بالاستبسال فى القتال وطلب الشهادة ؛ لأن حرارة الإيمان تدفعهم ، ومحبة النبى وسيرته ترشدهم ، وليس كذلك سواهم ممن دخلوا فى الإسلام بعد الفتح ، أو ارتدوا ثم أسلموا .

ثم إنهم شهدوا مع الرسول غزواته فى سبيل الدفاع عن الدين ، وثبت بلاؤهم ، وتأييدهم لدينهم ، وعظمت تجربتهم ، وسمت أخلاقهم بصحبتهم للرسول الكريم ، فهم فى كل جيش القبس الذى يهديه ، والحجة التى يلجئون إليها ، والقدوة التى يحتذونها ، ثم إنهم حَفَظَةُ القرآن تدوِّى به أصواتهم إذا اشتد سعير المعركة ، فيزداد الجيش قوة ويقيناً .

لقد أدَّب اللهُ سبحانه نبيَّه فأحسن تأديبه ، وأدَّب النبيُّ عليه السلام صحابته فأحسن تأديبهم ، ولذا قال عليه السلام : « أصحابى كالنجوم فبأيِّهم اقتديتم اهتديتم » فكانوا أجزل الرجال وأتمهم عقلا ورجولة و بطولة ، ونماذجَ فذَّة فى الأخلاق الكريمة بهرت الفُرْس فى عزة ملكهم ، وزلزلت عروشهم فدانت لهم ديارُهم ، وفتنت المسيحيين فى أرض الروم عن دينهم فدخلوا فى دين الله أفواجاً .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٨ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٠ ، ابن خلدون ج ٢ ص ٨٣ ، فتوح البلدان ص ١٤٠ .

وفى ذلك يقول السير توماس أرنولد : « وإذا نظرنا إلى التسامح الذى امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الإسلامى ، ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق[١] » . وهذا التسامح هو من أثر التعاليم الإسلامية التى وردت فى القرآن الكريم ، ومن أثر معاملة النبى عليه السلام لأعدائه وقدوته للصحابة ، ولقد أوصى بأهل الذمة خيراً ، وروى عنه عليه السلام قوله : « من ظلم معاهَدا ، وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم الدين[٢] » ، وسأعود إلى هذا الموضوع بعد قليل إن شاء الله .

١ — أما الشجاعة فقد كان المسلمون الأولون أبطالاً لا نستثنى منهم أحداً ولا سيما هؤلاء الذين سبقوا للإسلام ، وعُذِّبوا فى سبيل عقيدتهم ، وحاول قومُهم فتنتهم فلم ينالوا منهم شيئاً بل زادهم ثباتاً ، وإيماناً ، وهاجروا بدينهم فى سبيل الله ، وهؤلاء الذين استقبلوا المهاجرين فى ديارهم وشاطروهم أموالهم ومساكنهم ونصروهم وأعزوا دينهم ، وافتَدَوْا رسول الله ورسالته بأرواحهم وأموالهم .

لقد أرادت قريش أن تستأصل هذه الفئة المسلمة التى تعبد الله حق عبادته ، ولا تشرك به شيئاً حتى تستريح من هذا الدين الجديد ، واضطر محمد عليه السلام ومن معه إلى الدفاع عن دينهم وحمايته ، وكانوا قِلَّةً فقيرة ، يحاربون عرباً أقوياء أثرياء ، لهم شجاعة وبأس ، بيد أن حرارة الإيمان وقوة

---

(١) Sir T. Arnold : The Preaching of Islam, ch. 3.

(٢) البلاذرى ١٦٢ .

اليقين جعلت من هؤلاء المسلمين أبطالاً مغاوير ، فكان الواحد منهم يعدل فى أول الأمر عشرة من المشركين فى قوة بأسه ، وشدة شكيمته ، وصبره على الجهاد والبلاء ، وفى ذلك يقول الله عز وجلّ : « يا أيُّها النبىُّ حَرِّضِ المؤمنينَ على القتال ، إنْ يكنْ منكُمْ عشرونَ صابرونَ يغلبوا مائتين ، وإن يكنْ منكم مائةٌ يغلبوا ألفا من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يَفْقَهون »[١].

وكان هذا ثقةً عظيمة بهؤلاء المسلمين الأولين ، ولكنَّ الله خفَّفَ عنهم بعد ذلك وجعل كلاًّ منهم عَدِيلا لرجلين من المشركين : « الآن خَفَّفَ الله عنكم وعلم أنَّ فيكم ضعفاً ، فإنْ يكن منكم مائةٌ صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكنْ منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين »[٢].

ومما زادهم بأساً وصرامة وحرصاً على الموت ما وعدهم به الله سبحانه من الجنة والثواب العظيم إذا استشهدوا فى سبيله : « ولا تقولوا لِمَنْ يُقْتَلُ فى سبيل الله أمواتٌ بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرْزقون »[٣].

وقال تعالى : « فإذا لقيتُمُ الذين كفروا فضربَ الرِّقابِ ، حتى إذا أثخنتموهم فشُدُّوا الوَثاقَ ، فإمَّا مَنًّا بعدُ وإما فِداء ، حتى تَضَعَ الحربُ أوزارها ذلك ولو يشاء اللهُ لانتصرَ منهم ، ولكنْ ليبلوَ بعضَكُمْ ببعضٍ ، والذين قُتِلوا فى سبيلِ الله فلن يُضِلَّ أعمالهم ، سَيَهديهم ويُصلحُ بالهم ، ويُدْخِلهم الجَنَّةَ عرَّفها لهم ، يأيها الذين آمنوا إن تَنْصُروا الله ينصرْكم ويثبِّتْ أقدامَكم[٤] » .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٥
(٢) سورة الأنفال : الآية ٦٦
(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٤
(٤) سورة محمد : الآيات ٤ ، ٥ ، ٦

وقال تعالى : « ولا تحسبَنَّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون »[١].

وقال تعالى : « يا أيُّها الذينَ آمنوا هَلْ أدلُّكُمْ على تجارةٍ تُنْجيكم مِنْ عَذَابٍ أليم ، تؤمنون باللهِ ورسولِه ، وتُجاهدون فى سبيل الله بأموالِكم وأنفسِكم ذٰلكُم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون . يَغْفِرْ لكم ذنوبَكم ، ويُدْخِلكم جنَّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكِنَ طيِّبَةً فى جنات عَدْنٍ ، ذلك هو الفوزُ العظيم ، وأُخرى تحبُّونها ، نصْرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ ، وبَشِّر المؤمنين » .

ولقدْ حرَّضَ النبيُّ عليه السلام المؤمنين يوم بدْرٍ بقوله : « والذى نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليومَ رَجلٌ فيُقْتَلَ صابراً محتسباً ، مقبلا غير مُدْبر إلاَّ أدخله الله الجنَّة » فقال عُمَيرُ بن الحُمَام — وفى يده تمراتٌ يأكلهنَّ : بَخٍ ، بَخٍ ! أفما بينى وبين أن أدخلَ الجنة إلاَّ أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتِل[٢]» .

وخطب عبد الله بن رَوَاحة الجند يوم مُؤْتَةَ بقوله : يا قوم ! إن التى تكرهون لَلتى خرجتم تطلبون من الشَّهادة ، وما نقاتلُ الناس بعددٍ ولا قوة ولا كثرة ، ولا نقاتلهم إلاَّ بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحُسْنَيَيْن : إما ظهور وإما شهادة » ، ولما قُتل زيد بن حارثة يوم مؤتة ، وأخذ الراية جعفر بن أبى طالب ارتجز وقال :

يا حبَّذا الجنةُ واقترابُها   طيِّبةً وبارداً شرابُها

(١) آل عمران آية ١٦٩ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٩ .

والرومُ رومٌ قد دنا عــــذابُها كافرةٌ بعيــــدةٌ أنسابها
عليّ إذا لاقيتهـــا ضِرابُها(١)

ولقد ظهرت شجاعتهم الفائقة وحبهم لنبيهم واستماتتهم فى الدفاع عنه يوم أُحُد ، هذا أبو دُجانة يَقعُ النبل فى ظهره وهو مُنْحَنٍ يحمى النبى عليه السلام بجسده ، ويشاركه سعد بن أبى وقاص ، ويدافع عنه طلحة بن عبيد الله حتى تَشِلّ يدُه(٢) .

لم يكن الأمرُ أمرَ شجاعة فحسب ، ولكنها شجاعة منبعثة عن عقيدة ، يضحى فيها المسلم بكل شىء فى سبيل إعزاز دينه ، يضحى فيها بأمه وأبيه ، وولده وكلّ عزيز لديه . لقد مرّ النبى عليه السلام وهو عائد من أُحُد على امرأة من بنى دينار قد أُصيب زوجُها وأخوها وأبوها بأُحُد ، فلما نُعوا إليها قالت : ما فعلَ رسول الله ؟ قالوا : خيراً ، هو بحمد الله كما تحبين . قالت أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير لها إليه ، حتى إذا رأته قالت : كل مصيبةٍ بعدك جَلَل ! .

ولمّا قال عبد الله بن أبىّ رئيس المنافقين بالمدينة فى غزوة بنى المصطلق : « أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلّ » وغضب رسولِ الله والصحابة لهذه المقالة الرذيلة ، وهَمّ كثير من الصحابة بضرب عنقه لولا سماحة النبى ، تقدم عبد الله بن عبد الله بن أبىّ هذا ، وكان من صالحى المسلمين ، وقال لرسول الله : « إنى قد سمعت أنك تريد قتل أبى لما بلغك عنه ، فإن كُنْتَ لا بدّ فاعل ، فمرنى أحمل إليك رأسه ، والله ما علم الناسُ رجلا أبرّ

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٢٧ ، والطبرى ج ٣ ص ١٠٧ ، والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٧٦ ، والضراب : المجالدة .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣ وما بعدها ، والطبرى ج ٣ ص ٩ وما بعدها .

بوالده منى ، ولـكنى أخشى أن تأمر غيرى بقتله ، ثم لاتستريح نفسى حتى أقتل الذى أمرته بقتله ، فأكون قد قتلتُ رجلاً مؤمناً بكافر فأدخلَ النارَ » ، فقال رسول الله : « بل نترفّق به ، ونحسن صحبته مابقى معنا[١] » .

لقد أذهب الله من قلوبهم الحمِيَّة حميَّة الجاهلية ، واجتث من نفوسهم الأثرة والعصبية القبلية ، وأبدلهم منها محبة الله ورسوله ، ودينه ، ويقول فى ذلك سبرنجر[٢] : « كان دخولُ مبدأ جديد من الوحدة الاجتماعية فى ظل الأخوة الإسلامية بالمجتمع العربى قد بدأ منذ حين فى إضعاف القوة الرابطة للفـكرة القبلية القديمة ، تلك الفـكرة التى أقامت بناء المجتمع العربى على أساس قرابة الدم ، وكان إسلام الفرد ودخوله فى المجتمع الجديد هدماً لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية ، كما كانت كثرة دخول العرب فى الإسلام من العوامل القوية التى أدت إلى تفكك النظام القبلى[٣] » .

لو تهاون المسلمون فى الدفاع عن دينهم أمام تيار الـكفر العنيف ، ولجاج المشركين الزرِى ، وإيذائهم البالغ الذى خلا من كل معانى الرحمة والإنسانية للمسلمين القوىّ منهم والضعيف ، والعزيز والذليل ، والحر والمولى لاستُؤصِلوا ولاستُؤصِل معهم هذا الدينُ الـكريم ، وهذا ما عبَّر عنه سيد المرسلين عليه السلام يوم بدر حين احتدم القتال ، ورمت قريش بفلذات أكبادها ، وأعز بنيها بقوله : « اللهم إنْ تَهْلِكْ هذه العصابة اليوم لا تُعْبد » وأبو بكر يقول له :

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص ٣٣٣ ، الطبرى ج ٤ ص ٦٣ ، وكانت غزوة بنى المصطلق فى السنة السادسة من الهجرة وبنو المصطلق جماعة من خزاعة .

(2) A. sprenger : Das Leben und die Lehre des Mohammed. vol, 3, pp. 360 — 361.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٨ ، وتاريخ الطبرى . ج ٢ ص ٢٦٧ .

يا نبي الله بعضَ مناشدتك ربَّك ، فإن الله منجزٌ لك ماوعدك [١] .

ولذلك حَثَّهم الله سبحانه وتعالى على قتال المشركين ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يَلُونكم من الكُفَّار وليجدوا فيكم غِلْظَةً واعلموا أنَّ الله مع المتَّقين [٢] » .

ونهاهم الله عن الفرار من العدو ، ولِمَ يفرون من عدوهم ، وقد وعدهم الله إحدى الحُسْنَيَيْن أنهما لهم ، إمَّا الشهادة والجنة ، وإما نصرةُ الدين وإعلاء كلمته ؟ . وحَثَّهم على الصبر والثبات فقال تعالى : « ولا تَهِنوا فى ابتغاءِ القومِ ، إن تكونوا تَألَمُونَ ، فإنهم يَألَمُون كما تألمون ، وتَرجُون من الله ما لا يرجُون ، وكان الله عليماً حكيما » .

وأصدر إليهم تعاليم تكفل لهم النصر ، وإعزاز الله ورسوله ودينه : « إنَّ الله يُحِبُّ الذين يقاتلون فى سبيله صَفاً كأنهم بنيانٌ مرصوص [٣] » .

وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتمُ الذين كفروا زَحفاً فلا تُوَلُّوهُمُ الأدبارَ ، وَمَنْ يُوَلِّهِم يومئذٍ دُبُرَه إلاَّ مُتَحَرِّفاً لقتالٍ ، أو متحيِّزاً إلى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله ، ومأواه جهنمُ وبئسَ المصير » .

وأى مسلم يفكر فى الهرب من القتال وهذه العقوبة الصارمة تدوِّى فى أذنيه : غضبُ الله ، وناهيك به ، ثم جهنم وبئس المصير ؟! لقد بكى المسلمون وجزع المهاجرون والأنصار من هزيمتهم يوم الجسر فى عهد عمر بن الخطاب حين عَبِثت بهم الفيلة ولم يعرفوا كيف يقاتلونها ، فقال لهم عمر رضى الله عنه

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٣ . (٢) سورة الصف ، الآية ٤٠ .

(٣) سورة الأنفال الآية : ١٥ .

يواسيهم ويشجعهم ويعزيهم عن هزيمتهم : « لا تجزعوا يا معشر المسلمين ، أنا فئتكم ، إنما انحزتم إلىّ ، اللهم كلُّ مسلم فى حلٍ منى ، أنا فئة كل مسلم » ، ولما سمع مُعاذُ وكان ممن شهد الموقعة ، وفرّ من يقرأ : « ومَنْ يولهم يومئذ دُبرَه ... الآية » بكى وعلا نحيبه ، فقال له عمر : لا تبكِ يا مُعاذُ ، أنا فئتك وإنما انحزتَ إلىّ(١) .

لقد أضيف إلى الشجاعة العربية التى عرفتها فى الجاهلية ، وعدم الفرَار من العدو حَمِيّةً وفُتوةً والتى تتمثل فى قول الشاعر :

تأخرتُ أستبقى الحياة فلم أجدْ لنفسى حياةً مثل أن أتقدّما
فلسنا على الأعقاب تَدْمى كلومُنا ولكنْ على أقدامنا تقطرُ الدّما

عاملٌ آخر زاد فى ثبات العرب المسلمين وهو حبُّ التضحية ، والرغبة فى الاستشهاد ، والخوف من الفرار ، لأن عقوبته صارمة عند الله ، ولذلك كان جيش المسلمين لا يقاوَم مهما كان عدد الأعداء وحماستهم ورغبتهم فى النصر ؛ لأن رغبة المسلمين فى النصر أقوى ، ولأنهم يحرصون على الموت كما كان عدوهم يحرص على الحياة ، ولذلك كانوا يُلقون الرُّعب فى قلوب أعدائهم على حدِّ قول الله تعالى : « لأنتُمْ أشدُّ رهبةً فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قومٌ لايفقهون(٢) » .

لم يكونوا يدافعون عن غرض دنيوى من أغراض الحياة ، أو طلباً لجاه

---

(١) الطبرى ج ٤ س ٦٧ ، ابن الأثير ج ٢ س ٢١٤ ، وابن خلدون ج ٢ س ٩٠ وفتوح البلدان ص ٢٥٢ ، وتسمى هذه الموقعة أيضاً يوم قس ناطف ، وكانت فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة .

(٢) سورة الحشر الآية ١٣ .

أو مال أو سلطان ، وإنما كانوا يدافعون عن دينهم وعن رسالتهم السامية إلى البشرية جمعاء ، وعن أنفسهم حين اضطهدهم المشركون وبيّتوا لهم المكيدة ، وحاولوا استئصالهم ، ولذلك طالما ذكّرهم الله بكل هذا حتى يزيد من حميّتهم ، وحرارة دفاعهم ، فقال تعالى : « وما لَكُم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضْعَفين من الرِّجال والنساء والوِلدان ، الذين يقولون رَبّنا أخْرِجنا من هذه القريةِ الظالمِ أهلها ، واجعلْ لنا مِنْ لَدُنك وليّاً ، واجعلْ لنا مِنْ لَدُنكَ نصيرا »[١] .

وقال تعالى : « واذكروا إذ أنتمْ قليلٌ مُستضعَفونَ فى الأرضِ تخافون أن يتخطّفَكُمُ الناسُ فآواكُمْ وأيّدكم بنصره ورزقكمْ من الطيبات لعلكم تشكرون[٢] » .

لقد كان المسلمون الأوائل من الأبطال ، ولكنْ تميز من بين صفوفهم فتيانٌ مُعْلَمون . كانوا يَنتدبون[٣] لكل كريهة ويتقدمون الصفوف ، يبيعون أنفسهم رخيصةً فى سبيل الله ؛ كانوا أقوياء أشداء ، خبراء بفنون القتال ، تمتلىء جوانحهم شجاعةً وإيماناً .

ومن هؤلاء حمزةُ عم النبى ، ولقد بَرهن من أول يومٍ دخل فيه الإسلام على شجاعته الفائقة ، وعلى أنه قوةٌ أيّد الله بها دينه وأعزّ رسوله ، روى ابن هشام فى إسلام حمزة : أن حمزة كان راجعاً من قَنصٍ له متقلداً سيفاً ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل لم يمُرّ على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعزّ فتىً فى قريش

---

(١) سورة النساء : الآية ٧٥ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٢٦ .

(٣) ينتدبون أنفسهم ويتطوعون .

وأشد شكيمة ، فلما مرَّ بامرأة كانت قد شهدت إيذاء أبى جهل للنبى عليه السلام فى ذلك اليوم قالت له : يا أبا عُمارة ، لو رأيتَ ما لقى ابنُ أخيك محمدُ آنفاً من أبى الحكم بن هشام : وجده ها هنا جالساً فآذاه وسبَّه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد .

فاحتمل حمزةَ الغضبُ ، لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد ، مُعِداً لأبى جهل إذا لقيَه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم ، فأقبلَ نحوه حتى إذا قام على رأسه رفعَ القوسَ فضربَه فشجَّه شجَّةً مُنكرة ، ثم قال أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرُدَّ ذلك علىَّ إن استطعت . فقام رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عُمارة ، فإنى والله قد سببتُ ابنَ أخيه سباً قبيحاً . وتمَّ حمزةُ على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أسلم حمزة عرفتْ قريش أن رسول الله قد عزَّ وامتنع ، وأن حمزةَ سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما ينالون منه[1] .

ولما التقى المسلمون بالمشركين فى غزوة بدر ، خرج الأسودُ بن عبد الأسود المخزومى ، وكان رجلاً سيِّئ الخلق شرِساً من كفار قريش ، وقال : أعاهدُ الله لأشربَن من حوضهم (أى المسلمين) أو لأهدمَنَّه ، أو لأموتَنَّ دونه ، فخرج إليه حمزة ، وضربه حمزةُ فقطع قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخُب رجلُه دماً ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن

(١) لم يكن حمزة حين انتقم لمحمد عليه السلام من أبى جهل قد أسلم ، ولكنه صرح بإسلامه فى ذلك الوقت ، إذ أراد الله به خيراً ، وقد ثبت على إسلامه رضى الله عنه . راجع ابن هشام ط الحلبى جـ١ ص ٣١٢ .

يُبرِئُ يمينه ، واتَّبعه حمزة ، فضر به حتى قتله فى الحوض .

ولما برز عُتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد من بين صفوف المشركين يطلبون المبارزة ، وتقدم إليهم ثلاثة من الأنصار ، رفضوا مبارزتهم ونادَوْا : يا محمد أخرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا ، ندَب حمزة نفسه ، وقال رسول الله : قم يا عُبيدَة بن الحارث ، قم يا على ، ولم يمهل حمزةُ شيبَة أن قتله ، ولم يمهل علىٌّ الوليدَ أن قتله ، ولما وجدا عتبة وعبيدة لا يزالان يقتتلان ساعدا عبيدة ، وقُتل عتبة .

ولما استأسر أمية بن خلف لعبد الرحمن بن عوف ، وسار به هو وابنه سأله أمية : مَن منكم المُعْلَم بريشة نعامة فى صدره ؟ قال : ذاك حمزة ابن عبد المطلب . قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل(١) ! .

وفى غزوة أحد كان حمزة رضى الله عنه يَهُدُّ الناس بسيفه ما يبقى على شىء ، فصوب إليه وحشىٌّ غلام جُبَير بن مُطْعم حربته عن بُعد فخر صريعاً ، وكان سيد وحشى قد مناه إن هو قتل حمزة أن يعتقه . ولقد حزن النبى عليه السلام وحزن المسلمون لمقتل حمزة حزناً عظيما .

ولقد بلغ من غيظ قريش ونسائها من حمزة وشجاعته و بلائه فى قتالهم أن هنداً بنتَ عتبة زوجَ أبى سفيان مَثَّلَتْ به وشقت عن بطنه ، ولاكت كبده ، وكافأت وحشياً بقلائدها وقرطها لأنه قتل حمزة ، وهذا كله أكبر دليل على صدق بلائه وعظيم شجاعته . ووقف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٨ وما بعدها ، وراجع الطبرى ج ٢ ص ٢٦٧ وما بعدها فى غزوة بدر .

مقتول وقال : « لن أُصابَ بمثلك أبداً ، ما وقفتُ موقفاً قَطُّ أغيظَ إلىَّ من هذا » .

ومن هؤلاء الفتيان الذين ذاعت شجاعتهم ، ولقى المشركون فى كل موطن التقوا فيه بالمسلمين منهم كل بلاء ، وكانوا عليهم خطوباً جساماً ، على ابن أبى طالب كرم الله وجهه . كان علىّ صاحب لواء المسلمين يوم أُحد بعد مقتل مُصعب بن عُمير ، وقاتل المسلمون خلفه حتى أنزل الله نصره وصدقهم وعده . وانتدبه النبى عليه السلام بعد المعركة ، قائلا له : « اخرج فى آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ! وماذا يريدون ؟ فإن كانوا قد جَنَّبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرَنَّ إليهم فيها ، ثم لأناجزنَّهم » فخرج علىٌّ فى آثارهم[1] .

وفى غزوة الخندق خرج عمرو بن عبد وُدّ من صفوف المشركين ، وقال من يُبارز ؟ فبرز له علىّ بن أبى طالب ، وقال : يا عمرو ! إنك كنتَ عاهدت الله ألّا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خَلَّتين إلا أخذتها منه ، قال : أجل ! قال على : فإنى أدعوك للنِّزال ، قال : ولِمَ يا ابن أخى ؟ فوالله ما أحبُّ أن أقتلك ، فقال علىّ : ولكنى والله أحب أن أقتلك . فحمِىَ عمرو عند ذلك ، ونزل عن فرسه ، وعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علىّ فتنازلا وتجادلا ، فقتله على .

(١) راجع فى غزوة أحد ابن هشام ج ٣ س ٣ وما بعدها وتاريخ الطبرى ج ٣ س ٩ وما بعدها .

وكان عليٌّ صاحب الراية فى غزوة بنى قُريظة ، ولمّا حكم سعدُ بن مُعاذ على بنى قريظة بحكم الله ، وأَبَوْا صاح عليٌّ ! يا كتيبة الإيمان ! فتقدم هو والزبير بن العوام وقال : والله لأذوقَنَّ ما ذاق حمزة أو لأفتحنَّ حصنهم ، فقالوا : يا محمد : ننزل على حكم سعد بن مُعاذ(١) .

وفى غزوة حُنين حينما تخلى المسلمون عن رسول الله إلا نفرٌ قليل من صحابته الذين باعوا أنفسهم فى سبيل الله ، ورأى الناس رجلا من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل يتقدم هوازن ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، أسرع له على ابن أبى طالب ورجل من الأنصار يريدانه ، وما زالا به حتى قتلاه(٢) .

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم،وارتد كثير من العرب ، ووفد وفدُهم على أبى بكر يراودونه على إقامة الصلاة ومنع الزكاة، وأَبَى أبو بكر ذلك وقال قوله المشهور : « والله لو منعونى عِقالا لحاربتهم عليه » ، خشى أبو بكر رضى الله عنه من هؤلاء المرتدين الذين يحاصرون المدينة ، وتوجس منهم شراً ، فأعَدَّ العدة لغدرهم وجعل على أنْقاب(٣) المدينة نفراً من شجعان المسلمين ، منهم على ابن أبى طالب والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن مسعود ، حتى يمنعوا المرتدين من دخول المدينة ، وذلك لثقته بشجاعتهم و بطولتهم .

وهكذا كان علىّ رضى الله عنه فى كل موطن أول من يتقدم الصفوف

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ س ٢٥٢ وتاريخ الطبرى ج ٣ س ٥٢ وما بعدها .

(٢) ابن هشام ج ٤ س ٦٥ وما بعدها . السيرة الحلبية ج ٣ س ١٢١ ، الطبرى ج ٣ س ١٢٠ .

(٣) الأنقاب : ج نقب وهو الطريق .

وَيَنتَدِبُ للمكاره ، وما هُزم مرة فى حياته . ولا عجب فقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله فيه : « لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتىً إلا على »[١] ولُقِّبَ علىٌ بسيف الله الغالب .

ومن هؤلاء الفتيان الذين اشتهروا بالقوة والفتوة ورجاحة الرأى ، والبسالة الفائقة ، ولم يخذلوا فى أى معركة ، وكان اسمهم يفتح لهم البلدان ، ويُديل من عدوهم قبل أن يقدموا عليه ، خالد بن الوليد ، سيف الله المسلول .

وما ذا عساى أن أقول فى خالد بن الوليد ؟ وقد تميز فى الجاهلية بالفتوة وإليه يرجع فوز المشركين فى غزوة أحد ، بعد أن كانت الدائرة عليهم . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاءه خالد وعمرو بن العاص وعثمان ابن أبى طلحة العَبْدرى مسلمين بعد غزوة خيبر ، مخاطباً خالد بن الوليد ، معبراً عن عظيم سروره بمقدمه مسلماً : « الحمد لله الذى هداك ، وقد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يُسلمك إلا إلى خير » ، فقال : يا رسول الله ادع الله لى أن يغفر تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك ، فقال عليه السلام : « الإسلام يجُبُّ ما قبله »[٢] .

لقد صدقت فِراسة النبى عليه السلام فى خالد ، وصدّق ظنونَ الناس فيه فكان سيفاً مُشْرَعاً من سيوف الله ، كتب له النصر أينما سُلّ فى سبيل الله ، ولقد برهن خالد من أول يوم دخل فيه فى الإسلام على أنه قوة عظيمة يؤيد الله بها دينه ، ويشد أَزْرَ أنصاره . ولقد عهِد إليه النبى عليه السلام أن يكون

---

(١) ذو الفقار : سيف سيدنا على . راجع . Encyclopidia of Islam p. 123

(٢) نور اليقين ص ١٩٦

على رأس فريق من جيشه يوم فتح مكة ، فدخلها من (اللِّيطِ أسفل مكة) ، وقد تصدت له قريش تريد منعه فقُتل منهم أربعة وعشرون ، ودخل مكة عَنْوة .

وفى غزوة مؤتة جعل النبي عليه السلام إمْرَة الجيش لزيد بن حارثة ، فإن قُتل فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رَواحه . وقد كان عدد المسلمين قليلا ، ولكنهم أبلَوْا بلاء عظيما ، واستشهد أمراء الجيش واحداً بعد واحد ، ورأى المسلمون أنهم فى حاجة إلى أمير ينقذهم مما هم فيه ، ويكفل لهم النصر أو الارتداد الكريم بدون تضحيات كثيرة وخسارة فى الأرواح ، فأمَّروا عليهم خالد بن الوليد . ورأى خالد نفسه يرأس ثلاثة آلاف جندى وعدوه يزيد عن مائة ألف ، ولكنه قاتل فى أول يوم تولَّى فيه إمرة الجيش قتالا عظيما ، وفى غده خالف ترتيب العسكر : فجعل الساقة مُقَدمة ، والمقدمة ساقة ، والميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة ، فظن الروم أن المدد جاء للمسلمين ، فدب فى قلوبهم الرعب ، ثم أخذ خالد الجيش ، وصار يرجع إلى الوراء حتى انحاز إلى مُؤتة ، ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان ، لأن الأعداء ظنوا أن الأمداد تتوالى للمسلمين ، وخافوا أن يجروهم إلى الصحراء حيث لا يمكنهم الخلاص ، وبذلك انقطع القتال .

وقد نعى النبي عليه السلام للمسلمين زيداً وجعفر وابن رواحه قبل أن يأتيهم خبرُهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ، وكانت عيناه تذرفان ، ثم قال : حتى أخذ الرايةَ سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » .

وقد أثنى على خالد فى مهارته بعد أن ظن المسلمون أن تقهقره هزيمة ،

ولـكن النبي أفهمهم أنه من مكايد الحرب[١] .

ثم كانت الرِّدة ، وانتقاض العرب على الخلافة الإسلامية ، ووجه أبو بكر رضى الله عنه خالداً لقتال المرتدين أتباع مسيلمة الـكذاب فى اليمامة ؛ وهُزم المسلمون بادئ الأمر بعد أن أظهروا من ضروب البطولة ما يعجز القلم عن تصويره ، ولـكنهم جَمَّعوا جموعهم ، وثبتوا . بيد أن عدوهم كان يزداد قوة ومدداً ، وهم يزدادون ضعفاً ؛ لبعد الشُّقَّةِ بينهم وبين المدينة . ولما رأى خالد أن القتل استحَرَّ فى جيشه ، وثبت مسيلمة ومن معه ، عرف أن الحرب لا تركد إلا بقتل مسيلمة ، فبرز حتى إذا كان أمام الصفوف دعا إلى البراز وانتسب وانتمى ، وقال : أنا ابن الوليد ، ونادى بشعار المسلمين يومئذ : يا محمداه ! فجعل لا يَبْرُزُ له أحدٌ إلا قتله .

وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجون إلى لقاء خالد ، فيلقاهم الموت من سيفه قبل أن يبلغوه . وكثر فيهم القتل ، وشَعَرَ مسيلمة بالخزى يركبه ، فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا ، لـكنه أيقن أنه مقتول إن خرج ، فتردد واضطرب ؛ وإنه لفى اضطرابه وتردده ، إذ شدَّ خالد برجاله عليه وعلى من حوله يعملون فيهم السلاح ، فهرب مسيلمة إلى حديقته ، وكانت فسيحة الأرجاء متينة الجدران كأنها الحصن ، ولـكن المسلمين اقتحموا عليهم الحديقة وأبادوهم وقتلوا مسيلمة الـكذاب[٢] . فـكان هذا أول نصر أرجع للعرب

(١) نور اليقين س ٢٠٤ ، وسيرة ابن هشام جـ٣ س٤٢٧ ، والطبرى جـ٣ س١٠٧ ، والسيرة الحلبية جـ ٣ س ٧٦ .

(٢) الطبرى جـ ٣ س ١٦٢ ، ابن الأثير جـ ٢ س ١٨٤ ، ابن خلدون جـ ٢ س ٧٥ ، ابن كثير جـ ٦ س ٣٢٣ ، ابن هشام جـ ٤ س ٢٤٤ وكانت موقعة اليمامة فى السنة الحادية عشرة من الهجرة ، وبين اليمامة وبين البحرين عشرة أيام .

المرتدين عقولهم التى شردت عنهم ، وخيرهم الذى عَزُب عن نفوسهم بموت سيد المرسلين . وعلموا أن المسلمين مؤيَّدُون من عند الله ، وأن عقيدتهم وحرارة إيمانهم ، ووعدَ الله لهم تـكفل كلُّها لهم النصر المبين ، وأنهم على الرغم من شجاعتهم وكثرتهم ، وقربهم من ديارهم لم يغنهم كل ذلك شيئاً فرجعوا إلى حمى الإسلام تائبين

وهذا هو خالد العظيم فى موقعة ذات السلاسل يرى هُرمزَ ينادى للنزال فلم يطلب أحدَ شجعان جيشه لمنازلته ، ولـكنه يتقدم إليه ، فلما التقيا اختلفا ضربتين ، ثم احتضنه خالد يريد قتله بيديه ، ولم يبال بسيف عدوه المصلت ، فشد أهل فارس يريدون قتل خالد ، وإنقاذ هرمز من يديه . ولـكن بطلا آخر من أبطال المسلمين الذين دوَّى اسمهم فى كل معركة شهدوها ، ألا وهو القعقاع بن عمرو لم يمهلهم وحمل عليهم ، فانهزم الفرس هزيمة منـكرة[1] .

وفى يوم الثِّنى حين خرج قارنُ قائد الفرس يدعو إلى البراز نَهدَ له خالدٌ وقتله ، ثم قتل الأنوشجان خليفته ، وقُباذ الذى رأسهم بعده . وهُزمت الفرس هزيمة شنيعة[2] .

لقد كان خالد يتحدى الموت ، ويعمد إلى أشجع القوم ، وقائدهم ، فيُرْدِيه بسيفه ، وأحياناً يحتضنه ليعصره بين يديه عصراً ، وإذا مات رئيس القوم ،

---

(١) كانت موقعة ذات السلاسل فى المحرم من سنة ١٢ من الهجرة ، وسميت ذات السلاسل ؛ لأن الفرس قيدوا أنفسهم فى السلاسل حتى لا يفروا . راجع الطبرى ج ٤ ص ٢ ، وابن الأثير ج ٣ ص ١٨٧ ، وفتوح البلدان ص ٢٤٢ ، وابن خلدون ج ٣ ص ٧٨ .

(٢) كان ذلك فى صفر سنة ١٢ ، والثنى نهر بالقرب من المذار وهى بلدة بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط . راجع الطبرى ج ٤ ص ٧ ومعجم البلدان ج ٣ ص ٢٥ وابن خلدون ج ٢ ص ٧٩ .

وأشجعهم دبّ الرعب في قلوب سائرهم وولّوْا مدبرين ، وهكذا كان خالد يعمل على أن يكفى المسلمين مؤنة القتال ، ويَحْقِن دماءهم ، مُعرّضاً دمه هو لأن يراق فى سبيل الله . وإذا لم يكن قائد الجيش مثلاً رائعاً فى البطولة والقوة والخبرة بفنون القتال عرّض جيشه للتهلكة ؛ وإذا كان قدوة لهم ، يتقدم صفوفهم ، ويصرع أقوى أعدائهم ، ويحتال للنصر كل حيلة ، ويجنبهم الهزيمة ، امتلأت قلوبهم ثقة به ، وزاد ذلك فى شجاعتهم وبلائهم ، واستمدوا من شجاعته شجاعةً ، وكانوا على أعدائهم بلاء مبيناً ، لا يثبت أمامهم جيش مهما عظم ؛ ولعلّ هذا هو بعض السرّ فى أن خالد بن الوليد وجيشه كان مُفَلَّجا فى كل موقعة شهدها ، وكان اسمه يلقى الرعب فى قلوب الأعداء ، ولا يجدون جدوى من قتاله ، فيستقبلونه قبل أن يدمّر مدنهم ، ويحصد أرواحهم ، وينزلون على شرطه صاغرين .

كان خالد عالماً بنفسية أعدائه ، وحالتهم ، فهم أوشاب لا يقاتلون بحمية ، قد فسدَ حكامُهم ، وأذاقوهم كئوس الظلم مُترعة ، ونعموا دونهم بخيرات الحياة ولذائذها ، واليوم يسوقونهم للقتال ! يسوقونهم لمحاربة قوم باعوا أنفسهم لله ، وخرجوا فى سبيل الله ، تتراءى الجنة أمام أعينهم ، ويحثهم على النصر ما وعدهم به ربهم فى محكم كتابه ، فأيمّا كان أمرهم فهم الفائزون . إنهم كانوا يقاتلون فى سبيل مبدأ وعقيدة ، وقال الله تعالى فيهم : « الذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ ، وأمروا بالمعروفِ ونهَوْا عن المُنكَرِ ولله عاقبةُ الأمور »[1] .

---

(١) سورة الحج الآية ٤١ .

وشتان ما بين هؤلاء القوم الذين يقودهم خالد ، وبين أعدائهم ، إن هؤلاء قلوبهم تفيض بالثقة والطمأنينة ، وهؤلاء قلوبهم تَدْمى من اليأس ، وتئن من الجور . عرف خالدٌ كل هذا ، وعرف أنه حين يقتل رئيس الأعداء وقائدهم وهو من السادة المنعمين ، والحكّامِ المسَلَّطين ، فلن يثبت بقية جيشه ؛ لأنه مسوق إلى القتال عن كراهية ، ولأنه لا يدافع عن مبدأ يحرص على نشره . هَبَّ نصارى بكر بن وائل يساعدون الفرس ، ثأراً لقتلى قومهم يومَ (الوَلجة)[1] ، واجتمعوا لخالدٍ فى (أُلَيْس)[2] يقودهم جميعاً جابان الفارسى ، ولما التقى الجمعان برز خالد أمام جيشه ونادى على سادة بنى بكر بن وائل من النصارى ، وشجعانهم : أين أبجر ؟ ! أين عبد الأسود ؟ ! أين مالك بن قيس ؟ فلم يجبه أحدٌ إلا مالكاً ، وبرز له ، فقال له خالد : يا بن الخبيثة ! ما جرَّأك عليَّ من بينهم ، وليس فيك وفاء ، ثم ضربه فقتله .

وكتبَ عياض بن غنم إلى خالد يستنجده حين كان يحاصر دُومَة الجندل فكتب إليه خالد : من خالد إلى عياض : إياكَ أريد .

لَبِّثْ قليلاً تأتِكَ الحلائبُ   يحملن آساداً عليها القاشِبُ[3]

كتائبٌ تتبعها كتائب

---

(١) الولجة : من كسكر ، وكان يوم الولجة فى صفر سنة ١٢ هـ

(٢) أليس : قرية من قرى الأنبار فى منتصف الطريق بين الحيرة والأبلة ، وكان يوم أليس فى صفر سنة ١٢ هـ . راجع الطبرى جـ ٤ ص ٩ ، وابن خلدون جـ ٢ ص ٧٩ ومعجم البلدان جـ ١ ص ٣٢٨ .

(٣) القاشب : السيف الصقيل المجلو ، والحلائب : النوق وهى أقوى على قطع الصحراء من سواها .

ولما بلغ أهلَ دُومة الجندل[١] مسيرُ خالد إليهم أخذتهم الرِّعدة ، واختلفوا فيما بينهم وكان عليهم رئيسان : أُكَيْدر بن عبد الملك ، والُجودىّ بن ربيعة . أما أكيدر فقال : أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحدَ أيمنُ طائراً منه ، ولا يرى قومٌ وجه خالدٍ قلُّوا أو كثروا إلا انهزموا ، فأطيعونى ، وصالحوا القوم ، فأبوا عليه ، فقال : لن أمالئكم على حرب خالد ، فشأنَكم ! وخرج لِطِيَّته . وقد صدق ظن أكيدر فقد نكَّل خالد بهؤلاء الذين آثروا القتال نكالاً عظيماً ، واستولى على دومة الجندل .

أما عبور خالد بادية السماوة حين طلب منه أبو بكر أن يخف ببعض جيشه لمساعدة جيوش المسلمين المجتمعين فى اليرموك فعمل يتجاوز حدّ البطولة ، وهو من المخاطرات النادرة فى التاريخ ، دونه عبور هانيبال الفينيقى جبال الألب واقتضاضه على الرومانيين فى الزمن القديم ، ويحتاج إلى أن نفرد له صورة خاصة فى كتابنا هذا .

لقد كان أبو بكر عظيم الثقة فى خالد بن الوليد حين انتدبه لهذه المعركة لمَّا سمع بعظم جيوش العدو ، وكمال عدتهم ، وأن المسلمين أقاموا أمامهم شهرين لا يقدرون على شىء ، ولا يقدر الروم منهم على شىء ، وقال أبو بكر رضى الله عنه : والله لأُنسينَّ الرومَ وساوسَ الشيطانِ بخالد بن الوليد . ولقد كان خالد القائد المحنك الشجاع ، الذى زادته حروبه مع الفرس ثقة و يماناً بنصر الله ، عند ظن المسلمين به . ووجد خالد أربعة جيوش للمسلمين على كل جيش أميره ، وأنهم يقاتلون متساندين لا تجمعهم وحدة ، فاقترح أن يولوا واحداً منهم أميراً على

---

(١) دومة الجندل : على تسع مراحل من دمشق ، وهى قريبة من الحيرة .

الجميع ، وتكون الإمارة لكل منهم يوماً ، وأن يجعلوه أميرهم أول يوم ، حتى يضرب ضربته التي أعدها للأعداء ، فلبى المسلمون دعوته واجتمعوا على رأيه ، فأعدّ جيشه إعداداً عظيماً .

ولقد حدث فى هذه المعركة عدة حوادث تدل على عظمة خالد ، وأنه يتألق فى جبين التاريخ الإسلامى والعالمى نجماً ساطعاً وحده ، من ذلك : أنه قد أمر القعقاع بن عمرو وعِكْرمة بن أبى جهل وهما على مُجَنِّبَتَىْ قلب الجيش أن يُنْشبا القتال ، وإذا ببريد المدينة يصل ، وفيه الخبر بوفاة أبى بكر رضى الله عنه ، وفيه تولية عمر مكانه خليفة للمسلمين ، وفيه عزل خالد ، وتولية أبى عبيدة أميراً للجيوش الإسلامية ، وخاف خالد إن هو أظهر هذه الأخبار ، وأذاعها فى الناس ، أن يهنوا ، ويَفُتّ ذلك فى عَضُدِهم ، وهم فى المعركة الفاصلة ؛ فأدار المعركة بنفس القوة ، وبنفس العزيمة الأولى ، كأنْ لم يُعزَل ، وكأن لم يمت ذلك الذى وَثِق به . وكأنه لا يزال أميراً مؤمَّرا . إن خالداً لم يكن يعمل ما يعملُ حُبّاً فى جاهٍ أو دنيا ، وإنما كان يتقدم إلى الموت وبراثنه دامية ، ويقتحم عليه عرينه ، إعزازاً لدين الله ، وسيادة الإسلام . لم يكن يعمل من أجل أبى بكر ، وإنما كان يعمل من أجل دينه ، وفى سبيل الله . فسيانِ عنده أن كان أميراً أو مأموراً ، قائداً أو جندياً ، وسيانِ عنده تولَّى أبو بكر أو تولى عمر ، فخالد هو خالد : الجندى الباسل الذى دعا له الرسول عليه السلام بالنصر ولقّبه بسيف الله .

ولا أدلّ على ذلك من قول خالد حين انتهت المعركة بنصر المسلمين ، وسلَّم كتاب عمر إلى أبى عبيدة بالإمارة : « الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت ، وكان أحبّ إلىّ من عمر ، والحمد لله الذى ولّى عمر ، وكان أبغضَ

إلىّ من أبى بكر ، ثم ألزمنى محبّته » . وهذا شأن المؤمن الصادق الذى يطيع الله سبحانه وتعالى فى قوله : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولى الأمرِ مِنْكُمْ »[١] .

ومن الحوادث التى تدل على عظمة خالد فى هذه الموقعة خروجُ جَرِجَة أحد قواد الروم ، ونداؤه : ليخرج إلىّ خالد ، فخرج إليه خالد ، وأقام أباعبيدة مكانه ، فوافقه بين الصَّفَّيْن ، حتى اختلفت أعناق دابتيهما ، وقد أمنّ أحدُهما صاحبه . فقال جَرجة : يا خالد ! اصدقنى ولا تكذبنى ، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريمَ لا يُخادع ، بالله هلْ أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا ، قال : فيمَ سُمّيتَ سيفَ الله ؟ قال : إن الله عز وجلّ بعث فينا نبيّه عليه السلام فدعانا فنفرنا ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضَنا صدّقه وتابعه ، وبعضَنا باعده وكذّبه ، فكنتُ فيمن كذبه وباعده وقاتله ؛ ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله ، سلّه الله على المشركين ، ودعا لى بالنّصر ، فسُمّيتُ سيفَ الله بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين ، قال : صدقتنى ؛ ثم ناقشه فى الإسلام حتى انتهى الأمر بإسلامه ، وترك صفوف الروم وقاتل مع المسلمين بعد أن علّمه خالد الإسلام ، وصلى ركعتين ، ومات جَرجة فى هذا اليوم وهو يقاتل أشدّ قتال وأصدقه دفاعاً عن دينه الجديد .

لقد كان خالد فى نظر الأعداء شيئاً مُرْعِباً ، حتى ظنوا أن أمره ليس بالطبيعى وأنه فوق البشر ، وأنه لابد أن يكون مؤيّداً من السماء ، وظنوا أنه

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٧ .

لُقِّب بسيف الله ؛ لأن الله أنزل على النبي سيفاً أعطاه خالداً فهو لا يُهزم قط ؛ وذلك لأن أخبار انتصاراته الساحقة ، وتنكيله بالفرس قد سبقته ؛ وعملت ما عملت فى قلوب الروم ، حتى إن قائدهم أراد أن يستوثق من هـذا الأمر ، وهل خالد فيه شىء فوق البشر لا يمكن أن يقاوَم ؛ ولما صدَقه خالد ، و بيَّن له أنه بشر ، وأنه لم ينزل عليه سيف من السماء ، وأنه يقاتل بقوة قلبه ، وحرارة إيمانه ، وأن شجاعته فطرية طبيعية ، زادها الإيمان بالإسلام قوة وصرامة ، آمن بأنه أمام رجلٍ مؤيد من السماء ، لا بالمعنى الذى ذهب إليه أولا ، ولكن لأنه يدافع عن عقيدة ومبدأ ، لا مؤيد بسيف من الله نزل على نبيه الكريم . وكان صدق خالد و بساطته فى التعبير ، وتواضعه ، سبباً فى إسلام هذا القائد الذى أراد الله هدايته (١) .

ولم ينته أمر خالد بعزله من إمارة الجيش ، بل سار مع أبى عبيدة يعمل تحت لوائه ، وضنّ به أبو عبيدة فلم يرسله مع جيش العراق الذى كان قد قدم به لمعاونتهم ، علماً منه بأن خالداً وحده أقوى من جيش عظيم ، لرجاحة عقله ، وتجربته ، وشجاعته ، و بصره بفنون القتال . ولقد برهن خالد فى فتوح الشام على أنه القائد الحقيق للجيش ، وأنه برأيه وشجاعته قد احتل المكانة التى يريدها الله و يريدها المسلمون ، فقد جعله أبو عبيدة على مقدمته كسنان الحربة التى لا تفُل : تدُكّ الحصونَ ، وتهدّم القلاع ، وتفَرى الجيوش ، وتكسب للمسلمين المعركة غِبَّ المعركة ، وتنتقل بهم من نصر إلى نصر . كان خالد على

---

(١) راجع الطبرى ج ٤ ص ٣٢ وما بعدها ، وابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٠ . وابن خلدون ج ٢ ص ٨٣ ؛ وفتوح البلدان ص ١٤٠ .

مقدمة جيش أبى عبيدة فى موقعة (فحل)[١] ، وفى حصار دمشق ، وقد كان خالد على فرقة من الجيش فى حصار دمشق لا ينام ولا يُنيم ، ولا يخفى عليه شىء من أمر العدو ، وعيونُه ذاكية ، وهو مَعنىٌّ بما يليه ، فاتخذ حبالاً كهيئة السلالم ، ولما بلغه ذات ليلة أن الناس فى دمشق غافلون فى فرح لعظيمهم ، انتدَبَ هو ومن معه من رؤساء جيش العراق قبل أن يرجعوا أمثال القعقاع ابن عمرو ، وقال للناس : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقَوْا إلينا ، وانهدوا للباب ، وقد تمكَّنَ خالد من فتح الحصن عَنوَة . وكان أعزَّ مكان فى سور دمشق وأمنعه ، تحيط به المياه ، ولم يبق أحد ممن معه إلا ارتقى السور أو دنا من الباب ، ثم فتح الباب بعد أن قتل حراسه ، ودخل دمشق عنوة ، ففزع أهل الأحياء التى تليه ، وهرعوا إلى قواد المسلمين الآخرين يطلبون منهم أن يجيروهم من خالد ، وفتحوا لهم الأبواب فالتقت جيوشهم وجيوش خالد فى وسط دمشق ، وبذلك جعل الله على يديه فتح دمشق بعد أن استعصت على المسلمين سبعين يوماً .

ولما اجتمع العدو بمرج الروم ، بعد فتح دمشق ، وسار أبو عُبيدة ومعه خالد بن الوليد لملاقاتهم ، واجتمعوا وإياهم فى صعيد واحد ، أصبحوا ذات صباح فلم يجدوا للعدو أثراً ، وعلموا أنهم خدعوا المسلمين ، وقصدوا دمشق . فأسرع خالد وراءهم ووجد العدو مشتبكا مع يزيد بن أبى سفيان قائد حامية دمشق ، فأخذ الروم من بين أيديهم ومن خلفهم ، فأبيدوا . ورجع خالد إلى أبى عبيدة .

---

(١) فحل : من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين ، راجع الطبرى ج ٤ ص ٥٩ .

وبعد فتح حمص أرسل أبو عبيدة خالداً إلى قِنَّسْرِين ، ولما نزل بالحاضر[1] زحف إليهم الروم ، وعليهم (ميناس) وهو أعظمهم بعد هِرقل فلاقاهم خالد وقَتل ميناس ، وهزم الروم شر هزيمة ، حتى إنه لم ينج منهم أحد . أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد : بأنهم عرب ، وأنهم إنما حُشروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم . ولما بلغ عمر بن الخطاب ذلك قال : « أمَّرَ خالد نفسه ! يرحم الله أبا بكر ! ، هو كان أعلَمَ بالرجال منى » وقال فى حقه هو والمثنى بن حارثة : « إنى لم أعزلهما عن ريبة ، ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما » . وهكذا صار خالد أمير الجيش فى الحقيقة وإن لم يؤذن بالإمارة . ولكن تصرفه وحُنكته ، وحسن قيادته كلها أهلته لأن يكون أمير الجيش عملياً ، وإن ظَلَّ يعمل تحت راية أبى عبيدة .

وزحف خالد لقنسرين فتحصن أهلها منه ، فقال لهم قوله المشهور : « لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا » فلم يجدوا بداً من صلحه ، والنزول على أمره .

هذا هو خالد بن الوليد ، لو كان فى أمة أخرى من تلك الأمم التى تعظم رجالها لاعتنت بتاريخه ، وصاغته صياغات مختلفة ؛ ليتشرَّبه الأطفال والولدان والغلمان والفتيان والرجال ، وليكون لهم مثلا رائعاً فى البطولة . وما أحوجنا اليوم إلى مَثل رائع يقلده شبابُنا ونحن نعانى من الغرب وغطرسته ما نعانى . رحم الله خالداً وأيام خالد ! ! .

ومن هؤلاء الفتيان الأمجاد الذين خطُّوا فى صفحات التاريخ الإسلامى

---

(١) راجع الطبرى ج٤ ص١٥٣ ، ١٥٤ وكان فتح حمص وقنسرين فى السنة الخامسة عشرة.

سطوراً ينبلج منها نور الإيمان والتضحية والإيثار ، ولا يبغون إلا وجه الله ، مع أن كلا منهم يصلح أن يكون قائد جيش عظيم : المثنى بن حارثة الشيبانى[١] جاء إلى أبى بكر رضى الله عنه ، وقال . أمِّرْنى على مَنْ قِبَلى من قومى ، أقاتل من يلينى من أهل فارس ، وأكفيك ناحيتى ، ففعل أبو بكر ذلك . وكان المثنى جندياً عظيما ، ذا شهامة ومروءة ، ولما تولى خالد إمرة جيوش العراق كان المثنى تحت لوائه ، وكان مع خالد كما كان خالد مع أبى عبيدة ينتدبه للشدائد ، ويسير فى طليعة جيشه ، إلى أن أمر خالد بالذهاب إلى الشام فخلفه المثنى على جيش العراق . وقد حارب الفرس حرباً عظيمة فى يوم النمارق[٢] وطاردهم حتى وصل إلى أبواب المدائن وأرسل إلى أبى بكر يستنجده ، ولكن نجدة أبى بكر أبطأت عليه ، فخرج المثنى بنفسه إلى المدينة وجاءها وأبو بكر يحتضر ، ولكنه أغراه بغزو بلاد فارس فاقتنع أبو بكر ، واستدعى عمر بن الخطاب ، وطلب منه ألا تَشغله وفاته عن نَدْب الناس مع المثنى ، فلما فرغ عمر من أبى بكر ندب الناس مع المثنى ثلاثة أيام متوالية ، فلم يجبه أحد ، وكانوا يخافون فارس كل الخوف لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزّهم وقهرهم الأمم ، وفى اليوم الرابع قام المثنى فى الناس وقال لهم : « أيها الناس لا يَعْظُمَنَّ عليكم هذا الوجه ، فإنا قد تَبَحْبَحْنا[٣] ريف فارس ، وغلبناهم على خير شِقَّيِ

---

(١) ينتهى نسب المثنى الى بنى شيبان ؛ وكان إسلامه وقدومه على رسول الله سنة تسع ، وكان شهماً شجاعاً ميمون النقيبة ، حسن الرأى ، وقد مات سنة ١٤ هـ قبل القادسية .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٦٤ وابن الأثير ج ٢ ص ٢١٢ .

(٣) التبحبح : التمكن فى المقام والحلول .

السواد[١] ، وشاطرناهم ، ونلنا منهم واجترأ مَنْ قِبَلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها » ، وخطب عمر فيهم يرغبهم فى القتال وتحقيق وعد الله ، من أن الأرض لله يرثها عباده الصالحون ؛ فكان أول من استجاب لهذه الدعوة أبو عبيد بن مسعود[٢] ثم تبعه الناس ، وقد طُلب إلى عمر أن يولى على هذا البعث الجديد رجلاً ممن له سابقة فى الإسلام ؛ فأبى إلا أن يولى أبا عبيد ؛ لأنه كان أول من استجاب لقتال الفرس من أهل المدينة بعد أن نكص الناس أربعة أيام سوياً ، ومن العجيب أن المثنى بن حارثة ، وهو من هو فى بلائه وخبرته بقتال الفرس وأول من حرض على غزوهم ، قد رضى أن يكون مرءوساً لأبى عبيد ، وأن يعمل تحت أمرته ، وهذا يدل : على أن المسلمين لم يكونوا يفكرون فى هذه الأشياء الصغيرة كالرئاسة والقيادة ، وإنما كانوا يقصدون بجهادهم وجه الله تعالى فى أى مكان من صفوف المسلمين وُضِعوا ، ويدل على إنكار الذات ، وجعل الهدف الأسمى فوق كل اعتبار ، وهذا من تربية الإسلام العظيمة ، الذى محا الفردية من نفوس هؤلاء العرب ، وقد كانت قوية القبضة على نفوسهم فى الجاهلية ، وليس من طبعهم الإذعان بيسر وسهولة ، وقد عادوا إليها بعد أن خَفَّت تلك القبضة ، وكانت سبباً فى إخفاقهم وتناحرهم فيما بينهم ، ورجعت عصبيتهم القبلية قوية فى زمن بنى أمية الذين كان من غاياتهم تقوية هذه العصبية ، ليلهوَ الناسُ بها عن النظر فى شأن الخلافة

---

(١) السواد : قرى العراق وضياعها التى فتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب ، سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار .

(٢) أبو عبيد بن مسعود : من ثقيف ، وهو والد المختار بن أبى عبيد المشهور فى خلافه مع عبد الله بن الزبير .

والخلفاء ؛ و يدل أيضاً على أن أى رجل من هؤلاء العرب المسلمين أهل لأن يتولى قيادة الجيوش العظيمة ، وهذا أكبر برهان على غنى هذه الأمة برجالها ، وأن فِطَرهم سليمة ، وعقولهم قويمة ، وأن الطبيعة قد هيأتهم لأن يحتلوا مكانة سامية بين أمم العالم لو أحسنوا استغلال مواهبهم ، وطرحوا الأثَرَة ، والخلاف جانباً . وقد كان الإسلام آنذاك فى عنفوانه فكانوا فى أحسن حالاتهم النفسية والخلقية والعقلية .

وسبق المُثنى أبا عبيد ليهيئ له الأمر ، وعمل تحت رئاسته ، قائداً شهماً شجاعاً لا يفكر إلا فى نصرة دينه ، وقد برهن أبو عبيد على أنه مثل من أمثلة الشجاعة التى لا تروى إلا فى الأساطير ؛ فقد خيَّره الفرس بين أن يعبروا إليه النهر أو يعبر إليهم فأبى أن يكون أجبن الفريقين وعبر الجسر ، ولما عبثت بهم فيلة الفرس ، ترجّل أبو عبيد ، وأمر الناس بالترجل وأمرهم أن ينَفّروا هذه الفيلة وأن يقطعوا أحزمتها ، وعمد هو إلى الفيل الأبيض الذى يتقدمها فقطع حزامه ، فوقع الذين عليه ، وضرب خرطومه بالسيف ، ولكنّ الفيل تقدم لأبى عبيد وضربه برجْليه ، فألقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه وأزهق روحه ، وقد تقدم بعد أبى عُبيد سبعة من ثقيف ، قتلوا الواحد بعد الآخر ، فتقدم المثنى وأخذ اللواء ، ولكنّ الناس انفضوا عنه . ورأى بعض الشجعان رأياً خاله استبسالاً وتضحية ، فمنع الناس من عبور الجسر وناداهم : أن موتوا كما مات أمراؤكم ، بيد أن بعض من لم يصبر غرق فى الفرات ، وخشى المثنى أن يهلك الناس ، فوقف واللواء بيده يناديهم : أنا دونكم فاعبروا على هِينتكم ولا تدْهشوا ، فإنا لن نزايلَ حتى نراكم من ذلك الجانب ولا تغرقوا أنفسكم

وأصلح الجسر حتى عبروا جميعاً ، فتركوه وانصرفوا استحياء من الهزيمة[١] .

وخلصت القيادة للمثنى ، وندب عمر بن الخطاب الناسَ إليه ، وعاجلهم الفرس فى موقعة البُويب[٢] ، ولكنَّ المثنى كان القائد الثابت الجأش ، البصير بالحرب ، فنظم جنده ، وعبَّأهم أتم تعبئة ، وحمَّسهم ، ولما حمى وطيس القتال حمل على مِهْران قائد الفرس فأزاله حتى دخل ميمنته ، واختلط الجيشان ، وأوجع قلبُ المسلمين فى قلبِ المشركين ، وقتل غلامٌ نصرانى من تغلب مِهران ، واستوى على فرسه ، وما زالوا يكيلون للفرس الضربات حتى فروا من أمامهم . ولقد راع المثنى هذا النصر الذى أحرزته فئة قليلة فقيرة على جيش قوىٍ مُعَد أتم عُدة فقال : « قد قاتلتُ العرَبَ والعجم فى الجاهلية والإسلام ، ووالله لمائة من العجم فى الجاهلية كانوا أشدَّ علىَّ من ألفٍ من العرب ، ولمائةٌ اليوم من العرب أشدُّ علىَّ من ألف من العجم ، إن الله أذهب قوتهم ، وأوهن كيدهم ، فلا يروعنكم زُهاءٌ ترونه ، ولا سوادٌ ، ولا قِسِىٌ فجٌ ، ولا نبالٌ طوال ، فإنهم إذا أُعجلوا عنها أو فقدوها كانوا كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت » .

ولقد كان لهذه الموقعة أثرها العظيم فى نفوس المسلمين لأنها أزالت عار الهزيمة فى موقعة الجسر ، وردت إليهم اعتبارهم ، والثقة بأنفسهم وبالله الذى وعدهم النصر ، وفى هذه الموقعة يقول الأعور الشَّنى مشيداً ببطولة المثنى بن حارثة ، وبلائه فى قتال الفرس :

---

(١) كان هذا فى موقعة قس الناطف أو موقعة الجسر فى سنة ١٣ هـ . راجع الطبرى جـ ٤ ص ٦٤ وابن الأثير جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٧١ ، وابن الأثير جـ ٢ ص ٢١٥ ، فتوح البلدان ص ٢٥٣ ، ومعجم البلدان جـ ٢ ص ٣١٠ . البويب : نهر بالعراق يأخذ من الفرات .

هاجتْ لأعورَ دارُ الحىِّ أحزانَا ... واستبدلتْ بعد عبد القيس هَمْدانَا
وقد أرانا بها والشملُ مجتمعٌ ... إذ بالنُّخَيْلَةِ قتلَى جندِ مِهْرانَا
أزمانَ سار المثنى بالخيول لهم ... فقتَّلَ القومُ من فرسٍ وجِيلانَا
سما لأجناد مِهْرانٍ وشيعته ... حتى أبادَهُمُ مَثْنَى ووُحدانَا
ما إنْ رأينا أميراً بالعراق مضى ... مثل المُثَنى الذى من آل شيبانَا
إن المثنى الأميرُ القَرْمُ لا كذبٌ ... فى الحرب أشجعُ من ليث بِخَفَّانَا[١]

ومات المثنى عليه رحمة الله قبل موقعة القادسية متأثراً بجراحه ، بعد أن مهَّد الطريق لغزو فارس ، وأذاقهم النكال المُرَّ ، وأطمع فيهم المسلمين وجرَّأهم عليهم ، وأصبحوا لا يستطيعون النكوص عن إتمام الفتح بعد أن استشهد منهم من استشهد . وهكذا يرجع إلى هذا القائد العظيم تلك المأثُرَة ، وهداية أمم كثيرة للإسلام كانت تابعة للفرس ، لأنه أول من تجرأ على غزو بلادهم .

ومن هؤلاء الأبطال العظام الذين ندر وجودهم فى أزمنة التاريخ فى العالم أجمع القعقاعُ بن عمرو[٢] ، الذى منحه الله قلباً جريئاً لا يهاب المنايا وهى فاغرة أفواهها ، كأنما بينه وبينها عهد ، ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه ذا بصيرة ثاقبة ومعرفة بالرِّجال ومعادنهم ، ولا سيما رجال الحروب ، فقد حدثَ بعد أن فرغ خالدٌ من اليمامة ، وقد كتب إليه بالتوجه بمن معه إلى العراق أنَّ خالداً طلب من أبى بكر المدد بعد وصوله إلى العراق ، فأمدَّه بالقعقاع بن عمرو التميمى ،

---

(١) خفان : مأسدة مشهورة قرب الكوفة ، والنخيلة : مكان بالعراق قرب البويب

(٢) كان القعقاع من صحابة رسول الله ، وشهد فتوح الشام والعراق ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً : ما أعددت للجهاد ؟ قال : طاعة الله ورسوله والخيل .

فقيل له : أتمد رجلاً قد انفضَّ عنه جنده برجل ؟ ! فقال أبو بكر قوله الذى يدل على عظيم ثقته بالقعقاع : « لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا » . فالقعقاع وحده فى نظر خليفة المسلمين أقوى من جيش ، وهو مَدَدٌ وحده لمن يطلب المدد ؛ لأنه شجاع ، ولأنه ذو رأى و بصيرة ، ولأنه ذو عصبية شديدة ، ولأنه مؤمن مسلمٌ ولا عجب :

فالناسُ ألفٌ منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألف إن أمرٌ عَنَى

إن خليفة المسلمين يطلب منه خالدٌ المددَ لغزو العراق ، وليضع أول لبنة فى صرح الإمبراطورية الإسلامية ، وليحارب الفرس الدولة القوية ذات السلطان الضخم والشوكة المتينة ، فيمدُّه الرجلُ المسئول عن شئون المسلمين ، والذى قاتل أهل الرِّدة بالجيوش الكثيرة ، والذى يحرص كل الحرص على سلامة العرب ، وسلامة الدين برجل واحد هو القعقاع بن عمرو ، فأى رجل كان القعقاع هذا ؟ ! لا بد أنه كان شيئاً مَهُولاً دونه كل وصف وكل تقدير .

نراه أول ما نراه يُنْجد خالد بن الوليد حين احتضنَ هُرْمزَ فى موقعة ذات السلاسل . وهجم الفرس على خالد يريدون استخلاصه ، فكان القعقاع الشهم اليقظ أسرع منهم ، ولم يمهلهم حتى ينالوا من قائده ، بل حمل عليهم حتى تمت هزيمتهم . ولما غزا خالدٌ الحيرةَ ، وأراد مطاردة الفرس خلف عليها البطلَ القعقاع بن عمرو . ولما دُعى إلى محاربة الروم فى اليرموك ضَنَّ بالقعقاع أن يتركه مع المثنى بن حارثة ، وأخذه معه ، ولقد تقدم كيف تسوَّر كلاهما حصن دمشق ، وفتحاها عَنْوة . ثم أمر عمر بن الخطاب بعد فتح دمشق أن يُرْجع أبو عبيدة جيشَ العراق إلى قتال الفرس ، فضَنَّ بخالد بن الوليد واحتفظ

به لنفسه ، وسُيِّر جيش العراق وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو تحت إمرة هاشم ابن عُتبة بن أبى وقّاص ، وتعجّل القعقاع حتى قدم على المسلمين بالقادسية يوم أغواث(١) وهو ثانى أيام هذه المعركة المشهورة .

أراد القعقاع البطل أن يوقع الرُّعب فى قلوب الفرس ، فعهد إلى أصحابه أن يتقطعوا أعشاراً ، وهم ألف ، فكلما بلغ عشرةٌ مدى البصر سرّحوا فى آثارهم عشرة ، وكان قدوم القعقاع فى العَشرَة الأولى ، فلما أتى الناسَ حيّاهم و بشرهم بالجنود ثم قال لهم : أيها الناس ! إنى قد جئتكم فى قوم ، والله إنهم لو كانوا بمكانكم ثم أحَسُّوكم حسدوكم حُظوَتَها ، وحاولوا أن يطيرُوا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع ، ثم تقدم من تَوِه الصفوف ونادى : من يبارزُ ؟ فبرز إليه رجل من الفرس ، فقال له القعقاع من أنتَ ؟ قال : أنا بَهمن جاذويه ، فنادى يا لثارات أبى عُبيد وأصحاب الجسر ! واجتلدا ، فقتله القعقاع . وجعلت خيله ترد قطعاً ، ومازالت ترد إلى الليل ، وتنشَّط الناس ، وكأن لم يصابوا أمس بمصيبة فى أول أيام القادسية . ثم نادى القعقاع : من يبارز ؟ فخرج إليه رجلان ، فانضم إليه الحارث بن ظَبيان ، فقتل كلٌّ منهما صاحبه . وجَعَل القعقاع يحرض المسلمين على القتال و يقول لهم : باشروهم بالسيوف ، فإنما يحصد الناسُ بها ، وبدأ الحرب والطعان ، ونَشِط المسلمون لجرأة القعقاع ، وقدوم رجاله ، فنكلوا بالفرس فى يوم أغواث نكالاً عظيماً . ولما جَنَّ الليل سَرَّب القعقاع رجاله إلى المكان الذى فرّقهم فيه من أمسه ، وقال لهم : إذا طلعت عليكم الشمس فأقبلوا مائةً مائة ، كلما توارى عنكم مائة فلتتبعها مائة ، و إن

(١) الطبرى ج ٤ ص ١١٩ .

أدرككم هاشم بن عتبة برجاله فذاك ، وإلا جددوا للناس رجاء فى المدد ، فإن الرجاء يَزيدهم إقداماً فى الحرب . وإيماناً بالفوز فيها ، ففعلوا ذلك ، من غير أن يشعر بهم أحد . وقد أدركهم هاشم ورجاله فزاد بهم المسلمون قوةً على قوتهم ، وكبَّروا لمقدمهم حتى فزع الفرس .

ثم كان يوم عَمَاس[1] . وأعدّ الفرسُ الفيلةَ كأول يومٍ فى القادسية ، ولما اشتد الأمر على المسلمين من الفيلة ، أشار من دخل الإسلام من أهل فارس على سعد بن أبى وقاص بأن مقاتل الفيلة فى مشافرها وعيونها ، فأرسل إلى القعقاع بن عمرو وعاصم أخيه أن اكفيانى الفيل الأبيض ، وأرسل إلى حَمَّال والرِّبيل الأسديين أن اكفيانى الفيل الأجرب ، وكانت الفيلة جميعها تتبعهما . فأخذ القعقاع وعاصمٌ رمحين ووضعاهما فى عينى الفيل الأبيض ، فقبعَ ، وخفضَ رأسه ، وطرح سائسه ، ودلَّى مِشْفَره ، فضربه القعقاع بسيفه ، فرمى به ، ووقع لجنبه . وفعل حمال والربيل مثل فعلهما ففرت الفيلة جميعاً ، وألقت بمن عليها من الفرسان ، واختلَّت صفوفُ الفرس ، ودارت رحى المعركة إلى الليل ، وظنَّ سعدٌ أن الأمر سيهدأ إلى الغد ، وخشى أن يُؤتى المسلمون من خلفهم فأرسل من يحميهم ، ووجد هؤلاء أن الفرصة سانحةٌ فكبروا وهجموا على الفرس ، وظنَّ الفرس أن العرب قد غدروا بهم ، فاستأنفوا القتال ، فلم ينتظر القعقاع أمرَ سعد ، وتلقى هجومهم بهجوم شديد ، ولمَّا رأى سعد القعقاع مشتبكاً مع الفرس يُزاحفهم قال : اللهم اغفرها له ، وانصره ، فقد أذنت له ، وإن لم يستأذنى ، واشتد أوار المعركة طول الليل ، ولم تسمع إلا قعقعة السلاح ، واختلط الأمر

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٢٤ وتسمى الليلة ليلة الهرير .

على سعد ، فلم يعرف شيئاً عن المعركة حتى الصباح ، فرأى أن الغلبة للمسلمين .

لم يغمض للمسلمين جَفْنٌ فى تلك الليلة ، وأنهكهم القتال ، وسعير المعركة ، واشتد بهم التعب ، بيد أن القعقاع الشجاع الصارم سار فيهم يحثهم على الصبر ويقول : إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة ، واحملوا فإن النصر مع الصبر . وتعاهد هو وجماعة على الموت ، وحملوا على من يليهم ، واقتتلوا أشد قتال إلى أن قام قائم الظهيرة ، فتخاذل الفرس ، وزحف القعقاع إلى سرير رستم قائد الفرس هو وحُفنةٌ من أصحابه ، فاقتحم النهر هرباً ، فشده هلالُ بن علَّفةَ من رِجله ، وقطع رأسه ، ونادى : قتلت رستم وربِّ الكعبة ، فولىَّ الفرس الأدبار . وتتابعت هزيمتهم ، وتردَّوْا فى النهر هرباً فغرق منهم خلق كثير .

وكتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر يبشره بالفتح كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سُنَنَ من كان قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتال شديد ، وقد لَقُوا المسلمين بعُدَّةٍ لم ير الراءون مثل زُهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، واتَّبعهم المسلمون على الأنهار وفى الفجاج ، وأصيب من المسلمين فلان وفلان ، ورجال من المسلمين ، لا نعلمهم ، الله بهم عالم ، وكانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جَنَّ الليل دَوِيَّ النحل ، وهم آساد الناس ، لا يُشبههم إلا الأسود ، ولم يَفْضُل مَنْ مضى منهم من بَقِى إلا بفضل الشهادة ، إذ لم تُكْتَبْ لهم » .

وهذا هو القعقاع بن عمرو يسيِّره سعد بن أبى وقاص على مقدمة جيش

هاشم بن عُتبة يوم جَلولاء[١] ، وذلك بأمر عمر بن الخطاب ، وتعيينه القعقاع بالاسم على مقدمة جيش هاشم ، ولما دارت المعركة ، وكانت أشبه بليلة الهرير ، انتهى القعقاع فى الوجه الذى هجم منه إلى باب خَيْل العدو ، وهم متحصنون وراء جُدُرٍ سميكة ، فأخذ به ، وأمر منادياً فنادى : يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخلَ خندق القوم ، وأخذه ، فأقبِلوا إليه ، ولا يمنعنكم مَنْ بينكم وبينه من دخوله . وقد أمر بذلك ليقَوِّىَ المسلمين ، فحمل المسلمون ، وهم لا يشكون أن هاشم بن عُتبة فيه ، فلم يَقُمْ لحملتهم شىء ، حتى انتهوا إلى باب الخندق ، فإذا هم بالقعقاع بن عمرو قد أخذ به . وانهزم الفرسُ يمنةً ويَسْرةً .

وظل القعقاع ذلك القائد الباسل يشهد كل معركة من معارك المسلمين مع الفرس ، ويتقدم الصفوف ، ويقود طليعة الجيش ، وها نحن أولاء نراه مرة أخرى فى موقعة نَهاوَند[٢] ، وقد تحصن الفرس فى خنادقهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا ، ولا يقدر المسلمون منهم على شىء ، وطال بهم الأمر ، وعظم الضيق ، واجتمع أهل الرأى من المسلمين كلٌ يشير بحلٍ لهذه المشكلة ، وكيف يمكن أن يخرجوهم من خنادقهم وحصونهم ، وتكلم النعمان بن مُقَرِّن أمير الجيش ، وتكلم عمرو بن ثُبَىّ من قواد الجيش ، وتكلم عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، ولم يأخذ الناس بآرائهم ، ثم تكلم طُليحةُ الأسدى فقال : « إنى أرى أن تبعث خيلاً مُؤْدِيَة[٣] ، فيحدقوا بهم ، ثم يرموهم لينشبوا القتال ،

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٧٩ ، معجم البلدان ج٣ ص ١٢٩ ، كانت فى صفر سنة ١٦ هـ ، وجلولاء قرية فى طريق خراسان على نحو أربعين ميلا فى شمال المدائن .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٣١ ، ومعجم البلدان ج ٨ ص ٣٢٩ ، ونهاوند من بلاد الفرس قرب همذان ، وكانت هذه الموقعة فى سنة ٢١ هـ .

(٣) مؤدية : كثيرة قوية معدة تام الإعداد لتختلهم وتخدعهم .

ويُحَمِّشوهم[1] ، فإذا استحمشوا ، واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرَزُوا[2] إلينا استطراداً ، فإنا لم نستطرد لهم فى طول ما قاتلناهم ، وإنا إذا فعلنا ذلك ، ورأوا ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ، ولم يشكوا فيها ، فخرجوا فجادُّونا ، وجاددناهم حتى يقضى الله فينا ما أحبَّ » . فوافقه الناس على رأيه .

ولكن مَنْ الجندى الباسل الذى يُنْتَدَبُ لمثل هذه المخاطرة ، ويهجم على الأعداء فى خنادقهم ، ويدنو من حصونهم حتى يَهيجهم ، وهم منه متمكنون يرمونه بالنشاب ، والنبال ، ثم يستطرد لهم ، وهم مَنْ خلفه ينالون منه ، وهو يتظاهر بالهزيمة ليطمعهم فيه ، ويسحبهم من خنادقهم ، ثم يشتبك معهم فى معركة ، حتى ينجده المسلمون ؟؟ ، ومَنْ يفعل كل هذا إلا البطل المغوار القعقاع بن عمرو ، إنه لكل كريهة ، وكل معضلة ، لا يأبه بالمخاطر ، وكأنها لا تأبه به ، فقد حالفها وحالفته ، فهو من أذاها بمنجاة .

كان القعقاع قائد الفرسان فأمره النعمان بن مُقَرِّن أن ينفذ هذه الخطة ، فسار بخيله حتى هاج الأعداء وأخرجهم من مكامنهم ، ثم نكص ، ونكص ، ثم نكص ، واغتنمها الأعاجم وظنوا به وبجيشه الظنون ، ولم يتخلف منهم أحدٌ عن الطِّراد ، وانقطعوا عن حصنهم بعض الانقطاع ، وكان النُّعمان بن مقرن والمسلمون على تعبئة ، ولكن النعمان حبسهم فلم ينجد القعقاع ، وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوهم حتى يأذن لهم ، ففعلوا ؛ وأقبل المشركون عليهم يرمونهم ، حتى أفشوا فيهم الجراحات ، وشكا الناسُ بعضُهم إلى بعض ،

---

(١) يحمشوهم : يثيروهم ويغضبوهم ويدفعوهم للقتال .

(٢) أرزوا إلينا : رجعوا إلينا لاجئين .

ولـكنَّ النعمان صبَّرهم مراراً ، وهو ينتظر بالقتال مجىء ساعات ، كانت أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَلقى فيها العدو ، وذلك عند الزَّوال ، ومهب الرِّياح ، وكان القعقاع وصحبه يعوِّقون الأعداء ، ويشغلونهم حتى يقوم جيش المسلمين ، وقد تحملوا فى سبيل ذلك الشىء الـكثير . فلما حان الوقت أمر النعمان سائر الجيش بالهجوم ، فـكانت نـكبةٌ عظيمةٌ للفرس لم يروا مثلها من قبل ، وكان النعمان حين أمر بالهجوم يدعو الله ويقول : اللهم أعزَّ دينك وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيدٍ اليومَ على إعزاز دينك ونصر عبادك ! . كانت رايةُ النعمان تنقضُّ على الأعداء انقضاض الصواعق ، والنعمان مُعْلَمٌ ببياض القِباء والقَلَنْسُوة ، وقد أُريق من دم الأعداء ما جعل الأرض تنزلق بالخيول ، وقد زَلِق جواد النعمان فصُرِع الجوادُ وصُرِع النعمان فى دماء الأعداء . وأخذ الراية أخوه نُعيم بن مقرن ، وكتم موت أمير الجيش ، وصاروا يقاتلون حتى أتم الله لهم النصرَ ، وهرب قواد الفرس وعلى رأسهم الفيرزان نحو هَمَذان ، ورآه نُعيم بن مُقَرِّن ، فطلب إلى البطل العظيم القعقاع بن عمرو أن يَجِدَّ خلفه ، فأدركه حين انتهى إلى ثَنية هَمَذان ، والثنيةُ مشحونة من بغالٍ وحمير موقرة عسلاً عاقته عن الهرب ، وحبسته ، فقُتل على الثنية ، وقال القعقاع والمسلمون : إن لله جنوداً منها العسل . ومضى من معه إلى هَمَذان فتبعهم القعقاع حتى دخل المدينة ، وحوى ما فيها .

لقد صدق أبو بكر رضى الله عنه حين قال عن القعقاع بن عمرو : « لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا » ، وكان من المنتظر بعد أن أبلى القعقاع فى المواطن جميعها بلاءه المحمود أن يكون من القواد الذين يكل إليهم الخليفة

عمر إمارة الجيوش ، ولكنّ عمر رضى الله عنه كان ذا نظر ثاقب ؛ إذ خشى أن يُفتَن المسلمون بالقعقاع وأضرابه من الشجعان ، وأن يتكلوا عليهم ، ويضعف إيمانهم بأن نصرهم من عند الله ، وهذا هو السر فى أنه لم يول المثنى ابن حارثة إمارة الجيش إلا عند الضرورة ، وفى أنه عزل خالد بن الوليد[1] ، ولكنّ هذا كله لم يؤثر شيئاً فى نفوس هؤلاء الرجال العظام ؛ لأنهم — كما ذكرنا آنفاً — لم يكونوا يعملون لدنيا يحبونها ، أو جاه يصيبونه ، وإنما كانوا يعملون لله وفى سبيل الله . رحم الله القعقاع رحمة واسعة ، على شجاعته ، وخالص إيمانه ، وبلائه الصادق الحق فى المكاره ، وعلى ما قدم للمسلمين فى أحرج المواقف من أياد بيضاء ! !

إن قصة الدعوة الإسلامية ، وانتشارها من أول يوم لَبّى فيه محمدٌ نداء ربّه حين قال له : « فاصدَعْ بما تؤمر وأعرِض عن المشركين » إلى أن تقوضت أركان الدولة العباسية ، وغلب المسلمون على أمرهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، لَقِصَّةٌ غاصة بمئات الألوف من الأبطال ، منهم من سَجَّل التاريخ اسمه وأشاد به ، ومنهم آخرون لا يعلمهم إلا الله ، كانوا مُثلاً عالية فى التضحية ، ونكران الذات ، يعملون فى سبيل دينهم ، من غير أن يشعر الناس ، ومنهم من مَرّ التاريخ على أسمائهم دون أن يقف طويلاً ، وإن كانوا لا يقلون بأساً وتضحية عن سواهم .

ولا يسعنى أن أحصى أسماء الذين تألقوا فى صفحة الإسلام الغراء ، فقد كان هناك عشرات ، ومئات ، من المسلمين ، الذين كانوا قبل الإسلام

---

(١) راجع ص ١٩١ من هذا الكتاب .

مغمورين ، لا يعرف الناس عنهم شيئاً ؛ فما أن أتيحت لهم الفرصة لإظهار مواهبهم ، حتى برزوا ، وكأنهم تخرجوا فى أعرق الكليات الحربية اليوم ، كلا ! بل إنهم كانوا أسمى نفساً ، وأنبل غاية ، وأقومَ خلقاً وأرأف بالعدو قبل الصديق ، من هؤلاء الذين يتبجحون بمدنيتهم ، وهُمْ كذابون ، منافقون غادرون ، يعطونك ساعة المحنة أقوى العهود ، وأخلص المواثيق ، فإذا ساعدتهم وكفِل لهم النصر ، تنكروا لك ، كأن لم يكونوا بالأمس على وشك التردى فى هوة الاندحار ، والخزى ، والإبادة ؛ يتذللون لك ، ويخطبون ودَّك ، ويتمنون عطفك ، وتراهم بعد النصر متجهمين ، متغطرسين يقلبون الحق باطلاً ، والباطلَ حقاً ، أخزاهم الله !

وهناك هؤلاء الذين عُذِّبوا فى سبيل عقيدتهم ، وأوذوا أشد الإيذاء ، حتى آثروا الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم وخشيةً من الفتنة ، وهناك أبطالُ بدر ، مَنْ استشهد منهم ، ومَنْ سلّمه الله ، وأبقاه ليستشهد فى معركة أخرى . ها هو ذا رسول الله قد خرج إلى بدر فى عدد قليل ، وعدة يسيرة حتى لقد كان المسلمون يتعاقبون على الإبل لقلتها ، يسير علىّ وفى يده راية المهاجرين ، ويسير سعد ابن مُعاذٍ وفى يده راية الأنصار . ويعلم النبي بقدوم قريش ، فاستشار أصحابه ، وتكلم كثيرون ، وممن تكلم المِقدادُ بن عمرو فقال : يا رسول الله ! امض بنا لما أراكَ اللهُ فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون[1] » ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سِرْتَ بنا إلى بَرْكِ

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٢٣

الغِمَادِ[1] لجالدنا[2] معك مِنْ دونه حتى تبلغَهَ » ، وتـكلَّم سعد بن مُعاذ فقال : امض يا رسول الله لما أردتَ فنحن معك ، فو الذى بعثَك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر لخضناه معَكَ ما تخلَّفَ منا رجلٌ واحد ، وما نـكرهُ أن تلقى بنا عدوَّنا غداً ، إنَّا لصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ فى اللقاء ، ولعلَّ الله يريكَ ما تقرُّ به عينُكَ ، فسر بنا على بركة الله » .

وكان سعد بن مُعاذ يتكلم باسم الأنصار ، الذين آووْا رسول الله ، ولقد كان سعدُ هذا من أعلام الإسلام الخافقة ، وأبطاله الأفذاذ ، مَرَّ يومَ الخندق بحصن بنى حارثة ، وهو من أحرز حصون المدينة ، وعليه درع قصيرة ، قد خرجتْ ذراعُه كلُّها منها وفى يده حربته يسرع بها ويقول :

لَبِّثْ قليـــلاً يَشْهدِ الهيْجا حَمَل لا بأسَ بالموت إذا حان الأجل[3]

فقالت له أمه ، وكانت فى الحصن هى وعائشة أم المؤمنين : الحق يا بنى فقد والله أخرت ، فقالت لها عائشة : يا أمَّ سعد ، والله لودِدت أن دِرْع سَعْدٍ كانتْ أسبغَ مما هى ، ثم رُمى سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل[4] ، وقد مات متأثراً من جرحه بعد أن حكم على بنى قريظة حكمه المشهور[5] ، وقد قال فيه رجل من الأنصار يرثيه :

وما اهتزَّ عرشُ الله من موت هالكٍ سمعنا به إلا لسعدٍ أبى عمر

---

(١) برك الغماد : موضع بعيد ، أو هو كناية عن أقصى مكان معمور فى الأرض .

(٢) جالدنا : جاهدنا .

(٣) حمل : اسم رجل وهو الذى قال هذا البيت الذى تمثل به سعد .

(٤) الأكحل : عرق فى الذراع .

(٥) راجع سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٥٢ ، وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٢ .

وقالت أمه ترثيه :

وَيلُ امِّ سعد سـعداً صَرامـةً وحَــدًّا
وسُــؤدداً ومَجـداً وفارسـاً معــدا
سَـدَّ به مَسَداً[1]

وهناك أبطال أُحد : مصعَبُ بن عُمير أول حامل للواء المسلمين يقاتل حتى يقتل ، وهذه أمُّ عمارة بنت كعب خرجت أول النهار ، ومعها سِقاء فيه ماء ، فانتهت إلى رسول الله وهو فى أصحابه ، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ، وأخذت تقاتل ، وتَذُبُّ عن النبى بالسيف ، وترمى عن القوس حتى جُرحت فى سبيل الله .

وهل أتاك حديث خُبَيب بن عَدى ؟ وقد غدر به و بأصحابه قوم جاءوا إلى النبى مُدَّعين الإسلام ، وطلبوا منه أن يرسل إليهم من يفقههم فى الدين ، فكان خُبيب هذا ممن أرسله رسول الله ، ولكنَّ القوم غدروا بهم جميعاً ، و باعوا خُبيباً لرجل من أهل مكة كى يقتله بأبيه الذى قُتل فى بدر ، ثم خرجوا بخبيب ليقتلوه فقال : ذرونى أصلى ركعتين ، فصلى ، ثم قال لولا أن يقولوا جزع من الموت لزدت ، وما أبالى على أىِّ شِقَىَّ كان لله مصرعى . ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه قال: اللهم إنَّا قد بلَّغنا رسالةَ رسولك ، فبلِّغه الغداةَ ما يُصْنَع بنا ، اللهم أَحْصِهم عَدَداً ، واقتلهم بَدَداً ، ولا تُغادِرْ منهم أحداً . . . ثم قتلوه .

وكان من هؤلاء زيد بن الدَّثِنة ، فلما قُدِّم ليقتل ، سأله أبو سفيان :

---

(١) أيام العرب فى الإسلام للأستاذين محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى البجاوى س ٧٠

أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن مكانك نضرب عنقه ، وأنك في أهلك ! قال : والله ما أحبُّ أن محمداً تصيبه شوكةٌ تؤذيه وأنا جالسٌ في أهلي .

إن القديسين الذين يعظمهم أهل المسيحية هم الذين أصيبوا من أجل دينهم ، وعذبوا في سبيله ، وقد قُتل بعضهم ، ولكنَّ المسلمين كانوا جميعاً قديسين وما منهم إلا مَنْ ضحى بأعز شيء لديه في سبيل دينه ، وإذا طُلبت منه نفسه قدمها راضياً مطمئناً . هذا رسول الله يبعث أربعين رجلاً من أصحابه لأهل نجد كي يعلموهم الإسلام ويهدوهم إلى الطريق القويم ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، فقال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالةَ رسول الله أهلَ هذا الماء ، فقال حرام ابن مِلْحان . أنا أبلّغ رسالةَ رسول الله ، وخرج حتى أتى حِواء[1] منهم ، فاحتبى أمام البيوت ؛ ثم قال : يا أهل بئر مَعُونة ، إني رسول محمد إليكم ، إني أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً عبدُه ورسولُه ، فآمنوا بالله ورسوله . فخرج إليه عامر بن الطُّفيل من كِسْر[2] البيت برمح فضرب به جنبه ، حتى خرج من الشِّقِّ الآخر ، فقال حرام : الله أكبر ! فزتُ وربِّ الكعبة ! ؛ لله هذه النفس المؤمنة التي تسعى للشهادة ؛ وأداء الرسالة ، وتُسَرُّ للموت كما يسر غيرها للحياة .

وكيف ننسى أبطال مُؤتة ، زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رَوَاحة ، وقد كانوا يقاتلون قوماً يفوقونهم عدداً ، وقد قتل هؤلاء

---

(١) الحواء : مجموعة من بيوت الحي .

(٢) كسر البيت : جانبه . راجع في يوم بئر معونة سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٤ ، والطبري ج ٣ ص ٣٣ وما بعدها .

جميعاً الواحد بعد الآخر ، وكلٌّ منهم كان يحمل راية المسلمين . استمع إلى عبد الله ابنِ رَوَاحَة يقول وقد أخذ الراية بعد مقتل جعفر :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلِنَّهْ ... لتنزلِنَّ أو لتُكْرَهِنَّه
إنْ أجْلَبَ الناسُ وشدوا الرَّنة ... مالى أراكِ تكرهين الجنَّة ؟[١]
يا نفسُ إلا تُقْتَلِى تموتى ... هذا حِمامُ الموت قد صَلِيتِ
وما تمنَّيتِ فقد أُعطيتِ ... إن تفعلى فعلَهما[٢] هُدِيت

ثم ظلَّ يقاتل حتى قُتل .

وماذا عساى أن أذكر من أسماء هؤلاء الأبطال ، وعددهم يجل عن الحصر : هذا ثابتُ بنُ قيس يومَ اليمامة — حين انهزم المسلمون ، نادى فيهم : بِئْسمَا عودتُم أنفسَكم يا معشر المسلمين ، اللهم إنى أبرأُ إليك مما يَعْبُدُ هؤلاء — يعنى أهل اليمامة — وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء — يعنى المسلمين — ، وحفر لقدميه فى الأرض ، وهو حامل اللواء ، بعد ما تحنَّط وتكفن ، ولم يزل فى مكانه حتى قُتل .

وهذا زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب تراه يوم اليمامة وهو يخطب الناس : أيها الناس عُضوا على أضراسكم ، واضربوا عدوكم ، وامضوا قدُماً ، والله لا أتكلمُ حتى يهزمهم الله ، أو ألقىَ الله ، فأكلمه بحجتى ، ثم قاتل حتى قتل .

وهذا هو أبو مِحَجن الثقفى يحبسه سعدُ بن أبى وقاص فى بيته يوم القادسية لتغنِّيه بالخمر وقد حرَّمها الإسلام ، فيُقْنع امرأة سعد والمعركة دائرة بأن تفك قيده وتعطيه فرس سعد ليقاتل عليها ، ثم يعود بعد المعركة ويضع القيد فى رجليه

(١) الرنة : العويل .
(٢) الضمير عائد إلى صاحبيه زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب .

كما كان ؛ وتوافقه بعد تردد طويل ، ويخرج إلى المعركة ، ويقصف الأعداء بسيفه قصفاً منكراً ، وتعجّب الناس من أمره وهم لا يعرفونه . وقد قال فى بلائه يوم القادسية :

لقد علمتْ ثقيفُ غير فخر ... بأنا نحن أكرمُها سيوفا
وأكثرُهم دروعاً سابغاتٍ ... وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
فإن أُحبس فذلكم بلائى ... وإنْ أُترك أذيقهم الحتوفا

وقد عاد بعد المعركة وقيّد نفسه بالقيده .

وهذا هاشم بن عُتبة بن أبى وقاص يقاتل أسد كسرى حتى يقتله بسيفه[1] وهؤلاء هم أبطال الشام : أبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، ويزيد بن أبى سفيان ، لقد كان كلٌ منهم أمة وحده ، دهاء وقوة وعزيمة .

لقد كان المسلمون جميعاً أبطالا ، وكيف لا ؟ ، لقد عبروا دِجْلَةَ بخيولهم وراء العدو جميعاً فى يوم المدائن[2] ، وإن دجلة لترمى بالزبد ، وإنهم ليتحدثون فى عومهم ما يكترثون ، كما يتحدثون فى مسيرهم . وسعد بن أبى وقاص وراءهم يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ؟ والله لينصرَنّ الله وليّه ، وليُظهِرَنّ الله دينه ، وليهزِمَنّ الله عدوه ، إن لم يكن فى الجيش بَغْىٌ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات ، فقال له سلمان الفارسى : « ذُلِّلت لهم والله البحور كما ذُلِّلَ لهم البر ، أما والذى نفس سلمان بيده ليَخرُجُنّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً » وطبقوا دجلة خيلاً ورَجْلاً حتى ما يرى الماء من الشاطىء أحد ، ثم خرجوا من الماء ، والخيلُ تنفضُ أعرافها صاهلة ، فلما رأى الفُرْسُ ذلك ولّوا مدبرين لا يلوون على شىء

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦٤ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ١٧٠ ، وابن كثير ج ٨ ص ٦٣ .

لأنهم رأوا قوماً لا يقف أمامهم شىء حتى دجلة وهو يرمى بالزبد يعبرونه سباحة ، وعليهم عُدَّتهم وعَتادُهم ومعهم خيولهم وإبلهم .

ولو رُحت أعدد أسماء الأبطال الذين ظهروا فى تاريخ الفتوح الإسلامية ، وأعمال كل منهم ، وعظم بلائه ، لما استطعت إلى ذلك سبيلاً فى هذا الكتاب المحدود الصفحات ؛ لقد لمع فى فتح مصر عمرو بن العاص ، وعُبادة بن الصامت والمِقْداد بن الأسود ، وأبلى فى فتح إفريقية ، ومقاتلة البربر ، عقبةُ بن نافع مؤسسُ القَيْروان ، وناشر الإسلام فى تلك الربوع ، والبربر أمة متبدّية كالعرب ولكنّ العربَ كانوا أقوى منهم بعقيدتهم وعِظَم إيمانهم بما وعدهم الله . ومن الأسماء التى تألَّقت فى سماء التاريخ العربى الإسلامى المهلبُ بن أبى صُفْرَة ، وقد اشتهر بحروبه مع الخوارج ، وكانوا قوماً أولى بأسٍ شديد ، تمكنت من قلوبهم عقيدة راسخة ، وهم عَرَبٌ فى الغالب ، وكانوا يسمون الشُّراة ، لأنهم باعوا أنفسهم فى سبيل مبدأهم وعقيدتهم ، واشتهر منهم أبطال عظام ، وقد أرسل إليهم عُبيدُ الله بن زياد جيشاً من ألفى رجل فهزمه أربعون من الخوارج يوم آسك[1] ، وفى ذلك يقول عيسى بن فاتك الخارجى من بنى تيم اللات[2] :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بآسكَ أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكنّ الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غيرَ شك على الفئة الكثيرة يُنْصرونا
أطعتم أمرَ جبّارٍ عنيد وما من طاعة للظالمينا

ولم يوجد من قواد العرب المسلمين من يستطيع الثبات للخوارج وتأديبهم

(١) الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى طبعة ليدن ص ٢٧٩ .
(٢) Noeldeke : Veterum Carminum Arabicorum. P. 90

وتذليلهم إلا المهلب وفى ذلك يقول ابن عَرَّاوة[1] .

وليس لها إلا المهلبُ إنه ملىء بأمر الحرب شيخٌ له شان
إذا قيل من يحمى العراقين أومأت إليه مَعَدٌّ بالأكف وقحطان
فذاك امرؤ إن يلقهم يُطْفِ نارَهم وليس لها إلاّ المهلب إنسانُ

ولم يكن قتال هؤلاء الخوارج هيِّناً ، إذ كانت عندهم عصبيّةٌ شديدة لمذهبهم ، ومعظمهم من العرب ، وكان فيهم زُهْدٌ وعزوف عن الدنيا وتقشف ، وظهر من بينهم أبطالٌ شجعان ، ضربوا المثل الأعلى فى التضحية ، والإيثار ، وتمثلت فيهم كلُّ معانى الفتوة ، ومن هؤلاء أبو بلال مِرْداسُ ابن أُدَيَّة الذى يرثيه عِمرانُ بن حِطَّان البطل الخارجى بقوله :

لقد زادَ الحياة إلىَّ بغضاً وحباً للخروجِ أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشى وأرجو الموتَ تحت ذُرا العوالى
ولو أنى علمت بأنَّ حَتْفى كحتفِ أبى بلالٍ لم أبالِ
فمن يك هَمُّهُ الدنيا فإنى لها واللهِ ربِّ العرش قالى

ومنهم قَطَرِىُّ بن الفُجاءة وهو القائل : —

ألا أيها الباغى البِراز تَقَرَّبَنْ أُساقِك بالموت الذُّعاف المُقَشَّبَا
فما فى تساقى الموت فى الحرب سُبَّةٌ على شاربيه فاسقنى منه واشربا

ولكن المهلب بن أبى صُفْرَة كان من القواد المحنكين ، والشجعان الأفذاذ ، وأخذ يتتبعهم ، ويلتقى بهم فى المعركة تلو المعركة ، ويوقع بهم المرة بعد المرة ، وهم يتربصون به الدوائر ، وهو لا ينفك يطلبهم ، ولقد هجموا عليه

(١) الأخبار الطوال ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

مرة(١) وهو جالس على المنبر يوم عيد الأضحى يخطب الناس خطبة العيد فلما سمع بمقدمهم قال : سبحان الله ! أفى مثل هذا اليوم يأتوننا ؟ ما أبغض إلىّ المحاربةَ فيه ، ولكنّ الله تعالى يقول : « الشهرُ الحرام بالشهرِ الحرام والحُرمات قِصاصٌ فمن اعتدى عليكم فاعتدُوا عليه بمثلِ ما اعتدى عليكم » ونزل من على المنبر ، وخَفَّ لقتالهم ، وكان يرأسهم فى ذلك اليوم أحد فرسانهم وهو عمرو القنا وقد ارتجز عمرو هذا حين رأى المهلب بقوله :

نحن صَبَحْنا كم غداة النَّحْر ... بالخيل أمثالَ الوشيج تَسْرى
يَقْدُمها عمروُ القَنا فى الفجر ... إلى أناسٍ لَهِجُوا بالكفر
اليومَ أقضِى فى العدو نَذْرى

واقتتلوا قتالاً شديداً فى ذلك اليوم حتى جَنَّ عليهم الليل ، ثم انحازَ الخوارج إلى (كازون) ، من بلاد فارس وتبعهم المهلب ، وكلّما ذهبوا إلى مكان سار فى آثارهم حتى قال أحدهم :

حتى متى يتبعُنا المهلَّبُ ... ليس لنا فى الأرض منه مَهْرَبُ
ولا السماء أين أين المذهبُ ... ؟

ولما سمع ذلك قطرىّ بن الفجاءة بكى ، ووطّن نفسه على الشهادة والموت ، وقدِم الحربَ وهو يرتجز :

حتى متى تخطئنى الشهادة ... والموت فى أعناقنا قلادة
ليس الفرار فى الوغى بعادَة ... يا رب زدنى فى التقى عبادَة
وفى الحياة بعدها زَهادة

(١) الأخبار الطوال ص ٢٨٥ .

واستمرَّ القتال بينهم وبين المهلب زَمَناً ، وهو يقفو آثارهم فى شعاب الجبال ، وفى الحصون ، وفى كل مدينة ومكان وينكل بهم ، وهم لا يلينون ولا يخضعون إلى أن كان يومٌ صَمَّمَ فيه الخوارج على الاستشهاد أو الثبات لعدوهم ، وعليهم عبد ربه ، فناداهم : « يا معشر المهاجرين روِّحوا بنا إلى الجنة فإن القوم رائحون إلى النار . » فاطَّعنوا بالرماح حتى تكسَّرت ، واضطربوا بالسيوف حتى تقطعت ، ثم صاروا إلى المعانقة ، فترجل المهلب فى حُماته وحمل عليهم وهو يتلو قول الله تعالى : « قاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلُّه لله » [1] فلم يزالوا يقتتلون حتى حال بينهم الليل ثم غدوا على الحرب ، وقد كَسَر الخوارج جُفونَ سيوفهم ، وحلَّقوا رءوسهم ، وقتل (عبد ربه) وجميع أبطاله ، ولم يبق إلا ضعفاؤهم ، فدخلوا فى عسكر المهلب ، وانضم كل رجل إلى عشيرته من أصحاب المهلب ، فكتب بالنصر إلى الحجاج ، وأرسل الكتاب مع بِشْر بن مالك الحَرَسِيّ ، فلما وقف أمام الحجاج أنشد يقول : —

قد حَسَمْنا داء الأزارقة الدَّهْـ ... رَ فأضْحَوْا طَـراً كـآل ثمود
بطعان الكُماةِ فى ثُغَرِ القو ... مِ وضربٍ يُشيبُ رأس الوليد
كلما شئت راعنى قَطَرِىٌّ ... فوق عَبلِ الشَّوَى أقبَّ عَتود
مُعْلَماً يضربُ الكتيبة بالسيـ ... ـف وعمروٌ كالنار ذات الوقود

ومن القوَّاد العظام الذين غيَّروا وجه التاريخ ، ودخل بفضلهم أممٌ عديدة فى الإسلام ، رفدته بالعلماء الأجلاء ، والفقهاء المتبحرين ، قتيبةُ بن مسلم الباهلى ، وكان على قدر عظيم من الشجاعة ، لا يرده عن غايتـــه شىء مهما جَلَّ ،

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٤٠ .

وقد فتح كلَّ ما وراء النَّهر ، وأدخل فى حوزة الإسلام بُخارى وسَمرْقند ، وأوغل فى فتوحاته حتى أبواب الصِّين . وقد حارب فى فتوحاته أمماً شتى اشتهرت ببأسها وشجاعتها كالترك والدَّيلم وغيرهم ، فلم يثبتوا لقتاله .

ومنهم محمد بن القاسم بن محمد الثقفى الذى اشتهر بحروبه أيام بنى أميَّة ، وفتح بلاد السِّند ، وجعل لنا من أبنائها إخواناً فى الإسلام نعتز بهم إلى يومنا هذا ، وكان محمد شجاعاً ، وبطلاً صنديداً لا يَثْنيه عن عزمه شىء .

ومنهم مَسْلمة بن عبد الملك بن مرْوان ، وقد أبلى بلاءً عظيماً فى حروبه مع الروم ، وفتح القسطنطينية للمرة الثانية .

ومنهم موسى بن نُصير وطارق بن زياد اللذان فتحا الأندلس وحاربا الفرِنجة ، وكانا السبب فى تلك الدولة العظيمة التى ازدانت بها أوربا ثمانية قرون.

لقد حارب فتيان المسلمين كلَّ أمم الأرض ، وامتُحنت شجاعتهم فى كل صُقع ، وأمام كل أمة ، فبرهنوا على أنهم أشدُّ بأساً ، وأقوى عزيمة ، وأعظم إيماناً ، وأنهم أبطالٌ من اشتهر منهم ، ومن لم يشتهر . لقد كان شعارُ كل منهم فى هذه المعارك الطاحنة التى غيروا بها وجه التاريخ ، وأدالوا كثيراً من الشعوب أولى البأس والقوة ما قاله أبو روَّاغ اليشكرى :

إن الفتى كلَّ الفتى مَنْ لم يُهَلْ ... إذا الجبان حاد عن وَقْع الأَسَلْ
قد علمتْ أنى إذا البأس نزل ... أروعُ يومَ الهيْج مِقدامٌ بَطَلْ

لقد كانت جيوش المسلمين أيام الخلفاء الراشدين ، وبنى أمية تتألف من فتيان العرب ، وهم أصحاب القيادة والسيادة ، وهم حملة الإسلام والمبشرون به ، وقد حافظوا على تقاليدهم فى كل مكانٍ حلوا به ، ولم يدعوا الترف يفسد عليهم

أجسامهم القوية ، ونفوسهم العالية ؛ وقد فطن عمر بن الخطاب إلى الأخطار التى ستحدق بهم ، حينما يخالطون سواهم من الأمم ، ويقوضون عروشاً قد أبطرها الثراء ، وأفسدتها النعمة ، ويحوزون أموالاً جمّة ، ويرون من أسباب الرفاهية ما لم يتعودوه ، وما تشتاقه كل نفس ، ولذلك نصحهم عمر بن الخطاب نصيحته المشهورة على ما رواه علىُّ بن الجعد عن أبى عثمان الهندى[1] قال : أتانا كتاب من عمر بن الخطاب ونحن بأذربيجان : « أما بعد ، فاتزروا ، وارتَدُوا ، وانتعلوا ، والقوا الخِفاف ، والقوا السراويلات ، وعليكم بثياب أبيكم اسماعيل ، وإياكم والتنعم وزىَّ العجم ، وعليكم بالشمس فإنها حَمَّام العرب ، وتمعددوا واخشوشنوا ، واخلولقوا ، واقطعوا الرُّكُب ، وانزوا على الخيل نزوا ، وارتموا الأغراض » .

فقد أمرهم بلبس الإزار ، والرداء ، والنعل لتعتاد أرجلهم الحر والبرد فتقوى على دفع الأذى ، ونهاهم عن لبس الخفاف[2] ، والسراويلات ، كما نهاهم عن التنعم ، لأنه يخنث النفس ، ويكسبها الأنوثة ، والكسل ، ويكون صاحبَه أحوجَ ما يكون إلى نفسه وقت الشدائد ؛ والتشبه بالعجم حتى يحافظوا على مظهرهم العربى ، فلا تزل أقدامهم فى مهاوى الترف ، وينسوا عاداتهم وتقاليدهم ، وحتى يكونوا شجاً فى قلوب عدوهم وهم فى زيهم البدوى ، أمَّا إذا رآهم فى زيِّه ومظهره الذى ألفه ، قلَّت خشيته لهم ، وتجرأ عليهم . وأمرهم عمر رضى الله عنه بأن يتعرضوا للشمس حتى تصح أجسامُهم ، وتذهب عنهم الأمراض والعلل ، وهم فى جو لم يألفوه ، وعلى طعام لم يتعودوه . كما

---

(١) الفروسية لابن القيم الجوزية ص ٩ . (٢) جمع خف .

أمرهم أن يتمعددوا أى أن يلزموا عادة جدهم مَعَدّ بن عدنان فى أخلاقه ، وزيه وفروسيته وأفعاله . وطلب منهم كذلك أن يخشوشنوا أى يمارسوا ما يوجب الخشونة ، ويجعل الجسم متين البناء صُلْباً ، قوياً على احتمال الإجهاد ، وشدة الحر والبرد ، والتعب والمشاق ، فإن الرجل قد يحتاج إلى نفسه فيجد عنده من الخشونة والجلد والصبر مالا يجده عند المنعّم المترف . كما طلب منهم أن (يخلولقوا[١]) أى أن يتهيئوا ويستعدوا لما يراد منهم ، فيكونون خلقاء به جديرين بفعله . لا كمن ضيع فروسيته وقوته عند الحاجة . وأمرهم عمر رضى الله عنه كذلك أن يقطعوا الرُّكب ، أى أن يمتطوا صهوات الخيل من غير ركاب ، حتى لا يعتادوها ، فقد تلجئهم الضرورات إلى الركوب من غير ركاب فيجدون أنفسهم قادرين على ذلك ، أقوياء على كبح جماح الخيل ، ولذلك قال بعد هذا ، وانزوا على الخيل نزوا ، أى ثِبُوا عليها وثباً ، وهذا شأن الفتيان الأقوياء ، وإذا رآهم أعداؤهم وهم يثبون على ظهور الخيل من غير استعانة بالرُّكُب ، فزعوا من قوتهم ، وفرط نشاطهم . وأخيراً طلب منهم أن يحكموا الرماية بقوله « وارتموا الأغراض » ، بأن يجعلوا قصدهم إصابة الهدف حين يرمون عن القوس ، لا أن يكون همهم البعد .

بمثل هذه النصائح العظيمة الفروسية أمرهم عمر بن الخطاب ، حتى لا يدِبّ الفساد إلى أجسامهم ونفوسهم ، ويستكينوا للدّعة والترف فيحيقَ بهم الخذلان فى جهادهم ، والنكوص على أعقابهم حين احتدام المعارك ، فلا يؤدون الرسالة التى انتدبوا أنفسهم لها ، ولقد استجابوا لنداء أمير المؤمنين ، وزادتهم معامع

---

(١) من اخلولق السحاب بعد تفرقه أي اجتمع وتهيأ للمطر وصار خليقاً به .

القتال تجربة وقوة ، وجرأة على أعدائهم ، وصلابة فى الجسم ، وشجاعة فى النفس ، وانطلقوا كالسهام المفوقة ينشرون دين الله فى كل أرض توجهوا إليها ، لا يحول بينهم و بين غايتهم قوة من قوى البشر . فلمّا جاءت الدولة العباسية ، وناصرها الفرس واتخذت جيوشَها من الأعاجم المختلفى الأجناس من فرس ودَيلم وترك ، وانصرفوا عن العرب ، اشتغل هؤلاء بغير الجندية وشئون القتال من أغراض الحياة ، تحولت الفتوة عندهم إلى غايات أخرى سنذكرها فيما بعد إن شاء الله .

٢ — أما الحديث عن كرم فتيان المسلمين وسخاء أيديهم ، وكرم قلوبهم ، ورجاحة عقولهم أو تسامحهم ، وحمايتهم للضعيف ووفائهم بالعهود ، وهى الصفات المكملة للفتوة كما ذكرنا فى الأبواب السابقة ، فسأرجىء الكلام عنها إلى حين الموازنة بين فروسية الغرب وفتوة العرب ، حتى لا يكون الكلام مكرراً . وإن كانت هذه الخلال الحميدة قد اشتهرت شهرة واسعة عن فتيان المسلمين فى كل مراحل التاريخ ، لأنهم كانوا يصدرون فيها عن طبيعة موروثة ، وعن تقاليدَ جنسية عُرفت عن العرب منذ الأزل ، وعن تعاليم دينهم السمح ، وسيرة نبيهم الزكية الذى ضرب لهمُ المثلَ الأعلى فى التمسك بالشرف ، والشرف يضم تحته كل هذه السجايا ، بل الشرف كما يقول شاتو بريان Chateubrieand فضيلة تغنى عن كل الفضائل ، فضيلة لا تثمر إلا الخير ، ولا تعرف الشر ، فضيلة لا تُهزم إذا أحنقت ، وهو أنبل ما تتحلى به الشخصية الإنسانية ، وهو فضيلة تستمد قوتها من ذاتها ، فيها حتف صاحبها و بيدها مصيره »[1] .

---

(1) Chateubrieand : Analyse raisonnée de l'Histoire de France, P. 82. وانظر كذلك

Servitude et grandeur militaire : Alfred de Vigay à l'Honneur.

وقد رأيت كيف تجلت هذه الصفة بأسمى مظاهرها فى خلق النبي عليـه السلام وأعماله وسيرته ، وكيف تأثر المسلمون فى شجاعتهم بهـذه الأسوة الحسنة ، وسترى فيما بعدُ كيفَ كانوا على منزلةٍ عظيمة من الشرف فى جميع مراحل تاريخهم ، مقتدين فى ذلك بنبيهم الـكريم .

الفتوة الصوفية

ظلت الفتوة الإسلامية مصطبغة بالصبغة العربية طوال أيام الخلفاء الراشدين و بنى أمية ، وَرَدحاً طويلاً من الزمن أيام بنى العباس ، وكانت الفتوة حتى ذلك الوقت صفة فردية يتحلى بها بعض الأفراد ، وتظهر فى أعمالهم وإن كانوا من الكثرة بحيث يخيل لمتصفح التاريخ الإسلامى أن المسلمين جميعاً من الفتيان الأمجاد فى شجاعتهم ، وسخائهم ، وضبط نفوسهم عند الغضب ، وسماحة عقولهم ، وجهرهم بالحق ، وحمايتهم للضعفاء ، ووفائهم بعهودهم . ولكنَّ الفتوة حتى ذلك الوقت لم تكن نظاماً ذا تعاليم خاصة ، وفلسفةً يُدعى إليها ، وينتظم الناس تحت لوائها . وذلك لأن العرب لم يكونوا فى حاجة لمن يلقنهم معانيها ؛ إذ وجدت فيهم بالفطرة والوراثة ، وجاء الدين والجهاد فى سبيل الله فمكّنها من قلوبهم ، وثبّتها فى طباعهم .

ولكنَّ الأمة العربية حين صُرفت عن الجندية ، وحابى خلفاء بنى العباس الأعاجم من فرس وترك ودَيلم ومَنْ على شاكلتهم بالجندية ، تجلت فتوة العرب فى صورة أخرى فيها الكرم والسماحة ، والشجاعة الأدبية .

بيد أن هناك نوعاً آخر من الفتوة صُبغ بصبغة صوفية ، تلتقى فيه الصفات العربية الكريمة التى ذكرناها آنفاً ، بتعاليم الصوفية ، وكان أول ظهور هذا النظام من الفتوة فى دائرة الحسن البصرى الذى أطلق عليه أيوب بن أبى تميمة « سيدَ الفتيان » وكان الحسن من أوائل الذين مهّدوا للتصوف الإسلامى [1]

---

(١) الملامتية والصوفية وأهل الفتوى للدكتور أبو العلا عفيفى ص ٢٥ .

وقد تتلمذ عليه مالك بن دينار ، وأبو حمزة الصوفى وغيرهم ولكن هذه الحركة لم تكتمل نمواً إلا حين اشتد التصوف ، وكملت تعاليمه وظهر أبطاله ، وهنا نرى مزجاً عجيباً بين الفتوة والتصوف ، وأخذ المتصوفة من تعاليم الفتوة العربية أهم ميزاتها وهو الإيثار ، وأضافوا إليها صفات أخرى متصلة بها ، مثل كف الأذى ، وبذل الندى ، وترك الشكوى ، وإسقاط الجاه ، ومحاربة النفس ، والعفو عن زلات الناس ، فيقول على بن أبى بكر الأهوازى : « إن أصل الفتوة ألا ترى لنفسك فضلاً واحداً » ، ويقول القشيرى : « أصل الفتوة أن يكون العبد أبداً فى غير أمره[١] » ، وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى : « قالوا سَمِعْنا فتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ له إبراهيم » : الفتوة هى كسر الصنم (الوارد فى القصة) ، وصنم كل إنسان نفسُه ، فَمَنْ خالف هواه فهو فتىً على الحقيقة[٢] وأنت ترى أن المتصوفة قد توسعوا فى استعمال كلمة (الفتوة) ، وحَمّلوها أكثر مما تتحمل .

وقد قال « ثورننج » إن إقبال الفتيان على التصوف لا يتفق وأخلاقَ الفتوة ، وأنكر عليه ذلك الدكتور أبو العلا عفيفى ، والحق أن التصوف الإسلامى قد أخذ من الفتوة العربية الإسلامية التى من أهم مظاهرها الشجاعة والكرم والإيثار وحماية الضعيف ، ونكران الذات شيئاً كثيراً ، وإن كان قد مسخ الفتوة العربية الإسلامية مسْخاً ، ولم نَعُدْ نرى صفات الفروسية والكفاح والنضال فى سبيل الشرف ، وإنما نرى زهداً وبعداً عن الدنيا ، إذ كان من أهم أغراض التصوف إضعاف الجسم لتقوية الروح حتى تتصل

(١) الرسالة القشيرية ص ١٠٣ .

(٢) كشف اصطلاحات العلوم للتهانوى ج ٢ ص ١١٥٦ ، والملامتية والصوفية ص ٢٦

بالذات العلية ، وحتى عُرِّف التصوف بأنه « إفناء النفس لتحيا فى الله » أو « أن تطرح ما يحويه رأسك مما تملكه يدك ، وترضى بكل ما يحدث لك[١] » ويعرفه الغزالى « بأنه طريقة أول شرائطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله ومفتاحها استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى[٢] » .

ولم يكن الغزالى من هؤلاء المتصوفة الذين طرحوا الدنيا جانباً ، وأماتوا فى نفوسهم الأثرَة والغضب ، ولكنه كان يسير فى الأخلاق على مذهب الفلاسفة وإن خالفهم فى بعض وجهات النظر ، فهو يرى أن النفس الإنسانية فيها قوتان : شهوانية وغضبية ، ولا بد لمن ينشد السعادة أن يخضع هاتين القوتين للفكر الذى يوجههما نحو الخير فتنتج الأولى العفة ، والثانية الشجاعة وبذلك توجد العدالة ، وهو لا يرى إماتة الشهوة ، ولا القوة الغضبية ، وإنما يرى ما يراه أرسطو من أن الفضيلة وسط بين طرفين ، وإزالة الشهوة والغضب إزالةً تامة يفقد الإنسان خاصيته وميزته ، فلكل فضيلة طرفا إفراط وتفريط والمطلوب هو الوسط ، والمعيار الذى يعيِّن الوسط ليس العقل وحده كما يقول الفلاسفة ، وإنما العقل والشرع معاً أو العقل المتأدب بالشرع[٣] .

ولذلك أرانى أوافق (ثورننج[٤]) فى قوله بأن إقبال الفتيان على التصوف لا يتفق وأخلاق الفتوة كما عرفها العرب والمسلمون من قبل ، وذلك لأن الفتى العربى يغضب إذا كان ثمة ما يدعو إلى الغضب ، يغضب لشرفه ،

---

(١) نيكلسون متصوفة الإسلام — لندن ١٩١٤ ص ٢٧ .

(٢) المنقذ من الضلال — مصر ص ٢٨ .

(٣) الإحياء للغزالى ج ٣ ص ١٦ — ٢٢ وما بعدها .

(٤) Dr. Her Thorning, Beitrage Zur Kenntnis Islamischen

ويغضب لعقيدته ، ويغضب إذا امتهن أو أهين ، وهو لا يحب الجبن ، ولا يعرفه ، فكيف يتفق مع التصوف الذى يدعو إلى إزالة القوة الشهوانية والغضبية فى الإنسان ؟ .

ومهما يكن من أمر فإن المتصوفة قد استعملوا كلمة الفتوة وأكثروا منها فى أحاديثهم ، وأخذوا من تعاليمها العربية بعض الصفات ؛ فالفتى الصوفى فى نظر بعض المتصوفة من كانت له دعوى يدافع عنها ، ويضحى بنفسه فى سبيلها كالحلاج الذى يقول : « إن رجعتُ عن دعواى (وهى قوله : أنا الحق) سقطت من بساط الفتوة[١] ويتخذ من دعوى إبليس أنه أفضل من آدم فى قوله « أنا خيرٌ منه » ، ومن دعوى فرعون الألوهية فى قوله : « أنا ربكم الأعلى » دليلاً على فتوتهما ، فيقول على لسان الأول : « إن سجدت سقط عنى اسم الفتوة » وعلى لسان الثانى : « إن آمنت برسوله سقطتُ من منزلة الفتوة[٢] » ، فأى انحراف فى تفسير الفتوة وأى خلط ! ؟

كان المتصوفة فى أول الأمر لا يؤلفون وحدة فيما بينهم ، وكلٌ يتعبد حسبما يريد ؛ ليصل إلى غايته ، وكانوا فى أول أمرهم — كذلك — يلزمون حدود الشرع ، لا يحيدون عنه ولا يتأولون فيه ، لأن تصوفهم كان أشبه بالزهد منه بالتصوف الفلسفى الذى ظهر عند ابن عربى ، والحلاج ، وابن الفارض ، وأضرابهم ؛ كان ردَّ فعل لحياة المجون والترف التى انغمس فيها المسلمون أيام الدولة العباسية . ولكن دخلت فى تصوفهم هذا عناصر غريبة أفسدته وأبعدته عن الدين : فترى فيه من المسيحية ، والأفلاطونية الحديثة ، والبوذية شيئاً غير

(١) الطواسين للحلاج ص ٥٠

(٢) نفس المصدر .

قليل . ولست هنا فى مقام بسط حقائق التصوف والتعرف على نشأته وتعاليمه وما دَخَلَه من الفلسفات الأجنبية .

وما أن أتى القرن الرابع الهجرى حتى وُجدت هيئات صوفية منظمة ، ومدارس مختلفة ، لها رؤساؤها يهدون (المريدين) الذين يودون الانخراط فى الطريق ، وهناك رئيس عام يسمى (القطب) ، وهو الوحيد الذى انتقل إليه العلم الحقيق ، واسم الله الأعظم ، وهو موضع نظر الله من العالم ، ولا يجوز أن يحمل هذه الأسرار رجلان فى عصر واحد .

وقد ادعى محيي الدين بن عربى أنه قطب زمانه حين يقول[1] :

لكلِّ زمانٍ واحدٌ هو عينُه ... وإنى ذاكَ الشخصُ فى العصر أوحدُ

وحين يقول :

قلمى ولوحى فى الوجود يَمُدُّه ... قلمُ الآله ولَوْحُه المحفوظُ

ومن هؤلاء الصوفية الذين أكثروا من استعمال كلمة (فتوة) أهل الملامة ، وفسروا الملامة على أنها نوع من الفتوة أو الرجولة ، وأطلقوا على أنفسهم اسم الفتيان أو الرجال ، فيقول أبو حفص النيسابورى : « مريدو أهل الملامة متقلبون فى الرجولية لا خَطَر لأنفسهم[2] » . ومن صفات الفتوة كما قررها السلمى حين شرح تعاليم الملامتية ما ورد فى الأصل الحادى والأربعين من رسالة الملامتية فى قول أبى حفص الحداد لعبد الله الحجام : « إن كنت فتىً فيكون بيتك يوم موتك موعظة للفتيان » يريد بذل كل شىء ، وعدم الإبقاء

(١) ديوان ترجمان الأشواق لابن عربى .

(٢) رسالة الملامتية ، للدكتور أبو العلا عفيفى ص ٢٨ .

على شيء خدمة للإخوان ، ومن ذلك ما ورد فى الأصل الخامس والأربعين فى قول أبى عثمان الحيرى فى الصُّحبة : « حُسْن الصحبة ظاهرُه أن تَوَسَّع على أخيك من مال نفسك ، ولا تطمعْ فى ماله ، وتنصفه ، ولا تطلبْ منه الإنصاف وتتحملْ منه الجفوةَ ولا تجفوه[1] » .

ومن أجمع ما ورد فى رسالة الملامتية من الفقرات التى تشرح صفات الفتوة كما فهمها أهل الملامة قول بعضهم — وقد سئل عمن يستحق اسم الفتوة — فقال : من كان فيه من اعتذار آدم ، وصلابة نوح ، ووفاء إبراهيم ، وصدق إسماعيل ، وإخلاص موسى ، وصبر أيوب ، وبكاء داود ، وسخاء محمد صلى الله عليه وسلم ، ورأفة أبى بكر ، وحميَّة عمر ، وحياء عثمان ، وعلم على ، ثم هو مع كل هذا يزدرى نفسه ، ويحتقر ما هو فيه ، ولا يقع بقلبه خاطر مما هو فيه أنه شيء ، ولا أنه حال مَرْضى ، يرى عيوب نفسه ، ونقصان أفعاله ، وفضل إخوانه عليه فى جميع الأحوال[2] » .

ومن هؤلاء الصوفية الذين استعملوا كلمة الفتوة بكثرة متصوفة (نيسابور) ومنهم أبو حفص عمرو بن سالم ، وقد جعل هو ورجال التصوف من مدرسة نيسابور الفتوة مثلاً أعلى يهدفون إليه ، واختصوا من معانيها بالتضحية الكاملة وقد ذكر السلمى : « أنه سمع عبد الرحمن بن الحسين الصوفى يقول : بلغنى أن مشايخ بغداد اجتمعوا عند أبى حفص ، فسألوه عن الفتوة فقال : تكلموا أنتم فإن لكم العبارة واللسان ، فقال الجنيد : « الفتوة عندى إسقاط الرؤية ، وترك النسبة » ، فقال أبو حفص : ما أحسنَ ما قلت ، ولكن الفتوة عندى أداء

---

(١) نفس المصدر . (٢) رسالة الملامتية .

الإنصاف وترك مطالبة الإنصاف » فقال الجنيد : « قوموا يا أصحابنا فقد زاد أبو حفص على آدم وذريته[١] » والفرق بين تعريفهما يدل على اختلاف بيِّن فى تفسير الفتوة ، فالجنيد يرى الفتوة إسقاطَ الرؤية ، أى عدم النظر إلى الأعمال نظرة اعتبار وتقدير ، وترك النسبة ، أى إسقاط الروابط التى تربط الإنسان بأى شىء ، أو موجود غير الله، وعلى ذلك فالفتوة عنده الزهد الكامل. أما أبو حفص فيرى الفتوة فى أداء ما يراه الصوفى إنصافاً وعدلاً ، أى القيام بجميع الواجبات الشرعية والاجتماعية بدون أن يطالِب القائم بها بإنصاف من جانب الشرع أو من جانب المجتمع ، أى أن الفتوة عنده هى التضحية الكاملة .

وكان بنيسابور فتيان من غير الصوفية أيام حمدون القصار[٢] ، وكانت لهم هيئات أو جماعات لا يعرف من أمرها شىء ، وكان يطلق على الفتى منهم اسم (العيَّار)[٣] أو الشاطر أحياناً ، قال حمدون : « كنتُ أسير يوماً فى حى من نيسابور فلقيت نوحاً العيَّار ، أحد المعروفين بالفتوة ، وكان على رأس الشُطَّار بنَيْسابور ، فقلت له يا نوح ! ما الفتوة ؟ فقال : فتوتى أم فتوتك ؟ فقلت : صف الاثنين . فقال : أخلعُ القِباء ، وألبس الِخرقة ، وأفعل الأفعال

---

(١) طبقات السلمى ، والدكتور أبو العلا عفيفى ص ٣٦ ، والحلية لأبى نعيم ج ١٠ ص ٢٧٠ .

(٢) من أشهر رجال الصوفية على الطريقة الملامتية ، وهو أبو صالح حمدون بن عمارة المعروف بالقصار والمتوفى سنة ٢٧١ هـ ، وكان أحد علماء الفقه على مذهب الثورى ، ويعتبر المؤسس الحقيق لمذهب اللامتية ، وإن كان أتباعه يسمون عادة باسم الحمدونية أو القصارية (كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١٨٣) .

(٣) العيار : من أسماء الأسد ، ويطلق على الشجاع ، والشاطر : من أعيا أهله خبثاً .

التى تليق بهذا الثوب لعلى أصبح صوفياً ، وأقلع عن المعاصى لما أشعر به من الحياء من الله ، ولكنك تخلع الخرقة لكيلا يخدمك الناس ، وينخدعوا بك ففتوتى فى اتباع ظاهر الشرع ، أما فتوتك ففى تلبية نداء القلب »[١] .

ويقول الدكتور عفيفى : « وإذا كانت الفتوة بمعناها العام : هى المروءة والرجولة والإيثار المحض ، فهذه معان نجدها متحققة فى حمدون القصار أكثر منها فى زميله أبى حفص ، وليس أدل على ذلك من العبارات المأثورة عنه فى رسالة السلمى ، ورسالة القشيرى ، وما أورده له مؤلفو الطبقات . فمن الفتوة عنده ألاّ يُظهر الإنسان العُجب والكِبْر ، ومنها غَضُّ الطرف عن مواطن التقصير فى الغير ، ومنها الإيثار والاعتراف بالتقصير ، والتواضع ، والتماس المعاذير عند رؤية القبيح إذا صدر عن الغير ، وهذه كلها شديدة الاتصال بمعانى الفتوة[٢] » .

هذا وقد روى القشيرى فى رسالته فى باب (الفتوة) أن إنساناً يدعونه « الفتوة » خرج من نيسابور إلى بلدة (نسا) بخراسان ، واستضافه رجل ومعه جماعة من الفتيان ، فلما فرغوا من أكل الطعام ، خرجت جارية تصب الماء على أيديهم ، فأبى الفتى النيسابورى وقال : « ليس من الفتوة أن تصب النساء الماء على أيدى الرجال » . وهذا لعمرى أدب جَمّ ، واستعمال للفتوة فى معنى جديد يقربها من الفروسية الغربية ، وهو احترام المرأة ! أو لعل هذا الفتى كان يعتقد أنه تام الرجولة ، وليس فى حاجة إلى إمرأة ضعيفة لتعينه على شىء ، ولو كانت خادماً .

(١) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون س ١٨٣ .
(٢) الملامتية والصوفية وأهل الفتوة س ٤٠ .

وروى القشيرى كذلك أن بعض الفتيان قُدم له طعام وعليه نمل ، فقال : ليس من الأدب تقديم الأكل وعليه نمل ، وليس من الفتوة طرد النمل عن الطعام ، فلبث الغلام حتى دب النمل ، فقال المضيف : « لقد دققت يا غلام فى الفتوة » ، ولسنا ندرى أكان هذا الفتى والذى سبقه من المتصوفة أو من العيَّارين ، فقد انتحل كل منهم لقب الفتوة ، وتوسع فى استعمالها ، وأخذ من الفتوة العربية بعض معانيها ، وجعله شعاراً له .

ويظهر أن الفتوة قد تطورت على مر الأيام ، وانتحلها كثير من الجماعات صوفية وغير صوفية ، فقد سئل ابن تيمية عن جماعة يجتمعون فى مجلس ، ويُلْبسون الشخص منهم (لباس الفتوة) ، ويديرون بينهم فى مجلسهم شَرْبَة فيها مِلْح وماء ، ويشربونها ، ويزعمون أنها من الدين ، ويقولون : إن رسول الله ألبس علىّ بن أبى طالب لباس الفتوة ، ثم أمر أن يُلبِسه من شاء ، ويقولون : إن هذا اللباس أنزل على النبى فى صندوق ، ويستدلون عليه بقوله تعالى : « يا بنى آدمَ قَدْ أنزلنا عليكم لِباساً يُوارِى سَوْءاتِكم » فهل هو كما زعموا ، أو هو كذب واختلاق ؟

ومنهم من ينسب ذلك إلى الخليفة الناصر لدين الله[1] ، عن عبد الجبار ويزعم أن ذلك من الدين ، فهل لذلك أصل أو لا ؟ ، وهل الأسماء التى يسمى بها بعضهم بعضاً ، من اسم الفتوة ، ورءوس الأحزاب ، والزعماء لها أصل أو لا ؟ ويقوم رئيس القوم إلى الشخص الذى يلبسونه فينزع عنه اللباس الذى يلبسه ، ويلبسه الذى يزعمون أنه لباس الفتوة ، فهل هذا جائز أو لا ، وهل للفتوة أصل

(١) سيأتى الكلام فى الفصل الآتى عن فتوة الخليفة الناصر لدين الله .

فى الشريعة أو لا ؟ وهل أحلّ أحد من الصحابة ، أو التابعين ، أو من بعدهم من أهل العلم هذه الفتوة المذكورة ؟ .

وأجاب ابن تيمية بقوله : لباس الفتوة ، وإسقاء الملح والماء باطل لا أصل له ، ولم يفعل هذا رسول الله ، ولا أحدٌ من الصحابة ، ولا على ابن أبى طالب ولا غيره من التابعين . والإسناد الذى يذكرونه عن طريق الخليفة الناصر إلى عبد الجبار إلى تمامه إسناد لا تقوم به حجة ، وفيه من لا يُعرف ، وتكلم ابن تيمية عن اللباس الذى نزل فى الصندوق ، وذكر أن هذا كذب لا أصل له .

ثم قال : « وأما الشروط التى يشترطها شيوخ الفتوة ، فما كان مما أمر الله به : كصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وأداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، ونصر المظلوم ، وصلة الأرحام والوفاء بالعهد ؛ أو كانت مستحبة كالعفو عن الظالم ، واحتمال الأذى ، وبذل المعروف ، وأن يجتمعوا على السنة ، ويفارق أحدهما الآخر إذا كان على بدعة ، ونحو ذلك فهذه أمور يؤمن بها كل مسلم ، سواء شرطها شيوخ الفتوة أو لم يشترطوها . وما كان منها مما نهى الله عنه ورسوله ، مثل التحالف الذى يكون من أهل الجاهلية ، وأن يصادق كلٌ صديق الآخر فى الحق والباطل ، ويعادى عدوه فى الحق والباطل ، وينصره على كل من يعاديه ، سواء كان الحق معه أو مع خصمه ، فهذه شروط تحلل الحرام ، وتحرم الحلال ، وهى شروط ليست فى كتاب الله فهى باطلة .

ثم قال ابن تيمية : وأما لفظ الفتوة فمعناه فى اللغة (الحدث) أى الشاب كقوله تعالى : « قالوا سمعنا فتىً يذكُرهم يقال له إبراهيم » ، لكن لما كانت

أخلاق الأحداث اللين صار كثير من الشيوخ يعبرون بلفظ الفتوة عن مكارم الأخلاق كقول بعضهم : « الفتوة أن تقرِّب مَنْ يُقصيك ، وتُكرمَ مَنْ يؤذيك ، وتحنَ إلى من يسيء إليك سماحةً لا كَظْما ، ومودة لا مسايرة » ، وقول بعضهم : « الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى » وأمثال ذلك . فهذه أمور حسنة مطلوبة سميت فتوة أم لم تسم »[١] .

وهناك نوعاً آخر من الفتوة ذكره ابن جبير فى رحلته من أنه « وجد فى دمشق جماعة من السنيين يعرفون بأهل الفتوة ، ويعرفون كذلك بطائفة النَّبَوِيَّة ، وكانوا حرباً على الشيعة ، يدينون بالفتوة وأمور الرجولة كلها ، وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها ، ولا يرون أن يستعدى أحد منهم فى نازلة تنزل به ، ولهم فى ذلك مذاهب عجيبة ، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة برَّ بقسمه ، وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم ، وشأنهم عجيب فى الأنفة والائتلاف » . وذكر ابن جبير كذلك هؤلاء الشيعة ومذاهبهم ، وأن منهم فرقة تسمى الغرابية وهم يقولون : إن علياً رضى الله عنه كان أشبه بالنبى عليه السلام من الغراب بالغراب ، وينسبون إلى الروح الأمين قولاً تعالى الله عنه علواً كبيراً . . . . إلى فِرَق كثيرة يضيق عنها الإحصاء ، قد أضلهم الله ، فأضل بهم كثيراً من خلقه ، وسلط الله على هذه الرافضة طائفة أهل الفتوة الذين عرفوا بالنبوية[٢] . فهؤلاء جماعة سموا أنفسهم بأهل الفتوة ، وذكر ابن جبير أنهم من أهل السنة ، وأنهم كانوا حرباً على الشيعة الرافضة ، ولم نعرف هل كان هؤلاء من فرق الصوفية ، أو من العيَّارين ؟

---

(١) رسائل ابن تيمية طبعة المنار (٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠

وقد ذكر ابنُ بَطُّوطَة في رحلته بالأناضول أنه قابل جماعة من أهل الفتوة كانوا يقيمون فيما يشبه (التكايا) و بعد أن يتعشوا يرقصون ولهم رئيس يسمى (أخى) يضيفون الغريب ويؤونه ثلاثة أيام وهم متفرغون للعبادة كأنهم الرهبان ، وأغلب الظن أنهم جماعة من أهل الطرق الصوفية ، والدراويش ، وأنهم سموا أنفسهم بالفتيان ، لأنهم اتخذوا من الفتوة بعض مميزاتها وهو الكرم والحدب على الغريب ، وكانت لهم أمكنة كثيرة تزيد عن العشرين ببلاد الأناضول رآها ابن بَطُّوطة وزارها[١]. وقد كان الكرم منذ أن عرفت الفتوة من أظهر صفاتها ، فقد رُوى أن رجلاً من أصحاب محمد بن عبد الله ابن طاهر دعاه للطعام عنده دعوةً احتفل لها ، فلما حضر محمد طالبه بالطعام فمطله ليتكامل ويتلاحق على ما أحبه من الكثرة والحفلة ، حتى تصرم أكثر النهار ومسَّ محمداً الجوعُ ، فتنغص عليه يومه ، وأراد محمد السفر ، فشيعه هذا الرجل حتى إذا دنا منه ليودعه قال له : أيأمر الأمير بشيء ؟ قال : نعم ، تجعل طريقك في عودتك على محمد بن الحارث ، فاسأله أن يعلمك الفتوة ، فمضى حتى دخل إلى محمد بن الحارث ، فقال له : بعثني إليك الأمير لتعلمني الفتوة ، فضحك وقال : يا غلام ! هات ما حضر ، فأتى بطبق كبير عليه ثلاثة أرغفة ، من أنظف الخبز وأنقاه ، وفاكهة كثيرة . . . الخ[٢]. فالفتوة هنا استعملت بمعنى الكرم وهو المعنى الذى لحظه أصحاب ابن بطوطة . واستعمال الفتوة بمعنى

---

(١) راجع رحلة ابن بطوطة فى الأناضول ص ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ وراجع كذلك Hammar Purgstall. Journal Asiatique فى أغسطس سنة ١٨٥٥

(٢) أدب النديم لكشاجم وراجع كذلك Encyclopidia of Islam P. 123.

الـكرم والحرية ، يلاحظ فيه المعانى التى تـكسب صاحبها القوة المعنوية أكثر مما تلاحظ القوة الجسمية .

ولعلنا بعد كل هذا نستطيع أن نحصر الطوائف التى استعملت الفتوة فى القرنين الثالث والرابع وما بعدهما فى :

١ — بعض فرق الصوفية ، واستعملوا الفتوة بمعانٍ مختلفة من مثل قول القشيرى : « أن يكون العبد ساعياً أبداً فى غير أمره » ، أو قول الفضيل « الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان » أو قول الآخر : « الفتوة إظهار النعمة وإسرار المحنة » أو كما رآها الجنيد من أنهـا الزهد الـكامل ، أو كما رآها أبو حفص من أنها التضحية التامة . . . الخ هذه التعريفات التى مرت بنا .

٢ — بعض العيّارين والشطار الذين أخذوا من الفتوة معنى الشجاعة ، والجرأة ، والتغلب على الصعاب ، والاستنـكاف من الاستعانة بالضعيف ، أو إيذائه .

٣ — بعض أهل السنة الذين سموا أنفسهم بأهل الفتوة لمحاربة الشيعة الرافضة ، الذين زاغوا عن محجة الدين .

٤ — بعض أهل الـكرم والأريحية سواء كانوا عباداً زهاداً كأصحاب ابن بطوطه بالأناضول ، أو كانوا مثل صاحب محمد بن عبد الله بن طاهر .

ويخيل إلى أن شيوع استعمال اسم الفتوة فى كل هذه المعانى العديدة دليل على أن الأمة قد فقدت حيويتها ، وأنها لم تعد تمثل ذلك الجيل من الناس الذى اشتهر بكل خلال الخير كما كان المسلمون الأوائل ، وكما كان كثير من فتيان العرب فى الجاهلية . وأن كل طائفة عزمت على أمرٍ وأرادت تقويةً

نفسية ، ورابطة تربط بين أعضائها تمسَّحُوا فى « الفتوة » لعلهم يحيون بذلك الفتوة العربية أو الإسلامية ، لأن لقب الفتوة يحتوى على كل معانى الرجولة الكاملة والصفات الحميدة كما عرفناه فى الفصول الأولى من هذا الكتاب .

فتوة المترفين

وثمة جماعة سموا أنفسهم كذلك أهلَ الفتوة ، ولـكنهم لا يمتون إلى من ذكرناهم فى الفصل السابق بصلة ؛ لأنهم ليسوا من عامة الشعب ، وسواد الناس ، ولـكنهم من أصحاب الثراء والجاه والسلطة يتزعمهم فى ذلك الخليفة الناصر لدين الله[1] المتوفى سنة ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ م . وكان مظهر فتوته فى الخروج إلى الصَّيد و إجادة الرمى ، والافتنان فيه ، وتأليف جماعة من المهرة فى الصيد تنتسب إليه ، وجعل لها تقاليد خاصة ، وزياً معيناً كما سنذكر فيما بعد .

ولا شك أن الله تعالى قد أباح الصيد فى قوله عز من قائل : « يآيها الذين آمنوا لَيَبْلُوَنَّـكُم اللهُ بِشَىْءٍ من الصيدِ تناله أيديكمُ ورماحُـكم » ، وفى قوله تعالى : « قُلْ أُحِلَّ لَـكُمُ الطيباتُ وَمَا علمتم مِنَ الجوارح مُـكَلِّبين » . وكان الطَّرَدُ من أهم ضروب الرياضة عند العرب ، ومن أحبها لنفوسهم ، سواء فى الجاهليه أو فى الإسلام ، وقد أكثر شعراء الجاهلية من ذكر مواقف الصَّيد ، وصوَّروا هذه المواقف تصويراً بلغ الغاية فى الإتقان والجمال فمن ذلك قصيدة زهير المشهورة التى مطلعها :

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطلُه ... وعُرِّىَ أفراسُ الصِّبا ورواحِلُه

والتى يقول فيها واصفاً مطارَدَتهَ للصيد :

---

(١) هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضىء بنور الله أبى محمد الحسن ابن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف ، ويتصل نسبه بأبى الفضل جعفر المقتدر بالله — راجع ابن جبير ص ١٨١ .

هَبَطْتُ بممسودِ النَّواشِرِ سَابِحٍ ... مُمَرٍ أثيلِ الخدِّ نَهْدٍ مَرَاكِلُه(١)

تَمِيمٍ فَلَوْنَاه فأُكْمِلَ صُنْعُهُ ... فَتَمَّ وعزَّتْه يداه وكاهلُه(٢)

فبينا نُبَغِّي الصيدَ جاء غلامُنا ... يَدِبُّ ويخفى شخصَه ويضائلُه

فقال : شِياهٌ راتعاتٌ بقَفْرَة ... بمُسْتَأْسِدِ القُرْيانِ حُوٍ مسائلُه(٣)

ثلاثٌ كأقواسِ السَّراء ومِسْحَلٌ ... قد اخضرَّ من لَسِّ الغمير جحافلُه(٤)

وقد خَرَّمَ الطِّرادُ عنه جِحاشَه ... فلم تبقَ ألا نفسُه وحلائلُه(٥)

فقال أميرى : ما ترى رَأْىَ ما ترى ... أنختلُه عن نفسه أم نصاولُه ؟(٦)

فبتنا عُراةً عنـد رأس جَوادنا ... يُزاولُنا عن نفسه ونزاولُه

---

(١) ممسود : مفتول ، والنواشر : ج ناشرة وهى عصب الذراع ، والممر : الشديد الفتل الموثق الخلق ، وأسيل : سهل ، والنهد : الفخم ، والمراكل : ج مركل وهو حيث يركله الفارس .

(٢) تميم : تام الخلق . فلوناه : فطمناه فإذا فطم فهو فلو ، وعزته : غلبت يداه وكاهله سائر أعضائه ، والكاهل : مجتمع الكتفين فى أصل العنق .

(٣) شياه : حمر الوحش ، والمستأسد : ما طال من النبات وقوى ، والقريان ج قرى وهو مجرى الماء من الرياض من قريت الماء إذا جمعته ، والمسائل : مكان سيل الماء والقياس ألا تهمز ياؤه لأنها أصلية إلا أن العرب همزتها كأنها توهمتها زائدة كما همز بعضهم مصائب ، ومسائل ج مسيل ، فإن كان من سال فوزنه مفعل ، والقياس ألا تهمز وإن كان من مسل فوزنه مفيل والقياس همزه فى الجمع ، ومستأسد القريان : أى مستأسد نبات قريانه .

(٤) السراء : شجر تتخذ منه القسى ، وشبه الأتن بالأقواس ، لأنها اجتزأت برعى الرطب عن شرب الماء فضمرت ، والمسحل : حمار الوحش من السحيل وهو صوته والغمير : نبت أخضر قد غمره نبت آخر أطول منه ، الجحافل : ج جحفلة وهى من الحمر كالشفاه للإنسان .

(٥) خرم : أبعد .

(٦) الأمير : الذى يؤامره ويستشيره .

ونَضْربه حتى اطمأنَّ قَذَالهُ ولم يطمئنَّ قلبُه وخَصـــائله[1]
ومُلجمنا ما إن ينـــالُ قَذَاله ولا قدماه الأرضَ إلا أناملهُ
فلأْياً بلأْيٍ ما حَمَلْنا وليـــدَنا على ظهر محبوكٍ ظِماء مفاصلهُ
وقلت له : سَدِّدْ وأبْصِرْ طريقه وما هو فيــه عن وَصاتىَ شاغله
وقلت : تعَلَّمْ أن للصيـــد غِرَّةً وإلا تضيعْهـــا فإنك قاتله
فتبَّع آثار الشياه وليـــدنا كشؤبوب غيثٍ يحفِشُ الأكمَ وابلُه[2]
نظرت إليــــه نظرةً فرأيته على كل حالٍ مرةً هو حامله
يُثرن الحصى فى وجهِه وهو لاحق سِراعٌ تَواليه صِيابٌ أوائله[3]
فردَّ علينا العَيْرَ من دون إلفه على رغمه يَدْمىٰ نَساه وفائله[4]
فرحنا به ينضو الجيـاد عشيَّةً مخضبـــةً أرساغُه وعواملهُ

وما من شاعر مشهور فى الجاهلية إلا تغنى بوقت الصيد ، ومطاردة حُمُرِ الوحش أو الثيران الوحشية ، وكل هذا يدل على محبة العرب لهذه الرياضة ، وإن كان حيوان جزيرة العرب محدوداً ؛ وقد عرفوا منه الأسد ، والنمر ، والذئب والثعلب ، والفهد ، والغزال والنعام وغير ذلك ، ولـكنهم لما فتحوا البلاد الـكثيرة ، ورأوا حيوانها وتنوعه واهتمام أهلها بالصيد ، القدامى منهم والمحدثين ؛ لأن الآشوريين مثلاً قد نقشوا على الأحجار كثيراً من مناظر

(١) قذاله : معقد عذاره فى رأسه .
(٢) يحفش الأكم : يخرج كل ما فيها .
(٣) تواليه : رجليه .
(٤) النسا : عرق ، وفائله كذلك .

الصيد ، ورأى العرب من هذه الآثار أن الصيد كان رياضة الملوك ، وفيه كانت تتاح لهم الفرصة لإظهار بطولتهم وشجاعتهم سواء أكانوا يمارسونه بالسيف أم بالحراب ، وعلى ظهور الخيل أم بمساعدة الكلاب ، أم بالسهام ، وكان من الطبيعى أن يتطلع سَرَاة العرب إلى المكانة الأولى فى الصيد حتى يَبَزّوا أهل البلاد التى فتحوها فى ذلك الميدان وهم الأمة الغالبة ؛ ليبرهنوا على شجاعتهم ، وسبقهم وطول باعهم ، وقد افتنوا فى الصيد أيّما افتنان. فمن الطرق التى ابتدعوها فى صيد الأسد : أن الواحد منهم كان يمتطى حصاناً مدرباً لمقابلة الأسود ، وعندما يهجم عليه الأسد يجرى ، ويسرع الحصان فى جريه حتى يُجْهَدَ الأسد ، فإذا ما أحس الفارس من الأسد التعب دار حوله بحصانه ، فإذا اقترب منه الأسد سدد إليه سهمه ، فيصيبه ، ولكن ذلك لا يعوقه عن متابعة الحصان ، والفارس يوالى رميه بالسهام حتى تخور قوى الأسد ويُصْرَع[1] ، وقد دربوا لصيد الغزلان والنعام وما شاكلها الكلاب السَّلوقية ، وكانت معروفة منذ الجاهلية لديهم ، وفى ذلك يقول النابغة الذبيانى يصف مطاردة ثور وحشى :

مَطرَّدٍ أُفردت عنـــه حلائله
من وَحْش وَجْرَة أو من وحش ذى قار[2]

وباتَ ضيفاً لأرطاةٍ وأَلجأه مع الظلام إليها وابلٌ سار[3]

---

(١) الرياضة عند العرب لمحمد علوى ص ٣ .

(٢) وجرة : موضع بين مكة والبصرة أربعون ميلا ما فيها منزل فهى مرت الوحش (القاموس)

(٣) الأرطاة : شجرة لها ثمر كالعناب .

حتى إذا ما انجلَتْ ظلماء ليلته وأسفرَ الصبحُ عنه أىَّ إسفار
أهوى له قانصٌ يَسْعىٰ بأَكْلُبِهِ عارى الأشاجِع من قُنَّاص أنمار
مُحَالِفُ الصيد تبّاعٌ له ، لَحِمٌ ما إنْ عليه ثيابٌ غيرُ أطمار[1]
يَسْعىٰ بمُضْفٍ براها وهى طاويةٌ طولُ ارتحالٍ لها منه وتَسْيار

ويقول أبو نواس واصفاً هذه الكلاب السلوقية :

أنعتُ كلبـاً ليسَ بالمسبوق مُطَهَّماً يجرى على العروق
جاءت به الأملاك من سَلوق كأنه فى المِقْوَد المشوق
إذا عــدا عَدْوَةَ لا مَعُوق يلعبُ بين السهل والخروق
يشفى من الطَّرْد جوى المشوق فالوحش لو مَرَّت على العَيُّوق
أنزلها داميــةَ الحلوق ذاك عليه أوجبُ الحقوق
فكل صيــاد به مرزوق

وقال كذلك :

أعددت كلبـاً للطِّراد فَظَّا إذا عدا من نَهَمٍ تَلَظَّى
وجاذَب المِقــودَ واستلَظَّى كأن شيطـانـاً به ألَظَّا
يـكُظُّ أسرابَ الظباء كَظَّا حتى تراها فِرَقاً تَشَظَّى
يحوز منهـا كلَّ يوم حظَّا حتى ترى نجيعَها مكتظَّا

وقد علموا البُزاة والصقورَ للصيد ، وذكر أســامة بن منقذ فى كتابه (الاعتبار) كثيراً من طرق الصَّيد والحيوان المعلّم للصيد ، من ذلك قوله عن والده[2] : « وكان يتكلف فى تسيير قوم من أصحابه إلى البلاد لشراء البزاة ،

---

(١) لحم : محب للحم ويشتهيه .

(٢) الاعتبار ص ١٩٩ إخراج فيليب حتى ؛ طبعة جامعة برنستون سنة ١٩٣٠ .

حتى إنه أنفذ إلى القسطنطينية من أحضر له بزاةً منها ، وحمل الغلمانُ معهم من الحَمام ما ظنوا أنه يكفى البزاة التى معهم ، فتغير عليهم البحر ، وتعوقوا ، حتى فرغ ما معهم من الحمام ، فصاروا يطعمون البزاة لحم السَّمك ، فأثر ذلك فى أجنحتها ، وصار رِيشها يَنْـكسر ويتقصف فلما وصلوا إلى شيزر[1] كان فيها بزاة نادرة ، وكان فى خدمة الوالد بازيار (مُطَبِّع البازى) طويل اليد فى إصلاح البزاة وعلاجها يقال له (غنائم) ، فوصل أجنحتها واصطاد بها .

وقد ذكر أسامة طرق الصيد فى دمشق ، وفى مصر ، وفى غيرها من البلدان كما ذكر صيد الأرانب ، والخنازير ، وحمر الوحش ، والوز ، والحُبارَى وغير ذلك[2] ! وليس من همى هنا أن أفيض فى هذا الباب ، فحسبى ما ذكرت .

حين أترف العرب ، وانصرفوا عن الجندية ، كان الصيد هو الرياضة الوحيدة التى يظهرون فيها بطولتهم ، وكانوا لا ينفكون عن تعلم الرماية وإجادتها فى كل صُقع حلّوا به ، حتى فى المدينة المنوّرة ، فقد روى أن فتيان المدينة كانوا يتعلمون الرماية أيام بنى أمية ، وقد تعلم محمد الباقر ذلك ، وهو فى حداثته ، فلما وفد على عبد الله بن مرْوان ، والقوم يرمون أراد إحراجه وطلب منه أن يرمىَ كما يرمى الناس ، فاعتذر ، فلما ألح عليه رمى ، وفاق كل الموجودين ، فقال له لله دَرُّك ! أنت أرمى العرب والعجم ، ثم قال له : يا محمد لا يزال العرب والعجم تسودها قريش ما دام فيهم مثلك[3] .

---

(١) شيزر بلدة على نهر العاص على بعد عشرين ميلا إلى الشمال الغربى من حماة بسوريا أو على مسافة ساعة منها بالسيارة ، وكانت موطن بنى منقذ ، عاشوا فى قلعة حصينة بها هى قلعة شيزر .

(٢) راجع الاعتبار لأسامة بن منقذ الكنانى من ص ١٩٩ — ٢٢٦

(٣) صحيفة الأبرار ص ٣٦١ ج ١

وقد أسس هؤلاء الأشراف فى أخريات الدولة العباسية نظاماً سموه نظام الفتوة ، وذلك على يد الناصر لدين الله ، كما ورد فى كلام « حاجى خليفة » فى كشف الظنون عن سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٢ م من أن الشيخ عبد الجبار ألبس الخليفة الناصر لباسَ الفتوة ، ولم يكن هـذا اللباس هو ما عرفناه عن فرسان القرون الوسطى ، بل كان حذاء طويلاً من الجلد ، وقد وصف ابن جبير الناصر لدين الله بأنه كان لابساً ثوباً أبيض شبهَ القِباء ، برسومٍ ذَهَبٍ فيه ، وعلى رأسه قَلَنْسُوة مُذَهَّبة ، مطوّقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخَذَة للباس الملوك ، مما هو كالفنَك وأشرفَ ، متعمداً بذلك زى الأتراك[١]

ويقولون فى لباس الفتوة هذا ما ذكرناه آنفاً من أنه موروث عن سيدنا على ، ويذكرون لذلك شجرة طويلة تصل إلى الناصر لدين الله نثبتها هنا لطرافتها :

على بن أبى طالب

|

سلمـان الفارسى

|

صَفوان بن أميـة

|

حُذيفة بن اليمان

|

المِقداد بن الأسود

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٨٢

|

أبو العز التوبى

|

الحسن البصرى

|

الحافظ الكِندى

|

عَوْف الكنانى

|

أبو مُسْلِم الخراسانى

|

الشريف أبو العز

|

هلال النَّبهانى

|

بِهرام الديلمى

|

روزبة الفارسى

|

الأمير حسان بن ربيعة المخزومى

|

الأمير جوشن العزارى

|

أبو الحسن النجار

|

أبو الفضل بن الترهان

|

النعس سلمان

|

شبل

|

الفضل بن زياد الفارسى

|

الفضل

|

الملا ميراوى

|

ناصر الدين بن أبى نعجة

|

أبو على الصوفى

|

مهنى العلوى

|

نعمان

|

أبو الحسن بن الشار بان

|

أبو بكر الجحيش

|

عمر الرهاض

|

على بن دغيم

|

عبد الجبار بن صالح

|

الخليفة الناصر لدين الله[١]

وقد أرسل الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا كأس الفتوة له ، ويلبسوا سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه فى رمى البندق[٢] ، وهو كرات صغيرة من طين أو رصاص يرمى بها عن قوس لصيد الطير أو نحوه ، وسموه أيضاً الاسم الفارسى وهو الجلاهق[٣] ، وقد اقتبس العرب لعبة رمى البندق عن الفرس فى أواخر أيام عثمان[٤] وجاء فى تاريخ ابن الفرات عن الخليفة الناصر لدين الله :

(١) راجع فى تاريخ الملك الناصر لدين الله : الفخرى ص ٢٣٦ وأبو الفداء ، وحاجى خليفة فى كشف الظنون . و Quatremère. P. 58 وكذلك النهج السديد لابن أبى الفضائل

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان ج ٥ ص ١٥٣

(٣) الفخرى ص ٤٩ ط مصر . (٤) ابن الأثير ج ٣ ص ٩٠

« وكان يميل إلى رمى البندق ، والطيور المناسيب ، ولبس سراويل النبوة والفتوة ، وكانت ساير ملوك الأطراف أن سبقوا إليه فى رمى البندق وفى الفتوّة ، فبطَّل الفتوة فى البلاد جميعها إلا من لبس منه السراويل ، ويرمى له ، فلبس سائر ملوك الآفاق سراويلات الفتوة له ، وادَّعوا له فى رمى البندق . ووصل رسول إلى حماة فى أيام المنصور الأيوبى صاحب حماة ، وأمره بأن يلبس للخليفة ، ويلبس الأكابرُ له ، فأمر الملك المنصور صاحبُ حماة الشيخ سالم بن نصر الله ابن واصل الشافعى الحموى بعمل خطبة فى الفتوة ، فعمل خطبة بديعة فى هذا المعنى ، واستشهد بآيات القرآن العزيز منها قوله تعالى « إنا سمعنا فتىً يذكرهم » ومنها قوله تعالى : « إذ أوىٰ الفتيةُ إلى الكهف » ، وغير ذلك من الأخبار والآثار . فقرئت هذه الخطبة بحضرة الملك منصور صاحب حماة والأكابر ، وكان قاضى حماة فى ذلك الزمان القاضى برهان الدين أبا اليسر بن موهوب ، فأمره الملك المنصور بلبس سراويل الفتوة فى المجلس ، فلبسها ولبسها جماعة ، وكذلك منع الدعوة بالبندق إلاّ لَهُ ، والطيورِ المناسيب فى جميع البلاد إلا له ، وأجاب الناس بالعراق ، وساير الأمصار إلى ذلك ، ما خلا رجلا واحداً رامياً بالبندق من أهل بغداد ، فإنه امتنع من إجابته ، وهرب من العراق ، ولحق بالشام ، فأرسل إليه الخليفة يُرَغبه بالأموال الجزيلة ليرمى عنه ، ويُنسب فى الرمى إليه ، فلم يفعل ، فأنكر ذلك عليه بعض الناس فقال يكفينى فخراً أنه ليس فى الأرض أحد لا يرمى عن الخليفة إلا أنا »[1] .

---

(١) راجع تاريخ ابن الفرات وكذلك : M. Le Baron de Hammar Purgstall. Journal Asiatique, Aout — Sept. 1855. P. 282.

وذكر حاجى خليفة فى كشف الظنون أن الاحتفال بدخول الشاب فى سلك الفتيان على عهد الناصر لدين الله كان مصحوباً بشرب كأس الفتوة ، كما أخذ الناصر جنده بالتدريب المتواصل على فنون الرياضة البدنية المختلفة[1] ، لتقوى أجسامهم ، ويشتد بنيانهم . ولعلَّ رمى البندق هذا كان من الرياضة التى أخذ بهـا نفسه وجنده ، وكان للفتيان لباس خاص كما ذكرنا ، وأهم ما يميزهم هو سروال الفتوه ، وهو أليق بالفُرْسان ، ويساعدهم على سرعة الحركة ، وركوب الخيل بيُسْر وسهولة . وكانت بين الفتيان روابط وثيقة . ولا يدخل فى هذا النظام أحدٌ إلا بعهد من الخليفة أو من يكل إليه هذا[2] .

أما رياضة رمى البندق التى ورد ذكرها كثيراً ، فهى لعبة فارسية أخذها العرب عن الفرس فى أواخر أيام عثمان بن عفان ، ومارسوها زمناً ، ولـكنهم كانوا يعدون ظهورها منـكراً يجب اجتنابه ، وإن ظل ثمة من يزاولها ، وكان للرشيد فرقة تسير بين يديه ، وترمى بالبندق من يقف فى طريق موكبه . ولما جاء الناصر لدين الله اهتم بهذه الرياضة اهتماماً عظيما . والبندق : كرات دقاق من الطين أو الحجارة أو الرصاص ، وترمى بالقوس ، وكان الفتيان يخرجون جماعات إلى ضواحى المدن ، ويُطيرون الحمام ثم يرمونه بالبندق . ثم افتنوا فى رمى البندق على مَرِّ الأيام فرموها بالمزاريق أو الأنابيب بضغط الهواء من مؤخرة الأنبوب ، فلما اخترع البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب وسموا هذه الآلة (بندقية) نسبة إليه[3] .

(١) أبو الفداء تاريخ الناصر لدين الله ، وحاجى خليفة فى كشف الظنون وكذلك J. A. Jan 1849.

(٢) المراجع السابقة نفسها ، وكذلك H. Ritter in Der Islam, vol. x (1920), PP. 244, 50.

(٣) الرياضة عند العرب لـكامل علوي ص ١٦٤ .

ولست أدرى حقاً هل كان تأليف الناصر لدين الله نظام الفتوة على هذا الوضع للرياضة والترف لا غير، أو أن هناك دوافع أخرى دعت إليه ؟؟ أعتقد أن الناصر وإن كان من هواة الرياضة إلا أن عصره كان مليئاً بحوادث جسيمة فقد كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبى والحرب على أشدها ضد الصليبيين، والمسلمون جميعاً مجندون فى هذه الحرب المقدسة. وشعار الفتوة دائماً التضحية والجهاد، والمحافظة على الشرف، فهل كان هذا التدريب الرياضى، ولباسُ الفتوة الخاص، وشرب كأس الفتوة — دليلَ الرابطة والدخول فى العهد — والمهارةُ فى رمى الطير بالبندق كلُّها لتأليف فرقة خاصة تنتسب إلى الخليفة، وتستمد قوتها الروحية من الانتساب لعلى بن أبى طالب كرّم الله وجهه، وهو من هو فى الجهاد والبلاء فى سبيل الله، حتى تكون هذه الفرقةُ القوية المعدَّة أتم الإعداد جسماً ورماية وروحاً من خير جند المسلمين الذين يحاربون الصليبيين، أو أن هذا النّوع من التدريب، والأخذ بنظام الفتوة كان لمجرد اللهو وقتل الوقت ؟؟.

يخبرنا ابن تَغْرى بَرْدى فى تاريخه: أن الناصر لدين الله أرسل فى السنة التى توفى فيها وهى سنة ٦٢٢ هـ رُسُلاً إلى نور الدين، وإلى الملك العادل شقيق صلاح الدين، وإلى ابنه الملك الصالح، وإلى الملك شهاب الدين حاكم غَزَّة ومعهم كأس الفتوة وسراويلها؛ لكى ينتظموا فى سلك فتيانه[1]، وهؤلاء كما نعلم كانوا من كبار القادة فى الحروب الصليبية.

ولعل هذا يؤيد ظننا بأن نظام الفتوة الذى أنشأه الناصر لدين الله كان

(١) ابن تغرى بردى مخطوطة فى مكتبة باريس راجع J.A. Aout—Sept 1855. p. 285 من مقال Hummer Purgstall

الغرض منه إيجاد فرقة قوية لمحاربة الصليبيين ، وأنه لم يكن الغرض منه الترف والصَّيدُ واللهو فحسب ، فإن المهارة فى الصَّيد ، ومقاتلة الوحوش ، وإحكام الرماية تؤهل كلها للتفوق فى الفروسية . ولقد كان ثمة فارس آخر شجاع معاصر للخليفة الناصر ألا وهو أسامة بن منقذ ، وكان من الشجعان الأقوياء حتى سماه الذهبي (أحد أبطال الإسلام[١]) . وقال عنه ابن الأثير ، « إنه كان من الشجاعة فى الغاية التى لا مزيد عليها[٢] » ، وقال أسامة عن نفسه فى كتاب الاعتبار : « فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمتُ المخاوف والأخطار ، ولاقيتُ الفرسان ، وقتلتُ الأسود ، وطُعنت بالرماح ، وجُرحت بالسهام »[٣] . وشهد أسامة قتال الفرنجة ، وخاض المعارك العديدة فى شَيْزَر وحماه من مدن سوريا الشمالية ، وعسقلان وبيت جبريل من أعمال فلسطين ، وفى شبه جزيرة سيناء ومصر ، وفى ديار بكر والموصل ، فلا غرو أن أصبح اسمه فى التاريخ الإسلامى مرادفاً للبطولة[٤] . ومع كل هذا فقد كان مغْرماً بالصيد ، وقد خصَّه فى كتابه بفصل طويل استهله بقوله متمثلا :

ولله منى جانبٌ لا أُضيعُه ولِلهو منى والبطالةِ جانبُ

وكان مولعاً بصيد الأُسْد ، والحيوان الضارى كالفهد والنمر ، وقد قال فى كتابه الاعتبار : « وقد شهدت قتال الأُسد فى مواقف لا أحصيها ، وقتلت عِدَّة منها لم يشركنى أحد فى قتلها »[٥] .

ولعل سيرة أُسامة بن منقذ وفروسيته ، واهتمامه بالصيد هو ووالده وعمه،

---

(١) دول الإسلام للذهبي ج ٢ ص ٧١ (٢) ابن الأثير ج ٢ س ٢٠٧ .
(٣) الاعتبار ص ١٦٣ (٤) فيليب حتى مقدمة كتاب الاعتبار .
(٥) الاعتبار ص ١٤٤ .

وقد كانا كذلك من الأبطال تبين لنا ، أن نظام الفتوة الذى أنشأه الناصر لدين الله كان خاصاً بطبقة الأشراف والمترفين ، وأنهم كانوا يلهون بالصَّيد ويفيدون قوة ودُرْبَة ، وكانوا يقاتلون الأعداء إذا دعاهم داعى القتال ، وإن لم يكن ثمة اتصال — فيما أعلم — بين أسامة والخليفة الناصر لبُعد الشقة بين مُقاميهما ، فالخليفة الناصر كان ببغداد ، وأسامة عاش فى مصر حقبة ثم فى شيزر ودمشق ، وكان منهمكا فى حروبه مع الصليبيين .

ولما مات الخليفة الناصر لدين الله فى سنة ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ م ، لم يبطل نظام الفتوة الذى وضع تقاليده من بعده ، فها نحن أولاء نرى الخليفة المستنصر (حفيد الناصر لدين الله) يسير على سنته ، ويُنعم على من يشاء بلباس الفتوة أو يَـكِل إلى أحد خاصته ممن له سابقة وقدم فى الفتوة لينوب عنه فى ذلك ، فقد رُوى فى حوادث سنة ٦٢٦ هـ « أن فخر الدين أبو طالب أحمد بن الدامغانى ، والشيخ أبو البركات عبد الرحمن ، والأمير فلك الدين محمد بن سنقر الطويل ، ذهبوا إلى جلال الدين منكوبرى بن خوارزمشاه ، وهو يومئذ على مدينة (خلاط) محاصراً لها ، ومعهم تشريفات ، وكُراع ، ولباس الفتوة ، وقد وكَّل الخليفة المستنصر (فخر الدين الدامغانى) أو الشيخ أبا البركات تَفَتِّيه ، وكان هؤلاء الثلاثة المرسلون صادفوه خارج مدينة « خلاط » للحصار فخلعوا عليه ما أرسل به الخليفة إليه ، وألبسوه سراويل الفتوة »[1] .

وفى سنة ٦٣٤ هـ حضر عبد الله الشرمساحى مدرس المالكية بالمدرسة

(١) راجع : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة لكمال الدين أبى الفضل عبد الرازق بن الفوطى البغدادى ص — ٨٠ — بغداد ١٩٣٢ وراجع كذلك (الفتوة والفتيان قديماً) مجلة لغة العرب إبريل ١٩٣٠ لمصطفى جواد .

المستنصرية (بالبدرية) عند شرف الدين إقبال الشرابى ، وأنعم عليه بلباس الفتوة نيابة عن الخليفة[١] .

وفى سنة ٦٤٦ هـ توفى جلال الدين عبد الله بن المختار العلوى الكوفى ، « وكان عريق النسب ، كبير القدر ، أديباً فصيحاً ، حفظ القرآن فى نيف وخمسين يوماً ، وكان يحضر عند الخليفة الناصر فى رمى البندق ، والفتوة ، ولعب الحمام ، وكان يُفتى ويُرْجَع إلى قوله ، ولم يزل كذلك إلى أيام الخليفة المستنصر بالله فأشار إليه أن يلبس سراويل الفتوة من أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، وأفتى بجواز ذلك ، فتوجه الخليفة إلى « المشهد ولبس السراويل عند الضريح الشريف ، وكان هو النقيب فى ذلك »[٢] .

وهكذا توارث خلفاء الناصر لدين الله نظام الفتوة هذا حتى زمن المستعصم آخر خلفاء بنى العباس فى الشرق ، حين دمّر هولاكو المغولى بغداد وقتل المستعصم وأهل بيته سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م . كانت الخلافة قبل عهد الناصر لدين الله تحتضر ، وكان الخلفاء قد فقدوا من قبله كل سلطان وقوة ، ولم تعد لهم إلا سلطة اسمية ، وخضعوا خضوعاً تاماً للسلاجقة ما يقرب من قرن ونصف من الزمان ، وفى معظم هذه الحقبة كانت الحروب الصليبية على أشدها فى سوريا وفلسطين ، ومن العجيب أن هذه الحرب الدينية الاستعمارية التى كانت تهدد الشرق العربى كله ، لم تجد أى اهتمام من السلاجقة أو الخلفاء العباسيين . ولما فتح الفرنجة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، أقبل وفد من الشام إلى بغداد مستغيثاً بأولى الأمر ، وقد أكثر الوفد من البكاء والعويل ، وذكر ما أصاب المسلمين

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٨٠

(٢) نفس المصدر .

فى القدس من الأذى البالغ ، ولكنّ ذلك كله لم يؤثر فى نفوس السلاجقة أو الخليفة ، وعاد الوفد من غير أن يقضى شيئاً[١] . وفى سنة ١١٠٨ م حاصر الفرنجة طرابلس ، فذهب وفد من أهلها إلى بغـــداد يستغيث بالخليفة ، وبالسلطان السلجوقى ، ولكنه رجع بدون جدوى .

وحين استطاع صلاح الدين الأيوبى — الذى اشتهر بمحاربته للصليبيين — القضاء على الدولة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧ هـ — ١١٧١ م — دعا للخليفة العباسى المستضىء — لأن صلاح الدين كان سنياً — فاعترفت سوريا ومصر حينذاك بسيادة خلفاء بنى العباس الاسمية . ولما انتصر صلاح الدين على الفرنجة فى معركة حِطّين المشهورة أرسل صلاح الدين إلى الناصر لدين الله العباسى الذى تولى الخلافة بعد المستضىء فى سنة ٥٧٥ هـ عدداً من أسرى الفرنج ، وجزءاً من الغنائم فيها صليب من البرونز مغَشى بالذهب ، قيل إنه كان يحوى قطعة من عود الصليب الحقيق ، فدفن الخليفة هذا الصليبَ ببغداد[٢] .

وقد حاول الخليفة الناصر لدين الله محاولة ضئيلة لآخر مرة أن يحيىَ معالم الخلافة ، ويبعث فيها شيئاً من النشاط والقوة ، وقد وجد الوقت ملائماً ؛ لأن أمراء السلاجقة قد بدءوا يتخاصمون فيما بينهم ، ويكيد بعضهم لبعض ، ولأن صلاح الدين الأيوبى الذى ملك مصر والشام ، قد اعترف به ، فحاول استرجاع شىء من سلطته المفقودة ببغداد ، فظهرَ بمظهر الأبهة والبذخ ، وأقبل على تشييد الأبنية ، وأسس نظام الفتوة على ما ذكرنا آنفاً ، وكان هذا النظام يضم رجالا

---

(١) ابن الأثير جـ ١٠ ص ١٩٤ .

(٢) ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٥٣ . وأبو شامة فى كتابه الروضتين فى أخبار الدولتين جـ ٢ ص ٧٦ ، ١٣٩ .

من ذوى المناصب والجاه أكثرهم ممن ينتسبون لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه[١] ، وكان الغرض منه تهيئة طائفة قوية من الفتيان علهم يساعدون فى الحروب الصليبية .

كانت محاولة الناصر هذه آخر مظهر من مظاهر البطولة العربية الإسلامية وإن شابها كثير من الترف واللهو ، والانصراف عن الجد ، والمشاركة الفعلية فى القتال ، وقد أراد أن يبعث روح الحماسة فى نفوس من حوله من الأشراف وذوى المناصب الكبيرة فى الدولة ، ولكن هيهات ! فإن الأمة قد دَبَّ فيها الانحلال والوَهَن ؛ لأن العرب الفاتحين قد اختلطوا على مَرِّ الأجيال بالأعاجم المغلوبين ، ففقدوا بذلك صولة الغالب ، وصفات السيادة ، وبانحطاط الروح القومية بين العرب ضعفت أَنَفَتهم وقواهم المعنوية ، ولم يطل الأمر بدولتهم حتى غلبهم عليها هؤلاء الذين خضعوا لهم قبل . وكان للتسرى ، وما رافقه من نظام الحريم والخصيان ، واقتناء الجوارى والغلمان أثر فى تقويض معنويات الأمة ، وإفساد الرجال ، وذهاب المروءة منهم . وبتكاثر السرارى تَكاثَر المولدون من بنين وبنات ، من أمهات مختلفات فى بلاط الخلافة ، واتسع المجال للتحاسد والفتن ، زيادة عن انغماسهم فى ضروب اللهو والترف والتخنث ، وعكوفهم على مجالس الشراب والغناء .

قضت هذه العوامل المتعددة على نشاط الأسرة العباسية الحاكمة ، وأورثت أولياء العهد ضعفاً جسدياً وعقلياً وخلقياً . وإذا أضفت إلى ذلك كله

---

(١) ابن الأثير ج١٢ ص ٢٦٨ ، والفخرى ص ٤٣٤ ، وابن جبير ص ١٨٢ ، و
Thorning. Beitrage Zur Kenntnis des islamischen Vereinswesens... (Berlin, 1913).

العوامل الاقتصادية السيئة التى أحاطت بالخلافة العباسية فى آخر عهدها ، حين استبد أمراء الولايات بشئون ولاياتهم ، وتغالوا فى فرض الضرائب على رعاياهم ، وحرموا الخليفة أى سلطة إلا المظهر الاسمى ، كما حرموه الأموال ، إلا ما يكفيه وأهل بيته ، وأدى ذلك إلى ضعف الخلفاء مادياً ونفسياً ، وإلى ترك الفلاحين لقراهم وهجرهم أراضيهم هرباً من الضرائب الفاحشة .

ولم يطل أمد الخلافة بعد الناصر لدين الله فقد وليها بعده ابنه الظاهر مدة عام ، ثم حفيده المستنصر ، ثم المستعصم . مات الناصر سنة ٦٢٢ هـ ، وقضى هولاكو على الخلافة العباسية بضربة قوية سنة ٦٥٦ هـ ، وبذلك انتهت فتوة الناصر لدين الله ، التى سميتها فتوة المترفين ؛ لأنه ومن تبعه فى نظامه هذا كانوا من المترفين حقاً ، وكانت فتوته هذه وثبةَ المحتضر الذى يلفِظُ آخرَ أنفاسه ، ولم تعمَّر إلا أمداً يسيراً ، ولم تثمر الثمرة المرجوّة ، لأن جسم الخلافة ، بل جسم الأمة الإسلامية فى المشرق كان ضعيفاً ، وليس من الهيِّن إعادةُ العافية لمن وَهَن عظمه ، ودَبَّ فيه دبيب الفناء ، وأنهكته أمراض الشيخوخة .

ولكنَّ نظام الفتوة والفروسية وتقاليده الذى وضعه الناصر لدين الله قد انتقل إلى طائفة أخرى من المسلمين هُم المماليك فى مِصْر . وكان المماليك غالباً من الشراكسة والأتراك ، وهم أجانب عن مصر وعن العالم العربى ، وكانوا يحترفون الجندية ، بل يعُدّون إعداداً خاصاً للتفوق فى الجندية وفنون الفروسية وقد تبرز مواهب أحدهم ، ويَبَذُّ أقرانه ، فيصير صاحب السلطة ؛ إذ لم يكن الملك بينهم وراثياً إلا نادراً ، وإنما الغلبة للقوى ، فضربة موفقة من حسام أحدهم تكسبه الصدارة بين أبناء جلدته ، ولم يكن حظه السعيد يغير من

أخلاقه ، فهو فى منصب الوالى تتقمصه فى الغالب روح العبد[١] » . وهذا يدلنا على قيمة التفوق فى ضروب الفروسية ، وأنه وحده السبيل للتملك والوصول إلى الولاية ، وكان كلُّ مملوك ذى شأن يقتنى عدداً كبيراً من المماليك ، ويدربهم على فنون الحرب ، وشئون القتال ، والمهارة فى الضرب بالسيف ، وركوب الخيل .
والحق الذى لا مِرَاء فيه أن هؤلاء القوم — لتفرغهم لشئون الحرب — ، قد حسّنوا كثيراً فى الفروسية العربية ، ووضعوا لها قواعد وأنظمة دقيقة صارمة وفى ذلك يقول الأستاذ (كاترمير) فى تعليقاته على كتاب السلوك للمقريزى نقلا عن المؤرخ المصرى أبى المحاسن : « إن لعبة المناورة بالسّهم بين الفرسان هى من ابتكار مماليك قلاوون (القرن السابع الهجرى) وأن أجدادنا العرب وإن كانوا يلعبون هذه اللعبة إلا أن طريقتهم كانت مختلفة[٢] » .

كانوا يمتطون الجواد عارياً وهو بعدُ صغير ، ويقفزون على الجواد قفزاً ، ومنه إلى الأرض بدون سرج ، ثم وهو مُسْرج ، وبدون سلاح ، ثم بعُدّتهم كاملة حتى يكتسبوا السيطرة والمرونة على الركوب . أجل ! إن العرب منذ أقدم الأزمنة كانوا يفعلون ذلك ، وقد قال العمرى : كان عمر بن الخطاب يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه اليسرى ثم يجمع جراميزه[٣] ، ويثب فكأنما خلق على ظهر فرسه . وقال عمر بن الخطاب كذلك : « لن تخور قوىً ما كان صاحبها

---

(١) راجع The Begining of The Egyptian question and The Rise of Mohamed Ali by Prof Shafik Ghorbal. P. 2

(٢) راجع أبو المحاسن بن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦ وكذلك Quatremèr : Hist de Sultans Mamlouks par Makrizi P. 58.

(٣) جراميزه : بدنه .

يَنْزِعُ وينزو[١] » يعنى ينزع فى القوس ، وينزو على الخيل من غير استعانة بالرُّكُب . فليس ما قام به المماليك جديداً فى هذا الشأن ؛ لأن طبيعة العرب فى صحرائهم — كما ذكرنا — جعلتهم فرساناً محنكين بالفطرة والبيئة وكأنما عناهم المتنبى بقوله يصف الخيل وفرسانها :

فكأنما خلقت قياماً تحتهم وكأنما خلقوا على صهواتها

وكان المماليك فى حاجة إلى مثل هذا التمرين

وإذا كان لهم من ميزة فهى أنهم تدربوا على كل أنواع الفروسية من الرمى بالقوس ، والضرب بالسيف ، فضلاً عن التمرين البدنى الصارم تدريباً منتظما متواصلاً لا هوادة فيه ولا رحمة ، ولا مبالاة بالأخطار ، وقد أفردوا لدراسة الفروسية الكتب والرسائل الكثيرة الموزعة بين خزائن المخطوطات الأوربية ، ولم تنشر حتى اليوم من ذلك : « نهاية السؤل والأمنية فى تعليم الفروسية » تصنيف بكتوت الرماح خازندار الملك الظاهر[٢] . وكتاب الفروسية برسم الجهاد تأليف محمد بن أحمد بن لاجين الحسامى الطرابلسى[٣] ، والباب الأول منه : « فى ركوب الخيل والنزول بالرمح » والباب الثانى : « فى المناصب الحربية » والباب الثالث : فى الحروب وعلم الفروسية[٤] . وقد أنشأ سلاطين المماليك كثيراً من الميادين لألعاب الفروسية ، وكان الميدان من السعة بحيث يغشاه بضع مئات من الفرسان فى وقت واحد . وكثيراً ما قامت المبارزة بين الفرسان بعضهم

---

(١) مسالك الأبصار لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى ج ٥

(٢) مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٣٦٣١ Orient

(٣) مخطوط بمكتبة برلين رقم ٨٨٥

(٤) راجع A.S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages. P. 545

وراجع كذلك الدكتور على ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص ٢٧٢ .

و بعض فى حضرة السلطان وقد وضعت للمبارزة قيود وتعليمات خاصة قيدت فى قوانين ودفاتر ، وكان على المبارز أن يستخدم كل مواهبه لخلع خصمه عن سرجه ، دون أن يضرب به الضربة القاتلة ؛ ولذلك كانت المبارزة تتطلب الكثير من الحِذق والبراعة . وقد مارسوا لعبة (البولو) وكانت تسمى لعبة الصولجان ، ويطلق الصولجان على العصا التى تضرب بها الكرة . وذلك قبل أن تعرف أوربا هذه اللعبة بقرون ؛ لأن إنجلترا لم تعرف هذه اللعبة إلا فى أواسط القرن التاسع عشر نقلاً عن الهنود .

وأنشئت فى عهد المماليك جماعة كان يرأسها السلطان ، ولها نظمها الخاصة تسمى جماعة الفتوة ، وكان السلطان صاحبَ الحق فى قبول الأعضاء وفصلهم ، وكانت هذه الجماعة تحذو حذو فتيان الناصر لدين الله ، فتتدرب على رمى السهام ، والنبال ، والبندق ، وتصيد الحمام للتمرين ، وتتزيى بسروال الفتوة[١] .

وقد أبلى المماليك بلاء حسناً فى الحروب التى خاضوها ضد الصليبيين ، وضد المغول ، ولا ننسى أبداً أنهم هم الذى ردُّوا تيار المغول الجارف بقيادة هولاكو الطاغية الذى عاث فى بلاد المسلمين فساداً ، وطوّح بالخلافة الإسلامية ببغداد إلى الهاوية ، واجتاح كل مدن سوريا ، وحاصر دمشق إلى أن نَهَدَ له القائد العظيم الظاهر بيبرس قائد السلطان قطز ، وهو يحاصر دمشق حصاراً عنيفاً ويلح عليها بقسوة ؛ حتى تخر صاغرة تحت سنابك خيله كما خرّت المدن الإسلامية الحصينة من قبل ، فهزمه هزيمة منكرة فى موقعة (عين جالوت)[٢]

---

(١) السلوك للمقريزى ج ١ ص ٧٢٥

(٢) عين جالوت بين بيسان ونابلس بفلسطين .

سنة ٦٥٨ هـ ، ثم هزمهم فى بَيْسان وقتل منهم نحو النصف[١] . فردّ عن مصر وعن بلاد الإسلام شراً ماحقاً .

و إلى هؤلاء المماليك يرجع الفضل فى هزيمة الصليبيين والقضاء عليهم قضاء مُبْرماً فقد هزمهم بيبرس هزيمة منكرة فى موقعة المنصورة المشهورة سنة ٦٤٧ هـ

لقد كافح صلاح الدين الأيوبى هؤلاء الصليبيين مكافحة شديدة ، وكسر حدّتهم ، وخضّد شوكتهم ، وقد اشتد ساعدهم بعد وفاته لكثرة النزاع بين خلفائه من الأمراء الأيوبيين ، ولولا المماليك لساد الصليبيون ، واستولوا على الدول الإسلامية جميعها . فنرى قلاوون سلطان المماليك بمصر يخِف لقتالهم وينتزع منهم القلاع والبلدان ، فيفتتح المرْقب[٢] سنة ٦٨٤ هـ ، ويفتتح طرابلس التى لم يجرأ أحد من قبله على التعرض لها لحصانتها ، كما كسر جيش التّتر على حمص ، وكانوا فى ثمانين ألف فارس[٣] ، بيد أنهم صمموا على الانتقام من جيوش مصر ، وتوالت هجماتهم على مدن سوريا فى عهد غازان المغولى الذى اعتنق الإسلام ، وهزموا جيش السلطان الناصر فى موقعة الخزندار[٤] سنة ٦٩٨ هـ ثم فتحوا دمشق وعاثوا فيها وفى المدن المجاورة لها فساداً وأكثروا السلب والنّهب والقتل سنة ٦٩٩ هـ[٥] حتى قال بعض شعراء الشام يصف المصائب التى حلت بهم من جرّاء غزو المغول و إفسادهم :

---

(١) السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٤١٧ ، وأبو الفداء جـ ٣ ص ٢٠٩ وترجمة كاترمير للسلوك ص ٩٦

(٢) قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام يذكر أسامة بن منقذ فى تاريخ القلاع والحصون أنها شيدت على أيدى المسلمين سنة ٤٥٤ هـ Encyclopedia of Islam. Markab.

(٣) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى جـ١٦ القسم الثالث ص ٦٥٠

(٤) المقريزى فى كتاب السلوك جـ١ ص ٩٢٨ — ٩٢٩

(٥) النهج السديد لابن أبى الفضائل ص ٦٤٤ — ٦٤٤ وكتاب السلوك للمقريزى جـ١ ص ٩٣٣ — ٩٣٤ .

رمتنا صروف الدهر منهـا بسبعة   فما أحـد منا من السبع سـالم
غـلاء وغازان وغزو وغارة   وغـــدر وأغبان وغم ملازم

بيد أن السلطان الناصر قلاوون قد أعَدَّ عدته وخرج من مصر فى سنة ٧٠٢ ﻫ على رأس جيش كبير ، وخرج معه الخليفة العباسى . ويصف المقريزى هذه المعركة بقوله : « مشى السلطان والخليفة بجانبه ، ومعهما القراء يتلون القرآن ، ويحثون على الجهاد ، ويشوقون إلى الجنة ، وصـار السلطان يقف ، ويقول الخليفة : يا مجاهدون ! لا تنظروا لسلطانـكم قاتلوا عن حريمكم ، وعن دين نبيكم صلى الله عليه وسلم ، والناس فى بكاء شديد[١] » ، وتقابل الجيشان فى مرج الصفَّر على مقربة من حِمص فهزم جيشُ الناصر المغولَ هزيمة ماحقة ، ومات منهم كثيرون من شدة الظمأ ، وأسر المصريون عشرة آلاف ، وغنموا عشرين ألف رأس من الماشية[٢] ، ولم تقم لهؤلاء التتر بعد ذلك قائمة إلى عهد تيمور لنك . وكما ردَّ هؤلاء المماليكُ طوفان التتر عن مصر وعن البلاد العربية ، ألحّوا على الصليبيين بالغزو والقتال حتى طردوهم طرداً شنيعاً ، وذلك حين فتح السلطان الأشرف خليل بن قلاوون مدينة عَـكَّا آخر معاقلهم فى بلاد الشام سنة ٦٩١ ﻫ[٣] .

ولقد شهد لهم نابليون بالبراعة فى فنون الفروسية ، ولـكنَّ هؤلاء على الرغم من براعتهم تلك فى فنون القتـال ، وشجاعتهم الفائقة ، لم يأخذوا من الفتوة العربية إلا ناحية واحدة فقط وهى التفوق فى الحرب ، والشجاعة

(١) السلوك ج ١ ص ٩٣٣ .
(٢) أبو الفدا المختصر فى تاريخ البشر ج ٤ ص — ٥١ .
(٣) أبو الفدا ج ٤ ص ٢٥ — ٢٦ .

الفائقة ، وفيما عدا ذلك ندر من كان منهم سخىَّ اليد ، كريمَ القلب ، رَحْب الصدر ، وفياً بوعده . بل نرى على العكس من ذلك ، شدة التناحر فيما بينهم يثب بعضهم على بعض ، ويتولى العرش أقواهم ساعداً وأكثرهم أنصاراً ، ويقتل السلطانَ السابق من غير رأفة ولا رحمة ، وقد كان من مماليكه الذين رباهم ، وعلمهم ، وقَدَّمهم ، كما قتل بيبرس السلطان قطز ، وكما قُتل الأشرف خليل وهو يصيد فى الصحراء بأيدى مماليكه . لم يكن هؤلاء المماليك يتحلون بتلك السجايا العربية التى وصفناها آنفاً ، ومع هذا كله فقد وضعوا للفروسية نظاماً محكماً ، وقد أخذ عنهم الصليبيون كما أخذوا عن صلاح الدين والعرب عامة كثيراً من نظم الفروسية وتقاليدها كما سيأتى فى الفصل القادم إن شاء الله .

بين فتوة العرب وفروسية الغرب

كم كان بودى بعد أن تتبعت الفتوة العربية فى نشأتها بين أحضان الصحراء ، وفى سياحتها فى الدول الإسلامية ، أن أذكر شيئاً عن عرب الأندلس ، وبلاد المغرب ، بيد أننى رأيت أن هؤلاء لا يختلفون فى تقاليدهم العربية الشريفة ، فى أثناء قتالهم مع أعدائهم فى سبيل الله ، أو فى صِلاتهم مع سواهم من الناس عن آبائهم الأول ، وأن تقاليد الفتوة ، وثمارها العطرة الشهية قد حُملت معهم إلى أوربا ، وظلت طابعاً لهم فى كفاحهم المرير مدة ثمانية قرون سواء كان ذلك فى ظل دولة بنى أمية أو فى ظل ملوك الطوائف ، أو لدى المرابطين أو الموحدين . ثم إننى رأيت أن حديثى عن فروسية الغرب قد يفسح لى بعض المجال لذكر شىء موجز عن تأثير عرب الأندلس فى فروسية أوربا .

وقد حفزنى إلى الكلام عن فروسية الغرب ، ونحن فى صدد البحث عن فتوة العرب ، ما رأيته ، ورآه غيرى من قبل ، من أوجه الشبه العديدة بين الاثنين ، وأن فتيان العرب وفرسان أوربا قد تلاقوا فى أكثر من ميدان . ولا ريب أن أول مايخطر بذهن الباحث المدقق هو هذا السؤال : هل ثمة صلة بينهما ؟ وللإجابة المُرْضية عن هذا السؤال أرى لِزاماً علىّ أن أعطىَ صورة سريعة موجزة للفروسية الغربية ، ونشأتها ، ومميزاتها ، ثم أتكلم عن الصلة بينها و بين الفتوة العربية ، ثم أوازن بينهما .

والآن ! هل الفروسية بتقاليدها المعروفة ميل نفسانى يظهر طبيعياً لدى

بعض الأمم ؛ أو أنه شيء طارىء عليها ، استعارته من سواها ، حين رأت أهدافه الجميلة ، وطابَعَهُ الإنسانى : أو بعبارة أوضح : ما أصل الفروسية الغربية ؟ ومتى نشأت ؟ وأين نشأت ؟ .

تعرِّف المعاجمُ الفروسيةَ بأنها : « نظام عسكرى إقطاعى خاص بالنبلاء وظهر فى العهد الإقطاعى » ، وثمة نوع آخر ظهر إبان الحروب الصليبية ، ثم نوع ثالث ظهر بعد انتهاء الحروب الصليبية يختلف فى أهدافه وغاياته عن النظامين ، وإن لم يعمِّر طويلاً .

الحق أن الفروسية الغربية مَرَّت فى أطوار ثلاثة . ففى أول الأمر كانت نظاماً عسكرياً لا يضم إلا طائفة النبلاء ، ولا يحارب هؤلاء إلا على جياد مُطَهَّمَة ، ويكونون فى سن تؤهلهم لحمل السلاح ، ولا بد أن يكونوا من ذوى اليسار حتى يُعِدُّوا أنفسَهم إعداداً تاماً بالسلاح . وقد ابتدأ تنظيم الفروسية طبقاً للتقاليد (الإسكندناقية) ، فكل من يملك جواداً ، ولديه أربعون (ماركا) ، وعدة كاملة من السلاح ، وله من الثروة ما يمكنه من إعداد نفسه باستمرار ، حتى لا يظهر بمظهر زرِىٍ يسىء إلى النبلاء يستطيع أن يكون فارساً ، ولم تكن فى فرنسا طبقة خاصة من الناس متميزة عن سواها تدعى طبقة الفرسان ، ولكن الميل الطبيعى لدى النبلاء هو الفروسية . وفى القرن الثالث عشر صدر قانون يحتم أن يكون الفارس من طبقة النبلاء ، بل أن يكون كل نبيل فارساً ، ومن بلغ سن الرابعة والعشرين منهم ، ولم يلتحق بالجندية عوقب عقاباً شديداً . ومنذ القرن الحادى عشر وضعت الأنظمة الإقطاعية الخاصة بالفروسية ، وأهمها : حرص الفارس على شرف الفروسية

l'honeur chevaleresque ويتمثل فى الإخلاص والطاعة والشجاعة .

لقد كانت أول واجبات الفارس الإقطاعى هو أن يحمى سيده ، وكان يُعَدُّ إعداداً خاصاً كى يكون فارساً ، فيُنْتَزَع وهو فى السادسة من عمره من بين أحضان النساء ، ويُرْسَلُ إلى حاشية أحد الأمراء ، أو حاشية الملك ليتلقّى تعاليم الفروسية ، ويبتدئ من المراتب الدنيا ، فيقوم أول الأمر بأعمال منزلية ، ويراقب النبلاء فى حركاتهم ، وآدابهم وشتى مناحى سلوكهم ، ويُعْطى فى نفس الوقت تعليما خاصاً يتناسب مع منزلة والديه ، ومع ذكائه ، واستعداده وبعد ذلك يلتحق بخدمة أحد الفرسان ، فيتعهد الخيول ويدرس طباعها ، ويشهد ترويضها ، ويتعود ركوبها ، ويصحب سيده تابعاً له فى الصيد وفى ميدان القتال ، وفى المباريات الخاصة ، وقد يشترك معه فى كل هذا ويساعده حتى إذا ظهرت مواهبه ، وتم استعداده ، وصار فى سن تؤهله لأن يكون فارساً أقيم له احتفال يشهده غيره من الفرسان ، ويقلد فيه السيف ، يقلده إياه أبوه ، أو أميره ، ويضربه أبوه بجُمْع يده على قفاه ، وتُلقى خطبة كلها فى تقاليد الفروسية والشجاعة ، ثم يَعْرِض الفارسُ الجديدُ بعضَ ألوان من الفروسية[1] .

هذا هو النظام الإقطاعى للفروسية ، وهو نظام أوجدته الضرورة ، إذ كان أمراء الإقطاع فى حروب مستمرة بعضهم مع بعض ، وكان لابد للأمير من جند مدربين يحمونه وأسرته ويحافظون على أملاكه ، ويردون عنه غاراتِ منافسيه ، واضطُرَّ الأمراء أولَ الأمر إلى استخدام جنود مرتزقة انحدرت الجندية على أيديهم إلى وحشية بَيِّنَةٍ ، فعمدَ هؤلاء إلى قوانين ترفع من مستواهم الخلق

(1) La Grande Encyclopédie. tom, X. PP. 1137—1139.

وتصقل من طباعهم الجافة ، وتحول بينهم و بين الضَّعَة والحقارة ، ثم قصرت الفروسية على طائفة النبلاء وذوى اليسار[1] .

ولما شَنَّ الغربُ حملاتِه المعروفة على الشرق باسم الحروب الصليبية ، كان هؤلاء النبلاء هم عمادُ تلك الحملات ، يخرجون من بلادهم ومعهم جنودهم المدربون على دفعات لغزو الشرق الأدنى ، وكان من الطبيعى أن تبارك الكنيسة هذا العمل ؛ لأن فيه دفاعاً عن الدين ، وقتالاً — فى زعمهم — ضد الكفرة الملحدين ، وصار القسس يحضرون حفلات الفروسية التى تقام لكل فارس جديد ، ثم على توالى الأيام صار القسيس هو الذى يقلد الفارس سيفه ، ويباركه ، ويغمسه فى الماء المقدس ، وكان على الفتى أن يتطهر ، ويتوب ويتندم ، ويلبس الثياب البيض سِمةَ الطُهْر والصلاح ، وبذلك صار هذا التقليد البربرى تقليداً دينياً ، شاركت فيه الكنيسة ورجالُها أولَ الأمر ثم استقلّت به ، ولم يعد الأمير أو الوالد هو الذى يقلد الفتى سيفه ، ولكن صار ذلك من مهمة الكنيسة . وقد أدت الحروب الصليبية ، وما فيها من اختلاط الفرسان من شتى البلاد بعضِهم ببعض إلى إيجاد مميزات جديدة للفروسية ، وصارت أكثر تديناً وأعظم انتشاراً ، وواجباً على كل شريف مسيحى . لقد كان أول واجبات الفارس الإقطاعى حماية سيده ، فصار من أول واجباته حماية الكنيسة ، وقتالُ الكفرة . وكان يحتفل بدخول الشاب فى نظام الفروسية عادة فى يوم عيد من أعياد المسيحية بالكنيسة ، وأحياناً فى ميدان

---

(1) Herder : Idées sur la Philosophie de l'Histoire de l'Humanitie. t. III p. 436. Traduction E. Quint.

القتال ، وقبل بدء المعركة (١) .

كانت الفروسية الغربية فى أوجها فى ذلك العهد المسيحى ، ولكنها انتهت عند استرداد المسلمين (عكا) سنة ٦٩١ هـ — ١٢٩١ م من يد المسيحيين على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٢) .

ثم تحولت الفروسية الغربية فى القرن الرابع عشر إلى فروسية ضالة ، لا هدف لها ولا نظام ولا رابطة . رجع الفرسان الذين قاتلوا فى الشرق ، وقد تطورت أوربا ، وابتدأت نهضتها الحديثة ، ولم يجدوا عملاً ، فطفقوا يجوبون البلاد باحثين عن المغامرات ، ونادبين أنفسهم لأداء الخدمات ، ومساعدة الضعفاء ، والأخذ بيد المنكوبين ، وباحثين قبل كل شىء عن الحب ، ولا سيما حب النساء الثريات من زوجات الأشراف . وفى هذا العهد ظهرت الفروسية بصفات جديدة فيها كثير من سِمَات الفتوة العربية وإن اختلفت عنها فى الغاية . وأهم خصائص هذه الفتوة الحديثة : الحب ، واحترام المرأة ، والرغبة فى المغامرات ، والسخاء ، والمرح وقت الخطر ، وحسن المعاملة والتمسك بالوعد حتى الموت ، والحدَب على الضعفاء ، وتمجيد الشجاعة الحربية ولو كانت من الأعداء ، وعظمة النفس وسموها وإخضاع القوة الجسمية للذكاء المهذب (٣) ومحاربة الكنيسة والقضاء على سلطانها ونفوذها وتدخلها فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الحياة (٤) ثم تلاشى هذا النوع من الفروسية على

---

(1) La Grande Encyclopedie, tom. X. PP. 1137 — 1139. et Wacyf Ghali : La Tradition Chevaleresque des Arabe. p. 8.

(٢) أبو الفدا ج ٤ ص ٢٥ — ٢٦ ، Hammar-Pargstall. J. A. Jan. 1844

(3) Viollet—le—Duc, Dictionnaire du mobilier, t. V, P. 6.

(4) Wacyf Ghali : P. 13—14.

مر الأيام ، وصارت أساطير تروى ، وقصصاً تكتب .

ولعلك رأيت من هذا العرض السريع كيف تطورت الفروسية الغربية على مرّ الأيام من فروسية عسكرية تعتمد على القوة وحدها ، ليس فيها من سمو الروح ، ودماثة الخلق شيء ، ثم فروسية خاضعة لتعاليم الكنيسة ، مملوءة بالتعصب الدينى ، ليس فيها شيء من سماحة العقل ، واتساع أفقه ، إلى فروسية حديثة ، فيها كثير من صفات الإنسانية ومثلها العليا . وقبل أن أخوض فى أسباب هذا التحول الأخير ، وكيف تأثر فرسان أوربا بحضارة العرب حتى تهذبت طباعهم ، ورقّت حواشيهم ، واكتسبوا منهم سماتِ النبل الحقيق لا نبل الدم والنسب ، وكيف قلدوهم فى طباعهم ، وجعلوهم المثلَ الأعلى لهم ، أعرض بعض الآراء التى سجلها الباحثون عن نشأة الفروسية الغربية وأصلها .

نرى بعضَ الباحثين يُنكر وجود الفروسية الغربية كما صوّرها رجال الأدب ويقول : « كلما تعمق الإنسان فى دراسة التاريخ تبين له بوضوح أن الفروسية الغربية من اختراع الشعراء والقصاصين ، ولن يعثر أى باحث على وثيقة تاريخية تثبت أن الفروسية — كما يعرفها الشعراء — سادت بلداً ما . إنها تلوحَ من بعيد حائلةَ اللون ، غيرَ واضحةِ المعالم — بينما يعطينا المؤرخون فكرة مفصلة ، واضحة ، كاملة عن مآثم النبلاء ووحشيتهم ومفاسد قصورهم ، واستعبادهم للشعب . وإن المرء ليعجب حين يقرأ بعد ذلك بزمن مديد الشعراء وهم يحيون هذه العصور فى رواياتهم ، ويخلعون على النبلاء أردية الفضيلة والشجاعة والكرم والطاعة[1] .

---

(1) S. de Simondi : De la Littérature du Midi de la France, t. 1. PP. 90 et 91.

ويرى بعض الباحثين أن الفروسية الغربية فى ثوبها الجميل لم تظهر إلا فى الحروب الصليبية وما بعدها ، وأن ما سبقها فى العهد الإقطاعى كان شيئاً قريباً من البربرية[١] .

ويرى كثير من الباحثين أن أصل الفروسية الغربية يرجع إلى العادة التى كانت متبعة فى ألمانيا بإعطاء الرمح للفتى الذى أظهر الاختبارُ أنه كفء لحمل السلاح[٢] ، ويردها بعضهم كذلك إلى التقاليد الألمانية ولكن بتعليل آخر فيقول : « كان معظم القبائل الألمانية التى غزت أوربا وانتشرت فى شتى أنحائها من المحاربين ، وكان أغلبيةُ هؤلاء المحاربين فرساناً ، يمتطون الخيول ، وكان من الطبيعى أن يتطلع هؤلاء إلى مكافأة تتناسب مع بلائهم فى الحرب . ثم تكونت على مرِّ الأيام جماعاتٌ يَنْتسب بعضُها للأمير ، وبعضُها للملك أو الإمبراطور ، وألَّفت فيما بينها نظاماً خاصاً ، أومدرسة حربية تُلَقَّن فيها تعاليم الفروسية ، وأصول القتال والكر والفر ، يغشاها الأحداث فإذا تجلت مواهبهم دخلوا فى خدمة نبيل فارس أقدم منهم وأعرق فى الفروسية وفنونها مع خضوعهم التام له ، ولا يوجد على ما أعتقد أى أصل آخر للفروسية الغربية غير هذا[٣] .

وإذا سلمنا جدلا بأن أصل الفروسية العسكرى مأخوذ من العادات الألمانية وتقاليد رجال الحرب القبليين فيها ، وأنهم على مرِّ الأيام وضعوا لها نظاماً خاصاً ميَّز الفرسان عن سواهم ، فما الذى وضع للفروسية الغربية كلَّ

---

(1) Gautier : La Chevalerie,

(2) Tacite. Mœure des Germains, XIII.

(3) Herder : Idées sur la Philosophie de l'Histoire. t. III. P. 436. Traduction. E. Quint.

تلك التقاليد السامية ؟ وأين الروح النبيلة الكامنة فى نفس الفارس ، ومن يقول إن الفروسية — وهى ثمرة الجمال الخُلقى — مأخوذة عن الألمان . إن التاريخ يرفض مثل هذا الادّعاء . وكيف تسنى للألمان أن يضعوا المثل العليا للفروسية من التمسك بالكلمة تعطى ، والسخاء والأريحية ، والإخلاص والطاعة ، والإنسانية الكاملة ؟ [1] .

« كان الألمان منذ وجدوا حتى اليوم عبيداً لغرائزهم التى لم تهذب أو تصقلها الفكرة والمثل العليا والخضوع للواجب الإنسانى ، فيهم أنانية ، وغلظة ، وصرامة ، وشهوة عارمة للإفساد ، إنهم يقدسون القوة الوحشية كما تظهر فى الطبيعة ، أو كما تظهر على يد محارب سفّاك . وتاريخ الديانة الألمانية وتاريخ الألمان أنفسهم ، هو سجل للقتال وسفك الدماء ، وأعظم قربان يتقرب به الألمانى ، ويسعد به نفسه هو سفك الدم الإنسانى ، والجنة التى يطمع الجندى الألمانى فى دخولها هى المكان الذى تسيل فيه الدماء من غير انقطاع ، حيث يشرب المرء الخمر فى جمجمة عدوه . ومثل هذه الديانة لا ترتفع بالنفس الإنسانية ، ولا تُسهم فى إسعاد البشرية وعلى الرغم من اعتناقهم المسيحية فقد ظلت عبادة القوة دينهم ، والقسوة العارمة نزعتهم » [2] .

ويؤكد (هردر) على الرغم من ألمانيته أن الفرنسيين كانوا أساتذة للألمان فى الفروسية بمعناها الخلق السامى ، وتقاليدها المعروفة إبّان القرون

(1) Wacyf Ghali. P. 9.

(2) Mignet. Mémoires de l'Academie des Science morales et politiques. T. III. anée 1841 : Comment l'ancienne Germanie est entrée dans la Société Civilisée de l'Europe occidentale.

الوسطى[1] وفى القرون الوسطى كان كل حق يعتمد على القوة ، وكان المثل الأعلى للمحارب هو النشاط والجَلَد ، فمن أين أتى للفروسية الغربية إذاً هذا الخلُق الذى هَذَّب طباع الفرسان ، وجعل هدفَهم الظهورَ بمظهر الإنسان الكامل ؟ ؟

يجنح كثير من الباحثين إلى أن الفروسية الغربية قد اكتسبت ثروة نفسية ، وخلقية من الفتوة العربية حتى ظهرت فى ثوبها القشيب الذى تفخر به ، بل إن منهم من غالى فقال إن كلمة Chevalerie التى نعربها بكلمة فروسية مأخوذة من كلمة Cherval أو Chelval وهى السروال العربى الذى كان يميز الفتيان عن سواهم[2] . وأن أوربا لم تعرف الفروسية إلا عن العرب ، ويؤيده فى رأيه هذا فريق كبير من الباحثين[3] ، ويعتدل فريق آخر فيرى أنها تألفت من عناصر عربية ، ومسيحية ، وألمانية معاً[4] .

يقول واصف باشا غالى : « لا ترجع الفروسية الفرنسية إلى أصل رومانى أو ألمانى أو مسيحى أو عربى ، ولكنها فرنسية ، وليس معنى ذلك أنها لم تتأثر بالمدنية العربية ، إنها تأثرت بالتقاليد العربية فعلا فى أسبانيا ، وفى فلسطين ومصر إبان الحروب الصليبية ، ويتضح هذا التأثير بصبغ الفروسية الفرنسية بصِبْغَةٍ حسنة ، ومظهر جميل ، وبدَمَاثَة ورِقَّة ولُطْف لم تعهدها من قبل . إن

(1) Herder : op. cit. P. 449.

(2) Mémoire de l'Académies des Science, Belles-Lettres et Art de Marseille. vo : anées 1854 à 1868. p. 267, article de H. Guys.

(3) A. de Beaumont, Reacherches sur l'origine du blason.
Viardot, Histoire des Arabes et des Maurs d'Espagne.

(4) Chateaubriand, Analyse raisonnée de l'Histoire de France.
J. J. Ampére. Mélange d'Histoire Littéraire et de Litterature t. 1. pp. 248.

البذرة فرنسية غرست فى أرض فرنسية ، ولكن إذا كانت قد نمت سريعاً وظهرت قوية الاحتمال ، وأتت بأزهار عَبِقَة الشَّذا نَضِرَة الألوان ، فإن ذلك بفضل شمس الشرق الساطعة ، وبفضل صَبَا نجد التى هبت عليها[1] » .

ونحن لا نمارى فى أن الفروسية الغربية قد نبتت فى أوربا ، ولا نغالى مع الغلاة فندعى أنها عربية الأصل لحمة وسَدى ، فذلك أمرٌ يخالف الواقع ، هذا إذا قصدنا بالفروسية ذلك النظام العسكرى ، الذى يتميز بالتدريب على فنون القتال ، والجلَد ، واحتمال الصِّعاب ، ليس غير ، لأن مثل هذا النظام تتطلبه ظروف كثير من الأمم التى تلتحم مع سواها فى كثير من ميادين القتال ، إما مُغيرة ، تتطلب الغزو والسيطرة ، وإما مدافعة عن نفسها تتطلب الحرية والعيشة الكريمة ، ولقد كانت أوربا فى القرون الوسطى فى حرب دائمة بعضها مع بعض ، وكانت دويلات صغيرةً لم تتوحَّد بعد ، وكانت كذلك بعيدة كل البعد عن المدنية وحياة الاستقرار ؛ لأن النهضة الأوربية الحديثة لم تبدأ إلا فى القرن الثانى عشر بعد احتكاك أوربا بالشرق ، وكانت أوربا قبل ذلك لا تزال تتخبط فى ديجور مطبِق من الجهالة والظلم ، والقهر . فلا بِدْع إذاً حين ترى فيها هذا النظام العسكرى ، فإذا اجتمعت طائفة من الفرسان تحت إمرة رئيس كان لابد من تنظيم العلاقة بينهم فيقسمون يمين الطاعة لرئيسهم ، والإخلاص له ، وعلى الوفاء لإخوانهم ؛ ورئيسُهم يحترم كل وعد وعدوه ، ويبرم أىَّ أمر عقدوه ، ويوجههم إلى غاية واحدة[2] .

أما أن أوربا الغربية قد أفادت من تقاليد الفتوة العربية فذلك أمر

---

(1) Wacyf Ghali, op. cit. p. 14.
(2) Lavisss et Rambaud, Histoire Générale. t. II. p. 60.

لا مِرَاء فيه ولا شك ، ولقد أجمع على ذلك نفرٌ من خيرة الباحثين الأوربيين الذين لم يُعْمِهم التعصبُ الذميم ، ويَطْمس على أفئدتهم الهوى المُضِلُّ ، ومنهم من يرى أن تأثير العرب فى أوربا جاء عن طريق الأندلس ، وأن تقاليد الفروسية الغربية مأخوذة من عرب الأندلس [1] لطول احتكاكهم بفرسان أوربا مدة ثمانية قرون ، لم تخمد فيها نار الحرب برهة ، وقد تألّب على العرب أممٌ شتى من أوربا كلها ، وشهدوا صدق بلائهم فى الحرب ، وكرم قلوبهم ، وحسن معاملتهم ، ووفائهم بعهودهم ، وصارت هذه الصفات الكريمة أمثلة عليا يحتذيها فرسانُ الغرب ، ويتغنَّوْن بها .

وفى لغة (البروفنسال) [2] تجد كلمة galaubia غلابية المأخوذة من كلمة (غلب) ، و (غلبة) العربية تعنى تلك الطبيعة ، والحالة النفسية والحِمِيَّة التى تحمل المرء على البحث عن المجد والشهرة ، ولا سيما فى ميدان الشجاعة والفروسية ، وتحدِّى كلٍّ من ينافسه فى هذا الميدان حتى يغلبه ؛ و galaubia مرادفة للشجاع والجرىء والفارس ، والمغلَّب فى العربية المغلوب مراراً والمحكوم له بالغلبة (ضد) ، ومن الفعل غلب يأتى اسم الفاعل غالب ، وغالب : لقب لسيدنا على بن أبى طالب ، وهو موجود فى ديوانه ، وإن كان هذا الديوان كما يدعى شارحه التركى (مستقيم زاده) من شعر الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ١٠٤٤م وقد ورد فى قطعة من الديوان ص ١١٤ طبعة مصر سنة ١٢٢٥ :

هذا لكم من الغلام الغالِب   من ضَرْب صِدْق وقضاء الواجب
وفالق الهامات والمناكب   أحمى به قماقم الكتائب

---

(1) Fauriel, Histoire de la Poésie Provençal, t. III, p. 312.

(٢) البروفانس : إحدى مقاطعات فرنسا الجنوبية المطلة على البحر المتوسط .

ومن أسماء عليّ الفتى تبعاً لما أُثر عن رسول الله أنه قال بعد غزوة أحد « لا سيفَ إلا ذو الفقار ولا فتىً إلا عليّ »[١]. وقد علمت فيما تقدم منزلة سيدنا على فى سلسلة فتيان الناصر لدين الله[٢] وقد كانت فتوة الناصر كما مرّ بك مصحوبة بشرب كأس الفتوة ، وقد أخذ الغربيون هذا ، وتراهم يشربون كأس القديس graal ويظن بعض الباحثين أن graal محرفة من الكأس بتأخير أل ، أو من (الجرعة) بتأخير أل[٣].

إن أصول الفروسية الغربية سواء الدينية التى ظهرت فى العهد الكنسى أو الحديثة التى ظهرت بعد ذلك مأخوذة عن عرب الأندلس ، فقد كان للمرابطين نفس النظام الدينى الذى نقله عنهم فرسان أوربا أما الفروسية الحديثة فمرجعها كذلك إلى العرب ؛ إذ كان المرابطون يقومون بتدريبات عسكرية ورياضية عنيفة ، وكانوا يختارون من الجنود الأشداء الذين لهم صبر على احتمال المشاق ، ولم يكن يُسمح لهم بالفَرار ويموتون فى الميدان من غير أن يولوا الأدبار[٤]

وكانت الصلات التِّجارية والعلاقات السياسية ، والحروب المتصلة ، والمعاهدات الكثيرة من الوسائل التى احتك فيها الغرب بالشرق منذ وطئت أقدام العرب أسبانيا فى القرن السابع الميلادى ، وكانت معاهدات السلام التى

---

(١) Fauriel فى كتابه المتقدم ص ٣٢٦ ونقله عنه هامر برجستال فى عدد يناير ١٨٤٩ Hammar-Purgstall. op. cit. Journal Asiatique

وراجع كذلك فى هذا الموضوع :

Dictionnaire de la langue des troubadours par Raynauard t.3.p.418

(٢) راجع ص ٢٤٠ من هذا الكتاب وما بعدها .

(3) Hammar—Purgstall. op cit

(4) Fauriel, op, cit p. 321 – 326 et dozy. Histoire des Musulman d'Espagne (introduction)

تعقد بين الفرنسيين والمسلمين وسيلة لأن يتعرف كلٌّ ماعند الآخر من مزايا خلقية ، وقد أدرك الفرنسيون شيئاً عن الإسلام وعرفوا أن المسلمين أكثر منهم مدنية . فلا عجب إذا أخذوا عنهم كثيراً وأفادوا منهم[1] ، ولا سيما التهذيب الخلقى ، وتقاليد الفروسية التى شكلوها حسب مزاجهم ، ويزيد هذا تأكيداً أن مقاطعات فرنسيةً عديدة ظلت تحت الحكم العربى ردحاً غير قصير من الزمن[2] ، ولا أدل على هذا التأثير من أنه لا تزال ثمة آثار تلك المدنية العربية فى الزراعة والصناعة ، والتقاليد الخلقية ، واللغة — وبخاصة الكلمات المتعلقة بالفروسية ، بل و بعض التدريبات الرياضية — وفى الخيال والتفكير[3] .

ويقول Fauriel إن هذا الخلق العربى ، خلق الفروسية وتأثيرهم فى أوربا هو أحسن وأجمل وأظهر شىء فى أخلاقهم وفى نظمهم ، ولقد أثر أثراً كبيراً فى أخلاق أهل الجنوب والوسط من فرنسا ، حيث أنهم فى خلال القرن الحادى عشر لم يروا فى العرب الذين كانوا يعدونهم أول الأمر أعداء المسيحية إلا قوماً أكثر منهم مدينة . وكان من الطبيعى جداً أن الناس ، أو على الأقل الطبقة ذات التأثير فيهم ، والتى بيدها قيادة المجتمع ، تحاكى العرب فى أخلاقهم ، وتأخذ عنهم أنظمتهم التى ترى فيها فائدة لهم مع تعديل ضرورى يلائم حالهم .

لقد كان تأثير عرب أسبانيا على المدنية الفرنسية ولا سيما المدنية التى أسميها (مدنية الفروسية) تأثيراً مباشراً وواضحاً كل الوضوح . ومن المستحيل ألاّ

---

(1) Lavisse et Rambaud. op. cit. P 346.
(2) Fauriel, op cit, p. 420
(3) Fauriel op cit p 312.

تصل بوسيلة أو أخرى إلى الأدب الفرنسى[١] .

« وقد استعار سكان أوربا من العرب مع قوانين الفروسية احترامَ المرأة وليست المسيحية على الرغم من أن الكل يعتنقها هى التى رفعت شأن المرأة ولكنه الإسلام[٢] » .

« كانت غزوات العرب الأولى لأسبانيا وفرنسا محوطة بالعظمة والأبهة مما لا يمكن أن يقرأه المرء إلا وتعروه الدهشة والحيرة ، وكان العرب يمتازون عن سواهم من الغزاة (كالنورمانديين والمجريين) بأنهم أمة بقيت على رأس المدنية مدة طويلة ، وأنهم بعد جلائهم عن فرنسا ظلت ترتعد من احتمال غاراتهم أمداً غير يسير ، ثم إن الحروب العظيمة التى تولوا كِبَرها ، سواء فى الأندلس أو فى أفريقية أو فى آسيا فى وجه الصليبيين ، قد أضافت إلى اسمهم لمعاناً جديداً فوق اللمعان الذى كان من قبل ، بيد أن كل هذا لم يكن كافياً لتفسير مكانة العرب العظيمة فى الصدور لولا قصص الفرسان والفروسية التى كان يتغنى بها أهل فرنسا ومن جاورها خلفاً عن سلف ، فقد كانت هذه القصص الأسمارَ الوحيدة للأمراء والنبلاء ، بل والشعب . وكان يعجب بتلك القصص وهاتيك الأخبار من سير الأبطال كلُّ من كان يدعى نفساً عالية ، وحساً نجيباً . وقد تضاءل كل تاريخ بجانبها ، وهَزُل كل أدب سواها . وكان أكثرها شعراً ولهذا الشعر رواة اختصوا به ، ويذهبون من بلدة إلى أخرى فينشدونها للجماهير التى تترنح لها أعطافهم . وكان لا يحتفل بعيد ولا بموسم إلا اندفع

(1) Fauriel. op cit. t. III. p. 433

(2) Florian, dans son Precis Historique sur le Maures, et G. Le Bon, Civilisation des Arabes. p. 428.

أولئك الرواة فى إنشاء تلك القصائد عن سِيَر أبطال الوطن ، وكانت هذه السير تدور حول حروب المسلمين ، وعلى ما جالَدَه صناديدُ الفرنسيين فى دَفْع غاراتهم ، ولما كان فى هذه القصص ، وتلك القصائد من المبالغة ما هو طابع كل القصاص الذين يترنمون بوقائع تلك الأبطال ، كانت الواقعة الواحدة تتجسم وتنمو وتصبح أضعاف ما هى ؛ تجسيما لفضل أولئك الذين أبلَوْا فى تلك الوقائع ؛ حتى صار فى تاريخ كل مدينة وكل بلدة فى فرنسا وإيطاليا أمير عربى ، أو بطل عربى يبارزه أمير فرنسى ، وبعد أن يشتد البراز ، ويطول العراك ، وتظهر فيه خوارق الأقدار ينتهى الأمر بالبداهة بتغلب البطل الفرنسى على البطل العربى .

« وعلى العموم فقد كان العرب لذلك العهد ، هم الأمثلة العليا ، والأقيسة البعيدة ، فى الشجاعة والشهامة ، وعزة النفس ، ومكارم الأخلاق ، والعفو عند المقدرة ، وقِرى الضيف ، تشهد بذلك وقائع ونوادر كثيرة ، منها ما رواه بعض مؤرخى الأسبان من أنه فى سنة ٨٩٠ م أراد ملك أشتورية (أذفونس الكبير) أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده فاستدعى اثنين من مسلمى قرطبة حرصاً على تهذيبه ، إذ لم يجد فى المسيحيين حينذاك من هو كفء لهذه المهمة[1] .

وما عليك إلا أن تلقى نظرة عاجلة على الروايات والقصص التى تروى أخبار الفرسان فى الغرب لتعلم مدى تأثير التقاليد العربية لا فى فرنسا وحدها ولكن فى العالم المسيحى كله . إننا نعلم جميعاً أن هذه الروايات هى المصدر الوحيد الذى تُدرس فيه عادات النبلاء ، بل وعامة الشعب ، وأنها وَضَعت قوانينَ وأنظمةً للحروب ، ومُثلا علياً يحتذيها الفرسان ، وأنها كانت دروساً فى

(1) J. Reinaud, Invasion des Sarrazins en France en Savoie..etc p.314.
وترجمة الأمير شكيب أرسلان (تاريخ غزوات العرب) ص ٢٤٢ .

البطولة ، وحسن المعاملة ، وطرق الحياة ، وقد أتى فى الفصل العشرين من رواية تربان (Turpin) التى سبقت كل روايات الفروسية أن شرلمان قد تلقى الأمر بالفروسية ، وتشرب تعاليمها من الأمير العربى الذى كان يحكم (كولينو) فى مقاطعة (بروفانس)[١] ؛ وقد تلقى (برنارد دى كاربيو) Bernard de Carpio أقدم فرسان الأسبان ، وأعظمهم صيتا فنون الحرب على يد العرب حين التحق بجيوشهم محاربا فى صفوفهم ، ولم يتميز ويشتهر إلاّ بعد أن حذق الفروسية ثمة ، وقد أفصحت رواية Le Cid عن تلك التقاليد العربية النبيلة منذ القرن الثانى عشر[٢]

وقد حرص شعراء المسيحية على إذكاء الحماسة فى قلوب مواطنيهم بوصفهم أخلاقَ أعدائهم العرب ، وتمجيد أعمالهم وكرمهم ، ووضعهم مُثُلاً عليا تحتذى ، حتى يجِدَّ هؤلاء فى تقليدهم ، ويسيروا على نمطهم . وقد ضرب العرب كلّ مثل شريف لهؤلاء المسيحيين سواء فى الشجاعة أو الكرم ، وحسن المعاملة فى أى مكان حلّوا به وفى أى زمان كانوا فيه . هاك الوالىَ عبدَ الملك (٧٥٥ م) يقذف ابنه وفَلْذة كبده بالرمح فينفذ من صدره لأنه رآه يولى الأدبار أمام قوة أعظم من قوته[٣] ، وهاك عبدَ الرحمن الثالث يكرم عدوه اللدود (سناس أمير ليون) حين طلب منه أن يأتى إلى قرطبة ليستشير الأطباء العرب فى سنة ٩٦٠ م . فيؤمّنه ، ويقدم له الهدايا ويزيد فى إكرامه ، حتى يبرأ من

---

(1) Wacyf Ghali, op. cit. p. 17. وتاريخ غزوات العرب ص ٢٤٣

(2) Sismordi, De la Lettérature du midi de la France, t. I. pp. ?70 et suiv.

(3) Viardot : Histoire des Arabes et de Maures en Espagne, t. II, pp. 118, 196 , 278.

حرضه ، فأين هذا مما فعله ملكُ قَشْتاله بيير القاسى فى سنة ١٣٦٠ م حين دعا أمير غرناطة أبا سعيد إلى قصره فلبى دعوته ، ولما رأى بيده خاتماً ثميناً راقه ، حسده ثم قتله ليستولى على الخاتم[1].

وهاك مثلاً آخر يدل على النبل والكرم ، وعدم التعرض للضعفاء والنساء بأذى ، فقد ذهب ألفونسُ الثامن ملك قَشْتالة لمحاصرة (أوريغة) العربية فرأى أميرُ قرطبة أن يرسل إلى المدينة المحاصَرة مدداً ، بيد أن قائد هذا المدد لم يشأ أن يشتبك فى قتال خارج المدينة يكون جيشه فيه الأقل عَدداً وعُدداً أمام عدو كبير قوى العدّة ، ورأى أن يحتال لإبعاد جيش العدو عن المدينة بمهاجمة (طليطلة) حيث كانت تقيم ملكة قشتاله ، فلعل زوجها إذا سمع بذلك يترك (أوريغة) . وأخذ القائد العربى فى مهاجمة طُليطلة وحصارها ، ورأت الملكة — وقد عصرها الهم والحزن — ألاّ ملجأ لها إلاّ إلى الخلق العربى النبيل تستمد منه النصر ، فأرسلت إلى القائد العربى تقول : إننى امرأة ، وليس من شيمَ الفرسان قتالُ النساء ، فإذا أردت قتالاً فعليك بزوجى فإنه ينتظرك على أبواب (أوريغة) فهزت هذه الكلمات مشاعر القائد العربى . وطلب أن يحييها قبل أن يبرح مكانه ، فصعدت إلى أسوار المدينة — وكلها ثقة بشرف وعده ، عالمة أنه لن يمسها أذىً — فحياها الجيش العربى كله فى الوقت الذى دخل فيه زوجها مدينة (أوريغة) العربية واستولى عليها[2]. فأى مثل فى الكرم والتضحية ، وحسن المعاملة ، والنخوة ضربه هذا القائد العربى

---

(1) Gustave le Bon, la civilisation des Arabes. P. 387.

(2) Louis Viardot, Essais sur l'Histoire des Arabes et des Maures d'Espagne.

للمسيحيين فى عصره ، وبعد عصره ؟ ! .

واستمع إلى مثل آخر من تلك الأمثلة النادرة فى التاريخ ، وذلك حين تخلى الشعب عن ألفونس الحكيم فى سنة ١٢٨٠ م ، فطلب المساعدة من ملك المغرب العربى يعقوب بن تاشفين ، فلبى صريخه ، وعبر المضيق ، وقابل ألفونس فى (زارا) ، وحين رآه هذا أراد أن يتخلى له عن كرسيه احتراماً له وإجلالا ومهابة ، بيد أن يعقوب أجابه : إبق حيث أنت ، فما جئت إلا لمساعدتك فى محنتك ، وحين أقوم بهذا الواجب ، وتصير سعيداً منتصراً ، وتستعيد قوتك سأنازعك هذا العرش ، وأصير عدوك [1] ، فهل ثمة قلب أسخى من هذا القلب وأشجع ! ؟

ولم يكن تأثير عرب المشرق إبان الحروب الصليبية على أخلاق فرسان أوربا أقل من عرب الأندلس والمغرب ، ففى أى مكان تلاقى فيه العرب مع الغربيين أظهروا تفوقهم الخلقى ، وأنهم أكثر مدنية ، وأعلى كعباً فى الحضارة من أعدائهم ، فبهروهم بهذه المُثل الطيبة ، وحاولوا جهدهم أن يقتدوا بهم ، وفى ذلك يقول مؤرخ غربى منصف : « إن زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين ، وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم تقديراً أخذ ينمو على مر الزمن — وهى ظاهرة تميز المتأخرين من مؤرخى الحروب الصليبية عن السابقين منهم تميزاً واضحاً جلياً — ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين فى الأراضى المقدسة للشرقيين فى عاداتهم ، وأساليب حياتهم ، لم يُخفِق ذلك كله فى أن يؤثر فى أفكار هؤلاء الصليبيين وأخلاقهم ، ومن أظهر ألوان هذا التأثير ، ذلك المسلك

---

(1) Florian, Précis Historique sur les Maures. p. 77.

السّمح الذى سلكه كثيرٌ من الفرسان المسيحيين نحو العقيدة الإسلامية ، وهو اتجاهٌ فكرى كان أشدَّ ما تشكو منه الكنيسة[١] . ومما يظهر الفرق بين أخلاق الصليبيين قبل أن يختلطوا بالمسلمين ، ويأخذوا عنهم التقاليد النبيلة ، والمعاملة الرقيقة ، وأخلاقهم بعد اختلاطهم بهم ما رواه أسامةُ بن منقذ فى كتابه الاعتبار ، من أنه كان له أصدقاء من فرسان المعبد ببيت المقدس ، فإذا زار بيت المقدس خصصوا له زاوية صغيرة بالمسجد الذى كانوا يحتلونه ، وتصادف أنه ذهب مرة ، ودخل المسجد للصلاة فهجم عليه أحد الفرنجة يريد أن يحوله عن الصلاة ، فبادر إليه بعض فرسان المعبد The Kights Templar ، وأخذوه وأخرجوه عَنْوة ، واستأنف أسامة صلاته ، فاغتفلهم هذا الصليبى المتعصب ، وهجم ثانية على أسامة ورد وجهه إلى الشرق قائلا له : « كذا صَلِّ » فعاد فرسان المعبد إليه ، واعتذروا لأسامة ، وقالوا له : « هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج فى هذه الأيام »[٢] .

ولا أدل على أن هؤلاء الصليبيين قد تهذبوا على يد العرب من قول أحد مؤرخيهم : « لقد هذَّب العربُ — سواء فى التجارة أو الحروب — من الأخلاق الحسنة التى كان يتصف بها رؤساؤنا كما هذبوا من عاداتهم الفظة . أما الفرسان فقد تعلموا — من غير أن يفقدوا شجاعتهم — المشاعر الرقيقه وأجمل الفضائل الإنسانية ، ومن المشكوك فيه أن المسيحية وحدها على عظمتها كانت تستطيع أن تلهمهم هذه الأخلاق »[٣] .

---

(1) Guizot : Histoire de la civilisation en Europe p.234.(Paris 1882)
(٢) الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ١٣٥ ط فيليب حتى (برنستون) ١٩٣٠ .
(3) Barthélemy Saint-Hilaire, Mohomet et le Coran, 1865.

لقد تعلم فرسان الصليبيين من احتكاكهم بالعرب فى المعاملات وفى ميادين القتال كيف يهذبون من طباعهم الحربية الجافة ، وكيف يكونون ظرفاء كرماء أوفياء بالوعود ؛ لقد لانت طباعهم ، وصُقلت خشونتهم لما رأوه من كمال أعدائهم ومعاملتهم الحسنة على الرغم من شجاعتهم . لقد اضطروا إلى ذلك اضطراراً فى كثير من الأحيان ؛ لأنهم كانوا مرغمين على مقابلة الإحسان بمثله ، وعلى الوفاء بالوعد كما يفى أعداؤهم بوعودهم ، وعلى المحافظة على مواعيدهم ، وعلى السخاء كما يسخو العرب ، وعلى احترام المرأة كما يحترمونها[1] » .

ويؤكد بعض الباحثين أن الفروسية الغربية جسماً وروحاً قد نقلتها أوربا عن العرب سواءٌ فى الحروب الصليبية أو فى المغرب . كان صلاح الدين معاصراً للخليفة الناصر وكان معاصراً (ليرتشارد) قلب الأسد ملك انجلترا وللملك (فيليب أوجست) ، وهذا العصر هو أزهى عصور الفروسية المسيحية ، وقد تأسس فى ذلك الوقت نظام (فرسان المعبد) بعد أخذ بيت المقدس[2] وهو أحسن ألوان الفروسية الغربية .

ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته وما انطوت عليه من بطولة فائقة قد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيراً سحرياً خاصاً ، حتى إن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة إعجابهم به ، وانجذابهم إليه أن هجروا دينهم المسيحى ، وهجروا قومهم ، وانضموا إلى المسلمين وقد طرح النصرانية فارس إنجليزى من فرسان المعبد يدعى روبرت أوف سانت ألبانس

---

(1) Wacyf Ghali, op. cit. P. 22. Paris 1919.

(2) Hammer Purgstall. J. A. Jan. 1849.

Robert of st. Alpans فى سنة ١١٨٥ م ؛ واعتنق الإسلام ، وتزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين[١] . وبعد عامين غزا صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحى هزيمة منكرة فى واقعة حِطِّين ، وكان جوى Guy ملك بيت المقدس ضمن الأسرى ، وحدث فى مساء المعركة أن ترك الملكُ ستة من فرسانه يفرون إلى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض إرادتهم[٢] .

وكيف لا يعجب هؤلاء الصليبيون بصلاح الدين ، وقد كان نبيلاً فى كل تصرفاته مع أعدائه ؛ فها هو ذا ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا يصاب فى المعركة أمام صلاح الدين فيسرع إليه صلاح الدين و يداويه بنفسه ، ولم يزل يعنى به حتى يشفى من مرضه ثم يطلق سراحه[٣] .

وحينما فتح صلاح الدين بيت المقدس منح أهلها جميعاً الحرية ومدَّ إليهم يد المساعدة بالأموال . ولما رأى نورُ الدين ريتشارد قلب الأسد فى معركة يافا يحارب على قدميه ؛ لأن حصانه قتل فى الميدان أرسل إليه جوادين كريمين قائلاً : إنه لا يليق بجندى شجاع باسل مثله أن يحارب راجلاً[٤] .

وهاك نورَ الدين يضرب مثلاً آخر فى النبل والشجاعة الفائقة فى ١١٦٣ م حين مات (بودوا) فلم يشأ أن يستغل وفاته فى مهاجمة عسقلان ، وقال : إنه عمل غير إنسانى أن تزعج قوماً محزونين على أميرهم ، ولن يشرِّف مجدى الحربى

---

(1) Roger Hoveden : Chronica Magistri. edited by William Stubbs. vol. II. p. 307, London, 1868.

(2) Benedict of Peterbourgh. edited by Wiliam Stubbs. vol. II. pp. 11, 12. London 1867.

(٣) محمد بن منكلى . الأحكام السلطانية (مخطوط) ٨٧ — ٩٥٠ .

(4) Stanley-Lane-Pool. Saladine and the fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 353.

أن أهجم على قوم غير مستعدين للدفاع[1] .

ويمثل لنا تاريخ الحروب الصليبية الثانية حادثة على جانب عظيم من الأهمية قصها (أودو الدويلى) أحد رهبان القديس دينيس Denis ، وكان فى صحبة لويس السابع ، فى خلال هذه الحرب ، وكتب فى وصفها ما نصه : « بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم براً عن طريق آسيا الصغرى إلى بيت المقدس ، مُنوا بهزيمة منكرة على أيدى الأتراك المسلمين فى ممرات (فريجيا) الجبلية سنة ١١٤٨ م ، ولم يبلغوا مدينة (أتاليا) الساحلية إلا بشق الأنفس ، وقد نجح الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة التى كان يفرضها عليهم تجار الإغريق ، فى الإبحار إلى أنطاكية ، وتخلف المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الإغريق ، الذين أخذوا مبلغ خمسمائة (مارك) من لويس على شريطة أن يمدوا الحجاج بقوة من الحرس ، وأن يعنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يستطيعون اللحاق بزملائهم ، بيد أن الجيش لم يكد يغادر المكان ، حتى وشى الإغريق بهؤلاء الحجاج العزّل إلى الأتراك ، وأخذوا يرقبون فى صمت ما يعانيه هؤلاء التعسين من المجاعة والمرض ، والجراح الدامية . ولما حاولت جماعة من الحجاج تبلغ ثلاثة آلاف أو أربعة أن تلوذ بالفرار حين شاهدوا الأتراك قادمين ، هجم عليهم الترك ليتابعوا انتصاراتهم ، ولكنهم رأوهم فى حالة من الشقاء تذيب القلوب وتستدر العطف ، فكفوا عن هجومهم ، وطفقوا يواسون المرضى ، ويغيثون الفقير ، ويطعمون الجائع الذى أشرف على الهلاك ، وبذلوا لهم جميعاً العطايا فى كرم

---

(1) Marin, Histoire de Saladin Sulthan d'Egypte et de Syrie, t. I. pp. 78 et 95.

وسخاء . بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية التى كان الأغريق قد ابتزوها من الحجاج قسْراً أو خداعاً ، ووزعوها بأريحية وجود على المعوزين منهم ، فكان البون شاسعاً بين المعاملة الرحيمة التى لقيها الحجاج من الكفار (أى المسلمين) وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم فى المسيحية من الأغريق الذين فرضوا عليهم السخرة ، وأذاقوهم العذاب ألواناً ، وابتزوا منهم ما تُرك لهم من متاع قليل ، حتى إن كثيراً من هؤلاء التعسين دخلوا فى دين منقذيهم بمحض إرادتهم . لقد جَفَوْا إخوانهم فى الدين الذين كانوا قساةً عليهم ، ووجدوا الأمان بين أحضان الكفار الذين كانوا رحماء بهم ، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا إلى صفوف الأتراك . آه ! إنها لرحمة أقسى من الغدر ! لقد منحوهم الخبز ، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم ، وإن كان من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً منهم على نبذ دينه ، واكتفوا بما قدموه لهم من خدمات[1] » .

وإذا لم يكن صلاح الدين عربياً ، وإذا لم يكن الأتراك عرباً ، فإنهم جميعاً مسلمون ، قد اهتدوا بهَدْى هذا الدين الحنيف الذى أتى صاحبه ليتمم مكارم الأخلاق العربية التى نبتت فى الصحراء عَبِقَة الشذا ، وفاح أريجُها فى كل بلد حلّ فيه العرب والمسلمون .

ومما يروع أن يكون هذا مسلك الأتراك المسلمين ، ومسلك صلاح الدين ونور الدين ، وسواهم من قواد المسلمين مع الأسرى الضعفاء بينما نرى ريتشارد قلب الأسد يذبح أسرى المسلمين الذين وقعوا بين يديه فى موقعة عكا سنة ١١٩١ م

(1) T. Arnold. The preaching of Islam. ch. 3.

على الرغم من المعاهدة التى نُصَّ فيهـا على منحهم الحرية والحياة[١] ، فأى بون شاسع بين هذه الأخلاق الفظة ، والمعاملة الوحشية ، والتعصب الذميم الذى يظهره الغربيون دائماً ، وبين تلك الأخلاق النبيلة ، والفتوة الـكاملة التى يظهرها المسلمون ؟ ! . لقد ارتـكب ريتشارد فى معركة عكا إثمين عظيمين : قتله الأسرى الضعفاء الذين لا يملـكون حولاً ولا قوة ، ونقضه العهد ، وغدره وخيانته .

استمع إلى المقريزى يصف معاملة سلاطين المماليك لأسرى الصليبيين والمغول : وإذا انتهت الموقعة الحربية ووضعت الحرب أوزارها أحصيت الغنائم والأسرى ، وكان كل أمير يستولى على غنيمته ، عدا الأسلحة فإنها كانت كلها تئول إلى السلطان ، وليس للجنود أو لقوادهم أن يأخذوا شيئاً منها إلاّ بإذنه . أمّا الأسرى فـكانوا من نصيب السلطان ، الذى كان يأخذ منهم ما شاء لنفسه ، ويأمر بتوزيع ما بقى من النساء والغلمان على الأمراء ، أمّا الرجال ، فقد كان السلطان لا يتصرف فى أمرهم بشىء إلاّ بعد معرفة أقدارهم ومراتبهم ، ومكانتهم بين ذويهم ، فمن كان منهم ذا مقام خاص طلبت منه الفدية ، وأخلى سبيله ، أمّا من كان منهم من العامة ولا ينتظر منه فدية ، فـكان يرسل إلى أمكنة خاصة بالأسرى[٢] .

حقاً إن عظمة الفتوة العربية ، والأخلاق الإسلامية تتجلى فى تلك المعارك الدامية التى دارت قديمـاً بين الغرب المتعصب والإسـلام السمح ، وفى ذلك

(1) Marin Histoire de Saladin, Sulthan d'Egypte et de syrie, t. II. p. 306 et 307 — Stanley-Lane-Pool. Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 306.

(٢) خطط المقريزى ج ٢ ، ص ٢٠١ وما بعدها .

يقول (ستانلى لين بول) : « لقد أجمع الذين كتبوا عن الحروب الصليبية على أن فضائل المدنية : العظمة ، والسماحة ، والعفو ، والفروسية الحقيقية ، والتهذيب الدّمث ، كانت كلها فى جانب العرب والمسلمين إبّان هذا القتال المرير[1] » .

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نجمل تاريخ الفروسية الغربية فيما يأتى : —

١ — لم تظهر الفروسية الغربية متحلية بالشرف والمُثل الخلقية Culte de l'honeure إلاّ فى القرون الوسطى ، وهى قديمة لدى العرب قدم تاريخهم .

٢ — كانت فى طبقة خاصة من الناس هم النبلاء ، وأمراء الإقطاع وفرسانهم ، وكانت صفة عامة للعرب جميعاً الذين لا يعرفون نظام الطبقات ولا يقرونه .

٣ — ابتدأت أول الأمر للحماية من وحشية محترفى الحرب ، ثم تدخلت فيها الكنيسة ، ثم انقلبت على الكنيسة .

٤ — أخذ فرسان الغرب عن العرب كلّ تقاليد الفروسية الخلقية من شجاعة وكرم ، وسماحة ، وعفو عند المقدرة ، واحترام للمرأة ، ووفاء بالعهود ، وحماية للضعفاء . وإن لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب ؛ لأن هذه الصفات كانت طبيعية لدى العرب ، متأصلة فى نفوسهم ، وجرت عليها تقاليدهم ، وورثوها عن آبائهم ، وحث عليها دينُهم ، فتضافرت عواملُ عدة على تمكينها فى قلوبهم وطباعهم ، فلا يتكلفونها أو يستطيعون الانحراف عنها . وعلى العكس من ذلك فرسان الغرب فكثيراً ما غلبتهم طباعهم ، وطغى عليهم

(1) Stanley, op. cit. 307.

تعصبهم ، وإن أفادوا كثيراً من الدماثة ورقة الجانب وكثيراً من سمات الفتوة العربية بعد أن اختلطوا بهم .

٥ — ظهر نظام الفروسية فى أوربا أولاً مصبوغاً بصبغة عسكرية بحت من غير أن يتسم بصفات خلقية شريفة ، ثم تحلى بالأخلاق الشريفة بعد ذلك ؛ ولدى العرب ظهرت الفتوة الخلقية أولاً ولم يظهر نظام الفتوة إلاّ متأخراً على عهد الناصر لدين الله ، حين رأى العرب أنفسهم فى حاجة إلى قوة ونظام يحفظان عليهم أخلاقهم .

وخير ما أختم به هذه الفقرة هو قول (لميتر) J. Lemaitre : « من العجب أن الشعر العربى فى أثناء الحروب الصليبية كان له تأثير خفى لست أدرى كنهه فى صوغ المثل الأخلاقية لفرسان فرنسا »[1].

وقول (شاتوبريان) : « تميز عهد الفروسية فى الغرب بوجود النظام الإقطاعى ، وطغيان الإمبراطور وحاشيته ، وظلمهم للناس . أما العرب فلم يكن لديهم نظام إقطاعى ، بل كان العربى الذى يعيش فى الصحراء ويقيم فى خبائه — مهما كان فقيراً معدما — يتمتع بكامل الحرية ، وله من جميع الناس كل التقدير ، وهو شجاع ، حر ، كله نشاط وحيوية ، لا يعرف له سيداً غير الله »[2].

ولا يسعنى أن أنتقل إلى نقطة أخرى من البحث قبل أن أشير إشارة يسيرة إلى تأثير العرب على فرسان أوربا من حيث احترام المرأة ، والحب ،

(1) Wacyf Ghali. p. 1.

(2) Chateaubriand. Analyse raisonnée de l'Histoire de France (Feodalitée, Chevalerie etc.) p. 82.

والشعر : ظهر فرسان أوربا فى أواخر عهد الفروسية الغربية بمظهر الاحترام للمرأة ، لا لتلك صاحبة المقام الممتاز فى المجتمع فحسب ولكن لجنس النساء بعامة مهما كانت منزلتهن الاجتماعية ، ورَقَّت طباعهم الحربية ، وخشونتهم التى اشتهروا بها فى القرون الوسطى ، وصاروا أدمث خلقا ، وألطف معاملة ، وأرق حاشية ، وكان هذا كله من أثر الفتوة العربية التى أفادوا منها كثيراً .

اشتهر العرب من قديم بعاطفتهم المشبوبة ، وحبهم القوى ، واحترامهم للمرأة ، حتى فى الجاهلية ، ولما جاء الإسلام رفع من شأنها ، وأعطاها حقوقها ، وساوى بينها و بين الرجل فى الواجبات والتكاليف ، وكانت المرأة هى الملهِمة للشعراء ، تغنوْا بمحاسنها وذكرياتها فى أوائل قصائدهم ، بل نظموا فى حبها أقوى الشعر العاطفى وأرقه فى كل الآداب . واشتهر من بينهم من يهوى هوىً عُذرياً شريفاً ، يرقى بالإنسانية إلى منزلة التجرد من المادة ، إلى مرتبة الملائكة . وهذه حقائق موجزة لا تحتاج منا إلى تقرير أو تفصيل ، وخير لنا أن نستمع إلى الباحثين الغربيين يُدْلون بشهادتهم فى هذا الموضوع : يقول (فلوريان)[1] : « هؤلاء المسلمون أرق الناس حُباً ، وأكثرهم خشوعاً ، وأشدهم عاطفة . وإذا أحبَّ أحدهم امرأة — وإن حجبها حتى تصير أسيرة بيته — أصبحت حاكماً مطلقَ السيادة ، ومعبودةً لا تنازَع لهذا الذى ملكت قلبه . من أجل النساء سعى العرب وراء المجد ، ولكى يسطعوا أمام أعينهن سعوا فى سبيل الثراء حتى يقدموا لهن أغلى ما يملكون من مال ، وحياة » .

ويقول (سيسموندى) فى أوائل القرن التاسع عشر : « ترى نساء

(1) Floriant : Précis Historique sur les Maures.

المسلمين مقدسات فى أعينهم ، وليس الحجاب لهن سجناً كما يزعم الناس ، وإنما هيكلا يُعْبَدْن فيه ، ولا يسمح المسلم أن ينغص زوجته أيُّ شأن من شئون الحياة ، أو ألم من الآلام ، بل إنه — لرجولته الكاملة — يتحمل كل شيء وحدَه ، ولا يكلفها عملاً ، والشعر الذى يفصح به عن حبه وعبادته لها هو الذى نجده فى شعر الفروسية الغربية »[1] ، ويقول هذا وقد بلغت المرأة الغربية فى الحضارة ، ورفعة المنزلة فى المجتمع شأناً كبيراً ، فما بالك بكتاب القرون الوسطى .

تميز عهد الفروسية الغربية دون سواه بالحب الذى يختلف اختلافاً جوهريا عما كان عليه الأمر فى روما أو بلاد الإغريق ، فقد تحول الحب الساذَج الخشن إلى احترام عميق للمرأة ، والبعد عن المادة ، وخلَّت المشاعر الساذجة مكانها إلى نوع من التقديس الصوفى ، كان المبدأ لدى الفرسان أن يحبوا . وكان الحب فى نظرهم فضيلة ، بل منبع كل الفضائل ، ولهذا صار جميع الفرسان فضلاء ؛ لأنهم يحبون ، أو يتظاهرون بأنهم يحبون ، وصار الحب نظاماً تعليمياً وعُرف الحب بأنه أصل كل نشاط ، وكل فضيلة خلقية ، وكل مجد .

صارت محاسن الحب فى القرون الوسطى عقيدة لا تنازَع ، وارتفع شأن الحب حتى أصبح مذهباً اجتماعياً ، له قانونه ، ومحاكمه ، وكهنته ، والمستشهدون فى سبيله .

ولا أدلَّ على تأثر فرسان أوربا — ولا سيما فرسان وسط فرنسا وجنوبها — بالفتوة العربية من شيوع ظاهرة غريبة تميزت بها الفروسية الغربية

(1) Sismondi, op cit, p. 96.

فى طورها الأخير ، أى بعد عن أن اشتد اختلاط هؤلاء الفرسان بالعرب إبان الحروب الصليبية وفى أسبانيا ، وفى وسط فرنسا وجنوبها ، تلك الظاهرة هى اقتران الشعر بالفروسية . فمنذ صار الحب مذهباً أصبح قرض الشعر من الأمور الضرورية التى يجب أن يكمل بها الفارسُ نفسَه ، بل أصبح شرطاً من شروط الفروسية ، وصار لزاماً على كل الفرسان صغاراً وكباراً أن يقولوا الشعر ، ومن لم يستطع أن يَقْرِضَ الشعرَ بنفسه ، ليتغنَّى بحبه ، ويُفْصِح عن لواعج قلبه ، أنشد شعر سواه[1] .

وهذه الظاهرة ولا ريب لم تَشِعْ بينهم إلا لتأثرهم البالغ بتقاليد الفروسية العربية ، فقلما تجد فارساً عربياً ، ولا سيما فى العصر الجاهلى ، لايقول الشعر ، ولا يتغنى بحبه ، ويرتل آيات وجده . كان جُلُّ شعراء العرب الفرسان محبين ، ينفثون فى قصائدهم لواعج أفئدتهم ، ونار حبهم ، الحقيقى أو المتخيل على الأقل . فالغزل إما أن يصدر منهم عن عاطفة صادقة تنبئ عن قلب دلّهه الوجد والعشق كما نرى عند عنترة ، وإما أن يكون عن تظاهر بهذا الحب دون أن يكمن وراءه صدقٌ فى العاطفة . وكذلك كان كل شعراء (التروبادور) محبين أو تظاهروا بالحب ، وكانوا يغشون قصور الملوك والأمراء كما فعل العرب من قبل ؛ إذ توجهوا بقصائدهم إلى الخلفاء والأمراء . ويقول الأستاذ جب[2] :

« فى نهاية القرن الحادى عشر ظهر فى جنوب فرنسا على حين غرة ضرب

(1) Fauriel, op cit, t. I. p. 529.

(2) H. R. Gibb : The Legacy of Islam.

أنظر ترجمته العربية جـ ١ ص ٥٧ وما بعدها .

جديد من الشعر ، صناعته جديدة ، وله موضوع جديد ، ونفسية اجتماعية جديدة .
وليس فى الأدب الفرنسى القديم إلا شىء قليل مما يمكن اعتباره ممهداً لهذا التطور ، على أننا نرى من جهة أخرى أن فى هذا الشعر الفرنسى الجديد بعض وجوه شبه قوية بينه وبين نوع خاص من الشعر الذى كان معاصراً له فى إسبانية العربية ، وهل هناك أقرب إلى العقل والبديهة من أن نظن أن الشعراء الأقدمين فى إقليم (پروڤانس) كانوا متأثرين بالنماذج العربية .

« وليست جدة الشعر البروڤانسى آتية من ناحية موضوعه فحسب ، ولكنها آتية من ناحية الطريقة التى اتبعت فى صوغ هذا الموضوع ، وذلك العشق الخفاق الذى كان يعبر عنه هذا الشعر تعبيراً غنياً بالصور الخيالية ، ممتازاً بالصقل والتجويد ، ولم يكن من نوع ذلك العشق الذى كانت تعبر عنه الأغانى الشعبية الساذَجة المفعمة بالوله والهُيام ، وإنما كانَ هذا العشق مذهباً عاطفياً . ولم يجد ذلك العشق مثله الأعلى فى الفتاة ، وإنما وجده فى الزوجة ، وهى التى كان لتقديسها ، وتقدير خدماتها سلطان أخلاقى أثر فى حياة الشاعر فجعلها حياة غنية نبيلة معاً ، فأين نشأ إذاً هذا الضرب من الحب ، أو هذا التقديس للسيدة ؟

« لم يكن هذا الضرب من الحب نتيجة لتقاليد ذلك العصر ، كما تظهر ممثلة فى آداب الشعب ، سواء كانت هذه الآداب تيوتونية ، أو رومانية . يقول برنتيير : ولم يحدث أن امرأة فى أى زمان ومكان كانت تحنى رأسها ، وتخضع بفعل القوة والبطش والجبروت والسلطان أكثر مما كانت تفعله المرأة من نساء الطبقة المتوسطة فى العصور الوسطى » .

« ولقد كان للحب منزلة عظيمة فى الشعر العربى ، والعرب هم أول من

عنى بتحليل الحب ، والعاطفة فهذا ابن داود فى كتاب الزهرة نراه يرتب فى شعره كل مظاهر الحب ويصنفها ، ويفصلها ، ويشرح طبيعة الحب وقوانينه وتأثيراته ، وطرق التعبير عنه ، وكان فى كل هذا متأثراً بذلك المثل الأعلى الذى نصّ عليه الأثر : « من عشق فكتم فعف فمات فهو شهيد » .

« ولقد كان للشعر فى الأندلس منزلة سامية ، وكان يجرى على كل الألسنة . ومن بين أولئك الشعراء الذين لا حصر لهم ، والذين عرفت أسماء طائفة منهم ، وأغفلت أسماء طائفة أخرى يصح أن تتخذ اسم الشاعر الفارس سعيد بن جودى ، وقد اقتبس المستشرق دوزى أشعاره مثلاً على موضوعنا هذا[1] ، وهنا نرى أن المثل الأعلى للحب العذرى الأفلاطونى قد صادف قبولاً عاماً ، وبابن حزم يضرب المثل فى الإسلام للتطرف الدينى والجدل العنيف ، وشهرته فى الغرب هى أنه مؤسس علم الأديان المقارن ، ومع ذلك فقد ألف كتاباً فى الحب هو كتاب (طوق الحمامة) ، وضمنه أشعاراً شرح بها ما كتبه ، فجاء كتابه معادلاً لكتاب الزهرة ، بل ربما كان متفوقاً عليه . وابن حزم هو الذى يعتقد بالنظرية الأفلاطونية فى الحب وهى : (أن الحب وسيلة بها يتحد فى الحياة شقان منفصلان لماهية علوية واحدة) ، وبهذه الروح الخيالية الخالصة كان يكشف ابن حزم عن تحليل للحب ، هو من وجوه عدة ذلك التحليل الذى تراه عند جماعة (التروبادور) فى القرن التالى ، وإن كان هؤلاء قد قصّروا عن إدراك ما سما إليه ابن حزم فى وصفه للحب .

ولئن كان كثير من الشعر العربى بالأندلس يلقيه الشعراء على سجيتهم

---

(1) Histoire de musulmns de L'Espagne.

فى غير ما تكلف ، فإن ما وصل إلينا منه كان فى الغالب شعراً مصقولا متقن السبك ، أنتجته قرائح الشعراء ، والشاعرات فى البلاط ، وكان هؤلاء هم الأرستقراطية فى صناعة الشعر ، ولم يكن الأمراء والوزراء أنفسهم يستشعرون ضعة فى مجاراة أولئك الشعراء ، بل كان من الشعراء أنفسهم من يتقلدون مراتب الوزارة والإمارة .

ويقول الأستاذ جب كذلك : « فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى ظهر نوع جديد من الشعر هو الزجل ، على يد (ابن قزمان) ، وهو وإن كان معاصراً للأوائل من شعراء التروبادور — فإنه كما صرح هو بذلك — كان يسلك طريقة ثابتة ومألوفة فى الأندلس . أما شعره من حيث هو فن ، فقد كان عربياً فى صنعته وقوافيه ، وإنما شمله انقلاب من ناحية العروض ، فأصبحت أوزانه معتمدة على النبرات ، وليست معتمدة على التفاعيل . وقد كانت مقطوعاته الشعرية محكمة البناء لكى تقوم بغنائها جماعة ؛ إذ أن الكثير من أشعاره كان عبارة عن مآس تمثيلية وضعت ليتغنى بها المتكسبون بالشعر فى الطرقات » .

وإذا وازنا بين هذه المقطوعات الشعرية عند الأقدمين من شعراء (پروفانس) تكشفت لنا مشابهاتٌ ذاتُ بال ، فهذه أشعار (وليم دى بواتييه) William de Poitiers كانت تصاغ أحياناً فى نفس الأوزان التى صيغت فيها أشعار ابن قزمان ، وأحياناً أخرى تختلف عنها اختلافاً يسيراً مصدره الرغبة فى جعل تلك الأوزان ملائمة للغناء الفردى ، بعد أن كانت معدة لأن يتغنى بها جماعة[1] .

---

(1) Gibb : The Legacy of Islam.

ولقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بأنه « إذا كانت أوربا مدينة بدياناتها لليهود فكذلك هى مدينة بقصصها للعرب ، فإننا ندين لهذه الثقافات المتقاربة التى استوطنت الهضبة السورية العربية — وهى الهضبة التى تضم فيما تضم فلسطين — بأكبر قسط من تلك الحيوية التى جعلت أوربا فى القرون الوسطى تختلف من الناحيتين الفكرية والروحية عن الإمبراطورية التى كانت تحت الحكم الرومانى[١] .

كان يصحب شاعر التروبادور عازف يتغنى بشعره ، ويوقع الأنغام على آلة ذات ثلاثة أوتار ، متشبهاً بالشاعر العربى الذى كان يصحبه الرواى يتغنى كذلك بشعره ، وهذه الآلة الموسيقية التى كانت تصاحب الشاعر البروڤانسى شبيهة تمامَ الشبه بتلك الآلة التى كان يحملها الرواى الأندلسى ، وهى قريبة جدَّ القرب من (رَبَابَة) الشاعر المصرى الذى كان يسامر الناس بإنشادهم قصة عنترة أو أبى زيد الهلالى فى أحياء القاهرة الوطنية ، وفى منازل الأثرياء بالريف .

وكما تباهى الشاعر الفارس من شعراء التروبادور بأن محبوبته ذات جاه وحسب ونُبل أمعن فى إخفاء اسمها ، وكَنّى عنه ، ولمّح به من بعيد ، ولكن لا يفصح به أبداً ، وهو وحده الذى يدرك عظمته ، وذلك ليذهب فيه ظن الناس كل مذهب[٢] . ولعلك تلحظ ما فى هذا من شبه بالشاعر العربى الغَزِل الذى كثيراً ما كنى عن محبوبته ، بل إن من التقاليد العربية التى

---

(1) Mackail : Lectures on poetry. P. 97 & 125 London. 1911.
(2) Fauriel. op. cit. t. II. P. 23.

قاسى منها المحبون أهوالا أن أحدهم إذا صرح باسم محبوبته فى غزله حُرِّم عليه لقاؤها ، والزواج منها ، وطالما استعمل الشعراء صيغة المذكر فى أشعارهم الغزلية إمعاناً فى إخفاء المحبوبة ، وعدم افتضاح حبهما ، وقد يسمونهـا أحياناً بأحد الأسماء الشائعة فى الشعر كهند ودَعْد والرباب .

وإذا فحصنا عن وصف المرأة عند شعراء التروبادور وجدناه كبير الشبه بما جاء فى الشعر العربى فهى : « نَضِرَةٌ كورد الربيع بيضاء كالزَّنبقة أو الآس ذهبيةُ الشعر ، لها عنق كالعاج المصقول ، ووجه حلو القَسَمات مستدير ، وجبهة عالية ناصعة مصقولة كالمرآة ، وعيونهـا خضراء دائمة المرح والضحك ، وفمها صغير كفم الطفل ، وشفتاها فى لون زهرة الخوخ ، أمّا أسنانهـا فناصعة البياض ، صغيرة ، منسقة ، متلاصقة . وهى عَبْلَة الشَّوَى ، مُدَمْلَجَة الساقين ، مستديرة الـكعبين ، لهـا خَصْرٌ رقيق ، وقَدٌّ رشيق ، وصدر ملىء ، ويد رَخْصَةٌ بيضاء طويلة »[1] .

وهذا ما كان يتطلبه العرب من المرأة استمع لعربى يقول لآخر وقد أراد أن يتزوج : « خذ ملساء القدمين ، لفَّاء الفَخِذَين ، ضَخْمَة الذراعين ، رَخْصَة الـكتفين ، ناهدةَ الثديين ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، زَجَّاء الحاجبين[٢] لمياء الشَّفَتين ، بَلْجاء الجبين[٣] . . . الخ[٤] ، وهناك ما قالته عصامُ حين أرسلها الحـارث بن عمرو ملك كندة لترى له ابنة عوف بن محلِّم فجاءت تقول له :

---

(1) Gautier. La Chevalierie, PP. 375 et suiv.

(٢) دقيقة الحاجبين فى طول .

(٣) البلج نقاوة ما بين الحاجبين .

(٤) راجع بلوغ الأرب للألوسى ج٢ ص ١٥

رأيت جبهة كالمرآة المصقولة ، يَزِينها شعرٌ حالك كأذناب الخيل ، إن أرسَلَته خِلتَه سلاسل ، و إن مَشَطته قلت عناقيد جلاها الوابل[١] ، وحاجبين كأنما خُطا بقلم ، أو سُوِّدا بحُمَمٍ[٢] ، تقوَّسا على مثل عين الظَّبية العَبْهَرَة[٣] ، بينهما أنفٌ كحد السيف الصنيع[٤] ، حَفَّت به وجنتان كالأرجوان[٥] ، فى بياض كالجمان ، شُق فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ، ذات أُشُر[٦] ، تقلَّب فيه لسانًا بفصاحة و بيان ، بعقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى فيه شفتان حمروان ، تحلبان ريقًا كالشهد ، فى رقبة بيضاء كالفضة ، ركِّبت فى صدر كصدر دُمية ، وعَضُدان مُدمجان ، يتصل بهما ذراعان ، ليس فيهما عظم يُمَس ، ولا عِرْق يُجَس ، ركبت فيهما كفَّان دقيق قصبهما ، ليِّن عصبهما ، تعقد منهما إن شئت الأنامل ، نتأ فى ذلك الصدر ثديان كالرمَّانتين . . . الخ[٧] .

فمن كل ما تقدم ترى عِظم تأثر شعراء (پروڤانس) وفرسانهم بالشعر العربى ، وأساليب الفتوة العربية ، فى معانيها الخلقية ، ومثلها العليا ، من شجاعة ووفاء بالوعد ، وكرم ، واحترام للمرأة ، وأنهم ألهموا هذا الشعر الذى يفيض بالعشق والهوى العذرى ، حين حاكوا العرب فى فنونهم ، وأنهم صاروا يقولون الشعر على النمط العربى : موضوعاً ، وأسلوباً ، وقافية ، ولوناً وخيالا

---

(١) الوابل : المطر الشديد . (٢) الحمم : الفحم .
(٣) عبهرة : ممتلئة الجسم ، ناعمة طويلة .
(٤) الصنيع : الصقيل ، المجرب .
(٥) الأرجوان : الصبغ الأحمر الشديد الحمرة .
(٦) ذات أشر : فيها تحزيز خلقة لا عن صنعة ، وذلك لدقتها وحدتها .
(٧) راجع بلوغ الأرب للألوسى ج ٢ ص ١٨ .

وطريقة إنشاء . فهل ثمة من يجادل فى أن الفتوة العربية قد أثرت أثراً كبيراً فى فروسية الغرب ؟ .

ولا أريد أن أتعرض للقصص الغربى الذى تأثر بالفروسية العربية بشىء من التفصيل ، فحسبى تلك الإشارات العابرة التى سبقت إليه ، ولا أريد أن أتعرض لذكر مئات الكلمات التى ساقاها فوريل ، ورابيرا ، وسيسموندى ، وغيرهم للتدليل على أخذ الفروسية الغربية من العرب ، وحسبك أن تعرف أن كلمة ترو بادور مأخوذة من كلمة طرّب أى غَنَّى ، وإن كان بعضهم يقول : إنها مأخوذة من كلمة trouver بمعنى وجد ، ولعلك تعلم أن وَجَد من معانيها فى العربية عَشِق من الوَجْد وهو الهيام وشدة العشق .

***

ولنعمد الآن إلى شىء من الموازنة بين قوانين الفروسية الغربية ، وتقاليد الفتوة العربية ، فنرى أن قانون الفروسية كما يراه جوتييه[1] يتكون من ثمانى أصول ، منها أربعة دينية وأربعة مدنية ، فأما الدينية فهى :

١ — أن تصدق كل تعاليم الكنيسة ، وتمتثل لأوامرها ، فإن فعت ذلك ولو أدّى هذا إلى استشهادك فى سبيل عقيدتك دخلت الجنة . وهذا المبدأ الأول مقرر فى الإسلام فالله سبحانه وتعالى يقول : « إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعا ، إذا مَسّه الشَّرُّ جَزوعا ، وإذا مسّه الخيرُ منوعا ، إلاّ المصلِّين ، الذينهم على صلاتهم دائمون ، والذين فى أموالهم حقٌّ معلومٌ ، للسائلِ والمحروم ، والذين يُصَدِّقون بيوم الدين ، والذينَ هُمْ مِن عَذابِ ربِّهم مُشْفِقُون ، إن عذابَ ربهم

(1) Gautier Chevalerie. P. 31.

غيرُ مأمونٍ ، والذينَ هم لفُروجهم حافظونَ ، إلا على أزواجهم أو ما ملكتْ أيمانُهم فإنهم غيرُ ملومين ، فَمَنِ ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هُمْ لأماناتِهم وعَهْدِهم راعُونَ ، والذين هم بشهاداتِهم قائمون ، والذين هم على صَلاتِهم يحافظون ، أولئك في جناتٍ مكرَمون[1] » .

وقال تعالى : « ولا تقولوا لمن يُقتَل في سبيل الله أمواتٌ ، بل أحياءٌ ، ولكن لا تشعرون[2] » .

وقال تعالى : « والذين آمنوا بالله ورُسُلِه أولئك هم الصدِّيقون ، والشهداء عِندَ ربِّهم ، لهم أجرُهم ونورُهم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحابُ الجحيم[3] » .

وقال تعالى : « ومن يُطعِ اللهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعمَ اللهُ عليهم من النبيينَ والصدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ وحَسُنَ أولئك رفيقاً[4] » .

٢ — أن تحمى الكنيسة ، وتبذل كل ما تستطيع من مال ، ونفس ، ونفيس في سبيل نصرتها وتقويتها .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى في أكثر من آية كريمة بالدفاع عن الدين وحمايته ، والبذل في سبيل نصرته : قال تعالى : « الذين آمنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسِهم أعظَمُ درجةً عند الله ؛ وأولئك هم الفائزون[5] » .

---

(١) سورة المعارج من الآية ١٩ إلى ٣٥ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٥٤ (٣) سورة الحديد الآية ١٩ .
(٤) سورة النساء الآية ٦٥
(٥) سورة التوبة الآية ٢٠ .

وقال تعالى : « أُذِن للذين يُقَاتَلون بأنّهم ظلموا ، وإنّ الله على نصرهم لَقَدِيرٌ ، الذين أُخرِجُوا مِنْ دارهم بِغَيْرِ حَقٍ إلاّ أنْ يَقولَوا ربُّنا الله ، ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لَهُدِّمَتْ صوامعُ وبِيَعٌ ، وصلواتٌ ، ومساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيراً ، ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصُرُهُ ، إنّ الله لقوى عزيز الذينَ إنْ مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاةَ وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ، ولله عاقبةُ الأمور[1] » .

وقال تعالى : « انفروا خِفَافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسِكم فى سبيل الله ، ذٰلِكُمْ خيرٌ لَكُمْ إنْ كنتمْ تعلمون[2] » .

٣ — والأمر الثالث أن تَشُنَّ على الكافرين حَرْباً لا هَوَادَةَ فيها ولا رحمة . فإذا كان الأمر الثانى قُصِدَ به الدفاع عن الكنيسة ، فإن الأمر الثالث قصد به إخضاع الكافرين لأمر الكنيسة ، فالثانى سلبى ، والثالث إيجابى .

لقد نفذ المسيحيون هذا الأمر بالدقة ، ولم يتهاونوا فيه يوماً واحداً فى حروبهم الطويلة مع المسلمين حتى اليوم ، نفذوه بحماسة ، وحَمِيَّة ، وتعصب ذميم ، ويقول جوتيه : « ليس أدبنا القصصى إلا أحاديث هذا الصراع الكبير المريع » ؛ وقد استشهد بهذين البيتين ، وهما يفصحان عن حال المسيحيين تمام الإفصاح فى صراعهم ضد المسلمين :

« إنهم يحاربون جموع الأتراك متطوعين
وكثيراً ما تعمّدوا فى دمائهم » .

---

(١) سورة الحج الآيات من ٣٩ — ٤١ .
(٢) سورة التوبة الآية ٤٠ .

ولم يخفف الموت ، والهزيمة أحياناً من حِدَّة الحقد فى قلوب هؤلاء الغزاة الصليبيين القُساة ، بل تراهم فى معاركهم ضد المارقين يتخيلون أن نعيم السماء عظيم ، ولذلك يَثْبتُون فى المعركة لأعدائهم وهم يقولون : إذا كنا راقدين فى جنات النعيم ، فإننا سننزل منها لمحاربة المسلمين[1] » .

ويقول واصف غالى باشا[2] : « إننا نعلم أن المسلمين فى أوج قوتهم وعظمتهم قد أظهروا كثيراً من رحابة الصدر باطناً وظاهراً . أما فى الظاهر ، فإنهم لم يقدموا أبداً على هذه الأفعال التى تنم عن تعصب ذميم ، ولم يقهروا أحداً على الإسلام فى حروبهم الطويلة مع الصليبيين ، وفى حروبهم مع القوط بأسبانيا ، أو مع جنود أوربا بفرنسا وسواها ؛ لأن القرآن فى الحقيقة يطالبهم بأن يُنذروا من يريدون الحرب معه ، ويدعوه أولاً إلى الإسلام : « وادْعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة . وجادِلْهُم بالتى هى أحسن ، إنَّ ربَّك هو أعلمُ بِمَنْ ضَلَّ عن سبيلِه ، وهُوَ أعْلَمُ بالمهتدينَ ، وإنْ عاقَبْتُم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم بهِ ولَئِنْ صَبَرْتم لَهُوَ خيرٌ للصابرينَ[3] » .

ويقول تعالى : « لاَ إكْرَاهَ فى الدِّين قد تبيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغىِّ[4] » .

ويقول السير توماس أرنولد[5] : ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مُدَبَّرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام ، أو عن أى اضطهاد منظم

---

(1) Gautier. op. cit. P. 71.
(2) Wacyf Ghali. op, cit. P. 212.
(٣) سورة النحل الآية ١٢٤ .
(٤) البقرة الآية ٢٥٥ .
(5) The Preaching of Islam, ch. 3.

قُصِدَ منه استئصالُ الدين المسيحى ، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها فرديناند وإيزابلا دينَ الإسلام من أسبانيا ، أو التى جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتى مذهباً يعاقَبُ عليه متبعوه فى فرنسا ، أو بتلك السهولة التى ظل بها اليهود مُبْعَدين عن انجلترا مدة خمسين وثلثمائة سنة ؛ ولكانت الكنائس الشرقية فى آسيا قد انعزلت انعزالاً تاماً عن سائر العالم المسيحى الذى لم يوجد فى جميع أنحائه أحدٌ يقف فى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين ، ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن يحمل فى طياته الدليلَ القويَّ على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم » .

إننا نقول فى غير فخر أو ادعاء أو تعصب لديننا : إن العرب المسلمين فى فتوحاتهم العظيمة التى حوّلوا بها وجه التاريخ كانوا مثلاً أعلى للجنود الشرفاء والفرسان العظماء جاءوا للعالم بخير رسالة ، تخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن سجن القهر والذل ، إلى روضة العدل والحرية ، ولذلك قابلوهم بكل تَرْحاب وفتحوا لهم صدورهم ، وتحولوا طائعين غير مقهورين إلى هذا الدين الحنيف ، ومن أبى منهم إلاّ التمسكَ بدينه ، فهو فى حِلٍّ من أمره ، غير مضطهد أو مُساء إليه ، استمع إلى ميشيل الأكبر اليعقوبى بطريق أنطاكية ، وهو يقرر أن يد الله مع المسلمين فى فتوحاتهم ، وأنهم أتوا لخير العالم وبركته ، وذلك بعد أن ظلت كنائس الشرق تحت الحكم الإسلامى خمسة قرون ، لأنه كتب ما كتب فى منتصف القرن الثانى عشر ، فذكر فظائع هِرَقْل ضد المسيحيين إخوانه فى الدين وقال : « وهذا هو السبب فى أن إله الإنتقام الذى

تفرد بالجبروت والقوة ، والذى يديل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ، ويرفع الوضيع — لما رأى شرور الروم الذين لجئوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا ، وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ، ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم وفى الحق إننا إذا كنا قد تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا ، وإعطائها لأهل خلقيدونية ، فقد استمرت هذه الكنائس فى حوزتهم ، ولما أسلمت المدن للعرب خَصَّصَ هؤلاء لكلٍّ طائفةٍ الكنائسَ التى وُجِدت فى حوزتها ، ومع ذلك فلم يكن كسباً هيِّناً أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم ، وحنقهم ، وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام(١) » .

ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن ، وعسكر أبو عبيدة فى (فحل) كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون : « يا معشر المسلمين ! أنتم أحبُّ إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ؛ وأكف عن ظلمنا ، وأحسن وِلايةً علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا »(٢) .

لقد كان دَيْدَنُ المسلمين منذ خرجوا للجهاد فى سبيل الله العمل بتعاليم القرآن الكريم ، وسنة نبيه العظيم ، رائدُهم هدايةُ البشر ، والنظر إليهم نظرتهم إلى المريض العليل المحتاج إلى الدواء ، أو الأسير المُعَنَّى الذى أضرَّ به القيدُ ، وأذلَّ

---

(1) Michael the Elder: Chronique. vol. II. PP. 412—13 éditée Par chabot, Paris 1899 — 1901.

(٢) فتوح الشام لمحمد بن عبد الله الأزدى البصرى ط كلكتا ص ٩٧ .

نفسه الغلّ فهو فى أمس الحاجة للحرية والمواساة . هاكَ أبا بكر يخاطب أول بَعْث وجهه للغزو بعد وفاة رسول الله ، ويعطى له التعاليم التى ما حاد عنها المسلمون قط ، والتى كانت رحمة وبركة على العالم أجمع : « يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلّوا ، ولا تغدروا ، ولا تُمثّلوا ، ولا تقتلوا طِفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقِروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرةً مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم ، وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوانُ الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً فاذكروا اسم الله عليها[1] » .

تميز المسلمون بالتسامح مع أهل الديانات الأخرى ، وفرضوا عليهم الجزية فى نظير حمايتهم إذا أبوا الدخول فى الإسلام ، فهى ليست عقاباً لامتناعهم عن قبول الإسلام ، وإنما أجراً لحمايتهم لأنهم ممنوعون من الانخراط فى سلك الجيش الإسلامى ما داموا لم يسلموا ، ولا أدل على ذلك من تلك الحادثة التى وقعت فى حكم عمر بن الخطاب ، ذلك حين حشد هرقل جيشاً ضخماً يصد قوات المسلمين المختلفة ، فكان لزاماً على المسلمين حينئذ أن يركّزوا كل نشاطهم وقوتهم فى المعركة التى أحدقت بهم ، ولما علم أبو عبيدة قائدُ المسلمين بذلك كتب إلى عمال المدن المفتوحة بالشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبى من الجزية من هذه المدن ، وكتب إلى الناس يقول : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جُمع لنا من جموع وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٣ .

وإنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم » ، وبذلك رُدَّت مبالغ طائلةٌ من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : « ردّكم الله علينا ، ونصركم عليهم (أى على الروم) فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً ، وأخذوا كلّ شىء بقى لنا »[1] .

بمثل هذا الخلق الكريم ، والسماحة الحلوة ، والدين الرحيم انتصر المسلمون ، وغزَوْا القلوبَ قبل أن يغزوا البلاد ، وشتّانَ بين فظائع المسيحيين وحسنات المسلمين ، حتى لقد آثر المسيحيون من أهالى الشام وفلسطين حكم المسلمين على حكم الصليبيين بعد أن أجلوهم عنها ، ولما فتحت بيت المقدس رحب أهلها المسيحيون بالسادة الجدد ، واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم[2] لأنهم ذاقوا من فظاظة الصليبيين الأوربيين وعسفهم ما لا يطاق .

لم يلجأ المسلمون يوماً إلى اضطهاد المسيحيين ، وإكراههم على الإسلام إلا فى النادر ، ثقة منهم بأن الإسلام دين العقل ، وأن كلّ من وهبه الله شيئاً من العقل سيهتدى للدين من غير قهر ، وسيكون إسلامه صحيحاً خالصاً لا نفاق فيه ، فيفيد الأمة ، ولا يكون دسيسة عليها . وقد حار كثير من الباحثين الغربيين فى سر عظمة الإسلام ، فمنهم من رأى أن « الإسلام فى جوهره دين عقلى بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية ، فإن تعريف الأسلوب Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس للمبادىء المستمدة

---

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٨١ القاهرة ١٣٠٢ هـ .

(2) H. Prutz : Kulturgeschichte der Kreuzzüge, PP. 146 – 7 – 150 Berlin 1883.

من العقل والمنطق ينطبق على الإسلام تمام الانطباق . . . قد جهر القرآن دائماً بمبدأ الوحدانية فى عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول ، ومن العسير أن نجد فى غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا ، ومن المتوقع لعقيدة خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية ، ثم هى تبعاً لذلك فى متناول إدراك الشخص العادى أن تمتلك ، وإنها لتمتلك فعلاً ، قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس »[1]

ويرى بعضهم أن سر القوة الخارقة للعادة التى أظهرها الإسلام فى أزهر عصوره حين الفتح كامنٌ فى إدراك هذا الدين وجودَ الله ، وليس قولنا إن الله واحد بأعظمَ مِنْ قولنا إنه موجود بمعنى أن وجوده هو حقيقة الكون المطلقة ، وإن إرادته هى العليا ، وأن قوته لا تُحدُّ ، وهذا معناه الإيمان بأن هناك إرادة ؛ بأن ثَمَّـة إرادةً مطلقةً عُلْيا لا تقاوم فى وسط كل ما يغمر الكون من الاختلال والاضطراب والفساد الذى يجعله فى صورة من الظلمة والوحشة تبعث على الفزع والرهبة ، كما أن معناه الإيمان بأن الرجل مسيَّرٌ طوع هذه الإرادة ، يظهرها ، ويلتزم الطاعة لها . . . وهذا هو الذى أمَدَّ جحافل المسلمين بوسائل الفتح التى لا تقهر ، تلك الوسائل التى بعثت فيهم روحاً من الانقياد الحربى ، والنظام العسكرى ، كما بعثت فيهم ازدراء الموت ، على صورة لم تعرف قط من قبل فى أى نظام سابق ، وهذا هو الذى يعطينا فى كلمة — حسب ما نجده متمثلا فى أى روح صادقة فعَّالة بين المسلمين — ذلك العمود الفقرى لأخلاقهم ، أعنى ذلك الثبات فى العزيمة ، والقوة فى الإرادة ، وذلك الصبر الذى لا يعرف

(1) Edouard Montet : La Propagande Chrétienne et ses adversaires Musulmmans, PP. 17 — 18. (Paris 1890)

سبيلا إلى الشكوى ، والاستسلام لأشد المصائب ، وأصعبها ، كل ذلك قد ميَّز خير أنصار هذه العقيدة وجمَّلهم »[1] .

ولا أريد هنا أن أستطرد ، فأورد عدداً من النصوص الوفيرة لدىَّ والتى سجل بها علماء المسيحية إعجابهم بالإسلام ، وعدم لجوئه إلى القسر والإكراه فى سبيل دعوته عملا بقوله تعالى ، مخاطباً نبيه : « أفأنت تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين » ، وحسبى أن أقول ما قال فورْيِل : « ليس فى التاريخ أى حادثة تدل على اضطهاد المسلمين أو ظلمهم للمغلوبين[2] » .

٤ — والمبدأ الرابع من مبادىء الفروسية الغربية الدينية هو المحافظة على أمراء الإقطاع مهما كانت هذه الأوامر ، ولو خالفت العقل ، لأن نظرية التفويض الآلهى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، وكان الحاكم يعتقد أنه خليفة الله فى الأرض ، يفعل ما يشاء دون مراجعة أو نقض ، أما الإسلام فقد أمرنا حقاً بطاعة أولى الأمر حيث يقول الله تعالى : « يا أيها الذينَ آمنوا أطِيعُوا اللهَ وأطيعوا الرسول وَأُولِى الأمرِ منكم[3] » ، ولكنَّ طاعة أولى الأمر ليست طاعة عمياء ، فإن الإسلام — دينَ العقل والمنطق — قد حدد هذه الطاعةَ فى قوله عليه الصلاة والسلام : « لا طاعةَ لمخلوق فى معصية الخالق » وجاء فى الأحكام السلطانية للماوردى : « من الواجب أن تُنصِتَ إلى أولى الأمر ، وأن تطيعهم طالما أن أوامرهم ليس فيها ما يُغْضِبُ اللهَ ، فإذا أمروك بما يغضب الله فلا تنصت إليهم ولا تطعهم[4] » .

(1) Dr. G.A. Lefroy : Mankind and Church. P 283—4 (London1907)
(2) Fauriel. Histoire de la Gaul Méridional. t. III. P. 59,
(٣) سورة النساء الآية ٥٩ .
(٤) الأحكام السلطانية للماوردى ح ٣ ص ١٦١ .

إن علاقة المحكوم بالحاكم قد حدَّدها الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم حيث يقول : « والذين يَجْتَنِبون كبائرَ الإثمِ والفواحِشَ ، وإذا غَضِبوا هم يَغْفِرون ، والذين استجابوا لربِّهم ، وأقاموا الصلاةَ ، وأمرُهم شُورَى بَيْنَهُم ، ومما رزقناهُمْ يُنْفِقُونَ ، والذين إذا أصابَهُم البغىُ هُمْ ينتصرونَ وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلُها ، فمَنْ عَفا وأصلح فأجرُه على الله إن اللهَ لا يحبُّ الظالمين وَلَمَنِ انتصرَ بَعْدَ ظُلمه فأولئك ما عليهمْ من سبيلٍ ، إنما السبيلُ على الذين يَظْلِمونَ الناسَ ويَبْغُونَ فى الأرض بغير الحقِّ أولئك لهم عذابٌ أليم وَلَمَنْ صبَرَ وغفَر إن ذلك لمن عَزْمِ الأمور[1] » .

بل إن العرب فى الجاهلية كانوا فى مثل هذه الديموقراطية العجيبة ، لا سَيِّدَ ولا مسُود ، وإنما الرئيس منهم شخص أهلته صفاته الممتازة لأن يرأس قومه ، فإذا حاد يوماً عن الجادة ، أو غرَّه ما هو فيه من سلطان خرجوا عليه ، بل قتلوه ، ولقد مرَّت بك أمثلة عدة فى هذا الكتاب عن ذلك ، وحسبى هنا أن أذكر ما قال دوزى : « كان يشترط فى رئيس القبيلة ست صفات : الجود والشجاعة ، والحلم ، والصبر ، والتواضع ، والفصاحة . ولم يكن يعترف به رئيساً حتى يعطى كلَّ ما يملك ، وحتى يضع تحت قدميه كل ما هو عزيز عليه ، وحتى يخدم قومه كما يخدم العبدُ سيدَه »[2] .

وهاكَ مثلاً واحداً أضرب به هنا ليدل على المساواة التامة بين المسلمين ، وأن الحاكم ، ولو كان رسول الله لا يستطيع أن يفلِتَ من القصاص ، ففى غزوة

---

(١) سورة الشورى : الآيات ٣٦ — ٤٣ .

(1) R. Dozy : Histoire des Musulmams d'Espagne de 711 a 1110

نقلا عن المبرد ص ٧١ .

بدر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدِّلُ الصفوف ، وفى يده قِدْحٌ يعدِّل به القوم فمرَّ بسوَّاد بن غزِيَّة ، وهو متقدم من الصف ، فطعن فى بطنه بالقدح ، وقال : استو يا سوَّاد ، فقال : يا رسول الله ، أوجعتنى ، وقَدْ بعثَكَ اللهُ بالحق والعدل ، فأَقِدْنى ، فكشف رسولُ الله عن بطنه وقال : « استَقِدْ » ، فاعتنق سوَّادٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبَّل بطنه ، فقال النبى : ما حملك على هذا يا سوَّاد ؟ قال : يا رسول الله ! حضرَ ما ترى ، فأردتُ أن يكونَ آخر العهد بك أن يمسَّ جلدى جلدك ، فدعا الرسول له بخير[1] .

وأظننا لا ننسى حادثة عمرَ بنِ الخطاب مع عمرو بن العاص حين جاء المصرى يشكو إليه ابنه ، واستدعاه من مصر وقال له : « يا عمرُو متى استعبدتم الناسَ وقد ولدتهم أمهاتُهم أحراراً » ، وحادثة الأعرابى مع عمر بن الخطاب حين خطب الناس وقال لهم : لو رأيتم فىَّ اعوجاجاً فقومونى ، فقال له الأعرابى : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا » فأين كل هذا من نظرية التفويض الإلهى ، والحكم المطلق التى سادت أوربا فى عهد الإقطاع ؟ ؟

أما الأصول الأربعة الدنيوية فى الفروسية كما نصَّ عليها (جوتييه) فهى : الشجاعة ، والوفاء بالوعد ، والسخاء ، ونجدة الضعيف . ولقد أفضت فى تحليل هذه الصفات فى الفصول الأولى من هذا الكتاب وأسهبت فى الاستشهاد بالشعر ، والحوادث ، كما أننى فى هذا الفصل وازنت بأكثر من مثل بين فروسية الغرب ، وفتوة العرب ، وبيَّنت ذلك التفوقَ الخُلقى الذى امتاز به العرب ، والذى كان لفرسان أوربا مثلاً يُحتذى ، وهدفاً يُذلَفُ صَوْبَه

---

(١) سيرة ابن هشام : جـ ٢ ص ٢٣٨ ، وتاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٢٦٧ .

إننا لا نمارى فى شجاعة فرسان أوربا ، ولكنها كانت شجاعة غير مهذبة ، ينقصها الإيمان بالمثل العليا ، وفيها وحشة وقسوةٌ ، وَغَدْر ، ولقد مَرّ بك ذلك المثل السيء الذى ضربه (بيير القاسى) ملك قشتالة مع أبى سعيد أمير غِرناطة وهو فى ضيافته ، وكيف اغتاله لينهب خاتِمَهُ الثمين الذى فتنه ، وأسوأ منه ما فعله ريتشارد قلب الأسد مع أسرى موقعة عكّا ، وكيف ذبحهم ، وخَفَرَ ذِمّتَهُ ، ونقض عهدَه ، وأبىٰ إلاّ أن يكون أشد قسوة من وحوش الفلاة ، فهل كان هذا هو العفو عند المقدرة ؟ وهل بهذا أسهم فروسيتهم ؟

إن تاريخ الحرب المسيحية ملطخ بالدّماء ، وينم عن تعصب ذميم وحقد بالغ ، ووحشية فظيعة لا تمت إلى الإنسانية أو الدين بأى صلة . وقلما تجد مثلاً نبيلاً أو معاملة طيبة فى حروبهم القديمة والحديثة ، بل ترى الغدر والخيانة ، ونقض العهود ديدنهم وشيمتهم ، ويظنون أنهم أوتوا من رجاحة العقل ، وحصافة الرأى ما يوحى لهم بهذا ، بل والأدهى من كل ذلك أنهم يدّعون التفوق الجنسى والعقلى على غيرهم من الأمم . إذا كانت العبرة بالبطش وبمن يملك اليوم المدفع والقنابل فهم لا شك أرقى ، ولكنّ العبرة بالنفس التى تكمن وراء المدفع ، وبالنُبْل والخلق الكريم . إن غاية الإنسانية هى الحد من الغرائز الدنيا ، والبعد عن العصور الأولى البدائية ، والسمو بالمسلك الخلقى للإنسان ، ولكن ما شاهدناه منهم قديماً ، وما نشاهده اليوم ينبىء بأنهم أبعد الناس عن إدراك هذه المعانى الكريمة .

هذا هو (ديازدى بيفار) المشهور بالسيد[1] القمبيطار يحارب فى صفوف المسلمين

---

(١) وعن قصة حياته حكى (كورنى) الشاعر الفرنسى قصته المشهورة (Le Cid)

بالأندلس اليوم ثم يخونهم غداً ، وأخيراً يحارب يوسف بن تاشفين ، ويحاصر بَلَنْسِية حصاراً يدوم تسعة أشهر ، فتسلم فى ١٥ من يونية سنة ١٠٩٤ ، « وكان يرجى من السيد أن يكون فى أخلاقه من النبل ما هو جدير بفرسان العصور الوسطى ، وماهو خليق بفارس له شهرته ، ولكنه كان على عكس ذلك ، فما كاد أهل بلنسية يسلمون له حتى نكّل بهم تنكيلاً بالغا ، فأحرق القاضى بن جَحّاف وهو حى ، وذبح الآلاف من أهل المدينة المسلمين ، وفرّقَ الغنائم فى أصحابه . ولم يغفر له الموحدون هذا الصنع الشنيع فما زالوا به حتى أوقعوا به فى (سيونكا) فهزموه هزيمة منكرة انتهت بموته فى يوليه ١٠٩٩ م[1] » .

فأين هذا المثل الزرى الذى لا يليق إلا بالهمج المتوحشين مما فعله المنصور ابن أبى عامر حين أسر ذات يوم عدداً من الجنود الأسبانيين ، وطلب منهم أن يُلقوا سلاحهم ، ففضلوا الموت على إلقاء السلاح ، فما كان منه إلا أن أفسح لهم الطريق ليلحقوا بجيش أعدائه ؛ إكباراً منه لشجاعتهم ، وكان فى استطاعته قتلهم جميعاً ، ولقد قدّره المؤرخون الغربيون حقّ قدرِه فيقول عنه Ferrars فيرراس : « إنه لعلى خلق عظيم » ، ويقول عنه Mosden موسدن : « إن المنصور قد هدم بالحديد والنار المدن التى قاومته ، ولكنه أبى أن يصاب أى شخص أقل إصابة إذا سلم طواعية[2] » .

وأين هذا المثل مما رواه مؤرخو الفرنجة أنفسهم عن المنصور بن أبى عامر من إطلاقه سراح ألف وثمانمائة أسير مسيحى من ذكور وإناث حين جاءه

---

(١) راجع تراث الإسلام الترجمة العربية ص ٧٧ — ٧٨ .

(2) L, Viardot. Essai Sur l'Histoire des Arabes et de Mores d'Espagne. t. I. P. 112

الخبر بانتصار جنده فى إحدى المواقع الحربية الكبيرة سنة ٩٩٧ م شكراً لله[١] .

ولقد وفيت موضوع الشجاعة عند العرب حقه ، سواء كانوا فى الجاهلية أو الإسلام ، وليس من همى أن أضرب أمثلة على شجاعة فرسان أوربا ، وحسبى ما ذكرت من أمثلة للموازنة فى هذا الباب .

أما الكرم فقد ذكرت سببه عند العرب[٢] ، وأن الطبيعة قد جعلتهم كرماء ، حتى صار لهم جِبِلَّةً وطبعاً ، ولقد جاءهم الإسلام فزاد بما وعدهم من جزاء عظيم فى الآخرة ومن إرضاء الله تعالى ما كان فى نفوسهم من أريحية ، فصاروا يجودون ؛ لأنهم فُطِروا على الجود ، ولأن فى ذلك مثوبةً ، وخيراً للمجتمع .

قال الله تعالى : « لَيْسَ البِرَّ أن تولوا وجوهَكُمْ قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ، ولكنَّ البِرَّ مَنْ آمن بالله ، واليومِ الآخر ، والملائكةِ والكتاب ، والنَّبِيِّينَ ، وآتَى المالَ على حُبِّه ذوى القُرْبى واليتامى ، والمساكينَ وابنَ السبيلِ ، والسائلينَ ، وفى الرِّقاب ، وأقام الصلاةَ وآتَى الزكاةَ ، والموفونَ بعهدِهم إذا عاهَدُوا ، والصابرينَ فى البأساءِ والضَّراءِ وحِينَ البأسِ أولئكَ الذين صَدَقُوا وأولئكَ هُمُ المتقون[٣] » .

وقال تعالى : « مَثَلُ الذينَ يُنفِقُونَ أموالَهم فى سَبيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنبتَتْ سَبْعَ سنابِلَ فى كل سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبَّةٍ ، والله يُضاعِفُ لِمَنْ يشاء ، والله واسعٌ عليم[٤] » .

(١) تاريخ غزوات العرب (ترجمة الأمير شكيب أرسلان) ص ٢١٩ .
(٢) راجع باب الكرم فى هذا الكتاب ص ٥٩ ومابعدها .
(٣) سورة البقرة الآية ١٧٧ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢٦١

وقال تعالى : « الَّذِينَ يُنفِقُونَ أموالهم فى سبيلِ اللهِ ، ثُمَّ لا يُتبعونَ ما أنفقوا مناً ولا أذىً ، لهُمْ أجرهُمْ عِندَ رَبِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنونَ »[١] .

ففى هذه الآيات الكريمة تِبيانٌ لمن تجِبُ لهم الصدقة ، وحَثٌّ عليها ، وذِكْرٌ للجزاء الحسن الذى ينتظر المتصدقين ، على أن تكون صدقاتهم بلا منٍّ ولا أذىً على حد قوله تعالى : « قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يَتْبَعُهَا أذىً »[٢] ، أو على حد قول الشاعر :

لا خيلَ عندكَ تُهْدِيها ولا مالُ   فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لم يُسْعِدِ الحالُ

قال تعالى : « فلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ، وما أدراكَ ما العقبةُ ، فكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ فى يومٍ ذى مَسْغَبَةٍ ، يتيماً ذا مَقْرَبَةٍ ، أو مِسْكيناً ذا مَتْرَبَةٍ ، ثُمَّ كانَ مِنَ الذين آمنوا وتواصَوْا بالصَّبْرِ وتواصَوْا بالمَرْحَمَةِ أولئكَ أصحابُ الميمنة »[٣] .

ولقد نفَّر من البخل ، وأعد للبخلاء عذاباً عظيماً ، وعنَّفهم على بخلهم ، فإنهم لا يعطون من عند أنفسهم ، وإنما يعطون من مال الله . قال تعالى : « ولا يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخَلُون بما آتاهمُ اللهُ مِنْ فضلِهِ هُوَ خيراً لهم ، بَلْ هُوَ شرٌّ لَهُم سيطوَّقونَ ما بَخِلوا به يومَ القيامة ، ولله ميراثُ السمواتِ والأرضِ ، واللهُ بما تعملون خبيرٌ »[٤] .

وقال تعالى : « يأيُّها الذينَ آمنوا إن كثيراً من الأَحْبارِ والرُّهْبانِ ليأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطل ، ويَصُدُّونَ عَنْ سبيلِ الله ، والذين يَكْنِزُونَ الذهبَ

(١) البقرة الآية ٢٦٢ .
(٢) البقرة الآية ٢٦٣ .
(٣) سورة البلد .
(٤) آل عمران الآية ١٨٠ .

والفضةَ ولاَ يُنفِقونها في سَبِيل الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أليم ، يَوْمَ يُحْمَى عليها في نارِ جهنمَ فتُكْوى بها جِباهُهم وظُهورُهم ، هذا ما كنزتمْ لأنفسِكم فذوقوا ما كنتمْ تكنِزون »[1] .

ولقد استجاب المسلمون لطبيعتهم ولِفِطَرهم السليمة ، ولنداء الله وترغيبه ، وحَذِروا بطشه وعقابه ، وكان لهم في رسول الله أسوةٌ حسنة[2] ، فكان منهم أجوادٌ في الإسلام ، لم يرَ التاريخ مثلهم بين جميع الأمم .

فهذا عُبيد الله بن عباس ابن عم رسول الله لا تحصى مكرماته ، ولا يملك المرء نفسه حين سماعها إلاّ أن يعجب لهذه الطبيعة السمحة : جاءه رجل من الأنصار فشكى إليه أمره ، وأنه ولد له ولد وأن أمه قد ماتت وهى تلده ، فأمر وكيله بأن يشتريَ له جارية تحتضنه ، وأن يدفع له مائتى دينار للنفقة على تربية الطفل . وقال للأنصارى : عُدْ إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفى العيش يبَسٌ ، وفى المال قِلة . قال الأنصارى : لو سبقت حاتماً بيوم واحد ما ذكرته العربُ أبداً ، ولكنه سبقك فصرت له تالياً وأنا أشهد أن عَفْوَك أكثر من مجهوده ، وطَلَّ كرمك أكثرُ من وابله .[3]

ولقد شاطر الحسينَ بن على ماله حين حَبَسَ معاويةُ عنه ما يستحقُّه ، وقد أعطى سائلاً ألف درهم واعتذر له ، وهو أول من فطَّر جيرانه ، ووضع الموائد على الطرق فى الإسلام وفيه يقول الشاعر :

وفى السَّنة الشَّهباء أطعمتَ حامِضاً وحُلْواً ولَحْماً تامِكاً ومُمزَّعا

---

(١) التوبة الآية ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) راجع ص١٤٣ من هذا الكتاب ومابعدها .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٨٤ .

وأنت ربيعٌ لليتامى وعِصمةٌ إذا المَحْلُ من جُود السماء تَقَطّعا
أبوكَ أبو الفضل الذى كان رحمةً وغَوثاً ونوُراً للخلائق أجمعا[1]

ومنهم عبد الله بن جعفر ، وقد لامه قومه لأنه أعطى امرأة مالاً كثيراً وقالوا له : إنها لا تعرفك : وكان يرضيها اليسير فقال ، إن كان يُرْضيها اليسير فأنا لا أرضى إلاَّ بالكثير ، وإن كانت لا تَعْرفنى فأنا أعرف نفسى[2] .

ومنهم سعيدُ بن العاص ، وقد وهبه معاوية مرةً خمسين ألف درهم ليصلحَ بها حاله ويشترى ضيعة تعينه على مكرماته فقال له : بل أشترى بها حمداً وذكراً باقياً ، أُطْعم بها الجائع وأزوج بها الأيِّم وأفكُّ بها العانىَ وأواسى بها الصديق وأصلح بها حال الجار . فلم تأت عليه ثلاثةُ أشهر وعنده منها درهم[3]

وليس معنى شهرة هؤلاء أن سواهم من العرب المسلمين كانوا بخلاء ، بل إن كثيراً منهم كانوا على درجة عظيمة من كرم اليد ، ولو كانوا ذوى مَتْربة ، ولا أريد أن أفيض فى ذكر أجواد المسلمين جميعاً وتتبعهم فى ثنايا التاريخ من أمثال : معاوية ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمتوكل ، وسيف الدولة وغيرهم . وقد كفانا الشعراء مؤنة تسجيل كرمهم ، بما خلدوهم به من شعر باقٍ على الدهر .

وحسبى فى هذا المقام أن أضرب بعض أمثلة للموازنة بين كرم العرب ، وما كان عند معاصريهم من أهل أوربا من أريحية وبخل . لم يكن العربى كما ذكرنا يصدر فى كرمه عن قانون ، أو يفعله رياء ، وإنما كان مجبولاً عليه

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٨٣ (٢) المرجع السابق ص ٨٥
(٣) نفس المرجع .

ولم يكن هـذا شأن أهل أوربا ، فقد نَصَّ قانون (بورجنديا) على أن « أى امرئ لا يقدم للغريب غطاء وناراً ، يدفع غرامة مقدارها ثلاثة قروش ، وإذا قصد غريبٌ بيتَ بورجندى ودلّه هـذا على بيتِ رومانى ، تخلصاً منه يغرم ثلاثة قروش لأنه لم يُضِفْه ، وثلاثةً أخرى لأنه دلَّه على بيت الرومانى »(١) .

وروى التاريخ الأوربى : أن شارلمان أسر أحد أمراء العرب ، وأُدخل عليه وهو بين فرسانه وحاشيته ، والموائد موضوعة ، والكل يأكلون ، فصاح فيه إمَّا أن ترتد عن دينك وإمَّا أن تقتل ، فقال الأمير العربى : بل أُوثر القتل فقال شارلمان : ولماذا ؟ قال ستعرف بعد برهة ؛ مَنْ هؤلاء الأشخاص الضخام الذين يلبسون الفِراء ؛ ويجلسون على مائدتك ؟ فقال شارلمان : إنهم مطارنة وقساوسة . فسأله الأمير العربى : ومن هؤلاء النِّحاف الذين يلبسون السواد ؟ فأجاب إنهم رهبان يُصَلُّون من أجلنا . فسأله مرة ثالثة : ومن هؤلاء الذين يجلسون على الأرض ، ويلقى لهم فُتات المائدة ؟ فأجاب شارلمان : إنهم الفقراء فصاح الأمير العربى : أهكذا تعامل الفقراء ، إن هذا مخالف للشرف والمروءة ، ولا يُرْضى ربك الذى تعبده ، والآن لا ! لن أتنصر أبداً وهذه سمة دينك ، وإنى أفضل الموت(٢) .

وتذكرنى هـذه الحادثة بأخرى يظهر منها الفرق الشاسع بين كرم العرب وكرم سواهم . وذلك أنه لما استولى أبو عبيد بن مسعود الثقفى أيام عمر بن الخطاب

---

(١) راجع Augstin Thierry فى كتابه Lettres sur L'histoire de France.p.82

(٢) راجع Pierre Damien dans la Chronique du Turpin

وراجع كذلك Gautier, op. cit p.33

على كسكر[١] وسرّح المثنى بن حارثة وغيره من القواد ، يغيرون على النواحى ، صالحه من خاف ممن بقى . وجاءه الدّهاقين بآنية فيها أطعمة فارسية ، وقالوا : هذه كرامة أكرمناك بها قِرًى لك . قال : أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله ؟ قالوا : لم يتيسّر ، ونحن فاعلون ، قال : لا حاجة لنا فيه ، بئس المرء أبوعبيد ! إنْ صحب قوماً من بلادهم ، أهرقوا دماءهم دونه ، أولم يهريقوا ، فاستأثر عليهم بشىء يصيبه ، لا والله لا نأكل مما أفاء الله عليهم إلاَّ مِثْلَ ما يأكل أوساطهم . ولم يأكل من طعام أتى به الدهاقينُ غداة ذلك اليوم حتى علم أنهم قربوا مثله لجنده جميعاً[٢] .

وأمّا كرم النفس فقد سقت فيما سبق أمثلةً عديدة على عدم تعصب المسلمين وأنهم وسعوا برحمتهم ، ودينهم ، وكرم نفوسهم أهل الذمّةِ الذين أبوا أن يسلموا وخضعوا لحكمهم ، ولو كان هؤلاء متعصبين حقاً لأبادوهم ، واستأصلوهم ولقد جنى عليهم هذا التسامح فى بعض الأحيان ، فقد سمحوا لنصارى الأندلس بأن يظلوا تحت رعايتهم ، وأظلوهم بعدلهم ، وأغدقوا عليهم من خيراتهم ، ولكنهم أضمروا لهم الشر ، وكانوا حرباً عليهم حينما ضَعُفوا حتى طردوهم من بلادهم .

وتاريخ أوربا المسيحية ملطخ بالتعصب الدينى ، وقد لاقى اليهود على أيديهم فى كل الأزمنة ألواناً بَشِعَةً من العذاب والاضطهاد ، وقد ذكر (دوزى) فى سياق تعليله لسرعة فتح العرب للأندلس : أن اليهود والأرقاء كانوا لهم عوناً

---

(١) كسكر : إقليم عاصمته خسرو سابور ، وصارت بعد ذلك (واسط) قصبتها .

(٢) راجع الطبرى جـ٤ ص ٦٤ ، وابن الأثير جـ٢ ص ٢١٣ ، وابن خلدون جـ٢ ص ٨٨

لأنَّ رجال الدين الكاثوليكي قد أرهقوهم وأذلوهم ، واستعبدوهم ، وذكر أن الناس فى القرون الوسطى كلما سألوا : لماذا نرى هذا العالم الذى ينبغى أن يكون مثلاً أعلى فى الفراديس انقلب جحيماً ؟ أجابتهم الكنيسة : لأن هذا من غضب الله الذى يرى أن قتلة ربنا لا يزالون كثراً .

وبدأ اضطهاد اليهود سنة ٦١٦م ، وأعطوا مُهْلَةً سنة ليتنصروا ، وإلا طردوا خارج إسبانية وصودرت أملاكهم ، وجُلد كلٌّ منهم مائة جلدة ، وقد تنصر منهم عدد كبير ، ولكنهم ظلوا يُضْمرون اليهودية ، ويختتنون ، فقرر مجمع الأساقفة مصادرة أولادهم لينشئوا فى ظل الكنيسة ، وظلوا يعذبون أكثر من ثمانين سنة ثم طردوهم من الأندلس ، ومن آثر البقاء منهم حكم عليه بالرِّق ، فلما جاء المسلمون فرحوا بمقدمهم فرحاً شديداً ، وحرروهم ، فكانوا من أعظم أنصار الإسلام(١) وذكر صاحب نفح الطيب أن المسلمين كلما فتحوا بلداً من بلاد الأندلس انضم اليهود إليهم ، وأقامهم المسلمون حرساً عليها لحفظها ، وكانوا أدلاء للمسلمين على مواطن الضعف فى المدن الإسبانية(٢) .

ولقد وضَّح أحد المسلمين ، حين طُرِد العرب من أسبانيا لآخر مرة فى سنة ١٦١٠ م الفرق بين اضطهاد المسيحيين للمسلمين وإرهاب محاكم التفتيش ، وتسامح المسلمين فى أثناء تاريخهم الزاهر بأسبانيا بقوله : « هل حاول أسلافنا

---

(١) راجع R. Dozy Histoire de Musulmans d'Espagne. t. II. pp. 45-6 Leyden 1865.
وراجع كذلك M. Reinaud فى كتابه Invasion Des Sarrazins en France, et en Savoie.

(٢) راجع المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٠ — ٢٨٢

المتنصرون ولو مرة واحدة أن يستأصلوا المسيحية من أسبانيا حين كان فى مقدورهم أن يفعلوا ذلك ؟ ، ألم يسمحوا لآبائكم بأن يتمتعوا بحرية فى دينهم ؟ ألم يوص نبينا بأن تُترَكَ الحريةُ الدينية لأهالى البلاد التى يفتحها العرب بحد السيف مهما بلغت آراؤهم الدينية من حُمق وخُرق ؟ ، وأنتم لا تستطيعون أن تظهروا لنا شيئاً ما عن أى حادثة خاصة بسفك الدماء أو تقديم للمحاكمة فى سبيل نشر الدين الإسلامى ، كما تفعل اليوم محاكم التفتيش المقوتة فى استئصال المسلمين[1] » .

ولقد اصطنع الخلفاء فى كل العصور أشخاصا مسيحيين ، كأطباء ، وكتاب ومترجمين ومنجمين ، وشعراء ، مثل بختيشوع الطبيب النسطورى مع أبى جعفر المنصور ، وابنه جبرائيل مع هارون الرشيد ، والأخطل مع بنى أمية . وحنين بن إسحق و إسحق بن حنين ، ومتى بن يونس ، وثابت بن قرة وغيرهم مع خلفاء بنى العباس ؛ مما يدل على رحابة الإسلام وكرم نفوس المسلمين .

فأين هذا كله من ذلك التعصب الذميم الذى أظهره المسيحيون ضد الديانات الأخرى من يهودية و إسلام ، وغيرهما ، بل اضطهد أرباب المذاهب المسيحية بعضهم بعضاً ، وقامت حروب عديدة فى أوربا من أثر هذا التعصب المذهبى كحرب الثلاثين عاماً بين البروتستانتية والكاثوليكية ؟ :

وأمّا كرم القلب فيكفى للدلالة عليه أن ريتشارد قلب الأسد قد مرض فى خلال الحروب الصليبية فحزن عليه صلاحُ الدين الأيوبى ، وأخوه ، وكان من عادتهما تقدير الأعداء الصرحاء الشجعان ، ولما طلب ريتشارد — حين أنهكته

(1) J. Morgan, Mahometism explained, vol. II. pp. 297—8 London 1723 — 5.

الحمى — فاكهة ، أرسل إليه صلاح الدين الكمثرى والتفاح ، والثلج الذى كان يأتى به من الجبال كل يوم لأجله[١] .

فأين هذه المعاملة السمحة ، والقلب العظيم ، من تلك الفظائع الدامية التى ارتكبها الصليبيون المسيحيون فى بلاد الشرق الإسلامى ؛ وأين هذا من محاكم التفتيش التى قامت فى أسبانيا ، والتعذيب الأليم الذى احتمله المسلمون بعد أن ضعفوا ، وأكرهوا على الجلاء أو التنصر ؟ ؟ .

وهاك مثلا آخر على كرم القلب العربى المسلم ، وعلى تلك المعاملة المثالية للأعداء ، فقد وقع (جان دى برين) أسيراً فى يد الملك الكامل بدمياط ، فلما حضر أمامه أخذ يبكى وينتحب . فقال له الملك الكامل : م تبكى أيها الملك ؟ فقال أبكى لأنى تركت القوم الذين أتولى أمرهم يموتون جوعاً ، ويموتون غرقاً . فرَقّ الملك الكامل له ، وبكى مثله ثم أرسل ثلاثين ألف رغيف للفقراء والأغنياء من جيش عدوه على السواء ، أربعة أيام متوالية[٢] .

لقد كان المسلمون يعملون بقول الله تعالى ، ويتمثلونه فى كل حركاتهم وأقوالهم : « وَدَّ كثيرٌ مِنْ أهلِ الكتابِ لو يَرُدُّونكم من بَعْدِ إيمانِكم كُفَّاراً ، حَسَداً من عندِ أنفسهم مِنْ بَعْدِ ما تبيَّن لهم الحقُّ ، فاعْفُوا واصفحوا حتَّى يأتىَ اللهُ بأمرِه إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير[٣] » .

وبقوله تعالى : « ولو شاء ربُّكَ لآمن مَنْ فى الأرضِ كُلُّهم جميعاً ، أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين »[٤] .

---

(1) Stanley Lane Poole. History of Egypt in the Middle Ages p. 355.
(2) Gusfave Schlumberger. Récits de Bysance et de Croisade.

(٣) سورة البقرة الآيه ١٠٩ . (٤) سورة يونس الآية ٩٩ .

ويصدق فيهم وحدهم قول أحد الباحثين الفرنسيين : إن مهمة الفارس الحق هي حماية المرأة ، والأرملة ، واليتامى والرجال الذين في حاجة إلى العون والغوث ، لا الرجال الأقوياء »[١] .

وكان من تقاليد العرب في الفروسية ألا يُجهزوا على جريح ولو كان من أشد أعدائهم ، وهذا قيس بن عاصم يبكي ويتندم أشد الندم لأنه قتل الحُطَم في حروب الردّة ، ورجله مقطوعة وهو لا يعلم أن برجله شيئاً[٢] . ومن تقاليدهم إكرام رسل العدو[٣] ، وهذه هي نصيحة علي بن أبي طالب لأصحابه يوم صِفّين وفيها كثير من سُنَن القتال عند العرب ، وسمات الفروسية الحقة : « ولا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم ، فأنتم على حُجَّة ، وتركهم حتى يقاتلوكم حجة أخرى ، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مُدبرا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تُمَثّلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى رِحال القوم ، فلا تهتكوا سِتراً ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ، ولا تَهيجوا امرأة ، وإن شتَمْن أعراضكم وسَبَبْن أمراءكم ، فإنهن ضعاف القُوىَ والأنفس[٤] » .

كان هذا شأن العرب في حروبهم : شهامة ، وفتوة ، ونجدة ، وغوث للضعيف ولو كان من ألد أعدائهم ؛ ولما أُسِر كفار قريش في بدر أوصى بهم النبي عليه السلام خيراً ، قال أبو عزيز بن عمير ، كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر ، فكانوا إذا قدم غداؤهم أو عشاؤهم خصوني

(١) راجع ص ١٢٠ من هذا الكتاب .
(٢) راجع أيام العرب في الإسلام ص ١٥٦ .
(٣) راجع وصية أبي بكر لقواد جيشه في غزوة اليرموك في الطبري ج ٤ ص ٢٨ ، وابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٠
(٤) راجع في يوم صفين الطبري ج ٥ ص ٢٣٥ ، ج ٦ ص ١ .

بالخبز ؛ عملاً بوصية رسول الله إياهم بنا ، ما تقع فى يد أحد منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها ، فأستحيى فأردها على أحدهم ، فيردها علىّ ما يمسها » ، وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين يوم بدر[١] .

وأمّا الوفاء بالوعد فقد مرّ بك عدة أمثلة فى وفاء المسلمين وغدر الصليبيين والأوربيين فى حروبهم : غدر ريتشارد قلب الأسد بأهل عكا بعد أن استسلموا له على الرغم من المعاهدة ، وغدر السيد القمبيطار بمسلمى بلنسية بعد أن استسلموا له ؛ إذ لم يكن هؤلاء الغربيون ، ولا يزالون حتى اليوم يعرفون الرحمة بالضعفاء المغلوبين على أمرهم ، أو يتدخلون لحمايتهم ؛ حتى قال فوريل : « كنت أود أن أتأكد من تدخل الفروسية الغربية فى الأمور الاجتماعية والسياسية إبان القرون الوسطى بحقائق مؤكدة لا يتطرق إليها الشك ، تحددُ فى نفس الوقت طبيعة هذا التدخل ومقداره فى فائدة الضعفاء ، ولكنّ حقائق من هذا النوع لا يوجد لها أثر فى التاريخ ، وليس أمامنا إلا وثائق شعرية تلمح إلى مثل هذا ، وكلها تدل على أنه تدخل فى مصلحة الأقارب أو من سلطة قضائية أو أبوية[٢] » .

***

لا يزال الغدر والخيانة ، وعدم الوفاء بالعهود ، والاستمساك بالخديعة ، واتخاذ القسوة والعنف ديدن الغربيين حتى اليوم فى حروبهم ، وكأنما جردتهم الطبيعة القاسية التى عاشوا فى ظلالها حقباً طويلة من الزمن من كل معانى الإنسانية ، وهم إن أفادوا إبان القرون الوسطى شيئاً من تهذيب الطباع ، ودماثة الخلق ، وعرفوا المثل العليا نقلاً عن العرب ، فقد تنكروا لها بعد ما صارت

---

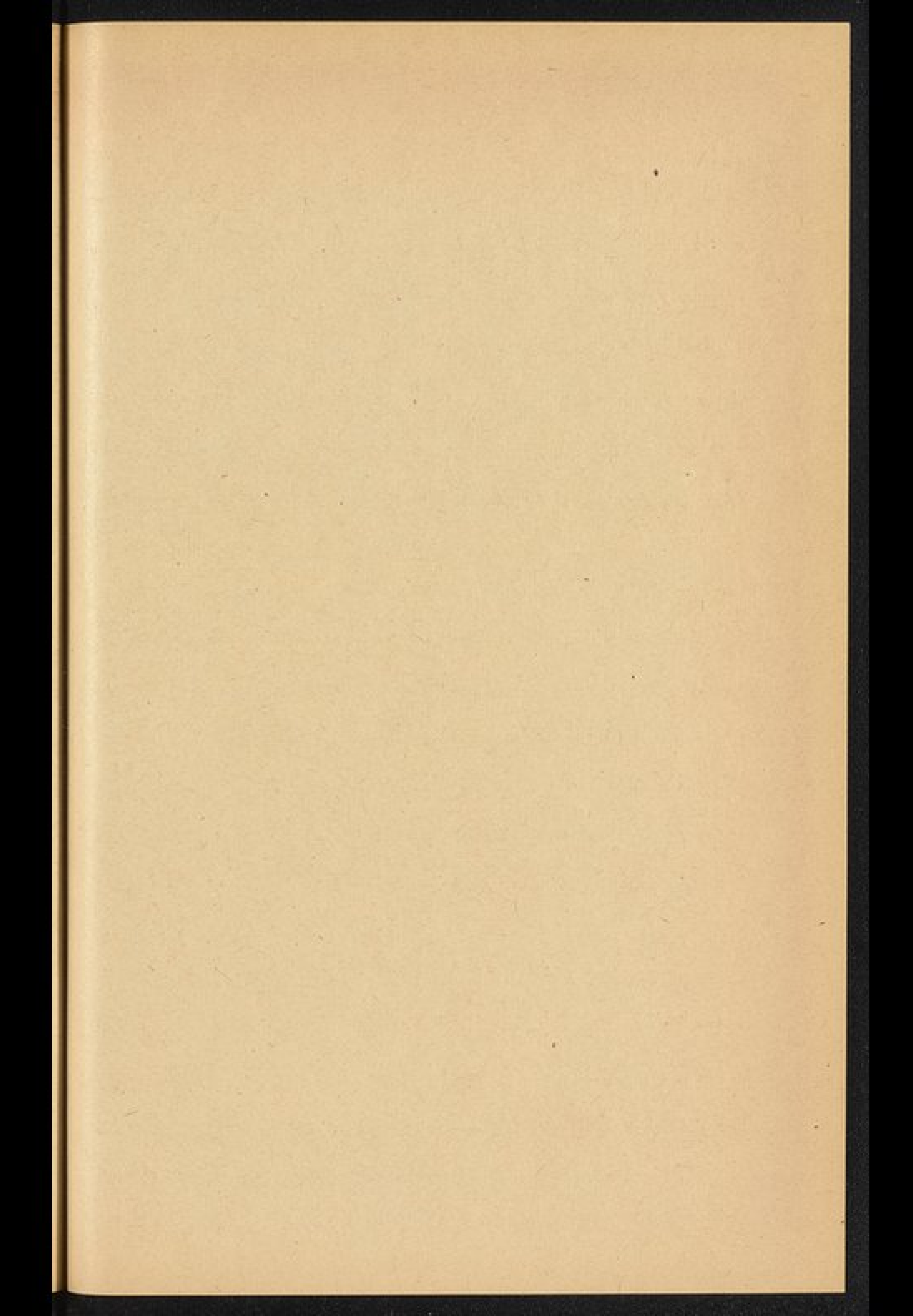
(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى بك ص ١٥٨ حـ ١

(٢) راجع فوريل Fouriel فى كتابه Peoésie Provençal,t. I. P. 487

حضارتهم مادية لا تؤمن بغير الحديد والنار ، والقهر والغلبة ، والجشع والطمع واستعباد الشعوب ، واستنزاف دمائها ؛ وليس ما عمله الإنجليز فى فلسطين ، والعراق ، ومصر ، وفى كل بلد نزلوا به ، وما عمله الفرنسيون مع البربر والعرب فى مراكش ، والعرب فى تونس والجزائر ، وما عمله الطليان مع أهل طرابلس ، وقتلهم عمرَ المختار وهو فى شيخوخته بعد أن أبلى فى حروبهم ، وكان من واجب الفروسية ، والتعاليم المسيحية أن يكرموه لشجاعته ، ومحبته للحرية ، والشيخوخة وضعف مُنَّته ، ولكن هيهات وهم قوم جُرِّدوا من كل معانى الإنسانية ! !

أيها العربى المسلم لقد قدمت بين يديك هذا البحث ، وأجهدت نفسى فى أن أعرفك حقيقةَ نفسك ، وأنك من أمة كانت غرَّةً فى جبين التاريخ لم ير العالم ولن يرى خيراً منها ومن دينها . وأنت اليوم فى يقظة عقلية ، ووعى قومى ، ولن يفيدك شيئاً أن تُمْسَخَ شخصيتك ، وتغرك الحضارة الغربية ، والقوة المادية ، فانهض واعمل على أن تسود بالحق والعدل والرحمة ، والقوة والفتوة ، وبشر الإنسانية بمبادئ قومك السامية ، وهداية دينك الرحيمة لعله يرجع عن غيه ، ويعود إلى رشده . إن التاريخ ينتظر أن تقلب صفحاته ، وتسطر فيها عهداً جديداً كله خير ، ومرحمة لك ولغيرك .

هذه صفحات فى فلسفة الخلق العربى والعقلية العربية ، تكشف عن نواحى العظمة بها ، ولن تقوم لأمة قائمة ما لم تدرك حق الإدراك حقيقة نفسها ، ونواحى القوة فيها . فهل بلغت رسالتى ! أرجو أن يكون ذاك . والآن سأقدم لك صوراً من الفتوة العربية على قدر ما تسمح به الصفحات الباقية من هذا الكتاب حتى تكون نموذجاً يحتذى .



صور من الفتوة العربية

مروءة ووفاء(1)

خرج النعمانُ بن المنذر ملكُ الحيرة يوماً للصيد فى كوكبة من فُرسانه ، وضُربتْ له قُبَّةٌ من أدَمٍ على طرف الصحراء ، ومعه حاشية ضخمة ، وجِفانٌ وقِيانٌ ، ثم ركب فرسه اليَحْموم(2) ، وكأنما مَلَّ الجوادُ طولَ الجِمام ، فما أن اعتلى صَهْوَتَه ، حتى راح يَمْزَعُ غَرْباً فى أعنَّته ، كالطير تنجو من الشؤبوب ذى البَرَدِ ، والصحراء تَعْبَق بريَّا الخزامى والعَرار ، والريح بليلة ندية ، والشمس تُسفر تارة وتحتجب أخرى ، والسماء مبرقطة بالغمام ، والنعمان فرحٌ مَرِحٌ يُرخى لجواده العِنان ، والجواد يطوى أديمَ الفلاة طيا لا تكاد سنابكه تمس الأرض من فرط عَدْوه ، وما هى إلاَّ برهة حتى لاح له عَيْرٌ(3) قد اكتنز لحما ، وطُبقَ شحما ، وأحسَّ بالخطر الداهم فهو يعدو عَدْوَ الظَّليم(4) ، يروم النجاة ، وأين النجاة ؟ وخلفه قيدُ الأوابد(5) ، يعدو على أثره .

وأوغل النعمان فى الطِّراد ، وأخذت الجوادَ حُميَّا الصيد ، فانطلق يطوى الحُزون(6) ، وينهب القِفار ، لا يَلْوى على شىء ، ولا يُكفكِف من غَرْبه

---

(1) مجمع الأمثال للميدانى ص ٤٦ ج ١ ، والمستطرف فى كل فن مستظرف ج ١ ص ١٩٩ والأغانى ج ١٩ ص ٨٨ ط الساسى ، ومعجم البلدان ج ٦ ص ٢٨٥ والمحاسن والأضداد للجاحظ ص ٥٨ ، وبلوغ الأرب للألوسى ج ١ ص ١٢٧ ، والمحاسن والمساوىء ص ١١٧ ، وقصص العرب ج ١ ص ١٦١

(2) اليحموم : الأسود .

(3) العير : حمار الوحش .

(4) الظليم : ذكر النعام .

(5) وحوش الفلاة .

(6) جمع حزن وهو الأرض الصلبة .

زجرُ النعمان له ، وقد أدرك أنه فقد سيطرته عليه ، وأنه انفرد عن أصحابه ، وأنه أمعن فى الفلاة . وبينا هو فى شغل بجواده ، تفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، والتمس النعمان مأوىً يأوى إليه وقد كفكف الجواد من غلَوائه ، ورطَّب ماء السماء حرارة رأسه ، فهدأ واستكان ، وسار على هِينته ، بعد أن توارى عن ناظريه العَيْرُ فى دَغَلٍ كثيف .

ورأى النعمان عن بعد خِباءً فدلف إليه ، ووجد به رجلاً من طيىء يقال له حنظلة ، ليس معه فى هذا القفر الموحش إلا امرأته ، وبجانب الخباء شاة سمينة . فقال النعمان : هل من مأوى ؟ فقال حنظلة : على الرَّحب والسعة ، وخرج إليه ، وتلقاه ببشر وسماحة ، وهو لا يعرفه ، ثم دخل على امرأته وقال لها : أرى رجلاً له هيئة ، وما أخلقه أن يكون شريفاً خطيراً ، فما الحيلة ؟ ، فقالت : عندى شىء من طحين كنتُ ادَّخرته ، فاذبح الشاة ، وسأصنع من الطحين خبز مَلَّة[1] . وقام الطائى ، فحلب شاته ، ثم ذبحها ، وأطعم النعمان من لحمها ، وسقاه من لبنها ، وبات يسامره ليلته ، ويروى له خبره وخبر الصحراء الواسعة الفجاج ، والنعمان فى نشوة مما يسمع ، وفى غبطة لهذا الكرم الذى أظهره نحوه ذلك البدوى الفقير ، على غير علم بمكانته .

وبعد أن تمتع ما شاء بحديث مضيفه ، وبهواء الصحراء السَّجْسَج الرقراق ، لعب الكرى بمعاقد أجفانه ، فنام ليلة هانئة وادعة . وأيقظته أشعة الشمس وخيوطها الذهبية تداعب مقلتيه ؛ ولما لبس ثيابه ، وامتطى جواده ، واستأذن

---

(١) الملة : الرماد الحار ، وخبز الملة مايصنع فيها .

من رب مثواه ، وهَمَّ بالمسير قال للطائى : يا أخاطيء اطلب ثوابك ، أنا الملك النعمان ! قال : أفعلُ إن شاء الله .

ثم عاد النعمان إلى أصحابه ، ورآهم فى قلق زائد عليه ، بيد أنهم وجدوه فى أمن وعافية . تتراءى سِماتُ المسرة على أسارير وجهه ، وأخذ يقص عليهم نبأه وأنه قضى ليلة ممتعة كل المتعة يساعده هذا البدوى ربيب الصحراء ، وأنه وجد فيه صيداً أنفس وأسمن من صيد الفلاة . وأنه نَعِمَ بمغامرته أيما نِعمة ، وقد رأى من الطائى كرماً لا يُحدُّ ؛ لأنه جاد بكل ما يملك من حُطام الدنيا ، وهو شاته التى كانت تطفئُ ظمأه بلبنها ، على غير علم بمكانته واسمه .

ومضى زمان ، والنعمان يترقب قدوم الطائى عليه ، ليرد له بعض ما طوق به عنقه ؛ ولكنَّ الطائى لا يُسمع عنه خبر ، حتى إذا كانت سنةٌ شهباء ، أتت على الأخضر واليابس ، بَخِلَتْ فيها السماء ، وانقطع الحيا ، وأجهد أهل البادية حتى أكلوا اليرابيع وخَشَاش الأرض ، والطائى يجاهد نفسه ، ولا يود وإن مات أن يقدم على النعمان ليذكره بيده لديه ، وكيف يطلب على صُنع المعروف جزاء ؟ وكيف يتقاضى ثمن الإريحية ، ولو كان صاحبه مَلِكاً يقصده سادة العرب وأشرافهم ينالون من حِبائه وجَمِّ عطاياه . ؟

وأخذت امرأته تُلِح عليه أن ينقذ نفسه وينقذها ، وأن يُطَمْئِنَ من شموخ أنفه ، ثم إن النعمان ملكٌ لا سُوقة ، والواجب أن يأمه طالباً رفده ولو لم تكن ثمةَ لهم يد عنده ، وبعد لأى ومجاهدة عنيفة لنفسه قَبِلَ أن يأتىَ الحيرة .

ووجد النعمانَ فى حاشيته خارج المدينة ، شاكىَ السلاح ، ممتطياً جواده اليحموم ، وحوله فرسانه وحاشيته ، ولما رأى الطائىَّ عرفه ، وتغيَّر وجهه حين

رآه ، وتقطبت أساريره ، وظنّ الطائى به الظنون ، وندم على أن قصده ، ولو كان فى لُبثه ببادية حَيْنُه ، إلى أن قال له النعمان :

— أنت الطائى المنزول به ؟

— نعم !

— أفلا جئتَ فى غير هذا اليوم ؟

— أبيتَ اللعن ! ، وما كان على بهذا اليوم .

— والله لو سنح لى فى هذا اليوم قابوسُ ابنى لم أجد بُداً من قتله ، فاطلب حاجتك من الدنيا ، وسل ما بدا لك ، فإنك مقتول !

— أبيت اللعن أيها الملك العظيم ! ، وما أصنع بالدنيا بعد نفسى ؟ وماذا جنيت حتى أستحق القتل ، وقد قدمت تواً من البادية ؟

— إنه يوم بؤسى ، ولا مناصَ من قتلك ، وذلك على الرغم مِن كرامتك عنـدى .

— فإن كان لابدَّ ، فأجِّلنى حتى أُلِمَّ بأهلى ، فأوصى بهم ، وأهيئ حالهم ، ثم أنصرفُ إليك .

— أقم لى كفيلاً بموافاتك .

— إن كلمتى عهد ، أيها الملك العظيم ، ولو كان فى صدق العهد منيتى .

— لابد من كفيل !

فالتفت الإعرابى إلى حاشية النعمان يتفرس الوجوه ، ويتوسم أهل الخير ووقع نظره على شريك بن عمرو رديف[1] النعمان ، وصاحب منادمته فقال له :

(١) رديف الملك : هو الذى يركب خلفه ، ويشرب بعده ، ويخلفه إذا غزا .

يا شريك يابن عمــرو هل من الموت محالة
يا أخا كلّ مصــاب يا أخا من لا أخاله
يا أخا النعمان فُكَّ الـ ـيوم ضيفاً قد أتى له

وامتقع لون شريك ، وصمت برهة تجاذبته فيها عوامل شتى ، وهزته الأريحية ، وقال لنفسه : إن هذا الرجل أهلٌ للكرامة بعد أن سمعت من الملك عظيم فعله على غير معرفة به ، وستكون مأثرة يتحدث بها العرب ، وقد اختارنى من بين جميع الحاشية لِمَا توسَّم فىَّ من الأريحية ، وستكون سبةً لو خيبت أمله ، وما أظنه يخلف وعده . ولكن هبه أخلف ، وطالبنى الملك بتنفيذ وعيده ، فأنَّى لى به بعد أن تضمره الصحراء فى جوفها ، وحان يوم البؤس فى العام القابل ، أليس فى ذلك حتفى لغير جريرة ارتكبتها ، وفى سبيل نخوة كاذبة ، وهل أضحى بنفسى ، وأحرم ولدى حياتى من أجل هذا البدوى الجلف ؟ .

ورفع شريك رأسه ، وأبى أن يتكفل بالأعرابى ، فوثب رجلٌ من كلب يقال له قُراد بن أجدع ، وقال للنعمان : أبيت اللَّعن أيها الملك الجليل ! هو علىَّ ، فقال النعمان : أفعلتَ ! قال : نعم ، فضمَّنه إياه . ولَهِج لسان الطائى بشكره ، وأكد له أنه لن يخلف وعده ، ولن يخيب رجاءه فيه . وأمر النعمان للطائى بخمسمائة ناقة مَعْكاء ، زَيَّنَهَا سَعْدانُ[1] تُوضِحَ فى أوبارها اللِّبَد ، فمضى بها الطائى لأهله ، وقد جعل الأجلَ حولاً من يومه ذلك ، إلى مثل هذا اليوم من قابل .

(١) نوع من الشوك تسمن عليه الإبل وفى أمثالهم : مرعى ولا كالسعدان ، وتوضح مكان مشهور بهذا النوع من الشوك .

ثم مضى الحول ، ولم يبق على الأجل المضروب إلاّ يومٌ ، وقال النعمان لقُراد : ما أراك إلاّ هالكاً غداً ، فقال قراد :

فإن يكُ صَدْرُ هذا اليوم وَلّى فإن غداً لناظره قريبُ

ثم أصبح النعمان فى يوم بأسه ، وركب فى خيله وَرَجْله ، وهو فى كامل شِكَّته كما كان يفعل فى مثل هذا اليوم من كل حول ، حتى أتى الغَرِيَّيْن[1] . وأخرج معه قُراداً . وهو يبتسم له ، ويقول : لقد حان حَيْنُك يا قراد ، فودِّع الدنيا ، وتملَّ منها قبل أن تغادرها . وقرادٌ ثابتٌ جأشُه ، واثق فى الله ، وفى وعد ذلك الطائى ، الذى رأى فيه سماتِ النبل على الرغم من فاقته وخشونة مظهره . وأراد النعمان أن يتعجل قتلَ قراد ، قبل أن يأتى الطائى ؛ إذ كان يعز عليه أن يقتل رجلاً أسدى إليه صنيعاً جميلاً ، فأمر بالنِّطع أن يُمَدَّ ، و بالسياف أن يُطيح رأسه حين وقف بين الغَرِيَّيْنِ ، وتهيأ قرادٌ للموت ، بيد أن وزراء النعمان عزَّ عليهم أن يُقْتَل قراد جزاء أريحيته ، فقالوا للنعمان : ليس للملك أن يقتله حتى يمضى النهار ، فلعلَّ الطائى أن يصدق فى وعده .

وولَّى النهار سريعاً على قراد ، وكادت الشمس تَجِبُ[2] ، وأخذت تودع الدنيا بابتسامة صفراء من فمها الذهبى ، وأرخت ذوائب من شعرها على الأفق الغربى فى لون النُّضار ، فاحمرَّ الأفق ، وسكتت الدنيا سكوت المودِّع للشمس الحبيبة ، ونظر النعمان إلى قراد ، وقال : الآن يا قراد لم يبق لك إلاّ أن

---

(١) قبران دفن فيهما النعمان صديقين له ، كانا ينادمانه ، وأمر بقتلهما ، وهو فى سكره ذات ليلة ، ولما أفاق ندم على قتلهما ، فدفنهما بهذين القبرين ، ونذر أن يطليهما بدم أول من يراه وهو واقف بينهما فى مثل اليوم الذى قتلا فيه .

(٢) تجب : تغيب .

تنجز ما وعدت ، فتهيأ للموت ، وإذا امرأته تشق الصفوف ، مولولة ناحبة ، معولة ، باكية ، وهي تقول :

أيا عينُ بكِّي لي قرادَ بن أجدعا رهيناً لقتل ، لا رهيناً مودَّعا

وقد دمعت عيون السامعين لنعيها ، أسفاً وحَزَناً على قُراد بن أجدع ، إلا عين النعمان فإنها كانت جامدة ، ووَدَّ أن يروى نفسه الظمأى بمنظر الدم المراق ، وأن ينقذ الطائى ، بقتل الفداء ، ولم يهتز قلبه لصوت الأسى واللوعة ينطلق شجياً كئيباً منبعثاً من قلبها الدامى .

ووقف قراد على النِّطع [1] وهمَّ السياف بقطع رأسه وشخصت إليه الأبصار ، وهو مستسلم للموت فى ثبات عجيب ، وجرأة من يعرف أنه ما أتى منكراً فيتندم عليه ساعة حينه ، بل أتى جميلاً يثلج صدرَه ، ويذْكَر بعده ، وإذا شخص يتراءى من بعيد فى نهاية الأفق ، فصاحت بطانة النعمان : كف أيها السياف حتى يأتىَ هذا الشخص ، فيعلم الملك من هو ، فلعله الطائى قد برَّ بوعده ، ووفى بكلمته .

وانتظر الجميع ، وأبصارهم شاخصة على هذا الذى قد بدا فى طرف الأفق وقد حبسوا أنفاسهم ، وصمتت ألسنتهم ، وهو يتضح لهم شيئاً فشيئاً ، حتى ظهرت معالم وجهه ، فإذا هو الطائى ، فابتسم أصدقاء قراد ، وابتسم قراد نفسه ورُدَّت إليه روحه التى عَزُبت عنه أو كادت ، ودبت الحياة فى وجهه ، وسُرَّ الجميع بمقدم الطائى إلا النعمان ، فقد شق عليه مجيئه ، وقال له :

— ما حملك على الرجوع بعد أن أفلت من القتل ؟

---

(١) النطع : بساط من جلد .

— إنه الوفاء أيها الملك أبيت اللعن .

— وما حملك على الوفاء ؟

— إنه وعد العربى ، وذمته ، وشرفه ، وحاشاى أن آتى بما يخل بالشرف فأكون سبة لأهلى ، ولقبيلتى أبدَ الدّهر . وما أنا ممن يخاف الموت حتى يقبع فى بيته ويدع غيره يقتل من أجله ، وأنا على ثقة بأنى لم أرتكب جريرة فأخشى على نفسى العار ، وأنى أقتل إرضاء للملك ، وتحقيقاً لعادة اعتادها ، وقد أبى لى نحسى ، وسوء جَدّى أن أقدم عليه فى يوم بؤسه ، فألقى حتفى . وهذا قضاءٌ من الله لا رادَّ له ، وأجل قد انتهى أمده ، ومنية قد حان حَيْنُها ، فهيا أيها الملك العظيم فإنى رهن أمرك . وأما أنت يا قراد ، فصفحاً عما قدمته لك من إساءة ، واضطراب ، وما كنت لأنسى لك هذه اليد الكريمة ، وقد ضمنتنى لدى الملك ، وأكون سبباً فى إراقة دم زكى كدمك . وإنى إن مِتُ اليوم فإن طيء بأسرها تعلم مقدار صنيعك ، وجميل عارفتك .

وذُهل النعمان ، ودُهشت حاشيته لهذا النبل الذى يكمن فى هذه الأسمال ، وهذه النفس الرفيعة التى تتقطر فى تلك الكلمات ؛ وأطرق النعمان بُرهة وهو يرى أنه أمام مَثَلين من الأمثلة العليا فى الوفاء والمروءة ، وفاء الطائى وقد مشى لحينه بنفسه ، وقد كان بمنجىً عن أن تناله يد ، محتمياً بأجأ أو سَلمى[1] .

تَزِلُّ الوعول العُصْم عن قُذفاته وتُضحى ذُراه بالسماء كوافرا[2]

ومروءة قُراد وقد ندب نفسه للموت ، وكان منه قاب قوسين أو أدنى .

---

(١) جبلى طيء . (٢) كوافراً : مغطاة .

وأخذ يحدث نفسه ، وكيف يكون ألأم الرجلين ؟ وما هذه العاده الوحشية ، وإراقة الدم البرىء لغير ذنب اقترف ؟ إنها نزوة شيطان ، وفى سبيلها أطوح بالجميل . إن هذا الطائى لخليق أن يحيا ، وهو على ما يتحلى به من كرم وأريحية ، ووفاء ، وفتوة ، ورجولة كاملة[1] .

ورفع النعمان رأسه ، وقال يا أخا طيىء ، لقد شاء الله أن ينجيك من القتل ، ووالله ما أدرى أيكما أوفى وأكرم : أهذا الذى نجا من القتل فعاد ، أم هذا الذى ضمنه ؟ والله لا أكون ألأم الثلاثة ، ولقد بهرتمانى بصنيعيكما ، حتى عافت نفسى هذا العمل الذميم ، ثم أمر النعمان أن يهدم الغريين ، وأقلع عن تلك العادة الخبيثة ، وأنشأ الطائى حين سمع أمر النعمان بهدم الغريين يقول :

ما كنتُ أُخلِفُ ظَنَّه بعد الذى ... أَسْدى إلىَّ من الفَعال الحالى

ولقد دعتنى للخلاف ضلالتى ... فأبيتُ غير تَمَجُّدى وفَعالى

ولقد أجزل النعمان عطاءه ، وعاد إلى قومه معافىً مكرماً ، بعد أن كان ودَّعهم وداع المفارق لهم إلى الأبد ، وداع الذى حانت منيته فهو يمشى إليها طواعية واختياراً ، فكان فرحهم بقدومه حياً لا يقدر ، وقد حمدوا له وفاءه ، ولقراد مروءته ، وللنعمان عفوه .

---

(١) روى فى تعليل وفاء الطائى أنه قال : دينى ، وقال له النعمان : وما دينك ؟ قال : النصرانية ، قال : اعرضها على فعرضها ، فتنصر أهل الحيرة جميعاً ، وعندى أن هذا التعليل مفتعل ، لأن النصرانية كانت معروفة بالحيرة قبل النعمان ، وكانت قبيلة العباد كلها نصارى ومنهم عدى بن زيد العبادى الشاعر المعروف راجع , Huart : Histoire des Arabes

فارس الشهباء

كانت الشمس تضرب وجهَ الأرض بسياطٍ ملتهبة ، وتَصُبُّ على الأودية المقفرة حَمَماً متقداً ، تحمله أشعتها المتأججة ، ووقف فارسٌ فى فجوة بين جبلين ، يجيل بصره يَمْنةً ويَسْرة ، علّه يجد طَلِبته فى مسافرٍ أعياه الرحيل ، وأجهده الحر ، فطلب الراحة والظل فى كنف هذا الجبل الأَشم ، فيأخذه على غرة ، ويسلبه متاعه كدأبه فى كل مرة يقصد فيها هذا المكان الذى يقع فى مفترق الطرق ، بهذه الصحراء الواسعة الفجاج ، الموحشة المسالك .

وكاد ييأس ، ويعود أدراجه صِفْرَ الكف . وطال به الانتظارُ وهو لا يرى على مدى البصر إلا وَهَجاً متألقاً تنفثه الأرض من جوفها الملتهب ، فيعلو صُعُداً فى طبقات الجو . ثم عدا بفرسه عن يمين ، وتطلع برهة إلى الأفق الممتد ، فلم يجد أحداً ، ثم عاد بفرسه عن يسار ، وكان فى هذه المرة أسعد جدًّا ؛ إذ لمح نقطة سوداء تتحرك صوبه سريعاً ، مَيّزتها عينهُ الحادة ، بأنها فارس مثله قد أقبل من طريق اليمامة ، فامتلأ قلبه بشراً ، إذ كان واثقاً من شجاعته ومهارته ، وأنه لا كفء له فى ميدان الوغى ، أو عند المبارزة .

وأخذ الفارس يدنو منه سريعاً ، فإذا هو فتىً مجدولُ القد ، حَسَنُ الهيئة ، بهيُّ الطلعة ، قد نبتَ عِذراه ، فلما حاذاه حياه فرد تحيته فى عجلة ثم سأله :

— من الفتى ؟

— وما سؤالك فى أمر لا يعنيك ؟

— ستندم على قحتك وتجبهك لى ، فعجل وأخبرنى من أنت ؟

— إن كان ذلك يثير فضولك ، فأنا الحارث بن سعد ، فارس الشهباء .

— خذ حِذْرك إنى قاتلك !

— لقد طمعت فى حلمى ، ثَـكِلَتْكَ أمُّك ، فمن أنت ؟

— عمرو بن معد يكرب الزبيدى .

— الذليلُ الحقير ، والله ما يمنعنى من قتلك إلا هَوَانُ أمرك واستصغارُ شأنك ؛ فأخذ عمرو يتأمل الفتى ويتعجب من جُرأة جنانه ، وسَلاطة لسانه ، وقد كان يظن أن اسمه سيقذف الرعب فى قلبه ، فإذا هو يحتقره ولا يأبه له ، وعزا ذلك إلى جهله بما هو مقبل عليه من خطر ، أو إلى غروره بميْعة شبابه فقال له :

— دع عنك هذا ، وخذ حِذْرك ، فما من قتلك بد !

— يا عمرو أبق على نفسك ، فإنى من معشر ما أثـكلهم فارس قط !

— هو الذى تسمع ، ولن ينصرف إلا أحدنا ! وستعلم بعد أينا الحقير فتردد الفتى هنيهة ، كأنما عَنَّ له أمر أو خشى التلوُّم والمـكث فى مبارزة هذا الصعلوك ، وأمامه مهمة أجل خطراً ، ولـكنه أفاق من تردده سريعاً وقال :

— اختر لنفسك ، إما أن تَطْرِد لى ، وإما أن أَطْرِد لك .

فظن عمروٌ الفرصةَ مواتية ، ولم يشأ أن يعرض مهارته للاختبار ، فقال:

— اطرد لى .

فَطَرَد ، وحمل عليه عمرو بكل ما أوتى من قوة وأيْد ، ومهارة ، وظن أنه قد غرز الرمح بين كتفيه ، ولـكن الفتى فى لباقة العليم ، وخفة الظليم[1]

---

(١) الظليم : ذكر النعام .

وحِرْصِ الحكيم تفادى ضربته ، بأن انطوى تحت الفرس حتى صار لها حزاما ثم نشط كالأجدل[١] ، ورفع قناته فقَنَّع بها عمْراً وصار تحت رحمته ، ورَهَن ضربته ، وقال له :

— يا عمرو ! خذها إليك واحدة ، ولولا أني أكره قتل مثلك لأرديتك قتيلا .

فشعر عمرو بن معد يكرب ، الفارس المُعْلِم ، وصاحب الوقائع المشهورة ، ومن له الاسم المدوِّى فى أرجاء البادية ، بالصَّغار والهوان ، وقد غلبه على أمره فتىً حَدَثٌ لم يكد ينبت عذراه ، فأجابه فى إصرار ويأس .

— والله لا ينصرف إلا أحدنا .

فعرض عليه الحارث بن سعد فارس الشهباء ، عرضه السخى ، كما فعل أول الأمر ، وخيَّره فى الطراد ، فاختار عمرو موقفه الأول وقال له :

— اطرد لى .

فأطرد الفتى ، وملأت الحماسة والغيظ قلب عمرو ، وتجمعت نفسهُ كلها فى ضربته فلما ظن أنه تمكن منه ، وأنه وضع الرمح بين كتفيه ، إذا بالفتى يتلبَّبُ فرسه ، وينجو من ضربته ، وإذا به يطمئن على صهوة جواده ، ويحمل على عمرو فى لمح البصر ، ويقنِّعُ رأسه بقناته ثانية ، ويقول لعمرو وقد امتقع وجهه وظن أنه من الهالكين :

— اذهب ثانية طليقَ صَغارك وَضَعة شأنك .

فعز على عمرو موقف الخيبة والعار الذى وقفه ، وتذكر قوله :

(١) الأجدل: الصقر .

وجاشت إليّ النفسُ أولَ مرّة فرُدّت على مكروهها فاستقرّت

فأخذته الحمية ، وأبى أن يستسلم ، وفضّل الموت حقاً ، على أن يكون طليق هذا الغلام الحدَث ، فيلوكُ الناس فيما بعد اسمه ، وتذهب هيبته ، وتضعف صولته فقال لغريمه :

— والله لا ينصرف إلا أحدنا فاطرد لى .

فأطّرَد الفتى ، وتهيأ عمرو لضربته الأخيرة ، وتذكر هزيمته ، وخزيه ، كما تذكر شرفه وفروسيته ، وحمل على خَصْمه كأنه الصخر يدفعه السيل من أعلى الجبل ، وهوى برمحه ، وظن أنه قد ناله بعطب فيه هلاكه ، ولكن الفتى ترجل عن فرسه فى خفة ورشاقة وأخطأته الضربة ، ثم استوى على الفرس فى سرعة عجيبة ، وقنّع رأس عمرو بقناته ثالثةً ، ولبث برهة يتمتع فيها بانكسار الفارس المقدام ، قطّاع الطريق ، وذى الصيت المديد ، وقد طأطأ رأسه ينتظر القتلة ، ولكن الفتى قال له وهو يبتسم ابتسامة المُدلّ بنصره وفتوته وسماحة نفسه ، ورحابة صدره ، الواثق من أمره .

— يا عمرو ، سأطلقك الثالثة على ألا تعود . ولولا كراهتى قتل مثلك لتركتك لَقىً لطيور الفلاة ، فاذهب لشأنك .

فصرخ عمرو صرخةً خرجت من أعماق نفسه ، وقال : القتلُ أحبُّ إلى من هذا ، ولا تسمع فرسان العرب بموقفى منك .

فأجاب الفتى فى صوت جهورى قوى فيه نبرات التصميم ، والإرادة المبرمة

— يا عمرو إنما العفو عن ثلاث ، وإذا تمكنت منك فى الرابعة ، فما من قتلك بد ، وأنشد :

وَكَدتُ أغلاظاً من الأيمان ... إنْ عُدْتَ يا عمرو إلى الطعان

لتجــــدنَّ لهب السِّنان ... أو لا فلست من بنى شيبان

فذهب بهذا ما تبقى فى نفس عمرو من مقاومة ، وجلد على الطعان ، وامتلأ قلبه رهبة وهيبة لهذا الفارس ، وأكبر منه هذه الجرأة ، والمهارة ، واللَّسن ، والسماحة فقال له :

— أنت أول فارس أذعن له ، وإن لى إليك حاجة .

— وما هى ؟

— أكون لك صاحباً .

— إنك لن تطيق معى صبراً ، ويحك ! أتدرى أين أريد ؟

— لا والله !

— أريد الموت الأحمر عياناً .

فقال عمرو ، وقد ازداد إعجابه بفارسه وتحرك فى نفسه الفضول ، ليعلم مدى شجاعة هذا الذى هزمه ، ووصم جبينه بالعار :

— أريد الموت معك .

— إذاً فامض بنا .

فسارا يومهما أجمع ، حتى جنَّ عليهما الليل ، ومضى شطرُه ، وهما يسابقان الريح لا يستريحان أو يخففان من حدة عدوهما ، إلى أن دخلا فى حمى حَيٍ من أحياء العرب ، فقال الفتى لعمرو فى صوت خافت .

— هنا فى هذا الحى الموتُ الأحمر فإما أن تُمْسك علىّ فرسى ، فأنزل وآتى بحاجتى ، وإما أن تَنزل وأمسك فرسك فتأتينى بحاجتى ، وما إخالك قادراً على ذلك.

— الرأى أن تنزل أنت ، دع جانبا قدرتى وعجزى ، فأنت أدرى بحاجتك منى ، وأعرف بالسبيل إليها فما وطئت قدماى هذه الأرض من قبل .

فترجل فارسُ الشهباء ، وألقى بعنان فرسه لعمرو ، ورضى هذا أن يكون له سائساً . ثم مضى الفارس لِطِيَّته وغَشَّاه الليل البهيم بردائه الأسود ، ثم دلف إلى قبة من أدَم عاليةٍ رحبة ، يتحسس طريقاً يعرفه ، ثم همس همسة ، وخرج من القبة تتبعه فتاة كَعَاب ، وضيئةُ الوجه ، يرف ماء الحسن من مخايلها ، ويتثنى عودها الرَّخص ، وهى تتعثر خلفه فى مِشيتها ، ثم عَرَّج على مَعْطن الإبل ففك ناقة من عقالها ، وقال لصاحبته :

— اركبى ! فبمثل هذه الساعة مَنَّيْتُ نفسى طويلا .

— أو ما تخشى أبى وإخوتى أن يتبعوك ؟ إنك تعرف مقدار حبى لك ، وشغفى بك وأخاف أن يتبدد فرحى سريعا .

— لا عليكِ ! فإنى ما خشيت إنساناً قط ، فكيف بى وأنت معى أدافع عنك بعد أن تجشَّمت فى سبيل الوصول إليك ما تجشمت :

وكانا قد وصلا إلى عمرو بن معد يكرب فقال الفارس لعمرو :

— إما أن تحمينى وأقود الناقة ، أو أحميك وتقودها أنت .

— بل أقودها وتحمينى أنت .

ورضى عمرو لنفسه مرة أخرى أقل المنزلتين فروسية وشرفاً ، لعلمه أن صاحبه أقدر منه على الحماية . وسارت هذه القافلة الصغيرة جادةً لا تلوى على شىء ، وتحثُّ الخطا حثا ، والليل من حولهم يلفُّهم بمسوحه ، والجو يترقرق نسيما صافياً فيه برودة تغمز الجلد غمزاً هينا ، فيقشعر منها قشعريرة خفيفة ، وما زالت تطوى

البيد — هكذا — طيا حتى بدت غرة الصباح من بين سجوف الليل الدامس . فابتسمت له الدنيا ابتسامة الحبيب لحبيبه ، وأخذت الصحراء تنشر مفاتنها بين يديه . ثم ما لبثت ذُكاء أن طلعت بوجهها الوضاء وشعرها الذهبي المرسل . فقال الفارس لصاحبه :

— يا عمرو ! التفت فانظر هل ترى أحداً .

— إنى أرى كوكبة من الفرسان .

— أغذِ السير — وهيهات أن نفوتهم . أنظر أقليل عددهم أم كثير ؟ فإن كانوا قليلا فالجلد والقوة و إن كانوا كثيراً فليسوا بشىء .

— إنهم أربعة أو خمسة إن لم يخنى بصرى .

— أغذ السير ، فستكون معمعة لا يعلم مصيرَها إلا الله .

وأخذت القافلة تُجِدُّ فى سيرها ما استطاعت ، ولكنها كانت مقيدة بخطى الناقة ، فسَرعان ما سمعوا وقع حوافر الخيل تطرق آذانهم وكأنها نذر الموت ، فقال الفارس لعمرو :

— كن عن يمين الطريق ، وقف ، وحوِّل وجه دوابنا إلى الطريق ، ولنتهيأ لاستقبالهم . فإن ذلك أكرم بنا .

ودنا القوم منهم ؛ فإذا هم ثلاثة نفر : شابان بدت عليهما دلائل القوة والفتوة وكرم النجار ، وشيخ وقور قد امتلأ صحةً وعافية ، على الرغم من شيخوخته ، وقد استوى على صهوة جواده استواء الفارس الخبير . كان هذا الشيخ أبا الجارية وكان الشابان أخويها ووقفوا تجاه فارس الشهباء وصاحبيه ، وقال الشيخ فى صوت ملىء ليّن :

— خل عن الجارية يا ابن أخى .

— يا عم ! لقد حُلتَ بينى وبينها ، وهى مُنْية النفس ، وسيدة القلب ، وما كنت أنتظر أن تردنى - إذ خطبتها إليك — خائباً ، وعجبتُ لأمرك ، فإنك لن تجِدَ لها أكفأ منى بَعْلا : شرفُ مُحْتِد ، وشجاعة قلب ، وكرم يد ، وحسبى أنى أنتمى إلى الدوحة التى تَفَرَّعَتْ منها حبيبة قلبى .

— ليس المقام يا ابن أخى مقام عتاب وجدال ، واستعطاف ؛ ولقد خَسِرت بجرأتك الليلة على انتهاك حرمتى ، وخطف ابنتى ، ما بقى لك فى نفسى من احترام ، وفى قلبى من مودة . فخل عن الجارية ، وانصرف لشأنك .

— ما كنت لأخليها ، ولا لهذا أخذتها ولن أدعها إلا وأنا أشلاء ممزقة . فدونك وما تريد .

فقال الشيخ لأصغر ابنيه : اخرج إليه .

فخرج إليه فتى فى عنفوان شبابه يجر رمحه ، وكان الناظر إلى الفتاة يرى وجهها قد علته صفرةُ الاضطراب والخوف ، وقد وَجَبَ قلبُها وجيباً شديداً ، وهى بين عاملين : عامل الخوف على حبيبها ، وابن عمها ، وعامل الحرص على حياة أخيها .

وجال الفتيان جولات صادقات ، وبرهن كل منهما على أنه كفء لصاحبه وندٌ له فى الطعان ، بيد أن فارس الشهباء كان أثبت منه ضربة وأسرع يداً ، وفى ضربة من ضرباته النافذة ، أصمى غريمه فسقط مضرجاً بدمه .

فقال الشيخ لابنه الآخر : أخرج إليه فالموت خير من حياة يلطخها العار ، ويَسِمها الشنار .

فخرج الفتى وكان أعظم من أخيه جثة وأصلب عوداً ، وأقوى طعنة ، فحمل عليه الحارث بن سعد فارس الشهباء ، وقد فارت نفسه ، وحمى قلبه ، وهو يرتجز :

لقد رأيتَ كيف كانت طعنتى والطعن للقِرْن العنيف همتى

والموتُ خير من فراق خِلتى فقتلتى اليوم ولا مذلتى

ثم شد على خَصْمه شدة ، وصوَّب إليه طعنة ، وَجَأ بها جوفه فخر صريعاً يتشحَّط بدمه ، بعد أن جرحه غريمه جرحاً بليغاً فى فخذه ، وأبلى فى صراعه بلاء مجيداً .

فقال الشيخ لفارس الشهباء : خل عن الظعينة ، فإنى لست كمن رأيت .

— يعز علىّ يا عماه أنى قتلت أخوى فى ميدان الشرف والحب ، وإنى لن أتخلى عن عِدل الروح ، طيِّبةً بذلك نفسى ، حسبك أن قُتل أخواها ، فدعنى وإياها ، ولا تلجئنى لقتالك ، فلك فى قلبى منزلةٌ عالية ، وهيبة عظيمة ، فبربك إلا ما أبقيت على ما بيننا من قربى ومودة .

— هيهات يا بنى ! وقد صرع ابناى دفاعاً عن شرف أهين ، وكرامة امتهنت . أو لمثلى يوجه هذا الكلام ؟ وأنت جد عليم بما كسبت يداى من فخار فى ميادين البطولة والبأس ، إنى أحذرك فخل عن الفتاة ، وانطلق لشأنك .

— دونَك القتال إن أردت .

— اخترْ لنفسك ؛ فإن شئتَ نازلْتُك وإن شئت طاردتك .

فنزل الفتى ، ونزل الشيخ ، وكنت ترى فارسين ، كل منهما ملء إهابه

نجدةً ، وحيوية ، وقوة ، ترتج الأرض تحت أقدامهما ، وارتجز الشيخ وهو يمشى إلى خصمه :

ما أرتجى عند فناء عمرى ❊ سأجعل التسعين مثل الشهر
يخافنى الشجعان طولَ دهرى ❊ فى خَدْش عِرضى قاصماتُ الظهر

ومشى الحارث مِشْية الأسد الرئبال وهو ينشد .

بعد ارتحا[illegible]ويل صبرى ❊ د ظفرتُ وشَفَيْت صدرى
لَلْموتُ خيرٌ من لباس الغدر ❊ والعار أهديه لحى بكر

وتباريا ساعة فما وجد أحدهما فى صاحبه غفلة أو ثغرة ينفذ منها إلى بدنه .

فقال الشيخ :

— يا بن أخى إن شئت ضربتك ، فإن أبقيت فيك بقية فاضربنى وإن شئت فابدأ أنت ، فإن أبقيتَ فىَّ بقية ضربتك .

فقال الفتى ، وقد ظن أنها فرصة :

— أنا أبدأ .

— هات !

فانتضى الفتى سيفه ، ورفع يده فى جبروت وعنف ، فلما نظر الشيخ أنه أهوى ، ضرب بطنه بسيفه ضربة قدَّ منها أمعاءه ونفذت من ظهره ، وكانت ضربة الفتى قد وقعت جاسية شديدة على هامة الشيخ فطارت فُضاضا ، وسقطا ميتين تبكيهما الشجاعة الفائقة ، والقوة البالغة .

وتلفت عمرو بن معديكرب ، وقد راعه ما رأى من هذه البطولة الفذة ، فلما أفاق من دهشته ، وجد تحت يده غنيمة باردة : أربعة أسياف وأربعة

أجياد ، وناقة ، وجارية ملء إهابها حسنا وملاحة وشبابا ، فأخذ بخطام الناقة وأزمع إلى داره ، فقالت الفتاة :

— يا عمرو ! إلى أين ولستُ بصاحبتك ولستَ لى بصاحب ، ولست كمن رأيت .

— اسكتى ! .

— إن كنت لى صاحبا حقا ، فأعطنى سيفاً ورمحا ، فإن غلبتنى فأنا لك ، وإن غلبتك قتلتك .

فتردد عمرو ، وقد ارتاب فى شجاعته ، وكفاءته لهذه الفتاة ، بعد ما رأى من أهلها كل مثل نادر فى المقدرة على القتال والشجاعة الخارقة ، وأبى أن يعرض شجاعته مرة أخرى للبلاء ، فزجرها ورفض أن ينيلها ما طلبت .

فرمت نفسها عن البعير ، وأقبلت نحوه تقول :

أبعد شيخى ثم بعـــد أخوتى يطيب عيشى أو تطيب لذتى

وأصحبَن من لم يكن ذا همة هلاَّ تكون قبلَ ذا منيتى !

ثم انتزعت سيفا من يده ، فى قوة وعنف ، فخاف عمرو وظن أنها ستقتله . ولكن لا . إنها غمست السيف فى صدرها حتى نفذ إلى فؤادها ، وهوت على إثر ذلك يشخب دمها ، وتفيض روحها . فعلت كل هذا بسرعة زائدة ، فلما تبين عمرو أنها قتلت نفسها أقبل عليها فقالت له وهى تجود بنفسها الأخير :

إنى جِدُّ سعيدة ؛ إذ لحقت بمن أحب فالعيش بعدهم هوان ، ودونك هذه الفضلات التى خلفوها من سيوف وأفراس علها تُرْضى نفسَك الوضيعة .

ثم فارقت الحياة .

حامى الظعينة

الشمسُ ماتعةٌ تَوقَّدُ بالضحى ، ورمال الصحراء تزفر زفرات ملتهبة تعلو صُعُداً فى طبقات الجو كأنها فحيح الصِّلال الرُّقط ، أو أنفاسُ جهنم ، وتهب أمواجاً أمواجاً كأنها بحر من لهب ، وخلت البيداء من الحياة فلا ترى إلا رمالا متوهجة ، وصخوراً جاثمة ، وكثباناً قائمة . بيد أن فرسانا أربوا على الأربعين يقودهم فارس بنى جُشَم دُرَيْد بنُ الصِّمة قد اقتحموا غمراتِ هذا البحر المتقد ، وخيولهم تَلْهث لغُوباً ، وظمأ ، وأجسامهم تنضح عرقاً ، ورءوسهم تكاد تذوب من وَقْدة الشمس ، وأُوار ذياك البساط الرملى المديد الذى تمشى عليه جيادهم ، وكأنها تنتقل على رمضاء زاهية الجمرات .

وما أن رأوا صخرةً عاتية ألقت ظلها على الأخرم — وادى بنى كنانة — حتى أووْا إليها أشدَّ ما يكونون تعباً ونصباً ، وأعظمَ ما يكونون لهفةً وتشوقاً إلى الراحة ، والاختفاء من هذا السعير .

خرج هؤلاء الفرسان من ديارهم قصدَ غزو بنى كنانة والتنكيل بهم ، لأحقاد قديمة متوارثةٍ ، قد تأصلتْ فى قلوبهم ، وتِرات متبادلة قد أقضَّت مضاجعهم وملأت نفوسهم ضغينة وإحناً ؛ خرجوا لعلهم ينالون من خصومهم ما يغسل عنهم عار هزيمة سابقة ، ولعلهم كذلك يُصيبون شيئاً من الخير فى تلك السنة المجدبة التى أتتْ على الأخضر واليابس ، ولا سيما ولبنى كنانة وادٍ لا تزال فيه بقيةٌ ممرعة ، قد قاومت القحط فأبقت لنعمهم اكتناز لحمها ، وكثرةَ شحمها فلم يُجْهَدُوا كما أُجْهِد غيرهم من العرب .

وما أن استقر بهم المقام حتى قال لهم قائدهم دُرَيْدُ بن الصِّمة : الرأى أن نظَلّ هنا يومَنا هذا حتى يأتى الليل فنبدأ الغارة ونكون بذلك قد استرحنا واستجمت جيادنا ، فنقوى و إياها على حر المعركة ، ثم إن القومَ الآن أيقاظٌ وقد أوت إبلُهم إلى مرابضها فى أكناف الحى ، ولو أغرنا عليها واستغاث أحدُ عبيدهم لهبوا إليه جميعاً بسيوفهم مُشْرَعة ، ولكانت معركةٌ يهزم فيها الأقلون عددا ، فوافقه صحبه على رأيه وطفقوا يلهون ويضحكون ويستريحون وبينا هم كذلك إذ لاح لهم رجل فى ناحية الوادى ومعه ظعينة ، فقال دريد : « قد يرانا هذا الرجل ، وينبه علينا قومه إن تركناه ، فهو لاشك ميمم صَوْب الحى ، والرأى أن نقتله أو نأسره ويكون هذا أول الغنم . فمن منكم يتصدى له وله كل ما معه حتى الظعينة ؟ فقام شاب فى عنفوان العمر يكاد يتفجر قوة وصحة وحياة وقال : « إنى له » ، فقال دريد : « دونك الرجل » . فامتطى جواده ولما انتهى إليه صاح به وألح عليه أن يستأسر وإلا فهو من الهالكين ، فوجد منه إعراضاً وإباء ، ثم رآه يلقى زمام الراحلة ويقول للظعينة :

سيرى على رِسْلِكِ سيرَ الآمنِ ... سيرَ رَدَاحٍ ذاتِ جأش ساكنِ

إن انثنائى دون قِرنى شائنى ... أبْلِى بلائى واخبرى وعاينى

وأقبل على الفارس بوجه طَلْق ، وسيف مُصْلَتٍ وقال له : « يا هذا انجُ بنفسك ، واحفظ ميعة شبابك ، فلستَ لى بِنِدٍ ، وإنى أهبك لوجهك السمح وعودك الغَضّ ، وعمرك النضير » . فقال فارس بنى جشم : « ليس والله إلى النكوص من سبيل ، فخذ حِذْرك فإنى قاتلك » .

ثم جالا جولات ، وحملا حملات صادقات ، ولكن خرَّ فارس بنى جشم

صريعاً يتشحّط فى دمه إثر ضربة فاتكة من حامى الظعينة الذى أخذ فرسه وأعطاها لها .

ولما رأى دريد أن رسوله قد طال به المكث بعث بفارس آخر لا يقل عنه أيداً ، وشجاعة ، وصلابة عود ، وعِظَمَ هيئة ، فلما انتهى إليه ورأى صاحبه مجندلا ، والرجل قد أخذ بخطام البعير وهو منطلق كأن لم يحدث حدث ولم يَلْقَ الردى فارسٌ شجاعٌ ، صاح به مهدِّداً إن لم يستأسر ، ولكنه تصام عنه وظل منطلقاً لا يلتفت إليه ، فعز على فارس بنى جشم أن يُهمَل هذا الإهمال فغشيه بجواده ، فلما قرب منه ألقى زمام الراحلة إلى الظعينة وكر راجعاً على مهاجمه وهو يقول :

خَلِّ سبيل الحرةِ المنيعه إنك لاقٍ دونها ربيعه

فى كفه خَطيه مطيعه أو ، لا . فخذها طعنة سريعه

فالطعنُ منِّى فى الوغى شريعه

ووجده أدرى من سابقه بفنون القتال ، وأشد بأسا ، فجال معه جولات وحمل عليه حملات دونها حملات الأُسْدِ تحمى عرينها ، وما هى إلا برهة حتى صرع مهاجمه صرعة شنيعة ، وألحقه بصاحبه فى وادى الموت . أما حامى الظعينة فقد عاد إليها ونشوةُ الانتصار ملء بُرديه ، والعزة تملأ خياشيمه ، وقلبه يفيض تيهاً وأَنَفَةً ، وأخذ يقود البعير واستأنف سيره ، وهى تنظر إليه نظرات تفصح عن حب عميق فياض ، وإعجاب ببطل عَرَّض نفسه للموت محبةً لها ، واعتزازاً بها ، وحِفاظا على عِرْضه وشرفه ، تنظر إليه نظرة المرأة إلى الرجل الذى يعزها

ويكرمها ويحميها فلا تذِلُّ ولا تهـــان ، نظرة المرأة إلى الرجل القوى الشجاع الماهر .

وما كاد يخطو خطوات حتى سمع فارساً ثالثاً يصيح به ، قد أرسله دريد لينظر ما صنع صاحباه من قبله ، ولـكنه لم يتوقف أو يتريث بل ظل منطلقاً يقود ظعينته ويجر رمحه ، فزاد هذا الإعراض الفارس التهابا وقد رأى صاحبيه مجدلين معفرين ، فعـدا صوبَه وهو يتميز من الغيظ ، ويود أن يمزقه إرْباً إرْبا ، فقال حامى الظعينة لها : « اقصدى قصد البيوت » ثم أقبل على مهاجمه يقول

ماذا تريد من شَتِيمٍ عابسٍ ألم تر الفارس بعد الفارس ؟
أرداهما عامـلُ رمح يابس

فرد عليه فارس بنى جُشم : « أريد أن أذيقكَ كأس الموت ، وأريق دمك ، وأنـكل بك ، وأمثّل بجسمك جزاء وِفاقا على ما اقترفَتْه يداك من قتلك هذين البطلين ، والسيدين الشريفين ، فقال حامى الظعينة : « ويحك ألم يكن فى مثلهما لك عظة ؟ أتأبى إلا أن تلحق بهما ؟ اغرُب عنى ، وإلا فأنت فى عِداد الهالـكين » فقال قِرْنه : هيهات لن يبرح إلا أحدنا فخذ حِذْرك فإن صحبى يرتقبون عودتى » .

فقال : « لن تعود وفى يمناى هذا الرمح » ، وحمل عليه حملة أردته قتيلا وانـكسر فيها رمحه ، وتركه يتخبط فى دمه ومضى نحو صاحبته ، التى أبت إلا أن تنتظر كيف تـكون نهاية هذا الصراع ، فلما رأته يعود مظفراً والابتسامة ملء فمه ، عادت إليها طمأنينتها ، وفاض قلبها زهواً وعجبا أن تـكون فى كنف هـذا الفارس البطل ، وما كل حُرّة قد سعد جَدُّها وحاباها طالعها

فكان أليفها وقرينها مثل صاحبها هذا بأساً ونجدة وقوة ، واستأنف سيره حتى أشرف على بيوت الحى .

ولكنّ دريد بن الصمة قد رابه أن يذهب رسله فلا يعودون ، وظن أنهم قتلوا الرجل وأخذوا الظعينة أسيرة ، وأنهم قد نزت بهم نزوات فاعتدوا عليها ، أو أنهم اختلفوا فيما بينهم على الغنيمة فاقتتلوا ، وهاج أصحابه واضطربوا ، واستنكروا غياب أصحابهم ، فهدّأ من روعهم وانطلق بنفسه ليقف على جلية الأمر فوجد أصحابه قد قتلوا ، فلحق بحامى الظعينة وألفاه بدون رمح ، وعز عليه أن ينازل مثل هـذا البطل المغوار الذى أردى ثلاثة من أشجع فرسان بنى جُشَم وأدراهم بفنون القتال ، وهو أعزل من السلاح ، فقال له دريد : أيها الرجل مثلُك لا يُقتل ، ولا أرى معك رمحاً ، والخيل ثائرة بأصحابها ، وهم فى شك من أمرك ، ولو رَأوْك لقضوْا عليك فدونَك هذا الرمح ، و إنى منصرف إلى أصحابى فمثبّطهم عنك إعجاباً ببأسك و بلائك فى القتـــال ، وشجاعتك النادرة المثال .

وانصرف دريد وقال لأصحابه : إن فارس الظعينة قد حماها ، وقتل أصحابكم وانتزع منى رمحى ، وعفا عنى ، ولا مطمع لكم فيه ، فانصرفوا قبل أن يحيط بكم بنو كنانة ويجهزون عليكم ، فإنه على وشك أن يصل إلى بيوت الحى » فانصرفوا ، وقال دريد فى ذلك :

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله	حامى الظعينة فارســاً لم يُقتل
أردى فوارس لم يكونوا نُهْزَةً	ثم استمر كأنه لم يفعـــل
متهللا تبدو أسرةُ وجهــه	مثلَ الحسام جَلَتْه كفُّ الصيقل

يُزْجي[1] ظعينته ويسحبُ ذيله متوجهاً يُمْنَاه نحو المنزل
وترى الفوارسَ من مخافة رمحه مثلَ البُغاث خَشين وَقْعَ الأجْدل
ياليتَ شعرى من أبوه وأمه ياصاحِ مَنْ يكُ مثله لا يُجهل

انصرف فرسان بنى جشم ، وقد أخفقت غارتهم ، واضطروا أن يعودوا أدراجهم وقد ردهم فارس واحد عن غايتهم ، ولا تزال الشمس تقدح فوق رءوسهم وتصب شآبيب النار على الأرض فتزيدها ضراماً ، ولا يزال حَرّ الرمل يشوى أطراف الخيل وهى تعدو بهم فى ذلك الجحيم .

ورآهم حامى الظعينة وهم ينطلقون فقال :

أن كان ينفعكِ اليقينُ فسائلى عنى الظعينة يوم وادى الأخرم
إذ هى لأول من أتاها نُهْبَةٌ لولا طعانُ ربيعة بن مكدَّم
إذ قال لى أدنى الفوارس مِيتة خَلِّ الظعينة طائعاً ، لا تندم
فصرفت راحلة الظعينة نحوه عمداً ليعلم بعض ما لم يعلم
وهتكت بالرمح الطويل إهابه فهوى صريعاً لليدين وللفم
ومنحت آخرَ بعده جيَّاشة نجلاء فاغرةً كشدق الأضجم
ولقد شفعتهما بآخرَ ثالثٍ وأبى الفرارَ لى الغداةَ تكرمى

دارت الأيام دورتها ، وانصرمت بضع سنوات لم تهدأ فيها الحرب بين القبيلتين ، وفى كل غارة تشحن القلوب غماً وحقداً وموجدة ، وتتأصل جذورُ العداوة فى النفوس . ثم كان أن أغارت بنو كنانة على بنى جشم غارة شعواء أخذوهم فيها على غرة فقتلوا منهم خلقاً كبيراً ، وأسروا عدداً كبيراً ، وكان

(١) يزجى : يسوق سوقاً رفيقاً .

فيمن أُسِر بطل بنى جشم وحامى ذِمارها وفارسها المُعلِم دريد بن الصمة ، ولم يعرف بنو كنانة أنَّ فى حوزتهم سيدَ قومه ، وأعظمهم همة وجرأة ، ورضى بالأسر موقناً أن الحرب سجال ، وأنه سيدينهم فى غد كما دانوه اليوم .

وبينا هو فى محبسه عندهم مغلول اليدين ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ورجال الحى قد انصرفوا لشئونهم فى الضحى ولم يتخلف فى البيوت إلا الشيوخ والنساء والأطفال ، عَنَّ لبعض فتيات الحى أن يتلهين بمداعبة الأسرى ، والنظر إليهم وهم يرسفون فى الأغلال والقيود ، ولعل عند أحدهم حديثاً ممتعاً أو قصة طريفة تذهب ما بهن من ملل ، ودلفن يحدوهن الخفر ويحفزهن العبث إلى حيث دريد بن الصمة ، وكان وحده بعيداً عن بقية الأسرى من بنى جشم فى بيت رجل اسمه مُخارق وهو الذى أسره ، وما أن رأينه حتى صرخت إحداهن صرخة ارتاعت لها أخواتها وقالت : هلكنا والله ، ماذا جرَّ علينا قومنا ؟ هذا والله الذى أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة » : ثم ألقت عليه رداءها وقالت : « يا لَقومى أنا جارةٌ له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادى »

فسألوه من هو ؟ فلم يجد بداً وقد رأى أملا فى النجاة أن يذكر اسمه . فأجاب : دريد بن الصمة .

فقال النسوة فى صوت واحد : الفارس المغوار ، يا للعار !! لقد أكبرنا والله فعلتك يوم الظعينة ، وقلنا لا يصدر هذا إلا من كريم عظيم ، فسألهن :

ــ مَنْ صاحبى الذى حمى الظعينة وأردى ثلاثه فرسان من خير شباب بنى جشم ، وأظهر من البطولة والشجاعة والدُّربة ما دفعنى إلى أن أكرمه وأبقيه فلا أقتله وهو أعزل ؟ فأجابت من أجارته :

— ربيعة بن مكدم .

— وما فعل ؟

— قتلته بنو سليم

— فما فعلت الظعينة ؟

— أنا هيه ، وأنا امرأته

فطأطأ رأسه أسفاً على ذلك الفارس وإكباراً لامرأته التى عرفت الجميل ، وتقدمت لتجزيه معروفاً بمعروف ، وأجارته من قومها .

ولما عاد رجال الحى تشاوروا فى أمره بعد أن أُخبروا خبره ، وعرفوا عِظَم منزلته ، وجليل قدره ، وأن المروءة عند مثله لا تضيع سدى ، وأن ما قدمه من سابقةِ خير لبطلهم يوم الظعينة قد طوق جيدهم بالمعروف .

فقال بعضهم : لا ينبغى أن نكفر نعمته على صاحبنا ، هو أهل للخير والكرامة .

وقال آخرون : والله لا يخرج من أيدينا إلا برضا مخارق الذى أسره .

وكاد الأمر ينتهى إلى هذا ، وتخفق المرأة فى مسعاها ، ويدب الشقاق بين أحياء بنى كنانة ، لأن عشيرتها — بنى فراس — سيقفون معها ويشدون أزرها .

ولكنها تقدمت إلى القوم ، فى نَدِيِّهم وهى متقنعة ، وأنشدت بصوت قوى عذب :

سنجزى دريداً عن ربيعةَ نعمةً ... وكل امرىء يُجْزَى بما كان قدما
فإن كان خيراً ، كان خيراً جزاؤه ... وإن كان شراً ، كان شراً مذمما
سنجزيه نُعمى لم تكن بصغيرة ... بإعطائه الرمح الطويل المقوما

فقد أدركت كفاه فينا جزاءه ... وأهلٌ بأن يُجزى الذى كان أنعما

فلا تكفروه حقّ نُعماه فيكم ... ولا تركبوا تلك التى تملأ الفما

فلو كان حيا لم يضق بثوابه ... ذراعاً ، غنيا كان أو كان معدما

ففكوا دريداً من إسار مخارق ... ولا تجعلوا البؤسى إلى الشر سُلَّما

فكان شعرُها القولَ الفصل ، وأجمع القوم على أن يطلقوه من أسره فى غده ويقدموا المخارق ما شاء من فدية إذا أبى أن ينزل على حكمهم وينصاع لأمرهم . ولكن مخارقاً لم يكن ليخرج عن أمر أبرمه قومه وأجمعوا عليه ، وأنىّ له أن يشذ عنهم وفيهم سادة بنى كنانة وأرباب الرأى والحكمة فيها .

فلما أصبح الصباح أطلقوه ، فأخذته الجارية — وهى ريطة بنت الظعان — إلى دارها وكسته وجهزته بمطية وزاد وسلاح ، ولحق بقومه ، وقد آلى ألا يغزو بنى كنانة بعامة ، وبنى فراس بخاصة ما عاش . وقد بر بقسمه فاستقرت سيوف القبيلتين فى أغمادها ، وحفظت دماء بريئة من أنْ تُراق على مذبح البغى والثأر .

وهكذا كان حامى الظعينة سيدا شريفا عظيما فى حياته حين حمى امرأته ، وفى مماته إذ كان سبباً فى نشر السلام وحفظ الأرواح والدماء .

ثأر

في سَجْوة الليل الدامس ، وهواء البيد يترقرق صفاء ولينا وحلاوة ، ونجوم السماء تتألق بنور لامع نفّاذ ، يشق حُلكة الديجور ، وتزين جيد السماء بعقود درية فتانة ، أقبل شبح يَحُثُّ الخطا حثاً نحو أحياء بنى عبس وقد هدأت نأمتهم حتى طرق بابَ زهير بن جذيمة العبسى ، ونعى زهيراً إلى أهله وعشيرته ، ونبَّأهم بأن خالد بن جعفر بن كلاب قد قتله غدراً .

ريعت أحياء بنى عبس للرُّزء الجسيم ، وأقض صوتُ النعى مضاجعهم ، وأخذ شبابهم وذوو الحمية يتوعدون القاتل الغادر ، ويدبرون الأمر للأخذ بثأرهم حتى لا يَفلت منهم ؛ وراح النساء يبكين فى زهير سيادته وكرمه وشجاعته ، وشقت أصواتهن سكون الليل فبدت مفزعة رهيبة مقبضة للصدر .

أما خالد فقد أيقن أنه قد اقترف أمراً إداً ، وأنه لا قِبل له بغطفان بعامة و بنى عبس بخاصة ، وصار يلجأ إلى مختلف القبائل علهم يجيرونه من طالبيه ، فألفى الأبواب أمامه موصدة والأشراف منه نافرة للشرف البالغ الذى كان يتمتع به زهير ، ولعظم المصيبة فى فقده .

ضاقت على خالد الأرضُ بما رحبت وعلم أنه هالك لا محالة ، وأنه جر على قومه حربا ضروساً سيفنى فيها العدد الوفير ، فيا شؤم ما جرت يداه ، واقترف من كبيرة ! . وحين دبَّ اليأس فى فؤاده وكاد يستسلم لقبضته العاتية ، وهى تعتصره ، وتسد فى وجهه المنافذ ، لاح له بصيص من أمل فى جوار النعمان بن المنذر

ملك الحيرة ، حتى وصلها وهو لا يكاد يصدق بالنجاة ، واستجار بالنعمان ، فأجاره، ؛ وهدّأ روعه ، وسكّن جأشه ، فأيقن بالسلامة .

أنزل النعمان خالداً منزلا كريما ، وأمر خدمه برعايته وأخيه ، وطلب إليهما أن يحضرا طعامه ومجالس أنسه ولهوه وشرابه ، فكان ذلك فوق ما أمّل خالد وقدر .

أما بنو عبس فلم تهدأ ثائرتهم ، وحين علموا أن خالدا صار للنعمان جارا صمموا على محاربة بنى عامر ، وأخذ قيس بن زهير يعد للحرب العدة ، ويجمع الرجال والعتاد ، حتى صارت أسبابها لديه حاضرة ولم يبق إلا المسير لغزو بنى عامر فى ديارهم أخذاً بثأره ، وانتقاماً من عدوه . حينذاك قال له الحارث ابن ظالم :

— يا قيس ! أنتم أعلم بحربكم ، أما أنا فسأرحل إلى خالد حتى أقتله :

— قد أجاره النعمان ، فأنّى لك به ؟

— لأقتلنه ، ولو كان فى حجره .

— دونك وما تريد ، وما ذلك على شجاعتك وبأسك ببعيد . أما نحن فوجهتنا بنو عامر ، ليلاقوا وِزْرَ ما جرّه عليهم سفهاؤهم ، فلنسأل الله أن يكتب لك السلامة ، ويكتب لنا الظفر .

كان الحارث فتى لا كالفتيان ، ريانَ الشباب ، فارع العود ، مفتول الساعدين ، قوىّ العضل ، متين التركيب ، ينبؤك جسمه بفتوة بالغة ، وأيْدٍ عظيم . وكان فوق هذا وَسِيماً ، جميل الطلعة ، حلو الحديث ، ومن أعلم العرب بأيامهم ، وأخبار فرسانهم ، ومواقف النخوة والفتوة التى وقفها أبطالهم ، والمعممة

يستعر لظاها . وكان يَرْوى كثيراً من أشعار الحماسة والبأس . كما كان فارساً شهما خبيرا بالقتال وأساليبه ، ذا فؤاد جَلْد ثَبْت على الحوادث .

فلا بِدْع إذا رأيته يخرج وحده ليقتل جار النعمان ملك الحيرة أخذاً بثأره وغسلا للعار الذى لطخ به قومه ، فقصد صَوْبَ الحيرة ، يتبعه رجل من بنى محارب حتى أتى باب النعمان ، فاستأذن ، فأذِن له النعمان ، وفَرِح به فرحا عظيما ، وأقبل عليه يحدثه و يؤاكله تمرا ، وسُرَّ من حديثه ووجد فيه متعة ولذة فأصغى إليه دون جلسائه جميعاً ، وكان من بينهم خالد بن جعفر — والحارث لا يعرفه — فلدغت الغيرة والحسد أفئدةً منهم ، وكان فؤاد خالد أشد تألما ، وأعظم كمدا فقال للحارث :

— يا أبا ليلى ألا تشكرنى ! .

— من أنت ؟ وعلام ؟ .

— أنا خالد بن جعفر ، وقد قتلت زهيراً ، فصرتَ بعدة سيد غَطَفان .

لم يقدِّر الحارث أن القِحة تبلغ بخالد ما بلغت ، حتى يتبجَّح أمامه بأنه قتل سيدَ قومه و يطلب منه الشكر عليه ، وعلم أن خالداً ما تجرأ على هذا إلا لاحتمائه بالنعمان وكانت فى يد الحارث تمرات ، فاضطربت يدُه حين سمع ما قال خالد وأخذته رِعدة ، وجعل التمر يسقط من يده وهو يقول :

— أنت قتلته ! ! أنت قتلته ! ! .

فلما رأى النعمان ذلك ، وهو يعلم مَن الحارث ، وما بلغ من قوته وشجاعته و بصره بالقتال — نخس خالداً بعصاه ، وقال له :

— هذا يقتلك .

— أَبَيْتَ اللعن ! فو الله لو كنت نائماً ما أيقظنى ! .

فكظم الحارث غيظَه ، وهَدَّأ نفسه ، ولم يشأ أن يهدد أو يتوعد ، أو ينم عن ذات فؤاده ، وزال مابه من رِعدة ، فاستأنف حديثه ليّنا حلواً ممتعاً كما كان ، وتقشع اربدادُ وجهه ، وعلته ابتسامته السابية ، كأن لم يكن منذ هنيهة قد تغير وامتقع . وبرهن بضبطه خلجاتِ نفسه ، وتحكمه فى أحاسيسه وأعصابه على هذه الصورة البليغة على أنه رجل قد نضجت رجولته ، وليس فتى حدثا تستفزه الحوادث ، ويفلِت من يديه زمامُ نفسه .

وانصرف السُّمار من لدن النعمان ، وانصرف خالد وأخوه معهم ، وما دنت الريبة من فؤاده قط ، فى أن الحارث يضمر له شراً ، أو أنه يستطيع أن يخفِر ذِمام النعمان ، وهو الملك القوى الطويل الباع . وكان من عادة خالد إذا دخل قبته أشرجها[١] زيادة فى الحيطة ، ففعل ذلك كعادته واستسلم لنوم عميق يزيده هدوءاً هواء البيد الرّقراق ، ونسيمها البليل .

أما الحارث فقد لبث عند النعمان قليلا بعد انصراف السامرين ، ثم استأذن ونفسه الفتية يجيش فيها الغضب المكبوت كالمرجل ، وبوده لو وجد خالداً أمامه حتى يفتك به فتكة تكون عبرة لسواه من المغرورين الجبناء ، ولكن خالداً كان قد أوى إلى خيمته مطمئنا وادعاً .

وحين انتصف الليل أوكاد ، وهدأت العيون ، وأطبقت الحِيرة أجفانها تحتضنها البيداء فى رفق وحنان ، وتنفحها بنسيمها العَطِر الناعم ، تسلل الحارثُ وحده ، وسيفه فى يمينه مُصْلَتاً ، وأخذ يتحسس طريقه حتى وصل إلى قبة

---

(١) أشرج الخيمة : أدخل بعض عراها فى بعض بين أشراجها .

خالد فى فناء قصر النعمان ، وكان الحراس قد غلبهم النعاس وأمال رءوسهم ، فلم يستيقظوا لخطواته الخفيفة المطمئنة ؛ ثم هتك عُرَى القبة بسيفه ، ودخل رابطَ الجأش ، فألفىٰ خالداً نائما ، وأخوه إلى جنبه . فأيقظ خالدا ، فاستوى قائما فزعا ، ورأى الموت أمامه عيانا ، فقال له الحارث :

ـ يا خالد ! أظننت أن دم زهير كان سائغا ! ؟ أوَحسبت غطفانَ تدع لك دم ربِّها ، وتتركك وادعا فى ظل النعمان تتمتع بجواره ، وطعامه ، ومجالس طربه ؟ لقد أقسمت لأقتلنَّك ولو كنت فى حِجْره ، وهأنذا أبر بقسمى .

ثم علاه بسيفه حتى قتله . وانتبه عُتبة فرأى أخاه مضرجا بدمه . فقال له الحارث فى صوت ملؤه الجد والصرامه :

ـ لئن نبست لألحقنك به ! .

انصرف الحارث ، ووجد تابعه ينتظره بفرسه خارج الفناء ، فاعتلى كلاهما جواده ، ووكزه فمضى يستبق الريح ، ويطوى بساط البيداء طيا سريعا ، وقد قرّت عينُه ، وانفثأ غضبه ، وسكنت نفسه .

وخرج عتبة على أثره صارخا حتى أتى باب النعمان ، وهو ينادى : ياسوء جواره ! ياسوء جواراه ! .

فأجيب : لا رَوْعَ عليك !

فقال عتبة لرئيس الحرس ، وقد أسرع إليه : دخل الحارث على خالد فقتله ، وأخفر الملك ، فياسوء جواراه ! .

كان رئيس الحرس يعلم مكانة الحارث بن ظالم ، وعزة قومه ، وشدة بأسهم ، فلم يستطع أن يبتّ فى الأمر من ذات نفسه ، ويرسل خلفه بعض

رجاله ، ولكنه كان يعلم كذلك أن الملك قد أجار خالداً ، وأن الحارث قد أخفر ذمام الملك ، وأن هذه إهانة عظيمة ، وإثم كبير . فلم يجد بداً من إخبار مولاه ، فأوحى إلى بعض الجوارى بذلك ؛ فبُهت النعمان حين أفضت إليه بالخبر ، واستعظم ما اقترف الحارث ، ووجه الفوارس فى طلبه ، وأمرهم أن يأتوا به حياً أو ميتاً ، وحذرهم بأسه وسطوته ، وشدة مِراسه .

اختار رئيس الحرس ثُلّة من أشد رجاله بأساً وأيداً ودُرْبة ، فانطلقوا على جيادهم الفارهة المضمَّرة ، وعند السحر سمع الحارث ورفيقه وقع حوافر الخيل تَجِدُّ فى أثره ، فوكز كلاهما جواده واستحثه على الإسراع ، ولكن أنّى لجواديهما أن يسبقا خيول النعمان ! ؟ ولما لم يجد الحارث من المعركة بدا ، انتحى ورفيقه ناحية من الطريق ، وانتظر فى ثبات وصبر فوارس النعمان .

فلما حاذَوْه انقض عليهم ورفيقه فقتلا جماعة منهم ، وقُتل كذلك تابعه ، وبقى الحارث وحده ؛ فتكاثروا عليه ؛ بيد أنه كان الفارسَ المحنك فلم يروعه عددهم ، وكان يتقى ضرباتهم بحذق وحيلة ويشد بسيفه عليهم ، فلا يضرب فارساً إلا قتله ، ولا يقصد جماعة إلا فرقها ، ثم إذا تكاثروا عليه كرة أخرى راغ منهم ، وانثنى فى عُنفوان ، وبأس ، وحماسة ، يروى سيفه من دمائهم ، ويغمسه فى أفئدتهم . ووجد القوم أنهم أمام شيطان مَريد ، وفارس عنيد ، وبطل صنديد ، فارتدعوا عنه ؛ ولما رأى أنهم قد هابوه ، وأن هجماته قد ألقت فى قلوبهم الرعب ، لوى عِنان جواده ، وانطلق يعدو لِطِيَّته ، وقد أثخنته الجراح ، ولكنه لم يأبه لها ، وظل جوادُه يسبح فى الجو كأنه طائر حبيس قد فر من قفصه .

أما فوارس النعمان فقد رجعوا إليه يجللهم الخزى ، ويحدوهم العار ، ويزفهم الانكسار .

وذهبت قصة الحارث بن ظالم مع خالد بن جعفر فى شتى نواحى البيد ، يحكيها الناس بالإكبار والإعجاب ، ويسردها الفتيان فى منتدياتهم ، والنساء لأولادهن . ولكنّ حسّاد الحارث كانوا كثيرين ، فلم يستسيغوا هذا النصر ، وقال عمرو بن الإطنابة أحد شانئى الحارث وحساده .

عَلِّلانى وعللا صاحبيا واسقيانى من المروّق ريا
إنّ فينا القيانَ يعزفن بالضَّر ب لفتياننا ، وعَيْشاً رَضِيا
يتناهَيْنَ فى النعيم ويَضْرِ بْ نَ خِلال القرون مِسْكا ذكيا
أبلغِ الحارثَ بنَ ظالم الرعـ ـديدَ والناذرَ النذورَ عليّا
إنما تقتل النِّيام ولا تقـ ـتل يقظانَ ذا سلاحٍ كَمِيّاً[1]

لبث الحارث فى قومه حيناً ، وفى كل يوم يلقى من إعزازهم له ، وتكريمهم لشجاعته وبأسه ، ولغسله العار عنهم ، وللأخذ بثأرهم ، ما جعله يفنى فى حب قبيلته ، والذود عنها ، ويُنذر النذور ألا يفرّط فى حقوقها ، أو يدع عدواً يكيد لها هادىء البال .

وكانت بعض جراحه عميقة ، ولكن شبابه ، وفتوته وحيويته ، وما أحيط به من عناية ورعاية ، جعل البرء يمشى إليه سريعاً ، فاسترد صحته وعافيته ، وعاد إلى امتطاء جواده الذى شاركه المعركة مع فوارس النعمان . ولما سمع بما

(١) الكمى : الشجاع ، أو لابس السلاح .

قاله عمرو بن الإطنابة صمم على أن يسير إليه ، ويبارزه ، ليريه أىّ فارس هو وأنه لا يقتل النيام ، ولكن يُردى فى حومة القتال أشجعَ الفوارس ، وأكملهم عُدّة وسلاحا .

كان عمرو بن الأطنابة فارساً معدوداً فى قومه ، له صيت وله بأس ، ومواقفُ محمودة ، وأيام مشهودة ، وكان مشهورا بنجدته ، وكرمه ، واعتداده بنفسه ، حتى لقد أقسم ألا يدعوه رجل بليل إلا لبّى دعوته ، ولم يسأله عن اسمه ؛ لفَرْط ثقته بنفسه ، ولعظم ما كَلِف به من المروءة والنجدة وإغاثة المضطر .

فلا عجب إذا نفِس على الحارث بن ظالم مكانته ، وما يتمتع به من صيت مديد ، وإنما ينفس على المرء نظراؤه ولِداتُه . وكان الحارث يعلم عن عمرو شيئاً كثيراً ، ويعلم قَسَمه هذا ، وأنه ليس له بند ، إذا جد الجد .

أتى الحارث حى عمرو بن الإطنابة ، وأخذ يسأل حتى اهتدى إلى خيامه ، فلما جَنّ الليل هتف به ، فخرج إليه ، لا يسأله عن اسمه ، بل قال له :

— ما تريد ؟ .

— أعنّى على إبل لبنى فلان ، وهى منك غير بعيد ، وإنها لغنيمة باردة ! .

— لقد دعوتَ سميعاً .

ثم دعا عمرو بفرسه وأراد أن يركب حاسراً ، غيرَ شاكى السلاح ، فقال له الحارث : البس عليك سلاحَك ، فإنى لا آمنُ امتناعَ القوم ، والحذر جُنة وربما دارت بيننا وبينهم معركة .

فاستلأم عمرو وخرج معه بكامل سلاحه ، فلما برزا فى الأرض الفضاء ، وبعدا من مساكن القوم ، قال الحارث لعمرو :

— يا عمرو أيكما أشجع أنت أم الحارث بن ظالم ؟ .

— لو التقينا وشهدت صراعنا لعلمت أنه لا يثبت لى فى معركة ، ولا يقوى على ضربات حسامى .

— وكيف هذا ؟ أوما سمعت ما فعله بخالد بن جعفر وبفوارس النعمان ، وأظنك قد قلت فى هذا شيئاً من الشعر ، فبربك إلا أعدته على . . . فأنشد عمرو أبياته فى هجاء الحارث . فقال هذا :

— أظنك قد ظلمته .

— لا والله ما ظلمتُه ، وإنه ليعلم أىَّ فتًى يلاق ، حين أثبت له .

— إذاً خذ حذِرك يا عمرو ، فأنا أبو ليلى وقد دنت ساعتك .

بُهت عمرو لهذه المفاجأة ، ورأى أن الحارث غيرُ تاركه إلا قتيلا مُعفرَ الوجه ، لكن عزَّ عليه أن ينهزم أمامه ، ويستسلم له طواعية فقال :

— لبيك يا حارث ! فطالما تمنيتُ هذه الآونة حتى أشفى ما فى صدرى بقتلك

— خلِّ عنك هذا وخذ حِذرك ، فلا يجدى تشجيعُك نفسَك شيئاً .

واحتدم القتال بين الفارسين برهة ، ثم أطاح الحارث بضربة حاذقة شديدةٍ السيفَ من يد عمرو ، ووضع ظُبةَ حسامه فى نحره وقال له :

— كيف ترى نفسك ، وهل ترى الحارث بن ظالم رعديدا ، لا يقتل إلا النيام ، ويخاف من الكماة الأبطال ؟ ! .

— اقتلنى بربك ، فالقتل أحبُّ إلىَّ من العار .

— إنى لا أحب قتل مثلك ، ففيك من النجدة ، وحب الخير ما يدعونى للمن عليك ، والعفو عنك .

ثم جز ناصيته وأطلق سراحه وقال :

عَلِّلانى بلذَّتى قينتيّـــا قبلَ أن تبكىَ العيونُ علَيّا

قبلَ أنْ تذكر العواذلُ أنى كنتُ قِدْما لأمرِهِنَّ عصيـا

ما أبالى إذا اصطبحتُ ثلاثا أرشيداً دعوتنى أم غويا

غيرَ ألا أسِرَّ لله إثمـــا فى حياتى أولا أخون صَفِيا

بلغتنى مقالةُ المرءِ عمـرٍو بلغتنى ، وكان ذاك بَدِيا

فخرجنـــا لموعــد فالتقينا فوجدناه ذا سلاح كَمِيا

غيرَ ما نائم يُروِّع بالليـ ـل مُعِداً بكفه مَشْرَفيا

فرجعنا بالصفح عنه وكان المـ ـنُّ منَّا عليه بعدُ تَدِيا

تأبط شراً

حملت به أمه كرها[1] ، ووضعته كرها ، فجاء آية فى الذكاء ، وحِدة الخاطر ، وشجاعة الفؤاد ، وعظيم الحيلة ، ثم تيتم وهو طفل ، فعركته الشدائد وشحذت همته الحاجة ، ولم يجد حوله معينا أو نصيراً ، فقويت ثقته بنفسه ، واعتماده على ساعده وضربة سيفه . لم يألف تربية الأب وتدليله ، وابتسامته وتقبيله ، وإنما نشأ فى حِضن أمه ، تحثه على طلب العيش لنفسه ولها ، وأنَّى له أن يجد اللقمة قريبة المنال ، كما يجدها أبناء السَّراة والأثرياء من القبيلة ، وقد خلَّفه أبوه صِفر الكف إلا من نفس كبيرة ، فلا إبل يرعاها ، ولا حمىً يحمى ذماره ، ولا جياد يتيه بركوبها عُجْباً وخُيلاء ، ويُغير بها على الأعداء ، فيأسر ويغنم ، ويملأ بيته خيرا كما يفعل المياسير الشجعان . وكان ذا نفس أبيَّة ، وعزمة قوية ، فأنِفَ من أن يعيش عالة على غيره ، ينتظر البر يناله من ذى ميسرة عطوف ، أو ذى رحم كريم ؛ أو يستندى الأكفَّ ويُريق ماء وجهه وكرامته ، ويُقَطِّعه مِزَقا فى سبيل ملء البطن .

أجل ! إن ديارهم كانت مجدبة ، يجوع فيها الإنسان ويَعْرَى ، إن لم يتحول عنها فى طلب الكلأ والخصب والماء ، وهكذا كان شأن ذوى اليسار من القبيلة يكثرون من النُّجْعة ، ويرتادون مواطن العشب والرِّى ، ويسوقون نَعَمهم آلافاً ، ومعهم غيرهم من أفراد القبيلة ؛ حتى لا تنحل عُرى وحدتهم ، ويطمع فيهم جارٌ قوى ، أو عدوٌ بطاش ، فيأسرهم ويُذلهم .

---

(١) العرب يعتقدون أن المرأة إذا حملت وهى مغضبة أنجبت .

فى هذه البيئة الخشنة الجاسية ، وفى هذا البيت المعدم الحزين ، وفى حِضْن هذه الأم الغليظة ، نشأ ثابت أبو زهير بن جابر مرهف الحواس : يسمع مشى القطا فى سكون الليل ، ويشم رائحة الظباء قبل أن تتراءى للعيون ، ويرى فى فُسحة الصحراء وصفاء الأفق لمسافات شاسعة . وكان إذا خرج للصيد أو الغارة حسبته شيطانا ، فكلُّه حواس يقظة متوثبة .

إذا فات شىءٌ سمعَه دلَّ أنفه ... وإن فاتَ عينيه رأى بالمسامع

قليلُ نُعاس العين إلا غيابة ... تمرُّ بعينىْ جاثم القلبِ جائع

إذا جَنَّ ليلٌ طاردَ النومَ طرفهُ ... ونص هـدى ألحاظه بالمطامع

يراوح بين الناظرَين إذا التقت ... على النومِ أطباقُ العيون الهواجع

كان يترصد أسراب الظباء عند موارد الماء ، وهو بعد صبى حَدَث ، فيتخير تلك التى قد اكتنزت لحما وقد طُبِّقت شحما ، فيعدو خلفها وهى تقفز فزِعةً ، وتسابق الريح جريا ، ولا يلبث أن يقبض عليها بِجُمْع يديه . وكان كثيراً ما يُرى متأبطاً سيفه تاركا بيته فى غَزاة أو صيد ، فإذا سئلت عنه أمه أجابت : « لا أدرى لقد تأبط شرًّا وخرج » ، فغلب عليه اللقب وعُرف به ونسى الناس أن اسمه ثابت أبو زهير بن جابر ، وقالت له أمه ذات يوم إبَّان الكَمْأة : « ألا ترى غلمان الحى يجتنون لأهلهم الكمأة فيروحون بها ! » فقال لها : « أعطنى جرابك حتى اجتنى لك فيه » فأعطته ، فملأه لها أفاعى من أكبر ما قدر عليه ، ووضعه بين يديها ، وكأنه بهذا ينبئها أنه أعظم همة من أن يجتنى الكمأة كما يفعل الغلمان الضعاف ، قليلو الحيلة الذين تعوزهم الجرأة والقوة والرأى .

ولقد زاد من شقاوته ، وشحذ من ضرواته ، وهيأ له أسباب التمرد والجفوة والشدة والفتك ، إن أمّه أبت أن تظل بغير بَعْل ، وأن ترضى بابنها واليا يُعِزُّها ويترضاها ، ويضعُ بين يديها كل ما جنت يداه ، فتزوجت أبا كبيرِ الهُـذَلِي الشاعرِ المُفْلِق ، و « ثابت » لا يزال غلاما صغيرا ، فاشمأزت نفس الصبى ، ونفر من هذا الدخيل على حَرَمه ، وكره من أمه ما أتت ، وكان لا يراه أبو كبير إلا مُرْبَدَّ الوجه مقطَّب الجبين ، كأنه ينوى شرا بأحد ، وازوَرَّ عن أمه وصدف عن ترضيها ، دون أن يجرحها بقول أو فعل ، ولكنه كان صموتا حذِرا ينظر إليهما شذراً ، ويطوى فى حنايا نفسه أمرا .

فلما ترعرع ، ورآه أبو كبير يزداد كل يوم صلابة عود وجرأة جنان ، وطلاقة لسان ، وإحكام رَمِيَّة ، وسرعة عدو ، خشى على نفسه منه ، فقال لأمه : « ويحك قد والله رابنى أمرُ هذا الغلام ولا آمنه ، فماذا ترين ؟ » . قالت : « فاحتل عليه حتى تقتله » ، وهكذا باعته أمه بِيعة بخس ، ولكن هيهات ! فهو فى حصانة من نفسه عن أن يمسه سوء من قبل أمه أو زوجها .

طفق أبو كبير يفكر فى أمره وأمر الغلام ، وكيف يتأتى له أن يقتله ! ، بات فى هذا الشأن فى همٍ مقيم ، حرمه الكرى خشية أن يثب به الغلام فيرديه لأنه حرمه أمه وهى — على ما بها من خشونة وجفوة ، وغلظ كبد — كل ماله فى هذه الدنيا ، والتى من أجلها ألف الوحش واستطاب العزلة ، وأمعن فى الغارة ، واقتحم على الموت عرينه مراتٍ ومرات ؟ لا يفكر إلا أن خَلْفَه أمًا تكاد تهلك مَسْغَبَةً وعُريا ، فيزداد جرأة وإقداما على الموت حتى يَرُدَّ عليها الحياة أو ينيلها ما تشتهى .

ومضت أيام وأبو كبير لا يهتدى لحيلة أو يوفق لرأى ، وبينا هو فى نَدِىِّ قومه ذات مساء ، والقوم يسمرُون ويروون أخبار فتيانهم ، وكلٌّ يباهى بشجاعة ابنه وفتوته ، ويفخر على عشيرته بما أبلى به من الغارات أو النجدة أو السباق . ولم يسمع القوم لأبى كبير صوتاً مع أنه يأوى فى بيته أشجع الفتيان وأكبرهم همة ، وأجرأهم جناناً ، وأشدهم فتكة ، فسأله أحدهم :

— ما بال شاعر القوم لا يثنى على ثابتٍ ربيبه ، ويطرى بأسه وأيْدَه ، وقوة مِراسه ، وواسع حيلته ، واسمه تتضاءل أمامه هذه الأسماء ، وتتطامن خزياً ، فما صارعه منهم غلام إلا صرعه ، ولا سابقه عَدَّاءٌ إلا سبقه ، ولا بارزه فارس إلا كاد يفتك به .

فقال أبو كبير : « لم يصل إلىَّ من نبأ هذا شىء ، وهو غلام صموت ، ينطوى على نفسه فلا نعرف له سراً ؟ » .

— أو لم يبلغك أنه عزم على أن يتزوج الغول[1] ، وأنه يغشى مأواها ويتخذها خليلة وجارة ؟ ، وهذا لعمرى ما لم يجرؤ عليه إنس من قبل ، وهو غاية ما تصل إليه السطوة والبطش .

فامتقع وجه أبى كبير ، واضطرب فؤاده ، وتراخت أعصابه ، ورأى فى مثل لمح البصر يدَ هذا الغلام تقبض على عنقه بصرامة وقسوة فتستل روحه ، وتدعه جثة هامدة ! ! ولـكنه تماسك وتجلد وقال وهو يتصنع الدهشة :

— أوَقد فعل ؟

---

(١) الغول : حيوان خراف من تخيلات العرب : ويقول الشاعر .

أيقنت أن المستحيل ثلاثة   الغول والعنقاء والخل الوفى

— ألم تسمع شعره الذى يقول فيه :

فأصبحت والغـــولُ لى جارةٌ فيا جارةٌ أنت ما أغولا !
ومن يك يســـأل عن جارتى فإن لهـــا باللِّوى منزلا !

كان هذا فوق ما يطيق أبو كبيرٍ سماعُه ، فلم يَلْبث إلا هنيهة حتى التف بشملته ، وحيا القوم وانصرف ، وهم فى عجب من أمره ، إذ لم يعقب ولداً ، وأحرى به أن يفخر بربيبه هذا ، وهو مَنْ هو من بلاغة مِقْول ، ونجدة ، وجرأة ، وهمة . ولم يعلموا ما يساوره من القلق ، وما يَحْزِبُه من الجزع والخوف على نفسه ، لأنه تطاول وتزوج أمّ هذا الشيطان ، ولم يدروا أن تأبط شراً يحقد عليه ، ويتربص به الدوائر ، وأنهم كلما ذكروا بأسه وشجاعته ازداد منه أبو كبير رعباً وخشية .

مضى عام أو بعض عام ، وأبو كبير بَرِمٌ بحياته وحياة هذا الغلام ، يراه غُصّة فى حلقه ، وشجىً فى نفسه ، وقذىً فى عينه ، وكلما سمع الناسَ يفاخرون بشجاعته وحيلته ازداد هماً ومرض غماً . وزاد الطين بِلّةً أن تأبط شراً كان فتىً حلو اللسان بليغاً ذَرِباً يأسر من يحدثه بفصاحته وعذب حديثه ، وأنه كان كريماً ذا مروءة وشهامة ، يعين الـكَلّ ، ويطعم الجائع ، ويغيث الملهوف ، يسعده أن يشركه طعامه ضيف ، ويقتسم ماله ذو عَيْلة ، أو جار معدم ، لا يبقى شيئاً مما يغنمه فى الغزو بل يفرقه على فقراء العشيرة بنفس سمحة رضية ، فأصبح محبباً إلى كل نفس ، عزيزاً على كل قلب ، إلا قلب أبى كبير الهذلى ونفسه لا مِراء . ولا سيما والفتى يقابله دوماً بتجهم وغطرسة وازدراء ، يتحاشى مجلسه ويشيح بوجهه عنه إذا رآه ، وأحياناً يتمتم فيحسب أبو كبير تمتمته توعداً

وتهديداً ، بينما هو مع غيره من الناس طَلْقُ الوجه ، لطيفُ العشرة ، رقيق الحاشية ، جذاب الحديث ، حَسَنُ البِشر ، فيمِضُّه ذلك ويؤلمه ، ويتمنى أن تنزل عليه صاعقة من السماء أو تخسف به الأرض ، حتى تهدأ نفسه وتزول وساوسه ، وتذهب هواجسه ، وتعود إليه طمأنينته التى فارقته منذ أن منى بأم هذا الشيطان .

وفى ذات مساء ، والقوم يسمرون كعادتهم فى نديهم ، وقد عاودوا ذكر فتيان الحى وما يأتون به من ضروب الفروسية والحمية ، وأبو كبير معهم يخوض فيما يخوضون فيه ، ويروى من نوادر الشجعان مثل ما يروون ، ولكنه يتحاشى ذكر ربيبه تأبط شرا ، حتى لا يسمع من أمره ما يزيد جزعه ورعبه، ولكن كيف يذكرون أولى النجدة والفروسية من شباب الحى وينسون تأبط شراً وهو منهم فى الطليعة ، فقال أحدهم : أو ما سمعتم حادثة تأبط شراً وابن برّاق مع بجيلة ، فتساءلوا فى لهفة عما حدث إذ كان بينهم و بين بجيلة عداوة قديمة وإحَنٌ وأحقاد . فقال المتحدث : « فى ليلة عارية تَقِفُّ من بردها الأطراف وتيبَس ، والريح تزفزف وتلهب بسياطها الوجوه ، والظلام يتراكم كِسَفاً كأن الدنيا كهف بعيد الغور شديد العتمة ، أغار تأبط شراً وابن براق على بجيلة ، وساقوا بعض نعمها ، فأحس بهم القوم ، وخرجوا فى آثارها ، فمضيا هاربين فى جبال السَّراة ، ولزما الأرض الوعرة وأعالى الجبال ، وعارضتهما بجيلة فى السهل ، وسبقوهما إلى عين ماء بالطائف ، واختبئوا فى دغَل قريب من العين ينتظرون قدوم المغيرين ، وهما لا يدريان من أمر المطاردة شيئاً . ثم جاءا العين وقد بلغ منهما العطش مبلغاً عظيما .

فلما وقعا عليها قال تأبط شراً لابن براق : « أقل من الشرب فإنها ليلة طراد ! » .

— وما يدريك ؟

— والله رب الأرض والسماء إنى لأسمع وجيب[1] قلوب الرجال تحت قدمى

— ذلك وجيب قلبك .

— والله ما وَجَبَ قط ولا كان وجّابا .

وضرب بيده عليه ، وأصاخ نحو الأرض يستمع ، ثم قال :

— فورب السماء إنى لأسمع وجيب قلوب الرجال .

— فإنى أنزل قبلك .

— « إنهم سيتركونك ، فلست المعنىّ بالطراد . ولكنهم يقصدوننى ، فإذا أخذونى ، وطلبت إليك أن تستأسر معى ، فاعدُ بين أيديهم ، ثم أظهر الكلال والتعب حتى إذا طمعوا فيك ، وقلت : « خذوه ، خذوه » فأجدّ فى عدوك إذ أكون قد انطلقت » .

ثم نزل ابن براق ، وبرك وشرب ، وكان أقل المغيرَيْن شوكة ، وأضعفهما بأسا ، فلم يَعْنَ به القوم ، وتركوه وهم فى الظلمة لايراهم ولا يحس بهم . ثم نزل تأبط شراً ، وما كاد يتوسط الماء حتى وثبوا عليه فأخذوه ، وأخرجوه من العين مكتوفا ، وابن براق قريب منهم لايطمعون فيه لما يعلمون من عدوه ، فقال لهم ثابت ، إنه من أصلف الناس وأشدهم عجبا بعدوه ، وسأقول له : استأسر معى فسيدعوه عجبه بعدوه إلى أن يعدو بين أيديكم ، وهو واثق من

(١) خفقان القلب ، وكان من أسمع العرب وأكيدهم .

نفسه أنه إذا أنطلق لايلحق ، وله ثلاثة أنواع من العدو : أولها كالريح الهابة ، والثانى كالفرس الجواد ، والثالث يكبو فيه و يعثر ، فإذا رأيتم منه ذلك فخذوه فإنى أحب أن يصير فى أيديكم كما صرت إذ خالفنى . قالوا : فافعل .

فصاح به تأبط شراً : أنت أخى فى الشدة والرخاء ، وقد وعدنى القوم أن يمنوا على وعليك ، فاستأسر وواسنى بنفسك فى الشدة ، كما كنت أخى فى الرخاء فضحك ابن براق ، وعلم أنه قد كادهم ، وقال : مهلا يا ثابت ، أيستأسر من عنده هذا العدو ؟ ثم أخذ يعدو ، فانطلق أول الأمر كالريح كما وصف لهم ، وفى ثانى شوط كالفرس الجواد ، وفى الثالث جعل يكبو و يعثر و يقع على وجهه ، فقال ثابت : « خذوه ، خذوه » فعدوا بأجمعهم فلما أن نفسوا عنه شيئاً عدا تأبط شراً ، وهو مكتوف ، وعارضه ابن براق فقطع كتافه ، وأفلتا جميعاً وتركا بجيلة فى حسرة وندامة لخسرانها نعمها ، و إفلات عدوها من يديها !!

وما أن فرغ من قصته حتى أخذ القوم يتضاحكون و يتندرون على بجيلة و يثنون على تأبط شراً ، و يفخرون بحسن تأتيه للأمور ، ونُضج رأيه وشدة مِراسه ، وقوة حواسه . ولكن شخصاً واحداً من بينهم كان كئيباً واجماً حزيناً ؛ كأن هذا الثناء سهام تحزُّ قلبه وتُدميه وكأنما هو شيخ بجيلة ، قد آلمته وحزت فى نفسه الخيبة . كان ذاك الشخص أبا كبير الهُذَلى ، وحق له أن يأسى ويضطرب ، وهو يرى ربيبه يشتد ساعده كل يوم ، و يبلى فى الغارة بلاء حسناً ، وقد أبرم أبو كبير أمره فى تلك الليلة ، وصمم على أن يقتله قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون أشد مَنَعَةً عليه وأقوى شكيمة ، وقبل أن يغدر به ويثب عليه أو يحتال لاغتياله . فنهض من نَدِيٍّ قومه وكله عزم وحزم على أن ينفذ ما ارتأى دون تريث أو تلوم .

لم يكن أبو كبير هيَّابة رعديداً ، بل كان شجاعاً فارساً ، وأنما كان يخشى أمر الغلام ، لأنه ربيبه ، ويبيت معه فى بيت واحد . أما وقد فوضته أمه فى قتله فلن يَثنيه عن ذلك شىء .

قال له فى الغد : هل لك فى أن تخرج معى للغزو ؟

فقال : ذاك من أمرى . قال : فامض بنا ، فخرجا غازيين ، ولا زاد معهما ، فسارا ليلتهما ويومهما من الغد ، حتى ظن أبو كبير أن الغلام قد جاع فلما أمسى قصد به أبو كبير قوماً كانوا له أعداء ، فلما رأيا نارهم من بعد ، قال له أبو كبير : ويحك ! قد جعنا ، فلو ذهبت إلى تلك النار فالتمست لنا منها شيئاً !

فمضى تأبط شرا ، فوجد على النار رجلين من ألَصِّ العرب ، وأشدهم فتكا ، وقد أرسله أبو كبير ثمة ليقتلاه ويتخلص منه ، ويبرأ من دمه أمام قومه ، فلما رأياه قد غشى نارهما وثبا عليه ، وكان أحدهما أدنى إليه من صاحبه فأردى القريب منه فخر صريعاً ، وكر على الآخر فرماه ، وذاك فى سرعة وخفة ، وبطعناتٍ نافذاتٍ شديدات من يد حاذقة صلبة ، ثم جاء إلى نارهما فأخذ الخبز منها ، وأتى به أبا كبير فقال له : كل ، لا أشبع الله بطنك ! ولم يأكل هو ، فقال له : ويحك أخبرنى عن قصتك ، فأخبره ، فازداد منه خوفاً ورعباً ، وأمسى منه على حذر شديد .

ثم مضيا فى ليلتهما فأصابا إبلا ، وكان يقول له أبو كبير ثلاث ليال : اختر أى نصف الليل شئت تحرس فيه وأنام ، وتنام النصف الآخر ، وفى كل ليلة يقول له تأبط شراً : « ذلك إليك . اختر أيهما شئت » . فكان أبو كبير ينام أو يتظاهر بالنوم حتى ينتصف الليل ويحرسه تأبط شراً ، والله يعلم أن الرجل ما كان يغشى عينيه الكرى ، وهذا الشيطان جالس على رأسه ، وكيف

يأتيه النوم وقلبه نَهْبٌ للهواجس والمخاوف ، وهما وحيدان فى فلاة مقفرة ؛ فإذا نام تأبط شراً فى النصف الآخر من الليل نام أبو كبير كذلك لا يحرس شيئاً ، إذ لم ينم أول الليل .

فلما كان فى الليلة الرابعة ظن أن النعاس قد غلب على الغلام ، لأنه نام أول الليل إلى نصفه ، وحرسه تأبط شراً ، فلما نام الغلام قال أبو كبير لنفسه : الآن يستثقل نوماً ، وتمكننى الفرصة ، فلما ظن أن الكرى قد أخذ بمعاقد أجفانه ، أخذ حصاة فحذف بها فهب واقفاً على قدميه وقال : ما هذا الذى أسمع ؟ قال : والله ما أرى لعل بعض الإبل تتحرك ، فقام وطاف بها فلم ير شيئاً ، فعاد فنام . فأخذ أبو كبير حصاة أصغر من تلك فرمى بها ، فوثب ، فطاف ورجع إليه ، فقال : يا هذا : إنى قد أنكرت أمرك ، والله لئن عدتُ أسمع شيئاً من هذا لأقتلنك ! قال أبو كبير : فبت والله أحرسه خوفاً أن يتحرك شىء من الإبل فيقتلنى .

أصبح الصباح ، ولم ينل أبو كبير وطره ، وولت منه الفرصة ولن تعود ، وتبين له أن ربيبه هذا داهية لا يغلب أو يختل ، فلما رجعا إلى حيهما آلى على نفسه ألا يدخل على امرأته حتى ترضى نفس تأبط شراً ويطمئن هو على حياته ، وآثر أن يعيش معه فى سلام ودعة ، وأنشد فى رحلته هذه قصيدة يصف بها تأبط شراً ويشير فيها إلى فتوته وطباعه :

وإذا نبذتَ له الحصاةَ رأيتَه ... ينزو لوقعتها طُمُورَ الأخيل[1]

ما إن يَمَسُّ الأرضَ إلا مَنْكِبٌ ... منه وحَرْفُ الساق طيَّ المِحْمَلِ

---

(١) الطمور : الوثوب ، والأخيل الصقر ، أى يثب حين تقع الحصاة كما يثب الصقر .

وإذا رميتَ به الفِجاج رأيتَه ... يَهْوِى مخارمها هُوِىَّ الأجْدل[1]

وإذا نظرتَ إلى أسرة وجهه ... بَرَقَتْ كبرق العارض المتهلل[2]

يحمى الصِّحابَ إذا تكون كريهةٌ ... وإذا هُمُ نزلوا فمأوى العُيَّل[3]

---

(١) الفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع في الجبل أو غيره ، والهوى : الاندفاع إلى أسفل ، والمخارم : جمع مخرم وهو القطع فى الجبل ، والأجدل : الصقر ، ومعنى هذا البيت أنه صاحب همة لا يعبأ بالصعاب .

(٢) الأسرة : الخطوط التى فى الجبهة يقول : إذا نظرت فى وجهه رأيت أساريره تشرق إشراق السحاب المتشقق بالبرق ، يصفه بحسن البشر وطلاقة الوجه وسماحته .

(٣) العيل : جمع عائل وهو الفقير ، يصفه فى هذا البيت بأنه شجاع كريم .

فتى كريم [1]

– أى حاتم ! إنى على سفر ، وقد خلّفتك فى مالى ، فأحْسِن القيام عليه والتعهدَ له ، ولا تكن مبذراً مِتْلافاً ، أو كزًّا كَنُوداً ، فالتبذير يورث الفقر ، والفقرُ ذُلّ ، والكزازةُ تعقب المذمّة وقالةَ السوء ، وللموتُ خيرٌ للفتى إن عاش فقيراً يتصعلك ، أو ذميا تتحاماه العشيرة .

– لقد نصحت واعياً يا أبتاه ، وأرجو أن تسعفنى خِلالى فلا أخيب ظنك ، أو أضيع نُصحك .

ومضى عبد الله بن سعد الطائى ، والد حاتم لطِيّته ، وخلَّف حاتماً يرعى ماله ، ويقوم بأمر العشيرة من بعده ، وشعر حاتمٌ أنه أصبح ذا تبِعات ، وأنه سيدُ نفسه ، والمتصرف فى مالٍ جمٍ ، وخيرٍ كثير . ونازعته نفسه منذ بَرِح والده إلى المكرمات ، وكان يتحرق شوقاً إلى أن يغنم لقومه وعشيرته حُسْنَ الأُحدوثة وطيبَ الذِّكْر بجميل الفَعال ، وهيهات أن تَثْنِيه نصيحة سمعها من والد برٍ حريص ، أو نظرةٌ إلى عواقب الأيام ، وما تتدخره من نوائب .

وكان حاتمٌ يخرج فى غلمانه لرعاية الإبل والغنم كل يوم ، ويظل يرتقب الطريق علّ غريباً قد أضرّ به الوَنى [2] ، أو نفِدَ منه الزاد ، يَقْرِيه التحية

---

(١) بلوغ الأرب للألوسى جـ ١ ص ٧٢ وما بعدها ، والأغانى جـ ٨ ص ٢٤٦ ، وذيل الأمالى ص ٢٢ ، و١٥٣ ، و١٥٤ وسمط اللآلىء ص ١٢ ، والعقد الفريد جـ ١ ص ١٠٨ ، وأمثال الميدانى جـ ١ ص ١٢٣ وde Percerval ص ٦١٣ جـ ٢ ، خزانة الأدب ط السلفية جـ ٤ ص ١٦٠

(٢) الونى : التعب والضعف .

فيقوم بحقه ، ويظهر له بالغ كرمه . وفى ذات يوم مرّ به ثلاثة نفر لم يتعرف على واحد منهم ، فسألوه القِرى ، فقال لهم : ويحكم ! أتسألون القرى ، وهذه الإبل والغنم أمامكم ، وما هى بالقليلة حتى تحجمون ، وما أنا بالبخيل الـكزّ حتى تترددون ؟ ؟ انزلوا على الرحب والسَّعة .

ونزل هؤلاء ، فنحر لـكل واحدٍ منهم ناقةً قد اكتنز لحمها ، وغَلُظ سِنامُها ، وكانوا جِياعاً قد نفِد منهم الزادُ منـذ يومين ، ولـكنْ هيهات أن يأتىَ أحدهم مهما بلغت به المَسْغبَة والطَّوى على ناقةٍ سمينةٍ وحدَه . وبعد أن أكلوا أطايب ما قُدِّم لهم ، وشربوا لبناً صَريفاً[1] ، واستجمت مطاياهم ، هبُّوا يواصلون الرِّحلة وألسنتهم تلهج بحمده ، وتُثنى على أريحيته وجوده ، فسألهم حاتم عن أسمائهم ، فعرف أنهم عبيد بن الأبرص ، وبشر بن أبى حازم والنابغة الذبيانى ، وأنهم فى طريقهم إلى ديار المناذرة يطلبون الرِّفد . فقال حاتمٌ : بخٍ بخٍ ! إن ضيوفى سادة الشِّعر فى البيداء ، والله لن تبرحوا حتى أقسم بينـكم كلَّ ما بين يدىَّ من إبل وشاء[2] ، وأخذ يفرق بينهم ما استخلفه أبوه عليه من مالٍ وأوصاه بحسن رعايته ، حتى لم يبق لديه من شىء وارتحل الشعراء بعد أن عرفوا أن هذا النجم الذى أخذ يتألق فى سماء الجزيرة ، فيبهر بسنا جوده كلَّ عين ، ويفتن كلَّ نفس ، ويخلب كلَّ لب ، اسمه حاتم طيْ .

وقرّت نفس حاتم بما فعل ، فقد حقق أمنية طالما جاشت فى صدره ، وكان عن إدراكها عاجزاً ، وقد كان سعيد الجدِّ إذ أصاب بكرمه شعراء أمجاداً ،

---

(١) اللبن الصريف : الذى حلب لساعته :

(٢) وشاء : جمع شاه .

سيذيعون فى الناس كرم طيء ، ويرفعون لها ذكراً ، ولم يخطر على باله هنيهة ما نصحه به أبوه ، ولم يفكر إلاّ فى أنه قد أتى أمراً حميداً .

ومرت الأيام وآب والده من سَفْرته ، ودُهش حين رأى المرَاح خِلواً من راغية أو ثاغية[1] ، وعجّل بسؤال حاتم عما صار إليه ماله ، فقال له حاتم : لقد طوقتك به مجد الدّهر طوق الحمامة ، وقصّ عليه نبأه ، وأخذ يُحَسِّن له ما فعل ، ويذكر له أن هؤلاء الشعراء سيشيدون بذكره ، وسيخلدونه على الأيام . ولكنّ والده أصمّ أذنيه فلم يستمع لدفاعه عن نفسه . وقال له : لقد ضيعتَ مالى ، وفرطت فى نصحى ، ولو بقيت معى لجلبت علىّ الفقر كلما أحسست بالغنى ، فلن أساكنك بعد اليوم أبداً ، ولا آويك أو أعينك ، فأنت وشأنك ، لقد ورثت خلال أُمِّك غنية بنت عفيف ولم ترث حِرْص أبيك .

فقال حاتم : أجل لقد ورثتها ووعيت قولها :

لعمركَ قِدماً عضنى الجوع عَضةً   فآليتُ ألاّ أمنع الدهرَ جائعا

فقولا لهذا اللائمى اليوم أعفنى   وإن أنتَ لم تَفْعل فعَضّ الأصابعا

يا أبتاه ! ليس فراقك بالأمر اليسير ، ولكنّ طاعَتك واجبة ، وإن مثلى لن يعدم قوتاً ، وأنا بعد فى ميعة الصبا وشرخ الشباب وسأفارقك مستجيباً لأمرك لا قالياً لك ولا زاهداً فى أبوتك ، ولعلك تراجع نفسك بعدُ ، فإن دعوتنى لبيتُ ، أطوع من بنانك ، وأمضى من حسامك .

كان حاتم على الرغم من حداثة سنه ، فارساً مِغواراً ، وكأنما خصّته العناية

---

(١) الراغية : الناقة ، والثاغية : الشاة .

بحبائها ، فكان إذا قاتلَ غَلَب ، وإذا غَنِم أَنْهب[1] ، وإذا ضرب بالقِداح فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أَسَرَ أطلق . ولذلك كان ميمونَ النقيبة لا يُقْدم على عمل إلا كُتب له فيه الفَلْج والنُجْح . ومن كان مثله فى شجاعة جنانه ، وطلاقة لسانه ، وروعة بيانه ، وسماحة يده ، وصرامة سيفه ، وأصالة عِرْقه لا يعيش بالبادية فى مَتْربة وفاقة ، وله فى غارات قومه على أعدائهم أو ردّهم عن ديارهم متسعاً لكسب الغنى ؛ ولذلك لم يلبث بعد أن فارق أباه إلاّ أمداً يسيراً حتى صار من أثرياء قومه ، وأعلام فرسانهم ، ومشاهير أجوادهم ، ورغب فيه عذارى طيء ، ولكنه لم يستجب لرغباتهم ، إذ سمع بجمال ماوية بنت عبد الله من بنى تميم ، كما سمع بجمالها سواه من فتيان قومه . وخرج هو وأوس بن حارثة الطائى فى طلب ماوية .

وجمعهما الطريق بزيد الخيل الفارس المُعْلِم ، ودَلف إلى باب ماوية بنت عبد الله ثلاثةٌ مِنْ خير مَنْ أنجبت الصحراء ، شجاعةً وبأساً وكرماً وسيادةً . وخطبها كلٌّ منهم لنفسه ، وأخذ يعدد مناقبه ، ولكنه آثرت حاتماً عليهم وتزوجته . وقد لامتها أمها لأنها اختارت المتلاف الذى لا يبقى من المال باقياً ، فقالت لها : يا أماه لعلى أصلح من شأنه ، فإن لم أستطع فسيُقْرنُ اسمى باسمه ، وسيكونان مثلاً شروداً فى النَّدى والجود .

ونزلت ماوية فى ديار طىء بين جبلين منيعين : أجاٍ وسَلْمى ، وفى البيت الرفيع العماد ، مَهْوَى الضالين ، ومقصد المعتفين ، وغِياث المحتاجين ، وأمَل المكروبين ، وسعدت أمدًا بما كانت تَرى وتسمع من كرم زوجها وأريحيته ،

---

(١) أنهب ماله : جعله نهباً للناس يأخذونه من غير مقابل .

وتوطيد سيادته ، وفى كلّ يوم يضرب فى الجود مثلاً يُزْرى بما سبقه ، وفى كل غارة يجلب لها من الخير والمال ما تَهش له نفسها ، وتُطْرى به جدَّها ، ولكنْ سَرْعان ما تراه يتبدَّد بين يدى حاتم فلا يُبْقى منه ولا يذر . ولقد رأته يوماً وقد وفَد عليه عبد قيس بن خُفافٍ البُرْجمى يَبُثُّه حاجته ، وأنه تَحمَّل فى قومه دِمَاء ، وتطَّوع لإصلاح ذات البين بينهم ، وأن يده قصرت عَن أن تفى بما تحمله ، وأبى قومه أن يعفوه ، وأمهلهم حتى يأتى من يحملها منه . وأنشده .

حملتُ دماء للبراجم جمّةً ... فجئتك لمّا أسلمتنى البراجم

وقالوا سِفاها : لِمْ حَملْتَ دمائنا ... فقلت لهم يكفى الحَمالةَ حاتمُ

متى آتِهِ فيها يَقُلْ لىَ مرحبا ... وأهلاً وسهلاً أخطأتكَ الأشائِم[1]

فيحملها عنى ، وإن شئت زادنى ... زيادة مَنْ حلَّت عليه المكارم

يعيش النّدى ما عاش حاتم طيءٍ ... فإن مات قامت للسخاء مآتم

وقال رجال : أَنْهبَ العامَ ماله ... فقلت لهم إنى بذلك عالم

ولكنه يعطى من اموال طيءٍ ... إذا جلَّف المالَ الحقوقُ اللوازم[2]

وكان فى مِرْباع حاتم ما يُرْبى على مائتى بعير سوى نِيبها وفِصالها[3] قد أراحها توّا غِبَّ غارته على بنى تميم ، وقالت ماوية حين رأتها : هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا ، ولكنها لم تهنأ بهـا إلاّ بُرْهة ، وإذا حاتم يهبها جميعاً لهذا البُرْجمى وهو يقول له : خذها فإن وفَتْ بالحمالة فذاك ، وإلاّ أكملتها لك ،

---

(١) الأشائم : ضد الميامن أى التى يتشاءم منها

(٢) جلف المال : ذهب به واستأصله .

(٣) النيب : النوق المسنة ، والفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

حتى لا تروّع قومك بأموالهم ، ولأن مثلك فى نجدته وشرفه ، وإصلاحه ذات البين ، وحقنه للدماء البريئة وتحمله للديات أهلٌ لأن يُعان .

فضحك عبد قيس ملء شدقيه ، وقال يا حاتم ! إن كل بعير دفعتَه إلىّ ذنبه فى يد صاحبه ، ولا يزال ثمّةَ من يطالبون فزاده حاتم مائة بعير ، فأخذها وانصرف ، وحاتم يقول :

فلا مَنْ عليك بها فإنى رأيتُ المَنّ يُزْرى بالجميل

ومضى عام و بعض عام ، وماوية ترى المال يأتى وافراً ، وينصرف عاجلاً فبَرِمت بحياة حاتم ، وراعها وقد ولدت عَدِياً أنه لن يرث من حاتم مالاً ، بل سيرث اسما ، وأنه سيعيش فقيراً معدماً إذا ظل حاتم على إسرافه ، وإتلافه لما يغنمه ، وأخذت تلومه وتعذُله ، وتطلب منه أن يفكر فى العواقب ، وحاتم يرد عليها مرة بقوله :

وعاذلة قامتْ علىّ تلومنى كأنى إذا أعطيتُ مالاً أضيمُها
أعاذلُ إن الجود ليس بمهلكى ولا مخلد النفس الشحيحة لؤمها

ومرة ثانية بقوله :

أماوىّ إن المالَ مالٌ بذلته فأوله شكرٌ وآخره ذِكر
وقد يعلم الأقوام لو أن حاتماً أراد ثراء المال كان له وَفْر
فإنى وَجَدّى رُبَّ واحدِ أمّه أخذت فلا قتلٌ عليه ولا أسْر
غنينا زماناً بالتقصد والغنى وكلٌ سقانا ، وهو كاسبنا الدهرُ
فما زادنا ماوىّ على ذى قرابة غِنانا ولا أزرى بأحلامنا الفقر

وفى كلّ مرة تلومه ينشدها شعراً يتحدث فيه عن كرمه ، ويشرح فلسفته ،

وهى تصبر على مضض ، معللة النفس بأنه قد يثوب إليه يوماً رشده ، ويدرك أنه أبو صِبْية ، وأن واجبه إزاءهم أن يخلف لهم مالاً يغنيهم ذُلَّ المسألة ، وضراعة الحاجة ، ولكن هيهات أن يرعوى مثل حاتم ، وقد جُبِل على الكرم ، وله فى إنفاق ماله ألف سبيل وسبيل .

ولم يزده لومها إلاّ تمادياً فى كرمه ، وقد نذر أن ينحر فى كل يوم من رجب[1] عشرةً من الإبل يطعم منها الناس ، وكان يوقد النار على يَفَاع من الأرض ليلاً لتجلب الضيفان ، وماويةُ تشكو لجاراتها تخرّقه فى الغِنى وإتلافه ماله ، وهن قد يعذلنه معها ، وهو لا ينصت للعذل ، ولا يكف عن جوده .

وفى ذات يوم كانت أمام خبائها ، وأمامها عدىٌ وسَفَّانةُ يلعبان ، وقدخرج حاتم فى سفرة له فى خلال الأشهر الحرم ، وهى آمنة مطمئنة عليه لفرط شجاعته ، ولأن هذه الأشهر قد حرم فيها القتال ، وقد جلست إلى جاراتها يتحدثن بأخبار البادية ، وفى الحروب والغارات ، والحمالات والدِيات ، وإذا برجل يناديها :

— يا أم عدى !

— لبيك ! .

— إن حاتماً أسير بأرض عَنَزة ، وهو يطلب الفداء مائة من الإبل .

— حاتم أسير ! صاحت النسوة مجتمعات ، وروّع الحى ، وأخذن يسألن هذا الرَّجل عن أسر حاتم ، وكيف أسر فى الأشهر الحرم ؟ ومن أسره ؟ .

— لا ترُعن . لقد مرَّ حاتمٌ فى سفرته بأرض عَنَزَة فناداه أسير لهم أن

(١) كان رجب من الأشهر الحرم التى يكف فيها العرب عن القتال ، فلا يصيبون من الغارات شيئا ، وهذا هو السر فى نحر حاتم هذه الإبل فى كل يوم من هذا الشهر .

أغثني يا أباسَفَّانة ، فقد أكلني الإسار والقمل ، فقال له حاتم ويحك ! ما أنا ببلاد قومي فأجيرك ، وليس معي شيء ، فأفك أسرك ، وقد أسأت بي إذ نَوَّهت باسمي ، ومالكَ بعد أن استنجدت بي إلاّ أن أفك إسارك ، وساوم به العَنَزيين ، واشتراه منهم على أن يضع نفسه في القيد بدلا منه إلى أن يأتيه الفداء ، وأرسلني كي أحضره .

— فصاحت ماوية ! هذا شأن حاتم يأبى إلا أن يكون كريماً ولو في ديار غيره . إن هذا الرجل لن يرجع عن غيِّه حتى أموت حسرة ولوعة . دونك أيها العنزي مائة من الأبل فداء حاتم ، ولعله يتعظ بعد أن ذاق ذُلَّ القيد ، وألم الأسر .

ولما عاد حاتم من رحلته ، وأنبأ امرأته بما حدث له اشتدت في تعنيفه ، ولكنه طمأنها بأن بيت الكريم لن يُضَام أبدَ الدهر ، وأنشدها قوله :

أماويَّ لا يُغني الثراء عن الفتى ... إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصدرُ
أماويَّ إن يُصْبح صَداىَ بقفرة ... من الأرض لا ماءٌ لدىَّ ولا خَمْر
تَرَىْ أنَّ ما أنفقتُ لم يك ضرني ... وأنْ يدى مما بَخِلتُ به صِفر

وأنشدها كذلك :

أهِنْ للذى تهوى التِّلادَ فإنه ... إذا مِتَّ كان المالُ نهباً مُقَسَّما
ولا تَشْقَيَنْ فيه فيسعَد وارثٌ ... به حين تغشى أغبَر الجوف مظلما
يقَسِّمه غُنْماً وَيَشْرى كرامة ... وقد صرتَ في خط من الأرض أعظما
قليلاً به ما يَحْمَدَنَّك وارثٌ ... إذا نال مما كنت تجمع مَغْنَما

وعلمت ماوية أن حاتماً لن يبقى على شيء من ماله ، وأنه إن مات فسيتركها

صفرَ الكف ، وإن خلّف لها الصيت المديد ، والذكر العطر ، ولكن ماذا يغنيها الذكر والصيت ، والبادية كثيراً ما تَشح بخيرها ، وتُجْدب الأرض ، وتَعْرَىٰ من النبات ، وتبخل السماء بمائها ردَحاً غير قصير ، وتشوى حرارةُ الشمس وأوارُها وجه الغبراء ، ويهزل الحيوان ، ويقل الماء وقد تهلك الماشية ، ويصيب الناسَ الجوعُ والضُر وإذا لم يكن لدى المرء زادٌ مُدَّخر حتى تجود السماء ، وتهتز الأرض ، وينبتُ البقل ، وترعى الإبل وتحيا ؛ هلكَ مسغبةً وجوعاً هو وعشيرته أجمعين . وقد أصابت سنةٌ من هذه السنوات الممحلة طيئاً ، وأتت على كل ما ادّخره الناس ، واقشعرت الأرض ، واغبرّ أفق السماء ، وراحت الإبل ضامرةً هزيلة ، وضنت المراضع على أولادها فما تبضُّ بقطرة ، وأيقَن الناس بالهلاك ، وأن لا منجاة لهم منه إلا بمعجزة من الله .

وقد قدّم حاتم كل ما لديه من إبل وشاء ، وأطعم به قومه وأهله يوماً بعد يوم ، وليلةً بعد ليلة ، حتى أتى عليها جميعاً ولم يبق له إلا فرسهُ ، وقد عوّدَ الناس أن يستجيب لطلباتهم ، ويحقق رغباتهم ، ولا يرد لهم سؤالا ، كأنما أوتى خزائن الأرض ، أو فُتِّحت له أبواب السماء ، وكأنما فى قدرته أن يحقق المعجزات ، وذلك لسماحة نفسه ، وعدم احتجازه أى شىء مما يملكه عن سواه من المعتفين[1] .

وفى ليلة من ليالى الشتاء الباردة وقد هبّت فيها ريحُ زفوفٌ تعَضُّ الجسمَ عضاً أليما ، وتَقِفُّ منها الأطراف وتَيبَس ، والناس يصطلون ويتعللون بالنار والدفء عن الطعام ، والأطفال فى كل بيت وكل خِباء يصرخون من الجوع

---

(١) المعتفين : طلاب العطاء والجود .

وتشق أصواتهم أجواز الفضاء فتنفطر لهم قلوب ذويهم ، ولا يملكون لهم إلاّ كلمات معسولة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، وأولاد حاتم عبد الله ، وعدى وسفّانة قد فتك السَّغَب بأمعائهم وهم يتلوون ألما و مَسْغَبةً ، و يئنون أنينا مفزعا موجعا ، وأخذ حاتم يعلل ولديه بالحديث ،و يتناوم علّهما ينامان ، وقامت ماوية إلى الصبية تعلّلها كذلك ، وتتناوم علّها تنام . وكيف ينام الجائع ؟ وهو إن نام ساعة فستصرخ بطنه صرخة مُرْعبة يهب لها واقفاً بعدها . ولم يكن باليسير على حاتم وماوية أن يريا الأطفال يتضورون من الجوع ، ويُعْوِلون من الألم ولا يملكان لهم حيلة أو وسيلة إلاّ حديثاً حُلْوا لا يغنى عنهم شيئاً ، ولو استطاع أحدهما أن يقتطع مُزْعة[1] من لحمه فيقدمها لأولاده لفعل ، ولكن هل أبقت لهم تلك السنة العجفاء الشحيحة لحماً يقتطع ؟ .

و بينا حاتم وماوية يتذاكران أمر هذه المجاعة وهذا القحط الشنيع الذى لم تر البادية مثله ، ويدعوان الله أن يفرّج الكُربة ، ويزيلَ الغُمة ، إذ رُفع طرف الخباء ، فقال حاتم : من الطارق ؟ .

— أنا جارتك هند ، أتيتك من عند صبية يتعاوون عُواء الذئاب الجائعة ، وما وجدت مُعَوَّلاً إلا عليك أبا عدى ، فارحمهم رحمك الله .

وقال حاتم على البديهة و بدون تفكير أو تردد :

— أعجليهم فقد أشبعك الله و إياهم .

وخرجت المرأة مسرعة تتعثر فى ثيابها فرحاً ، وهى لا تدرى من أمر حاتم وأولاده شيئاً .

---

(١) المزعة : القطعة من اللحم .

وعجبت ماويةُ من أمر حاتم ، ونظرت إليه نظرة دهشة واستفسار ، ثم قالت له :

— يا عجباً ! ماذا عساك تقدم لهذه المرأة وأولادها من طعام ، وبيتك لا يحوى مما يؤكل كثيرة ، ولو كان به شيء لأطعمنا أولادنا ، وقد رأيتَ الساعة ما بهم ؟ إنك أسرفت فيما سلف من الأيام فلم تبق لنا شيئاً ، وها أنت ذا تستجيب لاستغاثة جارتك ، ولا تستجيب لعويل أولادك . ولست أدرى لعمر الله ماذا ستفعل بها و بأولادها إلاّ أن تذبح لها أحد صبيتك ، وليس هذا على كل حالٍ بمستغرب منك ، فإنك رجلٌ سيء التصرف .

— أقلى عليك اللومَ يا ابنةَ عبد الله ، فو الذى نفسى بيده ، لقد لبيت دعاءها وأنا لا أدرى من أمر نفسى شيئاً ، ولا أعرف لهذا الأمر مخرجاً ، ولكن ما كنت بمستطيع أن أردها خائبةً ، وقد أتت تشكو الضّر ولو ذبحت لها أحد صبيتى كما قلتِ ، وليس أمامى من شيء ينحر إلاّ فرسى هذا الذى تخلف من كل ما وهبنى الله من نَعَمٍ ومال .

ولم يكد حاتمٌ يتم حديثه مع ماوية حتى أقبلت جارته هند تحمل اثنين ، ويمشى بجانبها أربعة ؛ كأنها نعامة حولها أولادها . وقد اصفرّت منهم الوجوه وغارت العيون ، وهزلت الأبدان ، وعلت شفاههم بسمةُ الأمل ، وفى عيونهم بريق الرجاء ، وكأنما كان الموتُ يطاردهم وهم فى فزع منه ورهبة ، فنجوا منه فى حِضن حاتم .

وتمثلت لحاتم كلُّ هذه المعانى فهب إلى فرسه زَميعاً[١] فى غير تردد ،

(١) زميعاً : مسرعاً .

ووجأ لَبَّتَه[1] بمدية فَخَر ، والدمع يترقرق فى عينيه أسفاً لفراق هذا الجواد الذى طالما صاحبه والوغى مستعر الوطيس ، والمنايا تمد إليه أيديها البشعة الملطخة بالدماء ، والأسنة مشرعة ، والسيوف مصلتة ، والعَجَاج يعقد فوق الرءوس سحابا ، فنجا به من التَّهْلُكَة . ولكنه أفاق سريعاً من إطراقته لأن عيون الصبية جميعاً كانت تمتد إليه وترقب فعله ، وحاشاه أن يظهر أمامهم وأمام جارته بأنه مُتَلَوِّمٌ[2] فى إكرامهم وقد صار جواده جثةً هامدةً ، فأخذ يكشط جلده ؛ ثم دفع المدية إلى المرأة ، وقال لها : شأنك .

وأيقظت ماوية أولادها ، بل كانوا أيقاظاً من قبل أن تأتى إليهم ، وأنَّى لمن كان فى مثل حالهم أن يستغرق فى نوم ؟ ؛ وذهب يمشى فى الحى ، ويأتيهم بيتاً بيتاً ، ويقول : هبوا أيها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا ، الطعام ! الطعام !

ووفد الناس على النار أفواجاً كأنهم أشباح هجرت رموسها ، يجرون أرجلاً أضعفها الوَنَى ، وآدها[3] الهزال ، والتفوا حول النار يقتطعون من اللحم ويأكلون فى نَهَمٍ بالغ ، وحاتم ملتفع بردائه ، وقابع فى ناحية ينظر إليهم ، تعلو وجهه بَسْمَةُ الرضا عن نفسه ، وعن فعله ، وينشرح صدره لضحكهم وتزاحمهم على الطعام ، واختطافهم له . وأبت عليه نفسه الأبية المترفعة أن يمد إلى الطعام يداً ، أو أن يذوق منه مُزْعة ، وإنَّه لأحوجُ إليه منهم جميعاً لفرْط ما أضرَّ به الجوع ، وأرهقه الطوى . وظَلَّ الناس يأكلون حتى لم يبق

---

(١) وجأ : طعن ، ولبته : أعلى الصدر إلى الرقبة .

(٢) متلوم : متردد .

(٣) آدها : أثقلها .

من الفرس إلاّ عظم وحافر ، ولو كانت هذه تؤكل ماتركوا منهما شيئاً . وأنشأ حاتمٌ حين رأى هذا يقول :

مهلاً نَوار أقلى اللوم والعَـذَلا ... ولا تقولى لشىء فات : ما فعلا
ولا تقولى لمالٍ كنتُ مُهلِـكه ... مهلاً وإن كنتُ أعطى السهلَ والجبلا
يرى البخيل سبيلَ المال واحدةً ... إن الجواد يرى فى ماله سُبُلا

ومرّت هذه السنة الموحشة ، هلك فيها من هلك من الناس ، وحفظ الله حاتماً وأولاده وامرأته ، وأصابهم الرخاء بعد الجدب ، وكثر لديهم المال والخبز ، ولكنّ ذكرى هذه الأيام السود ظلت فى أذهان الناس بعامة ، وفى ذهن ماوية بخاصة ، لأنه كان بين يديها من الخير ما تستطيع أن تقى به نفسها وأولادها الآلام والضر ، وهاهى ذى اليوم ترى الخير يتدفق ، والمِرباع يغَصُّ بالنَّعم ، فهل تدّخر من ذلك شيئاً لوقت الحاجة ؟ وهل يمكّنها حاتم أن تفعل ؟ إنها تراه كعادته مثوى الضيفان وأبناء السبيل ، وفى كل ليلة ببابه عشرات يطلبون القرى ، لا يعرفون باباً سوى باب خبائه ، ولا يحاولون أن يعرفوا غيره من العشيرة . وماوية لا تكره الضيفان ، ولكنها تفزع من كثرتهم ، ومن عِظَم ما يتكلف حاتمٌ فى سبيل مكرماته . وكانت لاتخفى فزعها عن أحد من أهله وعشيرته ، تشكوه إليهم كلما حدثتهم .

وكانت ماوية لا تزال على الرغم مما مرّ بها من أحداث ، ومن سنين وسيمة جميلة تتطلع إليها العيون إعجاباً ، وكان لحاتم ابن عم يدعى مالكا

وكان بهىّ الطلعة ، حلو الحديث ، كثير المال ، وطالما شكت إليه ماوية أمرَ حاتم وتخرّقه فى ماله ، وهو ينظر إليها معجباً بريّق شبابها ، وغضارة

صباها ، وجمال وجهها ، وفى ذات يوم وقد أخذت تبثه شكواها المألوفة من حاتم ، قال لها مالك : ما تصنعين بحاتم ؟ وقد صبرت عليه أمداً ، وسيذهبُ إتلافه المال بشبابك ، إنه إن وجد شيئاً أتلفه ، وإن لم يجد شيئاً تكلَّفه ، ولئن مات ليتركن ولده عيالاً على قومه ، وإن لى فيك رغبة فطلقيه وأنا أتزوج بك . إننى خير منه لك ، وأكثر مالاً وأعاهدك أن أمسك عليك وعلى ولدك وتعيشى معى فى نعيم ورفاهة عيش . فقالت ماوية : إن ما قلت لحق يا مالك ، ولكنَّ حاتماً رجلٌ لم يَجُدِ الزمان بمثله ، وقد آثرته على سواه ممن تقَدَّم إلىَّ ، ومن العار أن أترك رجلاً ملء الأسماع والأبصار ، وأهجر بيته وهو والد صبيتى .

هوِّنى عليك الأمر ، إن حاتماً كَلِفٌ بمكرماته ، وهو لا يفكر فيك ، ولا فى أولادك ، وإنما يفكر فى الطَّاوين ، والذين انقطع بهم السبيل ، أو أضلتهم البيداء ، يقدم لهم خير ما كسبت يداه . ولو كان يفكر فيك حقاً ، ولك فى قلبه منزلة ، ويرعى شئون صبيتك لأحسن التدبير ، وعَمِلَ لغده كما يعمل ليومه . إنك لا زلت فى ريَّا العمر وربيع الحياة ، ومن العار أن تضيعى شبابك مع رجل لا يرعاك حق الرعاية ، ولا يقدر جمالك كِفاء قدره ، وستمر بك السنون وتذهب طلاوةُ شبابك ، وتنظرين إلى الوراء فتندمين على أن أفلتت منك هذه الفرصة السانحة ، وقد مَحَّضْتك النصح فلا تجعلى للتردد عليك سلطانا . وما زال بها مالك ، يخلبها بعذب حديثه ، وهى توازن بينه وبين

حاتم ، وقلبها ظمآن للحب والرعاية ، وفكرها يمتد للمستقبل ، والبادية غدارة تأتى بها سنوات تحصد الخير حصداً . وأخيراً ذهب ما بها من تردد وطلقت حاتماً .

وكانت ماوية من أولئك النسوة اللاتى اشترطن لأنفسهن حق طلاق أزواجهن ، وكانت المرأة إذا أرادت أن تطلق زوجها ، حولت باب خبائها ، فإن كان الباب من المشرق جعلته إلى المغرب ، وإن كان قِبَلَ اليمن جعلته قبل الشام ، فإذا رأى الرجل منها هذا علم أنها عنه راغبة ، وله كارهة ، وأنها طلقته فامتنع عنها ، وحرّم خِباءها على نفسه .

وأتى حاتم ذات يوم فوجد ماوية قد حوّلت باب الخباء ، فقال لابنه عدى : ما ترى أمك ؟ ما عدا عليها ؟ قال لا أدرى ! غير أنها غيرت باب الخِباء ، وكأنه لم يفطن لما قال ؛ فدعاه وهبط به بطن الوادى .

وجاء المساء ، وأخذ ضيوف حاتم يغشون داره ، وينزلون بباب الخباء كما كانوا يفعلون ، حتى صارب عِدَّتهم خمسين رجلا ، فضاقت بهم ماوية ذَرْعا ، وبرمت بهم ، فقالت لجاريتها : اذهبى إلى مالك فقولى له : إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً فأرسل إلينا بناب نَقْرِهم ، ولبن نَغْبقُهم[1] وقالت لجاريتها : انظرى إلى جبينه وفمه ، فإن شافَهَكَ بالمعروف فاقبلى منه ، وإن طأطأ رأسه ؛ فارجعى ودعيه .

ومشت الجارية إلى مالك ، ووجدته متوسِّداً وَطْباً من لبن ، فأيقظته ، وبَلَّغَتْه الرِّسالة ، وقالت فى نفسها : إنما هى الليلة حتى يعلمَ الناسُ مكانه .

---

(١) الغبوق : الشرب بالعشى ، وأغبقه : سقاه فى ذلك الوقت .

فأدخل يده فى رأسه ، وطأطأها حتى ضرب بلحيَيْه على زَوْره ، وقال لها : أقرئى عليها السلام وقولى لها : هذا الذى أمرتُك أن تُطَلِّقى حاتماً من أجله ، وما عندى من ناقة كبيرة قد تركتِ العمل حتى أقدمها لضيوف حاتم ، وما كنت لأنحر صَفِيةً غزيرةً بشحم كِلاها ، وما عندى لبن يكفى أضيافه .

فرجعت الجارية ، ووصفت لها حاله ، وكيف رأته متوسداً وطباً من لبن وأعلمتها بمقالته ، فذهب كل ما راود قلبها من احترام له ، وإعجاب بجماله وعلمت أنها كادت تفرط فى سيد أشراف الدنيا فى سبيل رجل ساقط الهمة ، عديم المروءة على كثرة ماله ، ولو كان يحبها حقاً وله فيها رغبةٌ للتى طَلِبتها ، وأظهر نفسه بأنه لا يقل عن حاتم جوداً ، ولا سيما وحاتم غير موجود والضيوف يحرجونها ، ويقفون بباب خبائها .

وقالت لجاريتها : ويلك ! ابحثى عن حاتم وقولى له : إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ، ولم يعلموا بمكانك ، فأرسل إلينا بناب ننحرها ونغذهم ، وبلبن نَسقهم ، فإنما هى الليلةَ حتى يعرفوا مكانك .

وأتت الجارية حاتماً فصرخت به ، فقال حاتم : لبيك ! قريباً دعوت . فقالت : إن ماوية تقرأ عليك السلام ، وأنبأته نبأ أضيافه وما طلبته ماوية فقال : نعم وأبى !

ثم قام إلى الإبل فأطلق ناقتين من عقالها ، وظل يصيح بهما حتى أتى الخباء ، فحيا أضيافه ، وعقرهما ، وأخذ يطعمهم ويسقيهم ويقول :

وإنى لعبْد الضيف ما دام نازلاً وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا

ولحته ماوية فجذبته من ردائه ، وأخذت تصيح به : هذا الذى طلقتك فيه ، تترك ولدك وليس لهم شئ !! . ولكن هيهات أن ينثنى عن طبع جُبل عليه ، وأدركت ماوية أنه على الرغم من إتلافه مالَه رجلٌ تفخر به ، ويفخر به العرب ، وأنها ستخلد معه كما قالت لأمها ، فأقلعت عن لومه وعاش حاتم ما عاش ثم ذهب فى فم الزمان أحدوثة عَطرة ، ومثلاً نادراً ، ورمزاً للمكرمات .

———

لا حرّ بوادي عوف[1]

وقفت خُماعة بنتُ عوف بن مُحلم أمام خبائها تشهد فرسان قومها كيف يردون غارة بنى عبس ، وكيف يدافعون عن أعراضهم ، ويحمون ذِمارهم ، ويجودون بالأنفس فى سخاء وحمِيَّة ، لا ينكصُون على أعقابهم ، أو يولون الأدبار . لقد أبْلى قومُها بلاء حسنا ودافعوا فى جِدٍّ وصرامة ، بيد أنهم كانوا قِلة فلم تغن عنهم شجاعتهم شيئا ؛ إذ كان معظم الرجال بعيدين عن الحى فلم يستجيبوا للاستغاثة ، وتكاثر الأعداء على الحماة يصرعونهم واحداً بعد واحد ، وخُماعة ترقب المعركة بقلب واجف ، ونفَسٍ سريع ، وعين حائرة ، ووجه شاحب ، لأن زوجها ليثَ بن مالك قد لبىّ نداء النجدة زميعاً[2] ، وهى تخشى أن يُصْرَعَ فتكون نهبا للغزاة ، وسَبِيَّة ممتهنة ، وتفقد بعلا كريماً ، فتأيم من بعده وقد عاشرته فأحبته ، وهى ترى الدائرة تدور على قومها ، ومِنجل الموت يتخطف الفرسان ، وهم يتحدونه فى إصرار وعناد وجرأة .

كانت نظراتها تتبع فى لهفة وعجلة حركات جواد أشهب وسط المعمعان ، يجول ويصول ، ويكر ويفر ، وفارسه لا ينفك يرفع سيفاً بتاراً أو يهوى به فى قوة و بطش . ثم رأت الفارس يخر صريعاً ، ويخلى صهوة جواده ، وتدوسه الخيل بسنابكها ، وفارسين من الأعداء يأخذان سَلَبه ، ويقودان جواده خارج الحَوْمة ، فسحّت عينُها الدمعَ سحا ، وشعَرت بنكْأةٍ دامية تنفذ إلى فؤادها ،

(١) الأمثال للميدانى جـ٢ ص٢٩٩ ، وبلوغ الأرب جـ١ ص١٢٥ .
(٢) زميعاً : سريعاً .

ولكنها أبت أن تستسلم للحزن ، وطَفِقَتْ تفكر فى أمرها وقد ترملت وفقدت رجلها وحاميها ، وشغلها همها وأمرها عن المعركة الدائرة ، وما راعها إلا الفرسان يَعْدُون صَوْبَها ، ويتقدم اثنان فينهبان الخباء ويسوقان من فيه أسرى ، ويأخذان خماعة سبية ، وقد راعهما منها جمالٌ فاتن ، وثبات عجيب ، وأنف شامخ ينِمُّ عن عزة وكرم مَحْتِد .

انتهت الغارة ، ورُدَّت السيوف إلى أغمادها ، وقفل بنو عبس إلى ديارهم ، وخماعة وأهل زوجها ، وكثيرات من نساء قومه يسرن وراء الخيل حفاة سافرات الوجوه مهينات ، يحثهن رجال غلاظ جفاة .

ينظرْنَ شزراً إلى من جاء عن عُرُض بأوجه منكراتِ الرق أحرار

وكان مَرْوان القرَظ بن زِنْباع[1] رئيس بنى عبس يومئذ ، وكان يُضرب به المثلُ فى العز والشهامة والمروءة ، فحانت منه التفاتة نحو السبايا ، فرأى بينهن امرأة يترقرق ماء الحسن والملاحة فى وجهها ومخايلها ، ممشوقة القوام ، مرفوعة الرأس ليست كبقية من يسير معها مشية ، وشخصية . فسألها :

— من أنت ؟

— خُماعة بنت عوف بن محلم

— بنت سيد بنى شيبان ، وأحد أجواد العرب ، وأعزهم ، وأشجعهم ؟ ! ـ وا آسفاه !

ثم سأل رجاله :

— أسيرة من هى ؟

---

(١) سمى مروان القرظ ، لأنه يغزو اليمن وهى منابت القرظ .

فأجابه رجل منهم :

— أسيرة عمرو بن قارب ، وذؤاب بن أسماء .

فالتفت إليهما مروان وقال :

— حكمانى فى خماعة

— حكمناك يا أبا صهبان

— أشتريها منكما بمائة من الإبل

— قبلنا حكم سيد بنى عبس

فأمرها مروان أن تغطى وجهها قائلا : والله لا ينظر إليه عربى حتى أردك إلى أبيك . وضمها إلى أهله ، وأوصاهن بها خيراً ، لأنها بنت العز وربيبته ، وسليلة الأرومة الكريمة ، والحسب الرفيع والسؤدَد والجاه . فعاشت خماعة بضعة أشهر فى بيت مَرْوان ما رآها مرة إلا من وراء حجاب برّاً بيمينه ، وما رأت وما سمعت من أهله وخدَمه ما ذكّرها أنها سبيةٌ مغلوبة على أمرها ، لأن عين مروان اليقظة كانت تتعهدها فى السر والجهر ، لما لأبيها فى أعناق العرب من أياد كريمات ، وفضل سابغ ، وذكر حميد .

دخل الشهر الحرام ، وأمن الناس الغارات ، واطمأنت القلوب على المال والولد والأهل ، لأن العرب جميعاً تحرم القتال فى هذه الشهور المباركة[١] ، فترد السيوف إلى أغمادها وتضع الحوامل[٢] ويحج الناس إلى بيت الله الحرام ،

---

(١) الأشهر الحرم أربعة وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . وكان العرب لا يستحلون فيها قتالا إلا حيان منهم هما خثعم وطىء فإنهما كانا يستحلان كل الشهور ولهذا كان العرب يستحلون دماءهما فيقولون : يحرم القتال فى هذه الأشهر إلا دماء المحلين .

(٢) المراد هنا الإبل .

يستمطرون شآبيب رحمته لتغسِلَ أوضارَ نفوسهم ، ويجتمعون فى الأسواق يتاجرون ، ويتفاخرون ، ويعقدون المحالفات .

حين دخل أول هذه الأشهر ، وارتاحت النفوس من الجهد والقتال والسفر والحذر الشديد ، جهَّز مروانُ خماعةَ أحسن جهاز وأتمه ، فكساها الديباج والحرير ، وأخدمها الجوارىَ والعبيد ، وأكرمها غاية الإكرام ، ثم حملها إلى عكاظ كأنها أميرة من بيت ملك عظيم ، ولم تكن سبيةً أُسِرَت بظُبى السيوف ، وأسِنَّة الرماح ، وافتديت من آسريها بمائة من الإبل على حَنَقٍ منهما وسخط

صحبها مروان فى رحلتها هذه ، فلما دنا من عكاظ تقنع على عادة فرسان العرب ، حتى لا يعرفه أعداؤه ، ومن لهم عنده ترات ، فيترصدونه فى ساحات القتال ، ويبذلون أقصى جهدهم للانتقام منه والقضاء عليه . وعكاظ — عادة — تَغَصُّ بفرسان العرب من كل القبائل ، فلا يعدم أن يكون هناك قِرنٌ موغَر الصدر مَوْجدةً وحفيظة يتوسمه فيتربص به الدوائر عند أول لقاء[1] .

فلما انتهى مروان بأمانته إلى منازل بنى شيبان — قوم خماعة — قال لها :

— هل تعرفين منازل قومك ، ومنزل أبيك ؟

— هذه منازل قومى ، وهذه قبة أبى

— انطلق إلى أبيك ، فإنه أهل لكل مَكْرُمة .

والتفت مروان إلى قومه وأنشد :

رَدَدْتُ على عوفٍ خُماعَةَ بعدما　　　خلاها ذؤابٌ غير خلوة خاطب

---

(١) عكاظ : نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تقام سوق للعرب وهى أعظم أسواقهم ، ويأتى إليها فرسان العرب وعظماؤهم وشعراؤهم وخطباؤهم وتجارهم .

ولو غـــيرها كانت سبيئة رمحه لجاء بهـــا مقرونةً بالذوائب
ولـكنه ألقى عليهـــا حجابه رجاء الثواب أو حِـــذار العواقب
فدافعتُ عنها : ناشباً ، وقبيله وفارس يَعبوبٍ وعمرو بن قارب[1]

أما خماعة فدلفت إلى قبة أبيها ، وخلفها جواريها وعبيدها ومعهم عتادها وما أكرمها به مَرْوان ، فلما رآها أبوها عوف بن محلم ، ولم يكن ينتظرها ، قال لها فى دهشة :

— ما وراءك يا خماعة؟

فقصت عليه خبرها ، وأشادت بما فعل مَرْوان ، وكيف نازع قومَه وتحداهم فى سبيلها وكيف حفظها عزيزة مكرَّمةً ، وجهزها أحسن جهاز وأتمه ، وأخدمها وسهر على راحتها منذ أسرت حتى بلغت قبة والدها .

فقال أبوها : يابنية : إن مَرْوان لَمَثَلٌ فى العزة ، ألم تسمعى العرب يقولون : أعزُّ من مَرْوان القَرَظ ، ولقد طوق جيدى بمنن جسام ، وهيهات أن أفيه حقه وإن كان مثله فى عزته ومروءته وسؤدده لا يرتقب على حسن صنيع أجراً .

***

دارت الأيام دورتها ، وغزا مروان بكر بن وائل على حـين غرة ، فسبى ونهب ، فلما عاد الفرسان والرجال إلى أحيائهم ، وسمعوا بما حدث لقومهم ، عزَّ عليهم ألا يثأروا من ذلك الذى استباح حماهم ، وأسر نساءهم ، ونهب أموالهم، فهبوا يَقُصُّون أثَرَ جيشه فى عدد عديد ، وخيل مسوّمة ؛ وسلاح وعُدة كاملة ؛ وثبت لهم مرْوان ساعات ثم نجا فريق من جيشه بالأسـلاب والسبايا ، أما هو وصناديد قومه فوقفوا يدرءون العـدو ويراوغونه فى ثبات وحسن حيـلة ،

(١) هذه أسماء الذين اعترضوا عليه فى فدائها وحاولوا استرقاقها .

ولكن أنىّ له أن يثبت طويلا وقد تكاثرت عليه بنو بكر بخيرة فرسانها ، وجزء كبير من جيشه قد انفصل يبغى النجاة ، و بعد جولات صادقات ، وقتال عنيف ، وقع مروان ومن بقى من رجاله أسرى ، بعد أن تكسرت سيوفهم وتحطمت رماحهم ، وأثخنت الجروحُ خيولهَم ، وسقط كثير من الفرسان صرعى مضرجين بالدماء تدوسهم سنابك الخيل فى غير شفقة أو رحمة .

ومضى بمروان آسره وهو لايعرفه ، فأتى به أمّه مختالا فخوراً فقالت له أمه :

إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ !

فقال لها مروان وهو يرسُف فى الأغلال :

— وما ترتجين من مروان ؟

— عظم فدائه

— وكم ترتجين من فدائه ؟

— مائة بعير

— ذلك لك علىّ ، على أن تؤدينى إلى خماعة بنت عوف بن محلم .

— ومن لى بمائة من الإبل

فأخذ مروان عوداً من الأرض ، وقال لها : هذه لك بها[1]

فمضت به إلى عوف بن محلم[2] . فلما عرف عوف أنه مروان ، وأخبر بذلك ابنته خماعة قالت له : يا أبت إنى أجرته من بنى بكر بن وائل ، وإنى

(١) كان هذا يكفى عندهم ويغنى عن مغلظ الأيمان والمواثيق والعهود .

(٢) هو من أشراف العرب فى الجاهلية ، وكان مطاعاً فى قومه ، قوياً فى عصبته ، وكانت تضرب له قبة فى عكاظ ، توفى سنة ٤٥ ق هـ .

أستعين بك على الوفاء بما له فى أعناقنا من أياد ومنن ، واذكر إذ كنت سَبِية ففدانى ، ومهينة فأعزنى ، وغريبة فأنزلنى مع أهله ثم أسلمنى إليك لم أُمتهن بنظرة عربى إلى وجهى ، وكنت عنده فى نعيم وعيش رغيد ، والحمد لله الذى أمكننا من هذه الفرصة حتى نرد إليه الجميل .

فقال لها أبوها : إن مروان قد أعمل السيف فى رقاب قومك ، وقد أخذهم على غرة فكثرت تِرَتُهم عنده ، ولكنى سأجيره معك ، ولا سبيل إليه إلا فوق هامتى .

وما أن علمت بنو بكر بخبر مَرْوان حتى سعت جموعها إلى عوف بن محلم يطلبون منه أن يُسْلم مروان إليهم حتى يقتصوا منه على ماجنت يداه فى أرواحهم وأموالهم ، فأبى عليهم عوف — وكانوا يجلونه ويطيعونه ، ونبأهم بقصته مع ابنته ، وذكرهم أن كلا منهم معرَّض لأن يؤسر فى حومة القتال ، والأسير حقه أن يفدى لا أن يقتل . وبعد جدال شديد ، أذعنوا لرأيه ، وتركوا مروان لعوف ابن محلم ، وكان تنازلهم هذا تضحية كبيرة قدموها لرئيسهم وسيدهم .

وظل مروان أياماً عند عوف فى كنف خماعة ورعايتها ، تحاول أن تكرمه كما أكرمها ، وترد إليه الجميل على قدر طاقتها ، وفى ذات يوم دخل عوف خباءه بادى الهم متعكر الوجه ، فأنكرت خماعة أمره ، ومشت إليه فى لطف ودعة تسأله عما أهمه ، وأزال سماحة وجهه وبشاشته ، فكان جوابه أن سأل مروان :

— خبرنى يا أبا صهبان عما أحفظ عمرو بن هند ملك الحيرة عليك !

— لم يكن — علم الله — بينى وبينه إلا كلُّ خير ، وكنت أفد عليه

بالهدايا والأموال ، فينزلني خير منزل ، ويكرمني وقومي . وفى ذات يوم أراد أن يعاملنى كما تعامل الملوكُ رعيَّتها ، أو السيد مَنْ دونه فى الشرف والمنزلة ، فأبت علىَّ نفسى أن أجالسه ، و بقيت أياماً عنده مغاضباً له ، فأرسل إلىّ يسترينى ، فلما دخلت عليه لم أصافحه ، فعاتبنى لتخلفى عن مجلسه ، فتعللت ببعض المعاذير ، وقلت لعلها كانت هفوة فيه ، ولكنه أيقن أن فى نفسى شيئاً لأنى لم أضع يدى فى يده . وفى نفس اليوم استأذنت فى العودة فأذن لى بعد لأىٍ ، وقد انقطعت عنه رَدَحاً من الزمن ، وعلمت أنه ساخط علىّ .

فقال عوف : لقد علم أنك مُتَحرِّم بذِمامى ، فأرسل إلىّ يطلبك ، وأنت تعلم مكانة عمرو بن هند لدينا ، وأن ديارنا تتاخم دولته ، وأن الصلات بيننا قوية متينة ؛ ولكنى أخبرت رسوله : أن ابنتى أجارته وليس إليه من سبيل : وإنى فى انتظار رده ، و إن كنت أعلم أنه سيتميز غيظاً حين يستمع للجواب ، بيد أنه يدرى عزة قومى فلعل ذلك يخفف من غُلَوائه .

ومضت أيام قضاها عوف فى هَمٍّ مقيم معقد ، لأن الحرب بينه و بين عمرو ابن هند ليست بالشىء الهين اليسير ، ولكنها حرب تكلفهم شططا ، وتودى براحتهم ، ونعيمهم ، وتراق فيها الدماء بسخاء . وأخذ يقلب وجوه الرأى وحده دون أن يستشير أحداً من قومه ، خشية أن يستجثوه على تسليم مَرْوان لسابق أخطائه معهم ، ولعظم جريرته لديهم .

ثم جاء رسول عمرو بن هند ينبىء عوفاً أن الملك لن يعفو عن مروان حتى يضع يده فى يده ـــ سِمةَ المبايعة والمعاهدة والحلف والولاء — و بذلك يثق الملك أنه لن يخونه أو يغير على حواشى دولته وينتقصها من أطرافها . فقال

عوف : يضع يده فى يد الملك على أن تكون يدى بينهما ، وكأنه بذلك يحتاط لغدر عمرو بن هند بجاره ، أو ليبرهن للملك على أنه صار حليفاً لمروان على كل من ناوأه أو همّ بشىء يسوءه .

فلم يسع عمرو بن هند إلا أن يستجيب لطلب عوف . ثم قدم عوف ومروان الحيرة ودخلا على الملك فوضع مروان يده فى يده ، ووضع عوف يده بينهما ، وعفا عمرو بن هند عن مروان وقال : « لا حُرّ بوادى عوف » أى لا سيد به ينازعه سلطانه ، فصارت مثلا .

همـــة . . . ![1]

جلس الحارث بن عوف المرّى ذات مَساء مع خِلاّنه يَسْمُرون أمام أخبيتهم بديار ذُبيان ، يتوسدون حشايا من الرمل الناعم الأملس ، والبيداء من حولهـم سا كنة لا تسمع فيها حِساً ولا جَرْساً ، قد استسلمت لنوم عميق ، تداعبُ وجهها ريح الصَّبا النـديّة الرقراقة ، فتمعن فى غفوتها . وصفحة السماء تتحـلى بالنجوم الزُّهْر ، مابين مجتمعة ومتفرقة كحلى الحسناء ، والبدر يسطع بنوره الباهر فيزيد فى بهاء الصحراء وروعتها وجلالها ، والجبال جاثمة من حولهم تبعث الرهبة والخشية فى النفوس .

وجرى الحديث بين الحارث بن عوف وخلاّنه حول الحرب الضروس التى خاضوا غمارها مع أبناء عمومتهم بنى عَبْس أربعين سنة ، أتت على الطارف والتليد، وتقطعت فيها وشائج القُرْبى وفَلَّ بها غَرْب غَطَفان وتبدد ثراؤها، وشُرِّد رجالُها، وقتل أبطالها ، والقوم لا يزالون فى حدتهم وشِرَّتهم لا يودون رَدّ الصـوارم إلى أغمادها ، وكلُّ قتيل جديد يبعث ثأراً جديداً ، وحقداً شـديداً ، وهيهات أن يكفـكفوا من غُلَوائهم أو يرتدعوا إلى صوابهم حتى يتفانوا و يصيروا مثلا فى البائدين .

وأخذ الحارث بن عوف يتلمس للخروج من هذه الحرب سبيلا ، وكيف

---

(١) الأغانى جـ١٠ ص ٢٩٤ ، والمستطرف جـ٢ ص٢٢٢

de Perceval .Essai sur l'histoire des Arabes, P. 474.

وقصص العرب جـ٢ ص٨٠

يتأتى السعي لحقن الدماء ، ورتق الفتوق ، ورأب الصدع ، ولَمِّ الشَّمْل ، ورجوع بنى عبس إلى ديارهم ، وقد طافوا بأنحاء الجزيرة ، ولفظتهم كلُّ قبيلة وتألب عليهم القوى والضعيف . وقد كانوا مع أبناء عمومتهم فى مَنَعَةٍ ، ومقامٍ رفيع ، يداً قوية و بطشاً شديداً على كل من تحدثه نفسه بالنظر إلى ديارهم ، وطالما خاضوا غمرات الحروب معاً يردون كيد بنى عامر وغير بنى عامر ، ولم يكن أعز منهم فى العرب قبيلاً وأقوى مُنَّةً ، وأرفع صَوْتاً ، وأطول يَداً .

وعَرَّجوا فى حديثهم على ذكر العِزَّة ، والسيادة والشرف ، فسأل الحارث خِلانه :

— هَلْ ثمة فى العرب مَنْ إذا خطبتُ ابنته رَدَّنى ؟

فقال خارجة بن سِنان :

— نعم !

— ومن ذاك ؟

— أوس بن حارثة الطائى

— أنى أعلم مكانة أوس فى قومه ، وكيف احتلَّ الذِّروة فى الشَّرف والجود ، حسيب لاينكر بيته ، كريم لا ينقطع عطاؤه ، فَيْصَلٌ لا يطعن على رأيه ، شجاع لايضام نزيله ، عزيز لا يجار عليه ، وأعلم أن النعمان بن المنذر حين وفدت عليه وفود العرب وبين يديه حُلَّة مرصعة ، عزم على إهدائها لسيد العرب [1] ، وأنه قد خلعها على أوس بن حارثة . ولكن أوساً لا يجهل مكانى فى قومى ، ومبلغ رأيى ، وشرفى ، وأنى من أشراف العرب فى الصميم ،

---

(١) المختار من نوادر الأخبار ، مخطوط .

وفى السيادة أزاحمه بالمنكب ، وما أظنه يجرؤ على رَدِّى إن خطبت إليه إحدى بناته ، ولقد عزمت على الرحلة إليه ، فهل تصحبنى يا خارجة لتشاهد كيف أنه لا يستطيع ردِّى .

— هَوِّن عليك الأمر يا حارث ، واربأ بنفسك أن تضعها موضع البلاء والاختبار ؛ وإذا كان أوسٌ على ما أعلم فله شأنه ببناته ، ولن يغض من منزلتك أنه لا يستجيب لرغبتك .

— لا بد من الرحلة إليه .

— إذاً فأنا معك .

وفى الصباح تجهز الحارث وخارجةُ ومعهما غلامٌ للحارث ، ويمموا جميعاً صوب أَجَأٍ وسَلْمى حيث منازلُ طيء ، وقصدوا لتوِّهم منزل أوس بن حارثة ووجدوه بفناء المنزل ، فلما رأى الحارث بن عوف هَشَّ لمقدمه ، وتهلّل وجهه ، وبالغ فى تحيته والترحيب به لأن الحارث ليس بمجهول المكانة لدى أوس ، وقال له أوس :

— مرحباً بك يا حارث ! هيا انزل على الرحب والسعة .

— لقد جئتك خاطباً !

هكذا قال الحارث من غير استئناس ، أو تقدمة بين يَدَىْ طلبته ، وثوقاً من نفسه ومنزلته ، واعتزازاً بهما ، فأجابه الحارث .

— لست هناك !

فاربَدَّ وجه الحارث بن عوف ، ولوى زمام ناقته ، وولَّى ظهره للحارث ثم سار لم ينطق بكلمة ، وقلبه يفور بالغضب والشَّجن ، لأنه جُرح فى كرامته

جُرْحاً نَغَّاراً هيهات أن يَنْدمل ، وأخذ خارجة يهون عليه أمره ويقول له : لقد حذرتك غب عزمتك هذه ، ففى أوسٍ صلف ، وهو لا يَعدُّ أحداً من العرب له نِداً وكفئوا لمصاهرته . وأبى الحارث أن يجيبه ؛ إذ كان فى شغل بنفسه وأخذ يحث ناقته حثاً شديداً كأنما يريد النجاة من تلك الديار التى ذاق فيها مرارة الخزى والعار .

ووقف أوس هُنَيْهةً يفكر فيما قال ، وينظر إلى الحارث بن عوف وهو ينصرف لِطيَّته ، ثم دخل على امرأته ، والغضب قد ألقى على وجهه نقاباً ، وكانت امرأته من عَبْسٍ ، فقالت له :

— مَنْ رَجُلٌ وقف عليك ، فلم يُطل ، ولم يُنِخْ راحلته ، ولم تقدم له قِرىً ، ولم تكلمه ؟ ؟

— ذا سيد العرب الحارث بن عوف المرى .

— فما لك لم تستنزله ، وأنت تعلم أنى غطفانية ، وهو على ما ذكرت من المكانة ؟

— إنه استحمق !

— وكيف ؟

— جاءنى خاطباً .

— أفتريد أن تزوج بناتك ؟

— نعم .

— فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ !

— قد كان ذلك .

— تدارك ما كان منك .

— بماذا ؟

— تلحقه فتردُّه .

— وكيف وقد فرط منى ما فرط إليه ؟ وعزيز على نفسى أن أرجع فى كلمة قلتها .

— هوّن عليك ! ، تقول له : لقيتنى مغضباً بأمر لم تقدّم فيه قولا ، فلم يكن عندى فيه من الجواب إلا ما سمعت ؛ عُدْ ولك عندى كلُّ ما أحببتَ فإنه سيفعل .

وقد ردَّ هذا الكلام ما عزُبَ من صواب أوس ؛ وعلم أنه هو الذى استحمق ، إذ عجّل بالرفض ، فلحق بالحارث وصاحبيه .

وحانت من خارجة التفاتة ، فرأى أوساً يعدو خلفهما على جواد فارهٍ ، فقال للحارث — وهو لا يكلمه غماً — هذا أوس بن حارثة جادٌّ فى أثرنا فقال الحارث :

— وما نصنع به ؟ امض بنا .

فلما رآهم أوس لا يقفون صاح بهم : يا حارث ؟ قف هنيهة . فوقف وكلّمه بما أوحت به امرأته ، فرجع معه مسروراً . ودخل أوس منزله ، وقال لزوجته : هذا هو قد رجع ، ولست أدرى أى بناتى أصلح له ؟ ادعى له فلانة — لأكبر بناته — فأتته فقال لها :

— أى بنية ! هذا الحارث بن عوف سيدٌ من سادات العرب ، وعلم من أعلامهم ، قد جاءنى خاطباً ، وقد أردت أن أزوجك منه ، فما تقولين ؟

وأطرقت الفتاة قليلا تفكر ثم رفعت رأسها وقالت :

— لا تفعل ؟

— ولِمَ ؟

— إنى امرأة فى وجهى أثر من دمامة ، وفى طبعى بعض الغلظة ، ولست بابنة عمه فيرعى رَحِمى ، وليس بجارك فيستحيي منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ، فيكونَ علىَّ فى ذلك ما فيه ، وأجلب لك الإساءة ، ولبيتك الشَّين .

— بارك الله عليك يا بنية ، لقد أظهرت رجاحة عقل ، وثاقب رأى ، فعوضك الله خيراً منه .

ثم قال لزوجته : ادعى لى فلانة — يريد وسطى بناته — فدعتها ، وقال لها ما قال لأختها من قبل فأجابته بمثل إجابتها ، وزادت أنها خَرْقاء لا تحسن صَنْعَةً ، وأنها تخشى أن يجد فيها ما يكره فيطلقها ، فدعا لها بخير ، وقال لامرأته : ادعى بُهَيْسة — صغرى بناته — فدعتها أمه ، وأتت بهيسة ، قد امتلأت غضارة ونضارة ، كأن وجهها الدينار يتألق تألُّقاً ، وكأنها الغصن الأُملود تثنى ويترنح ، يَشع من عينيها بريق ينم عن فَرْط ذكاء ، وعزيمة صارمة ومضاء ، كأنهما سيفان فى جفنين ، ولها خدٌّ كغريض التفاح ، وشفاه كورق الورد ، وجبهة كفلق الصبح . فقال لها أبوها حين رآها : حياك الله يا بُهَيْسة ، تعالى أحدثك !

— هأنذا يا أبتاه !

— جاءنى الحارث بن عوف سيد ذبيان خاطبًا ، فما تقولين ؟

— أنت وذاك ؟

— قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه .

ولم يذكر لها ما قالتا ، فقالت :

— لكنني والله الجميلة وجهاً ، الرفيعة خُلُقاً ، الحسيبة أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير .

— بارك الله عليك يا بنية ، وجعلك منجبة ودوداً .

وخرج أوسٌ إلى الحارث بن عوف ، ونفسه راضية ، لأنه يعلم من بُهَيْسة أنها راجحة العقل ، وأنها كفء للحارث ، وأنها المرأة التي لا يخشى عليها إن اغتربت عن أهلها لفرط دهائها ، ورقة خلقها ، وقال للحارث : يا حارث زوجتك بُهَيْسة بنت أوس ، فقال الحارث : قبلت .

وأمر أوس ببيت فضرب للحارث ، وأنزله إياه ، ثم دعا وجوه قومه ليرحبوا بصهره ، وسيد غطفان ، وبالغ في الحفاوة به وإكرامه .

وأخذت زوجة أوس تهيئ من أمر بهيسة ، وتعدها للزفاف ، ونساء طيء يهنئنها بزواجها ، وكلٌّ توصيها بوصية حتى يدوم عيشُها في كَنَف زوجها وهي عن بلادها نائية ، ليس لها مشير إلا رأيها ، وما وعته من نصائح أحبابها وبعد أن فرغن من تجهيزها زَفَّها النساء إلى خباء الحارث بن عوف ، ولكنه ما لبث هنيهة معها حتى خرج ، وهو يقول لخارجة : هيا بنا إلى ديار ذبيان .

— وما العجلة ، وقد زفت إليك عروسك ؟ .

— لقد أبت أن أبني بها وقالت : مه ! أعند أبي وإخوتي ؟ هذا والله ما لا يكون .

— إذاً فلنرحل ، ما دام هذا أمرك وأمرها .

وودّعت بهيسة أباها وأمها وإخوتها ، ثم سارت فى هودجها مع زوجها وصاحبيه ، وهى رابطة الجأش ، ساكنة النفس ، واثقة من أمرها ، كأنها لم تفارق عُشّها الذى فيه درَجت ، وتودّع أهلاً أعزاء عليها ، وكأنها تقدم على أمر قد أبرمته من قبل ، وفكرت فيه ملياً .

وبينما هم فى الطريق أخذت نفس الحارث تراوده ليخلو بها ، فأمر خارجة أن يسبقه ، فلما انفرد بها ، جلس وإياها هنيهة على جانب الطريق ، ولكنه ما لبث أن لحق بخارجة ، فقال له :

— ما بالك لم تلبث بجانب زوجك إلا أمداً يسيراً ، هَلْ ردّتك عنها ؟

— أجل ! لقد قالت هذه المرة ! أكما يُفعَل بالأمة الجليبة ، أو السبية الأخيذة ؟ ، لا والله ، حتى تنحر الجُزُرَ ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلى !

فقال خارجة :

— والله إنى لأرى همةً عالية ، وعقلاً راجحاً ، وأرجو أن تكون المرأة منجبة إن شاء الله .

وواصلت هذه القافلة الصغيرة سيرها صوب ديار ذُبيان بنجد ، والحارث ابن عوف يفكر فى عروسه الأبية النفس ، وكيف يسوسها فى المستقبل ، وهى على ما رأى من أَنفة ، وترفّع عن الصغائر ، وإرادة قوية ؛ وابتدأ يشعر نحوها باحترام وتقدير ومحبة، ولم تعد فى نظره مجرد امرأة سَيَبْنى بها ، ودبّ فى فؤاده الأمل بأنها ستكون مُنجبة ، وأنها ربما ولدت من يسمو على أوس بن حارثة

فى عزته وكرمه ، وعلى الحارث بن عوف فى سيادته وشرفه .

وصار يحدث خارجة بما يعتلج فى صدره ، وبأنه سعيد الجَدّ إذ وُفِّق للزواج من بُهَيْسة ، وأنه لولا تحميس خارجة وإثارته له ما عزَم على الرحلة إلى أوس وما رجع بهذا الصيد النفيس ؛ وظلا فى حديث بهيسة ، وأوس بن حارثة حتى وصلا إلى ديار ذبيان .

وما أن استراح الحارث من وعثاء السفر حتى أخذ يُعِدُّ للزفاف عُدَّته ، فأحضر الإبل والغنم ، ودعا ساداتِ ذبيان ، وذوى الرأى فيها ، وأقبل النساء على داره ليشاهدن هذه العروس التى يعد لها كلّ هذه العُدة ، وقد علمن بمكانة أبيها ، ومنزلته فى العرب ، ورأينَ جمالاً باهراً أخاذاً ، وعقلاً حصيفاً ، ولساناً ذَرِباً فصيحاً ، وكرامةً ، واعتداداً بالنفس ، وترفعاً ، فأحبَّها بعضهن ، وأقبلن عليها يرحبن بها ، ويحيينها ، ويؤنسنها فى غربتها ، ويحاولن خدمتها ؛ وحسدها بعضهن على ما حباها به الله من جمال جسم وكمال خُلق ، وحصافة عقل ، فأشحن بوجوههن عنها ، وانصرفن والحسرة تلدغ قلوبهن ، وكلٌّ تحاول أن تتلمس فيها عيباً ، فهذه تقول : إنها متكبرة ذات صلف ، والويل لآل الحارث منها ، وهذه تقول : إنها مُتَفَيْهِقة ، كثيرة الحديث كأنها تفرض فينا الجهل والغباء ، وهذه تقول : ألم تلاحظن سعة عينيها إنها لعمرى مخيفة .. وهكذا انقلبت آياتها الباهرة فى نظرهن سيئات ومحاسنها عورات .

واجتمع القوم للطعام ، وقام الحارث وآله وخَدَمه عليهم ، والكل يهنئه بما وفق فيه من مصاهرة أوس بن حارثة الطائى سيد العرب ، ويرجون أن تنجب له عروسه خير البنين ، وأجمل البنات ، وهو فَرِحٌ مسرور بأن عروسه

قد هيأت له فرصة يظهر فيها محبته لقومه ، و إعزازه لهم بمشاركتهم إياه فى مسرته .

و بعد أن انفض الجمع دخل الحارث على بُهيسة خباءها ، ولكنها أبت عليه أن يقربها ، فقال لها فى دهشة .

— ألست راضية يا ابنة أوس عما قمت به ؟ أليس هذا ما اقترحت علىّ ؟

— إنى لفى عجب من أمرك ، ولقد سمعت عنك ، وعن شرفك ، أكثر مما رأيت منك

— فبُهت الحارث ، وارَبدّ وجهه ، وابتدأت نفسه تثور بالغضب ، وقال لها : أبينى عما أردت بما تفوهت به الآن ، والله إن العرب جميعاً لتعلم حق العلم أنى فى الذروة حسباً ، وكرمَ نِجار ، وأنى من أطولها يداً ، وأكثرها غنىً ، وأكرمها فعلا ، فما بدا لك منى حتى أسمع منك ما يسيئنى وقد كنت معك حليما ، كريما؟

لم أقصد الإساءة إليك ، أو الغض من شأنك ، ولكنى كنتُ أنتظر منك ، وقد طار صيتك فى المكرمات وجميل الفعال ألا تَفرُغ للنساء ، وتخصهن بوقتك كله ، وأمامك من أسباب السيادة ، والعمل الصالح ، ما يخلدك أبدَ الدهر

— وما هذا الذى أمامى ؟

— لقد افنت الحرب بين عبس وذبيان خير شبابهما ، وطال أمدها ، ومَلّها الناس ، وعظمت و يلاتها عليهم ، فهل من رجل مسموع الكلمة ، طائل الثراء ، سمح النفس ، واسع الحيلة ، يسعى بينهم بالصلح ، ويعيد الأمن والطمأنينة إلى هذه الديار الجميلة ، ويحقن الدماء البريئة ، ويفدى القتلى ويتحمل الديات ، فيعود إلى النفوس هدوؤها وانشراحها ؟؟

لقد كنت أظن يا ابن عوف أن هذا الأمر لا يخفى على مثلك ، وإنى لم أمتنع عليك زهداً فيك ، أو خوفاً منك ، أو كراهية لك ، ولكن أحببت أن يكون مَقْدمى عليك سبباً فى رفع ذكرك ، وتخليدك بالأثر الطيب والعمل الصالح مدى الدهر ، فاخرج إلى هؤلاء القوم ، وأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد .

فسُرَّ الحارث من حديثها ، وتحركت همته العالية ، ونفسه الطموح لتحقيق طَلِبتها ، وقضى ليلته بعيداً عنها فى خباء وحده ، وهو يفكر فيما اقترحته عليه وهل يستطيع وحده أن يتحمل ديات القتلى ؟ وهل ثمة من يرغب فى السعى معه فى هذا الأمر الجلل ؟ ، وأخذ يستعرض أشراف قومه وأجوادهم : عيينة ابن حصن الفزارى ، إنه حقاً رئيس قومه ولكنه أحمق موتور ، . . ابن سيَّار إن فيه كزازة ، ليس إلا هَرِم بن سنان الُمرِّى ، إنه ذو أريحية ، وصاحب همة ، وسماحة يد . واطمأن قلبه حين اهتدى رأيه إلى هرم ، وعزم أن يبكر فى التحدث إليه فى شأن الصلح ، وأغفى قليلاً قبل أن ينبلج الصباح ، وقام حين أشرقت الشمس وقلبه مفعم بالأمل فى تحقيق رجاء بُهيسة بنت أوس . وجاءه خارجة بن سنان قبل أن يبرح خباءه ، وسأله : كيف قضى ليلته مع عروسه ؟ ، فقص عليه قصتها معه ، وما طلبته منه ، فقال له خارجة :

— والله إنى لأرى همةً وعقلاً ، ولقد قالت قولاً

— فى الحق يا خارجة ، لقد ازددت بها شغفاً ، ولها محبة وإعجاباً ، و ياليت مثلها فى النساء كثير ، فإنها مُلْهمة ، وصاحبة رأى ، ودلَّت على أنها حقاً بنت سيد من سادات العرب ، وأخت عَرابة الذى قال فيه الشاعر :

إذا ما رايةٌ رفعت لمجد تلقاها عَرابة باليمين

وتريد أن يكون زوجها أهلاً لها فى السيادة والشرف ، يَلْهج الناس بحمده ، كما تريد أن يكون مَقْدمها خيراً وبركة على مَنْ حلّت بهم ، فتحتل من قلوبهم أرفع منزلة ، وأسمى مكانة ، وهكذا يكون النساء .

والآن يا خارجة ! لقد فكرت ملياً فى هذا الأمر الذى عرضته بهيسة ولم أجد إلا هَرِم بن سنان مِعْواناً لى فى الصلح بين الناس ، فهيا بنا إليه .

— لقد أصبت ، فهرم جدير بأن يتزعم معك شئون قومه ، وقد صدق زهير حين قال فيه :

تراه إذا ما جئته متهللاً	كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وصدق كذلك حين قال فيه :

قد جعل المبتغون الخيرَ فى هَرِم	والسائلون إلى أبوابه طرقا
من يَلْقَ يوماً على عِلاَّته هَرِماً	يلْق السماحةَ منه والندى خُلقا
لو نال حىٌّ على الدنيا بمكرُمة	أُفق السماء لنالت كفه الأفقا

فهيا بنا نعرض أمر الصلح على قومنا ، وما إخالهم إلا توّاقين إليه ، بعد أن طحنتهم الحرب طحناً ، وإن لم تفُلَّ غَربهم كما صنعت ببنى عمومتهم عبس .

وخرج الحارث بن عوف ميمماً صوب هرم بن سنان ، وما كاد يعرض عليه الأمر حتى تهلّل وجهه ، ووضع كلَّ ماله بين يدى الحارث إذا كان فى المال ما يزيل الأحقاد ، ويُذهب الإحَن ، ويعيد للنفوس هدوءها ، وللديار أمْنها ، ويردُّ عبساً إلى أوطانها ، وقد شردوا فى كل مكان وطوّفوا بأنحاء الجزيرة .

وكانت عبسٌ قد ملت الحرب كما ملتها ذبيان ، بل إنها سئمت التَّطواف بشتى الأماكن والنزول بمختلف القبائل ، يلاقون منهم عَنَتاً وإرهاقاً حتى قال لهم قيس بن زهير ، قائدهم وصاحب حربهم : ارجعوا إلى إخوانكم من

ذبيان ، فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم ، وقالوا له : سر معنا ، فقال : لا والله ، لا نظرت فى وجهى ذبيانية قتلتُ أباها أو أخاها أو زوجها أو ولدها .

وسمعت عبسٌ بمسعى الحارث بن عوف فجاءوا ونزلوا عليه ، وذكروا له ما قدموا من أجله ، فكان فرحه بمقدمهم لا تسعه الدنيا العريضة ، لأنه وجد فى نفوسهم مثل ما فى نفسه ، وجدها مهيئة مشوقة للصلح . ودعا هرم بن سنان إليه ، واحتسب كلٌ فريق من القبيلتين قتلاه وتحمل الحارث بن عوف ، وهرم ابن سنان ديات مَنْ زاد من القتلى ، فكانت ثلاثة آلاف بعير ، دفعاها للموتورين فى ثلاث سنوات ؛ وحمِد الناس لهم ذلك الموقف الفذ ، وذاع اسماهما فى العرب كلها ، ولكنّ شخصاً واحداً أبى أن يَدْخل فيما دخل فيه قومه من الصلح ألا وهو حُصَين بن ضَمْضم المُرّى ، فقد قتل وَرْدُ بن حابسٍ العبسى أخاه قبل الصلح ، وأقسم لينتقمن له ، فلمّا علم بالصلح أبى أن ينصاع له ، وأخذ يترقب الفرصة المواتيه ليَبرّ بيمينه .

وجاءته الفرصة سريعا بعد الصلح ، إذ مرّ به ذات مساء رجل من عبس ، فأخذ يسأله عن نسبه حتى علم أنه من عشيرة ورد بن حابس فقتله ، فثارت بنو عبس ، وكاد الصلح ينتقض ، وتعود الحرب على أشدها ، ولكنّ الربيع بن زياد سيد عبس أشار عليهم بأن يركبوا إلى الحارث بن عوف ، فلما علم الحارث بركوبهم إليه ، ورأى فى وجوههم الشر وأنهم عازمون على قتله هو : إذ ظنوا صلحه هذا خُدْعةً منه أرسل إليهم ابنه ومعه مائة من الإبل ، وخيّرهم بأن يقبلوا دية قتيلهم مائة من الإبل ، فإن أبَوْا فهاهو ذا يقدّم ابنه ليحقن به الدماء ، ويثبت الصلح . فاستحي الربيع بن زياد وبنو عبس ، وقبلوا الدية

و بذلك تمَّ الصلح على يد الحارث و بفضل بُهيسة بنت أوس زوجه .

وقد خَلَّد الشعراء الحارث بن عوف لهذه اليد الكريمة التى طوّق بها قومه وذلك حيث يقول زهير بن أبى سلمى فى معلقته ذاكراً مسعاه هو وهرم ابن سنان فى هذا الأمر الجليل :

سَعَى ساعيا غَيْظ بن مُرَّةَ بعد ما ... تبزَّل ما بين العشيرة بالدم[(١)]

فأقسمتُ بالبيت الذى طاف حوله ... رجالٌ بَنَوْه من قريش وجُرْهم

يميناً لنعم السيدان وُجدتما ... على كلِّ حال من سَحيلٍ ومُبْرم[(٢)]

تداركتما عبساً وذبيان بعد ما ... تفانوْا ، ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِم[(٣)]

وقد قلتما إن ندركِ السِّلْم واسعا ... بمالٍ ومعروفٍ من القول نَسْلَم

فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوقٍ ومأثم

عظيمين فى عُليا مَعَدٍ هُديتما ... ومن يستبح كنزاً من المجد يُعظِم[(٤)]

واستقبلت بُهيسةُ الحارث بن عوف حين تمَّ له الصلح ، وخُلِّد فى العالمين بما يليق بمكانته وسعيه ، ووضعها الحارث من فؤاده فى السويداء ، لأنها كانت امرأة أين منها النساء !

---

(١) تبزل الجرح : إذا تشقق وخرج ما فيه ، كان القوم فى وئام ووحدة ، فتشقق أمرهم ، وانصدعت وحدتهم .

(٢) السيدان : الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، وكلاهما من ذبيان ، والسحيل : الخيط المفتول على قوة واحدة ، والمبرم : المفتول على قوتين ، والمعنى : لنعم السيدان وجدتما حين تفاجآن لأمر قد أبرمتماه ، وأمر لم تبرماه ، أى على كل حال فى شدة الأمر وسهولته .

(٣) منشم : امرأة كانت تبيع العطر ، وقد تحالف جماعة على القتال وغمسوا أيديهم فى عطرها ، ودخلوا الحرب فقتلوا جميعاً ، فضربت مثلا فى التشاؤم ، وقيل غير ذلك .

(٤) يعظم أى يأتى بأمر عظيم ، أو يصير عظيما .

السخى العــداء[1]

كان المهاجرُ بن عبــد الله والى اليمامة ذات يوم جالساً فى حاشيته ، وكل من له قضية يبغى الفصل فيها ، أو طَلِبَة يروم قضاءها ، أو ظلم وأراد النصفة والعدل ، دخل على الأمير ناثراً بين يديه خبيئةَ نفسه ، ودخيلةَ أمره .

والمهاجرُ بن عبد الله ينصت ويفـكر ، ويستشير ذوى الرأى من جلسائه ويصدر أمره . ولما انقضى عليه بعض الوقت وهو يوزع العـدل على الرعية ، ويغيث المـكروب ، وينصف المظلوم ، ويعين المحتاجَ ، أُحضر بين يديه أعرابى جلف ، خفيف اللحية ، أشعثُ الشعر ، فى وجهه ندوبُ جراحٍ قديمة ، قصيرُ الثياب ، نحيف البدن ، مفتول العود ، يحيط به رجال الشرطة فى حرص وعناية كأنهم يخشون إفلاته ، أو كأنه شىء ثمين أحرزوه بعد جهـد وعناء وما كان لهم أن يفرطوا فيه .

ولما مثلوا بين يدى الأمير قال أحدهم :

— هذا يا مولاى سُحَيْمٌ الأَزْدِى ، الذى رَوَّع الآمنين ، وقطع الطريق وعاث فى البلاد فساداً ، وقتل وسرق ، والذى طالما طاردناه وتمنينا القبض عليه وقد أمكننا الله منه بعــد طرادٍ عنيف ، وقد ألح عليه السَّغبُ وقلةُ ما بالبيداء من خير ، لشدة الجدب هذا العام ؛ فورد هذه المدينة علّه يجد ما يقيم بها أودَه ويمسك ذَماءه ، يمشى على حذر خائفاً يترقب ، وقد راب أمرَه أحدُ رجالى فأرسل إلى من أنبأنى خبره دون أن يضع عنــه بصره ، وما أن رأيته حتى

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ١٨٧ وقصص العرب ج ٢ ص ١٩ .

عرفته ، وقد لمحنى ففر كأن به مساً من الشيطان ، أو أنه قد رأى شبح الموت .
ولكننا طاردناه حتى أمعن فى الصحراء فلم نقلع عنه إلا وهو مغلول اليدين
يرسُف فى القيود .

فقال الأمير : أحقاً ما يقول الشرطى يا سحيم ؟

— هو بعض الحق يا مولاى .

— أو عندك شىء آخر ؟

— إنى لا أُرمى بالسلب والقتل . ولكن مضى علىَّ حين من الدهر ،
وأنا اقتحم الصعاب ، وأرد المكاره فى سبيل الرزق ، وقد أخذت للأمر عدته
فكان لى بعير لا يُسبَق ، وخيلٌ لا تُلحَق . وإذا خرجت فى غزاة أو غارة
لا أرجع خائباً ، وعندى جنان كالجبل الأشم لا تزلزله الحوادث وتروِّعه
الكوارث ، ويَدٌ صناع ماهرة فى القتال بشتى فنونه وأدواته .

ولم أكن أتورعُ عن قتل من يعترض سبيلى ويزحمنى فى طريقى ؛
أو من يروم بى سوءاً ، ويبغى إحباط مسعاى ، وإفساد تدبيرى . وكان ذلك
سَفَهاً وطيشاً أعترف بهما بين يدى الأمير ، لا عن خوف من عقاب أو طمع
فى عفو ؛ فإنى على يقين من عظم الجريرة وكبر الإثم ، ولكنها الحقيقة ، وعَهْدٌ
أخذته على نفسى منذ زمن ألا أقول مَيْناً .

— أو لم يكن لك فى قوتك وشجاعتك ما يغنيك عن قتل الوادعين
الآمنين ، وسلب عباد الله ، وما يجلب لك الرزقَ الحلال ؟ وإذا كنت عاجزاً
من الكسب ، فهلا لجأت إلينا لنعطيك من بيت المال وندبر لك أمرك ؟
اللهم إن ذنبك لعظيم . والآن اخبرنى يا سحيم عن بعض عجائبك قبل أن

نفصل فى أمرك وندعك لحكم الله .

— أيها الأمير — لا زلتَ مؤيداً — إنى والله لا أخشى الموتَ وقد اقتحمت عليه عرينه مرات ومرات ، وتمثلته فى كل خُطوة فى غارة ، وكل ثنية فى طريق ، وكيف لى أن أهابه اليوم وقد بلغت من العمر ما بلغت : و إنى أقول غير معتذرٍ عن نفسى : إن ما دفعنى إلى ما فعلت هو غرورُ الشباب ، وجرأة الجنان ، وسوء الصحة ، وتصريف القضاء . ولقد كنتُ موقنا أن هـذا اليوم آتٍ لا ريبَ فيه إن عاجلا و إن آجلا ، و إن نجوتُ فى الدنيا فلن أسلم فى الآخرة.

أما عن عجائبى فـكثيرة ، ومن أعجبها أنى خرجت فى يوم قائظ يتوهج لهباً ، وقد التمست شيئا أطعمه فلم أجـد ، وخلّفتُ ورائى صبيةً يتضاغون من الجوع وآليتُ لا أرجع حتى أغنيهم عامهم هذا لحماً ولبناً ، ومضيتُ فى طريق لا أجد إلا رمالا سافية ، وصخوراً عاتيه ، ويباباً قَفْراً خلا من الزرع والضرع . ولما اشتد بى الجوعُ حتى كدت أهلك وارتد عن عزمى ، شاهـدت ضباً يُطِلُّ برأسه من جُحر ، فأنخت راحلتى ، وقلت لنفسى سأتبلغ به حتى يأتى الفرج . ثم مددت يدى إلى جُحره ولمـــا صار فى يدى عافته نفسى على ما بى من جوع ، فعلّقته على قَتَب بعيرى ؛ خشيةَ ألا أجدَ سواه وأُضطر إلى أكله . وانطلقتُ فى طريقى وأنا لا أكاد أتماسك إعياء وسَغباً ، ثم مررت على خباء واسع عليه مظهر الثراء والرخاء وليس به إلا عجوزٌ شمطاء . فقلت لنفسى أخلقْ بهذا الخباء أن يكونَ له رائحةٌ من غنم أو إبل ، ودنوتُ من الخباء فحييتُ العجوز ، فردّت التحية وقالت :

« إنى أراك لَغِباً نَصِباً ، فهل لك أن تنزلَ على الرَّحب والسعـة ،

وتسامِرَ زيداً الليلة فإنه سيأتى عما قليل بالإبل » .

فقلت : « لقد كدت أطلب ذلك من شدة ما بى من الإعياء والجوع لولا أنك تكرمت فسبقت إلى الفضل ، لا زال رزقُك موفوراً ، وخيرُك مشكوراً » .

وانتحيت ناحيةً وأرحت بعيرى والشمسُ على وَشْك المغيب ، وقد بدا على وجهها الصفرةُ والشحوب كأنها جزِعة من فراق هذه الأرض ، أو كأنها مجهدَةٌ عيية من عناء يومها ، وطول سفرها ، وأخذ أديم الأرض يبرُد ، وهواء الصحراء يرق ويلطف . وما أن توارت الشمس بالحجاب ، ونشرت فى الأفق ثوبها الأرجوانىَّ تلوِّح به لهذه الدنيا مودعة قبلَ أن تدخل فى سجوف العتمة حتى طلعت علينا مائةٌ من الإبل الضخمة وفيها شيخٌ عظيم البطن كبير الهامة ضخم الجثة كثيرُ اللحم والشحم ، ومعه عبد أسودُ عملاق ، عنيفُ المنظر ، شتيم الوجه ، غليظ الشفتين . مكتنز البدن .

فلما رآنى الشيخ رحب بى ترحيب الجواد الذى يهش للضيف ويسر بمقدمه ، ثم قام إلى ناقة فاحتلبها ، وناولنى الإناء فشربت ما يشرب الرجل ، وهو ينظر إلى بعين فاحصة فأخذ ما تبقى فضرب به جبهته ، ومن ثم قام إلى تسعة أينق فاحتلبهن جميعاً ثم شرب كل ألبانهن ، وأنا أصعد فيه بصرى وأتعجب لبِطْنته وعظم شهيته . ولقد ظننته والله سينفجر أو أن جوفه لا قرار له ولما انتهى بدا كأنه لم يتناول شيئاً ، ونظر إلى وهو يبتسم ثم قال :

— والآن سنطهى طعامنا .

فقلت لنفسى : « ليس هذا إلا وحشاً يمشى على رجلين ، أبعد هذا اللبنِ

كله يجد فى أمعائه متسعا لطعام » ، ولـكن راعنى وايم الله أنه عمد إلى حِوار[١] حنيذ فذبحه وطبخه ودعانى للطعام معه ، فأكلت ما يأكل الرجل ، وتركته ينهش اللحم نهشاً ويلقى العظام بيضا ، حتى أتى عليه كله لم يفكر فى عجوز أو عبد ، وأنا أزداد منه عجباً وأقول : أخلق بذى البطنة أن يكون خوّاراً ضعيفاً قليلَ الهمة . وهذا لعمرى ما أبغيه فى ليلتى تلك . وبعد أن فرغ من طعامه لم يعد لديه مَيْلٌ للسمر أو الحديث ولـكنه ثَقُلَ وتراخى وأخـذ الـكرى يداعب أجفانه ، فجثا كُومةً من الرمل وتوسَّدَها ، وراح يَغُطُّ غطيطَ البـكر شُدَّ عِقاله .

أخذتُ أتأمل هذا الجسمَ الطويلَ الممتد ، وهذه المعدةَ التى تعلو وتنخفض مع النَّفس وقد تـكوّرت وبرزت ، وهذا الإهابُ الخشن ، واليد الجاسية ، والقدم الغليظة ، والرأس الضخم ، والجثة المنتفخةَ ، وقلت بعد أن تيقنت أن النوم قد جره إلى بئره العميقة وتمـكن منه كل التمـكن : هذه والله لغنيمة ، وأنَّى لهذا البَطِن أن ينتبه لمن يسطو على إبله ويطردها . ثم قمت إلى فحل إبله فخطمته[٢] ثم قرنته إلى بعيرى ، والتفت فوجدت العبد قد لحق بسيده فى مهامه النوم ، فزادنى ذلك إقداما ، وصحت بالفحلِ فاتَّبعنى ، واتبعته الإبل فصارتْ خَلْفى كأنها حبل ممدود ، وأخذتُ أحدو وأغنى وأُجِدُّ السير ، وبعيرى يكاد يطير سرعة ، ومع هذا لم آلُهُ ضربا باليد ، ورَكْلا بالرجل وكنتُ أقصد ثَنِية[٣] بينى وبينها مسيرةُ ليلة للمسرع ، فبلغتها فى مطلع الفجر بعد أن بلغ منى الجهد كل مبلغ .

---

(١) الحوار : ولد الناقة . (٢) وضعت فيه الخطام وهو ما يوضع فى أنفه ليقاد به

(٣) الثنية : المنحنى فى الطريق .

أخذ الليل يلملم أطرافه السحمَ فى عجلة وذُعر ، وجحافلُ النهار والنور تزحف مسرعة وتنشر ألويتها فى الخافِقَيْن ، فأبصرت الثنية ، فخفق قلبى فرحاً وقلت : نجونا بالإبل . ولكن راعنى حين نظرت إليها ثانية أن عليها سواداً لم أتبينه بادىء الأمر ، ولم أعرف كنهه وأخذت أحدث نفسى وأقول : ترى ما هذا ؟ أقاطع طريق مثلى يريد أن يَغصبنى ما تجشمت فى سبيله الصعاب وسهر الليل ووعثاء السفر وعناءه ؟ ، فلما دنوت منه إذا أنا بالشيخ قاعداً وقوسه فى حجره ، فارتعت وربِّ الكعبة ، وقلت : ما هذا إلا شيطان مارد ، كيف استطاع أن يسبقنى إلى هذه الثنية وأنا راكب وهو راجل ، وقد قضيت الليل أحدو الإبل وأغِذُّ السير غذا وأحثها على السفر حثاً شديداً ، وقد تركته نائماً يغط غطيطاً منكراً ، و بطنه ممتلئة تكاد تنفجر تُخَمة ، وقد قضى يومه تعِباً نَصِباً يرعى الإبل فى الوادى و إنه لبعيد ! ؟ .

وقفتُ بالإبل على بعد منه ، وأخذت أقلب طرفى فى هذا المخلوق العجيب ووجدته لم يحرك ساكناً بل ظل فى مكانه قاعداً كأنما ينتظر منى أن ألقى بنفسى بين يديه ، واستسلم له طواعية ، ولما رآنى لم أفعل وقد بدا الاهتمام والتفكير على محياى قال وهو بعد فى جلسته :

— أضيفنا ؟ .

قلت : نعم ! .

وأنا أحس بما فى هذه الكلمة ، وما فى لهجته من التأنيب والتوبيخ . ولكن أنَّى لمثلى أن يهزه التأنيب والتقريع وينال منه ، وقد فعل ما فعل وهو

على بينة من أمره . وحملقت فيه متحدياً كأنى أشعره بثبات الجنان وعظم المُنَّة : فقال :

— أتسخو نفسك عن هذه الإبل ؟ .

قلت : لا . (وقد فهمت مغزى سؤاله وما فيه من تهكم لاذع ، ولكننى تماسكت وتجلدت) .

فأخرج من كنانته سهماً كأن نصله لسانُ كلب ، ثم قال :

— ترى هذا الضب الذى علقته على قَتَبك ؟ .

قلت : أجل .

قال : أبصر بين أذنيه .

ثم رماه فصدع عظمه عن دماغه . ونظر إلىّ ثم قال :

— ما تقول ؟ .

قلت : (وأنا والله أتهيبه وأخاف شره) : أنا علَى رأيى الأول ! .

قال : انظر هذا السهم الثانى فى فقرة ظهره الوسطى .

ثم رمى به دون عناية وكأنه يلهو ، فجاء فى الفقرة الوسطى كأنما قدّره بيده ثم وضعه بأصبعه ، ثم قال :

— أرأيت ؟ .

قلت : إنى أريد أن أتثبت :

وأنا فى هذا أحاول أن استنفد أسهمه وأعلم مبلغ مهارته التى لا أرتاب فيها ، وقد ازداد إعظامى له ، وخوفى منه ؛ ولولا الحياء و بقية من رجولة وشجاعة لألقيت نفسى تحت قدميه ، لأنى مهما أوتيتُ من قوة لن أصل إلى

دربته وتفوقه الجسمى ، وأيده وجلده . فقال :

— انظر هذا السهم الثالث فى أصل ذنبه ، والرابع والله فى بطنك .

ثم رماه ولم يخطىء موضعه ، وكأنما أزال هذا السهم كل ما فى نفسى من ريبة وأدركت أنى قد وقعت من هذا الشيخ على داهية خبير من شياطين الصحراء ، الذين تمرسوا بها وعركوا الحوادث وعركتهم فما ازدادوا إلا جرأة وصلابة فقلت :

— هل أنزل آمناً ؟ .

قال : نعم .

فتعجبت من سماحته وعفوه عنى ، وقد خُنتُ عهده بعد أن تحرمت بذمامه وأكلتُ من طعامه ولم أرع حق الضيافة . وقد أرانى من كفايته وسرعة عدوه وشدة أيده ، ومهارة يده ما أثبت تفوقه علىّ ، وإن فى مكنته أن يردَينى قتيلا بواحدة من هذه الأسهم اللعينة قبل أن أدنو منه وأعرف أى شخص هو ، ولكنه أبى إلا أن يكون سمحاً كريماً .

فنزلت ودفعت إليه خطام الفحل وقلت :

— هذه إبلك لم يذهب منها وبرة .

وأنا أنتظر متى يرمينى بسهم ينتظم قلبى ، فلما تنحيت قال لى :

— أقبل ! .

فأقبلت والله خوفاً من شره لا طمعاً فى خيره .

ودنوت حتى صرت بين يديه ، وهو يبتسم لى ويجرئنى على القدوم ، وأنا أتهيبه وقد جف ريقى ، وتصبب العرق من جبينى ، وعلى وجهى الخزى

والخيبة ، وكنت منه كما يكون الولد الصغير المذنب أمام والده الوقور ، فقال :
— أى هذا ! ما تظن أنى فاعل بك ؟ .

فقلت لا أدرى ، ولكنك تقدر أن تفعل الكثير ، لولا أنك أمّنت نزولى .

قال : ما أحسبك جشمت الليلة ما جشمت إلا من حاجة .

قلت : أجل .

قال : — لو انتظرت حتى الصباح ، وأشرت إلىّ بحاجتك ، ولم تخفر ذمتى وتتسلل فى سُدفة الليل بإبلى كما يفعل اللصوص الهيابون ، لأعطيتك رزقاً وفيراً ولكن أبىْ عليك ضعفُ همتك إلا أن تفعل ما فعلت ، وليس لك عندى بعد كل هذا إلا بعيرين ، فاقرنهما وامض لطيتك ، وإياك أن تعود لمثلها .

كان هذا أعجبَ من عفوه السابق وحقنه لدمى ، وكان أبعد مما كنت أقدّر ، فوجمت وأطرقت إطراقة الخزى ، وقد أكبرته جداً ، وأدركت أن له قلباً كبيراً رحيما ، ونفساً سمحة طيبة سخية . ولم أشأ أن أتركه دون أن أطلعه على حقيقة أمره عندى . فقلت : أما والله حتى أخبرك عن نفسك قليلا ! .

ثم قلت : والله ما رأيت أعرابياً قط أشد ضرساً ، ولا أعدى رِجلا ، ولا أرمى يداً ، ولا أكرم عفواً ، ولا أسخى نفساً منك .

عمدت إلى ناقتين من أسمن نوقه فقرنتهما ، ومضيت فى طريقى دون أن ألتفت خلفى ، وكنت بهذا أخسّ ضيف وأدناه ، وكان أشجع مضيف وأسخاه .

عنترة الفوارس [1]

فى يوم قائظ شديد الحر ، يذوب منه أديمُ الأرض ، ويتوهّج الهواء ، وتضطّرم البيداء ، وقد سكنتِ الريح ، واربدّ الجو ، وظلّت الشمس تصب على الأرض شواظها الملتهب فى غير ما رحمة ، جلس رجلٌ طويل القامة ، عظيم الهامة ، ضخم القسمات ، غليظُ الشفتين ، صلب العود ، مفتول العضلات أسود الوجه كأنه زبيبة ، فى عبوس وإطراق ؛ وقد رفع عصاه وألقى عليها رداءه ، وقبع تحت هذا الظل الضئيل يستتر من أبواب جهنم المفتحة ، وحرُّ البيداء يلفح وجهه ، وأمامه إبل عديدة ترعى الحَسكَ ، والسَّعدان ، بعضها قائم وبعضها بارك ، وهو فى شُغلٍ عنها بنفسه .

وبيناهو يعانى من شدة القيظ ما يعانى ، ولا يستطيع الفكاك من هذا الجحيم المستعر بأن يريح الإبل إلى معاطنها ؛ لأن سيده ، وامرأة سيده يأبيان عليه ذلك ، إذ جاءه فتى أسود الوجه ، يشبهه قوة وأيداً وبادره بالخطاب :

---

(١) هذه الصورة لعنترة الفوارس كما استطعت أن أستخلصها من الكتب التاريخية والأدبية الموثوق بها ، وهى غير الصورة المبالغ فيها كما وردت فى قصة عنترة المشهورة راجع de Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabe. II. p, 519 وراجع شعراء النصرانية ص ٧٩٤ ، وراجع بلوغ الأرب للألوسى ج ٢ ص ١٢٦ ، ومهذب الأغانى ج ٢ ص ٢٦ ، والأغانى ط بولاق ج ٧ ص ١٥٢ ، والكامل للمبرد ، والعقد الثمين لوليم آل ورد ص ٥١ ، والتبريزى شرح المعلقات ط السلفية ، وابن قتيبة فى الشعر والشعراء ، وراجع Brockelmann, Anter-Encyclopedia of Islam ، وخزانة الأدب للبغدادى ط السلفية ج ١ ص ١٢٥ ، وطبقات الشعراء لابن سلام وراجع A, Perron. Lettre sur Anter J. A. décembre 1840, P, 501 — 503.

— هأنتذا ياعنترة ! أما آن لك أن تريح إبلك من هذا الاوار المشتعل .

— إنك تعلم يا أخى حَنبل أن شداداً وامرأته سُمية ، لا يقصدان إلا تعذيبى ، وامتهانى ، ولو رحت إليهما الآن بالإبل لأوسعنى شداد ضرباً بالعصا ، وسلقتنى سُمية شتما وقذفاً ، ولَحَرُّ البيد هذا أهون على مما ألاقى منهما .

وما بالك مشغولاً مهمومَ البال ؟ هل ثمة ما يثير شجنك غير ما تلاقيه من شداد وسُمية .

— ليس هذا بالأمر الهَيِّن ، ولست أدرى متى يرعوى شداد فلا يعاملنى معاملة العبد ، ومتى يلحقنى بنسبه ، فلا أطأطىء الرأس أمام بنى قومى ، وهم دونى شجاعة ، و بأساً ، و إصابة رَمِيَّة .

— صبراً يا عنترة ، وسيعلم قومك عما قريب مكانتك ، و يرون أنفسهم فى أمسّ الحاجة إليك ، و إلى حُسامك البتار ، وسهمك الصائب ، وساعدك المفتول ، وضربتك الشديدة . ولقد أفدت لعمرى من وحدتك هذه فصرت أصوبَ الناس سهماً ، وأقواهم ساعداً ، لتمرسك بالرماية وأعمال الفروسية .

— والله لقد عِيل صبرى ، و إن فى قلبى سِراً رهيباً أخشى أن أبوح به لأحد ، وهو الذى يقض مضجعى ، و يطير الكرى من جفنىّ ، ويعتصر قلبى همّاً وكمداً .

— ويكَ يا عنترة ! وما سرُّك هذا ؟ بُحْ إلىَّ به ، ولك عهدى بألا أذيعه ، فأنت تعلم أنك أملُ إخوتك المرجوّ ، وأنهم إن اعترفوا بك وألحقوك بنسبهم ، سعيت لديهم فى الاعتراف بنا ، و إن لم نكن أشقاءك . بح لى بسرك لعلّ لدىّ من الرأى ما يخفف عنك شجنك ، أو يجد لك فى أمرك هذا مخرجاً .

إنى عاشق يا حَنْبل ، ولست أعرف لى حيلة أو وسيلة فى الوصول إلى قلب من أحبها ، وإنى لأراها وأنا على ما فيه من امتهان ومذلة ، لا هَمَّ لى إلا رعى الإبل لشداد وسُمَية أعلى من السماكين منالا .

— ويك يا عنترة ! إن هذا لأمر جلل ، وإنك لتعرف هوان منزلتك فى قومك ، وإنى أعرفك راجح العقل ، حصيف الفكر ، كريم النفس ، وما كنت أظن أنك تجهل أمرك ، وتطمح فى أن تعشق . ولكن خبرنى من التى تيمت عنترة ، وملكت عليه لُبّه وأرقت جفنيه ؟ .

— ذاك هو السر يا حنبل ؟ .

— يا ابن أمى ، لقد أخبرتك أنى حريصٌ عليك ، مؤمل فيك ، وإذا لم تبح بسرك لى فمن عساه يؤتمن عليه ! .

— سيظل دفيناً فى فؤادى حتَّى أقدم بين يدى محبوبتى من باهر الأعمال وكريم الخصال مايحجب عنها سواد لونى ، وَضَعة نشأتى ، وحينئذ تبادلنى حباً بحب ، ويعرف الناس من أمرها وأمرى ما أنا حريص على إخفائه اليوم .

— أخبرنى باسمها لعلى أعينك فى أمرك ، ولا تخش بأسا .

— إنها عبلة بنت عمى معاوية .

— يا الله ! عبلة ! أو تطمح فى أن تحبك عبلة ، وأبوها معاوية على ما تعرف من صَلَف وكبرياء ، وتيه وخُيلاء ، يعتقد أنه أرفع من النعمان مكانا ، وأعلى من ابن ذى يَزَن شانا ، وكيف السبيل إلى عبلة ؟ ، وعمرو أخوها يزدريك أينما رآك ، ولا يناديك إلاَّ يا ابن الأمة السوداء ، ولا تملك لقوله رداً ، ولا لهجومه عليك صداً ، وشدادٌ يمعن فى إيذائك وتحقيرك ، وسمية لا تنفك عن

شتمك وتعييرك . لقد أوقعك فؤادك فى مأزق حرج يا عنترة ، وكنت أظن أن الأمر أهون من هذا ، فهل إلى العدول عن هذا الحب الذى لاجدوى منه ، وَلا خير فيه من سبيل ؟ .

— والله يا ابن أمى ، لقد غالبته مراراً فغلبنى ، وطردته فاستعصى علىّ ، ولقد فكرت فى أمرى هذا طويلاً ، ولا سبيل إلى عبلة إلاّ أن أرتفع بسؤددى وعظيم فَعالى إلى مرتبة السيادة والشرف ، وإن أيام عبسٍ لكثيرة ، وسيعرف القوم مَن عنترة حين يَحْزُبُهُمْ الضُّر ، ويغشاهم اليأس ، ويتلمسون الساعد القوىّ ، والفتى الأبىّ ، والعقل الذكىّ ، واللسان الصارم ، والحسام القاطع فلا يجدونه إلاّ لدى عنترة ، فصبراً صبراً ، وإياك أن تنمّ علىّ ، أو تَشِى بى ، فتفسد من الأمرُ ما دبّرت وتنقض علىّ ما قدرت وأحكمت .

— لك علىّ عهدُ الله يا عنترة أن أحفظ سرك فى مكنون فؤادى ، حتى تنال أمنيتك ، وتحقق طلبتك ، وإن كنت فى يأسٍ من أمرك ، ولا أجد له مُنفَرجا ، والآن أتركك للتفكير فى عبلة ، وعسى أن يأتى الله بالفرج أو أمر من عنده .

وقضى عنترة يومه هذا فى تفكير وتدبير ، وليس له من أملٍ إلاّ فى ساعده القوى ، وفؤاده الأبى ، وخلاله الكريمة ، وما أن أتى المساء حتى ساق إبله إلى معاطن شداد ، ولما رأته سمية نادته :

— هل حلبت الإبلَ يا عنترة ؟ .

— لقد أتيت بها تواً ، وسأحلبها الآن فناولينى الأوعية .

— يا عبدَ السوء ! ، إنك لتعلم مكان الأوعية ، فما زدت على أن جعلتنى

لك خادماً ، يا ابن زبيبة ، يا مشقوق المِشْفَرين ، يا راعى الإبل ، تالله لأخبرن شداداً بأمرك ، وإن لم يؤدبك فلن أقيم معه في بيت يأويك .

وجاء شدادٌ وهى تنهال على عنترة سباً ، وتبرق وترعد ، وتتهدد وتتوعد ، وما أن رآنه حتى هَوَّلت له فى عصيان عنترة لأوامرها ، وأنه أبى أن يحلب الإبل ، فتناول شدادٌ عصاً غليظة ، وأخذ يضرب عنترة بكل ما أوتى من قوة ، وهو مستسلم لضربه ولما أمعن فى إيذائه وهو صابرٌ لا يتكلم أو يتأوه ، ارتمت سمية على عنترة تحميه من ضربات شداد ، وتشفعت له ، وأنقذته من يديه وهى تبكى لما أصابه فانفلت وهو يقول :

أمن سُميـةَ دمعُ العين مذروفُ   لو أن ذا فيك قبلَ اليوم معروفُ

تجللتنىَ إذ أهوى العصا قبلى   كأنها صنمٌ يُعْتادُ معكوف

العبد عبدُ كم والمـال مالـكمُ   فهل عذابُك عنى اليومَ مصروف؟

ومضى عنترة كسيفاً حزيناً ، يندب كرامته المهانة ، وحبه الذى لا أملَ فيه ، ورأى فتيان الحى يَسْمُرون ، ويشربون الخمر ، ويسمعون الغناء ، فلما مَرَّ بهم لم تحدثه نفسه بالجلوس معهم ، وأنَّى له أن يفعل مثل ما يفعلون ، وهو لا يملك من حُطام الدنيا نقيراً ، أو قطميرا ، وهم به يتغامزون ، وله يحتقرون ، ولا يُطيق أن يسمع من أحدهم كلمة نابية ، فربما ثارت نفسه ، فوكزه ، فقضى عليه ، وهو إن احتملَ سمية وشداداً فلأنه أبوه ؛ وهى امرأة أبيه ، وللأب حُرْمته ومهابته .

وبعد أيامٍ قضاها عنترة فى غمٍ وهَمٍ ؛ يغدو بالإبل نهاراً ، ويروح بها ليلا ، لا يكلم أحداً ، ولا يحيى سمية ، ولا يطلب منها طعاما ، سمع أن قومه

يستعدون للغارة على طيء أخذاً بثأر قديم ، فأخذ يَشْحَذ سيفه ، ويَرِيش سهامه ويعدُّ رمحه ، وقال : قد جاءتك الفرصة ياعنترة وسيبلو القوم بلاءك ، ويعرفون مضاءك .

وما هى إلا ساعة حتى تداعى القوم ، وخرجوا وخرج شداد ودعا عنترة ليكون بجانبه وقت الغارة ، وفرح عنترة حين دعاه شداد وركب القوم ، وتسابقوا نحو العدوّ ، وصادفوا منه غِرة ، وكانت المعركة عظيمة أبلى فيها عنترة بلاء عظيماً ، فلم يقف فى سبيله فارسٌ إلا جندله بضربة واحدة ، وإذا فر منه فوّق إليه سهماً مَريشاً محكماً فأصماه فخر صريعاً يتشحط فى دمه ، وانتهت المعركة سريعاً بعد أن غنم بنو عبس مغانم كثيرة .

ولما وصلوا إلى ديارهم أرادوا أن يقتسموا ما غنموه ، وأراد عنترة أن يأخذ نصيبه كأحدهم ، وهو مَن خبروا وعاينوا نجدةً ، وقوة وفتوة ، ولكنّ القومَ ردوا عليه فى صَلَفٍ بالغ ، وعُنجهية وغطرسه : ليس لك مثل نصيب أحدنا ، لأنك عبد ، فارض بالنصف إن شئتَ . فثار الدم فى وجه عنترة ، وعلاه الغضب واعتزلهم ، ورفض أن يأخذ من الغنيمة فتيلاً ؛ وتضاحك القوم حين تركهم عنترة مُحنقاً مَغيظاً ، وقال عمرو ابن عمه وعنترة يسمع قالته : تبا لهذا العبد ! ، الذى يعرف ضَعة أمره ، وهوان شأنه ، ولا يرعوى عن أنفته الكاذبة ، وتعففه المصطنع ، انظروا إليه كيف يمشى خزيانَ كسيفاً ، ومهموماً أسيفاً ، تتقطع نفسه حسراتٍ على الغنيمة التى صَدَفَ عنها ، ونظر القوم إلى عنترة وهو منصرف عنهم نظرة الشماتة والحسد وهم يتغامزون ويتضاحكون .

وكانت نفس عنترة تتقطع حقاً ، لا أسفا على غنيمة زائلة ، ولكن أسىً

على كرامة ممتهنة ، ونكران وقح للجميل ، ونفسٍ أبيَّة طموح لا تجد من يقدرها قدرها ، بيد أن اليأس لم يتملك أزمة فؤاده ، وراح يمنى نفسه ، بأن قومه عما قريب سيستنجدون به وهم فى أمَسّ الحاجة إلى سحر بيانه ، وجرأة جنانه ، وَحرّ سِنانه ، وأنه سيرغمهم صاغرين على الاعتراف به قبل أن ينقذهم من مخالب الموت أو العار أو الهزيمة .

وانصرف عنترةُ إلى إبله يرعاها فى الصحراء ، غير مخالط لقومه ، أو آخذ فيما يأخذون فيه من لهو ومتعة ، عاكفاً على نفسه فى وحدة تامه ، وصمت مُطْبِق كأنه مُتَعبد يتحنث فى محراب الطبيعة ، أو أسدٌ جريح يسترد عافيته ، وينتظر التئام جراحه ؛ ولم يكن يغشاه ، ويقطع عليه وحدته إلاّ أخوه حنبل ، يأتى له بالطعام كلّ يوم ، ويحادثه فى شئون قومه ويسليه ويعزيه ويُمَنِّيه ، ويتطرق الحديث غالباً إلى عبلة وحبها ، ويبثه عنترة كامن شجنه ، وبالغ أساه وحسرته على حبه الضائع ، وحالته الزَّرِيَّة لينَفِّس عن لواعجه المكبوتة ، ويخفف من آلامه المبرحة .

ولم يطل الزمن بعنترة ، فإن بنى طيء ، كانوا يقيمون على وِترٍ منذ أغار عليهم العبسيون ، وقد أخذوا للثأر أهبته وأعدوا له عدته ، وساروا فى جحافلَ عديدة .

بكلّ مجرّبٍ كالليث يسمو ... على أوصال ذَيَّالٍ رِفَنٍّ[1]
وضُمْرٍ كالقداح مُسَوَّماتٍ ... عليها مَعْشَرٌ أشباه جِنٍّ[2]

(١) الأوصال : المفاصل أو مجتمع العظام ، جمع وصل . ذيال : ذو الذيل ، والرفن : طويل الذيل وأصلها رفل .

(٢) شبه الخيل الضامرة بالسهام ، مسومات : معلمات لها دراية بالحرب .

وأغاروا على بنى عبسٍ ذات صباح والقوم بعد نيامٌ ، فأخذوهم على غِرّة وأمعنوا فيهم قتلا قبل أن يفيقوا من هول المفاجأة ، واستاقوا نَعَمهم وإبلهم ، وأسرعوا عائدين إلى ديارهم ، واجتمع شباب عبسٍ ورجالها ، وفرسانها ، وصريخ النساء يصِمُّ الآذان : ويستحث القوم على استنقاذ أموالهم ، والأخذ بثأرهم ، ودماء أبنائهم ، وتهيأ الفرسان للحاق بالعدو ومطاردته ، وركب عنترة فيمن ركب ملبياً دعوة شداد والده ، ولكنه أبرم فى نفسه أمراً ، وعزم عزماً ألا يستميت فى القتال ، ويستنقذ الأموال إلا إذا اعترف به شداد وحطم عنه غلَّ العبودية .

وسَرْعان ما لحق بنو عبسٍ بالغزاة الموقرين بالغنائم ، والسائرين بسرعة الإبل ، والتفت لهم بنو طيء يدفعونهم عن أسلابهم ، والتحم الفريقان ، وعنترة لا يقاتل إلا مدافعاً ، وكادت الهزيمة تحيق بالعبسيين ، ورأى شداد من عنترة نكوصاً عن القتال ، وحذراً فى المدافعة ، وأنه لا يصول ولا يجول كعادته فصاح به :

— كُرَّ يا عنترة ! .

— العبد لا يحسن الكر . وإنما يحسن الحِلاب والصَّرْ .

— كر يا عنترة ! ، كُرَّ وأنت حر .

وهنا امتلأت نفس عنترة زهواً ، وعاد إليها نشاطها المفقود ، وأملها الضائع ، وومض أمام عينيه بريق المستقبل الباسم ، وتمثلت له عبلةُ بشبابها الريان ، وجمالها الفتان ، وكأنها تناديه أن يَغْسِل عن قومه العار والشَّنار ، وأن يَرُدَّ عاديةَ المغيرين لتعيش فى أمن ودَعة . فتجمعت كلُّ هذه الآمال فى

نفسه واضطرمت فى حنايا صدره ، فأرغى وأزبد ، ورأى أن كلّ حياته معقودة فى ظُبَة حُسامه وسنان رمحه ، فكرّ نحو العدو كَرّةَ الأسد الرِّئبال يحمى عرينه ، وخاض غمار المعمعة أشد بنى قومه بأساً ، وأفظعهم بطشاً ، فتحاماه الفرسان ، وتجافوا عن طريقه ، وهو يمعن فيهم قتلاً كأنه البركان الثائر ، أو القضاء النازل ، لا يصيب إلا أصمى ، ولا يضرب إلا صَرَع ، يعمد إلى الكمى المدجج بالسلاح ، الذى كَرِه الأبطال نزاله فيرديه ، وإلى الفتى الجلد الصبور على القتال فيصميه ، وهو يقول :

ومدجَّجٍ كره الكماةُ نزاله ... لا مُمعنٍ هرباً ، ولا مُستَسلِمِ
جادت يدایَ له بعاجل طعنةٍ ... بمثقَّفٍ صَدْقِ الكعوب مُقَوَّمِ
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريمُ على القنا بمحرَّمِ
فتركته جَزَرَ السباع يَنُشْنَه ... ما بينَ قُلَّةِ رأسه والمِعْصَمِ

ورأت طيء أنها أمام مارد من الجان ، يفتك بهم فتكا ذريعاً ، ولا ينالون منه شيئاً ، أو أنهم أمام سيلٍ يَهْدِر يجتاح كل ما يعتاق سبيله ، ويهدُّ صفوفهم هَداً ، وأنهم يُفَوِّقون إليه سهامهم حتى إذا ظنوا أنهم أصابوه تلبب فرسه ، أو التوى تحتها ، أو نزل عنها متجنباً تلك السهام ، ثم اعتلاها فى سُرْعة البرق الخاطف ووثب على الرامين فانخلعت لوثبته قلوبهم وولوا الأدبار .

ورأوا أنهم إن استمسكوا بالغنائم ، وتمادوا فى الدفاع عنها ، فقدوا أنفسهم ، وفقدوا الغنائم ، فتركوها لأهلها ، وتقهقروا ناجين من وجه ذلك الشيطان المريج الذى تحمسَّ قومهُ حين رأوا بأسه فاشتدت ضرباتهم ، وقست هجماتهم ، وأنه لا قبل لهم اليوم ببنى عبسٍ ؛ لأن فى الأمر سِراً لا يدركونه .

ووقف بنو عبسٍ ينظرون إلى العدو الهارب ، بقلوب فَرِحة راضية ، وَالتفوا حول عنترة يثنون على شجاعته و بأسه ، و يهنئون شداداً ببلاء عنترة ، فهو حامى الذِّمار والمدافع عن العشيرة ، وصمت شداد هنيهةً وتمثل له عنترة فى المعركة ، وكيف دافع عن قومه ، ورأى أن عنترة فخر القبيلة ودِرْؤها ، وسيد فتيانها بأساً ونجدةً ، وأنه لا غَناء لها عنه ، ولا عزَّ لها إلا به ، وهى كثيرة العُداة ، عرضة فى كل آونة للغُزاة ، وأن الاعتراف به يزيد كليهما فخراً وشرفاً ، فرفع رأسه ، وقال : أشهدكم يا بنى عبس أن عنترة هو ابنى ، وأنه منذ اليوم حرٌّ ، وأنه ابن شداد بن عمرو بن قُراد ، وأقبل على عنترة يقبله ، وتزاحم الفتيان على عنترة يقبلونه و يهنئونه إلا ابن عمه عمراً ، فقد أنف من أن يعترف به أو يثنى عليه ، وأكل الحسد شَراسيفَ قلبه ، فأشاح بوجهه عنه ، حتى لا يرى الفخر والشرف والسؤدد يتوج بها عنترة جميعاً .

وأحرز عنترةُ بهـذا أول انتصار له فى الشرف ، وخطا أولَ خطوة فى طريق حبّه المكتوم ، ولكنَّ عمراً ، آه من عمرو أخى عبلة ، لماذا ينفس عليه حريته ، وشجاعته ؟ ولماذا لا يصافيه كما صافاه شبابُ عبسٍ ؟ ، إنه كلما رآه أعرض عنه ، ولكنه لم يعد يؤذيه كسابق عهده بيذىء كلامه ، وجارح سَبِّه ، فقد اكتسب عنتره هيبة فى النفوس ، ورفعةً فى العيون . ما أحوجه إلى مصافاة عمرو ، ليعبد له طريق عبلة ، وهى مُنية روحه ، وأمل فؤاده ، وزهرة حياته ، ولكن كيف السبيل إليه ، وهو وَعْرُ الخلق ، شديد الصَّلف ، تيَّاهٌ على الناس ؟

ولم يكنْ عمرو وحده هو الذى يحسد عنترة على ما أصاب من مكانة ،

بل قبل كثيرٌ من أشراف عبسٍ مكانة عنترةَ على مضضٍ لحاجتهم إليهم ، وكانت نظراتهم إليه مزيج من الحسد ، والازدراء ، لسواد لونه ، وعدم خلوص نسبه ، ولكنه كان يقابل كلَّ ذلك منهم بسعة صدر ، وحلم وأناة ، ولم يزده انتصاره إلا تواضعاً لهم ، وحُنواً عليهم .

وكان فى كلِّ مرة يلتحم قومه فى معركة يزدادون به إعجاباً ، وله إجلالاً ؛ لأنه كان دائماً الفارس المُجَلِّى ، والبطل الصنديد ، وأنه عماد القوم الذى يلتفون حوله فيحرز لهم النصر ، أو يدفع عنهم الغارة الشعواء ، وإذا انقضت المعركة ترفَّع عن الغنيمة ، وتركها لهم ، كأنما كانت الفروسية والبلاء فى القتال مقصده وهدفه ، وكان قومه يتعجبون من أمره ، وقسوته على نفسه ، فلا يلهو كما يلهو الفتيان ، ولا ينظر إلى النساء نظرة فاحشة ، وإن بدت جارته غضَّ طرفه عفةً منه ، وكرم خُلقٍ .

وفى كل يوم يكسب عنترة قلوباً جديدة تلتف حوله ، وتعجب به ، وعلى الرغم من سواد لونه ، وعدم خلوص نسبه ، فقد اشتهته كثيرات من فتيات الأشراف ، وإذا مَرَّ بهن تهامَسْنَ ، وتغامزن ، ونظرن إليه نظرة إعجاب ، وقد لا تملك إحداهن نفسها فتقول لصويحباتها :

— ألا ترين عنترة ، إنه لَقَسْوَرَة ، فما أشد خطره ، وما أجلَّ منظره

فترد إحداهن :

— عجباً له ! أما تهفو نفسه إلى حليلة ، أو تراوده على خليلة

— خلِّ عنكن ، فإنى سمعت أنه عاشق

— ومن الحليلة المنتظرة ؟

— إنه يحب عبلة ابنة عمه

— أو تعرف عبلة أمرَ هذا الحب ؟

— إنها متيمة ، ولـكنها تخشى أخاها وأباها ، فعَمرو أخوها لا يطيق منظره

— والله ما علمنا على عنترة من سوء ، وإنه لنعم الفتى ، سماحة خلق ، وترفع عن الدنايا ، ولطف مَعْشر . أو ما سمعتن بتعففه عن الغنائم والأسلاب غِبَّ المعارك ، وهو الذى أبلى فيها بلاءه ، وأظهر لهم مضاءه ؟ أو ما ترين كيف يأوى إليه كلُّ ليلة البائس والفقير ، وأنه يطعم الجائع ويغيث الملهوف ، ويحمل الـكَلَّ ، ويَفُكُّ العَانِى ، وينفق ماله ذات اليمين وذات اليسار فى المـكرمات ؟

وقضى النسوة ساعة فى الحديث عن عنترة ، كلٌّ تشيد بفضله ، وتعتز به ؛ لأنه يحميهن ، وينـكل بالعدو المغير ، ويشعرن بأمن وطمأنينة لوجوده ، كأنه الحصن الركين ، والجيش المتين .

وسمع عنترة ذات يوم مَنْ عيَّره بأنه على شجاعته وبأسه ، لا يتحلى بما يتحلى به الفرسان من فصاحة ولَسَنٍ ، وأنه لا يقول الشِّعر إلا بيتين أو ثلاثة ، وأنه لا يعرف الحب ولوعته ، له مشاعر جامدة ، وقلب صَلْد ، وليس ذلك من شيمة الفتيان ، وأطرق عنترة إطراقة طويلة قبل أن يرفع رأسه وهو يغمغم ويدمدم ، ثم انطلق كالسيل الهادر ينشد معلقته المشهورة ، يفصح فيها عن حبه الذى ظلَّ حبيساً فى سويداء فؤاده ، ويشرح فيها موقفه مع قومه ، وتعنتهم وإرهاقهم له ، وظلمهم المر ، مع سماحة خلقه ، وتعففه ، وكرم يده ، ويشيد

فيها بفروسيته ، ومدافعته عنهم ، فى لفظ رشيق ، ومعنىً دقيق ، وحسٍ مُرْهف ، وعفة لسان ، وسحر بيان :

يا دار عبـلةَ بالجِواء تكلمى وعِمِى صباحاً دارَ عبلةَ واسلمى
ولقـد ذكرتكِ والرماح نواهلٌ منى وبِيضُ الهندِ تقطرُ من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وأخذ الفتيان يرددون فى كل مكان معلقةَ عنترة ، حتى لهج بها كلُّ لسان ، ووعاها كل إنسان ، وبرهنَ لهم عنترة على أنه فى الفصاحة يتسنمُ الذُّروة ، وأنه شاعر عبسٍ غير مدافَع ، كما أنه فارسها غير منازَع ، ووعى الفتيان قوله :

أثنى علىَّ بمـا علمتِ فإننى سَهْلٌ مخالقتى إذا لم أظلم
فإذا ظُلمتُ فإنَّ ظلمىَ باسل مرٌّ مذاقتـه كطعم العلقم[1]
ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمَشُوف المعلم[2]
بزُجاجةٍ صـفراء ذاتِ أسرة قُرنتْ بأزهرَ فى الشمال مُفَدَّم[3]
فإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ مالى ، وعرضى وافرٌ لم يُكْلَمَ
وإذا صحوتُ فما أُقصِّرُ عن ندىً وكما علمتِ شمائلى وتكرمى

وعلموا أن عنترة لن يرضى بعد اليوم بالإساءة ، وأنه يمكِّن لنفسه وسيادته بهذا الشعر العذب ، واللسان الذَّرِب ، وعرفوا سرَّ إحجامه عن النساء ، وتعففه عن الصغائر ، فإنه حبُّ عبلة الذى ملكَ شِغاف قلبه ، ولكن هل يرضى معاوية أبوها ، أو عمروٌ أخوها بعنترة صهراً ، وهما من أشد القوم حسداً على

(١) باسل : كريه (٢) المشوف : يقصد به الدينار المجلو ، أو القدح الموشى .
(٣) الأزهر : الإبريق ، والمفدم : المصفى ، وفى الشمال : يقصد أنه بارد بريح الشمال .

ما أصابه من نعمة وشرف ؟ لقد تعلق عنترة فى نظرهم بأمرٍ عزيز المنال ، وياليته لم يفعل ، فليس بالهيِّن عليهم أن تجرح عزّته بعد اليوم .

وسمع معاوية وعمرو ما قاله عنترةُ فى عبلة ، وغضبا أشد الغضب ، وتوعداه وتهدداه ، وعزما على أن يزوجاها سريعاً ، حتى لا تلوك الألسنة سيرتها ، وتآمر معهم على ذلك أشراف بنى عبس من مثل قيس بن زهير ، والربيع ابن زياد حسداً لعنترة ، وضناً بعبلة الجميلة الشريفة أن تأوى إلى بيت هذا العبد الغليظِ المشفرين .

وسَرعان ما تقدم لعبلة من خطبها من أشراف قومها ، فزفت إليه وهى تسح الدّمع سحاً ؛ لأنها كانت تهوى عنترة وتعزه ، ولكنّ زواج عبلةَ لم يغير من حب عنترة لها والتنويه بها فى كل قصيدة ، ولم يزهدْ بعد ذلك فى النساء زهده الأول ، ولكنه لم يكن كسائر الفرسان ، فإذا سبى امرأةً دفع إليها مهرها وتزوجها ، وأبى أن يسترقها ، كما يسترق سواه السبايا الحرائر ؛ لأنه ذاق طعم العبودية ، وذل الرّق ، ولم تلهه أىُّ امرأة عن عبلة وحبها وفى ذلك يقول :

وكتيبةٍ لبّستُها بكتيبةٍ ... شهباء باسلةٍ يُخاف رداها
ورجعت محموداً برأس عظيمها ... وتركتها جَزْراً لمـــا ناواها
ما استمتُ أنثى نفسها ، فى موطن ... حتى أُوَفَّى مهـــرها مولاها
أغشى فتـــاةَ الحى عند حليلها ... وإذا غزا فى الجيش لا أغشاها
وأغض طرفى إن بدت لى جارتى ... حتى يوارى جارتى مأواها
إنّى امرؤٌ سَمْحُ الخليقةِ ماجدٌ ... لا أُتْبع النفسَ اللجوجَ هواها
ولئن سألتَ بذاك عبلةَ خبّرت ... أنْ لا أريد من النساء سواها

وأجيبها إما دَعَتْ لعظيمة وأعينها وأكُفُّ عما ساها

وكان هذا الخلق الرفيع ، والشم والشجاعة ، يغيظ كثيراً من أشراف عبس ، وتزيد قلوبهم حَنَقًا وموجدةً عليه ، ويودون ألا يحتاجوا إليه فى ردّ عادية ، أو كشف عدو ، ولكنْ أنىَّ لهم أن يستغنوا عن ساعده القوى ، وسيفه البتار ، وهم أحلاس حروب ، وقد طال ما بينهم و بين بنى ذبيان من قتال أربعين عامًا ، جلوا فيها عن ديارهم ، ونزلوا بشتى القبائل ، فضاقوا بهم ذرعا ، واشتبكوا معهم فى معارك حامية ، حتى لم يعد لهم من ملجأ يأوون إليه إلا ظهور خيولهم ، وأسنة رماحهم ، وظُبى سيوفهم !؟

وسَرْعان ما برهن عنترة مرة أخرى على أنه درع القوم السابغة ، وحصنها المتين ، والذائد عنها فى الملمات ، حين يشتد بهم الكرب ، وتدلهم الحرب .

فقد كانوا فى معركة عنيفة مع بنى تميم ، بعد أن ضعضعتهم حروبهم مع ذبيان من جراء سباق داحس والغبراء ، وثبتوا لبنى تميم ساعات ، وجال القوم جولات صادقات ، ولكنْ لم تطق عبسٌ على القتال صبراً ، فولت الأدبار ، واتبعتهم بنو تميم يريدون أن يتخطفوهم من خلفهم ، ويحلون بهم هزيمة ماحقة ، فوقف عنترة الفوارس وحده أمام جموع بنى تميم تتكسر على شباة رمحه ، وظُبة سيفه أمواج هجماتهم ، وهو ثابت كالجبل الأشم ، تطير الرءوس أمام ضرباته فُضاضاً ، وتجمع حوله عصبة من فتيان عبسٍ حتى رحل قومه لم يُصَبْ منهم مدبرٌ إلى أن تواروا جميعًا عن الأنظار .

و بلغ الغيظ من قيس بن زهير سيد عبس وصاحب حربهم مبلغه ، حين رأى أن عنترة وحده هو الذى نجىّ قومه ، ففاه بها عوراء شائنة ، وقال : والله

ما حمى القوم إلا ابن السوداء ، فلم يصمت عنترة كسابق عهده ، وردَّ عليه رداً قوياً ، معيراً إياه بأنه أكول نَهِمٌ ، وأنه خيرٌ منه بأساً ، ويدانيه نسباً ، وأنه دِرْءُ قومه ومثواهم وذلك حيث يقول :

إنى امرؤ من خير عبسٍ مَنْصِبا — شَطْرِى، وأحمى سائرى بالمُنصلِ [١]

بَكَرَتْ تخوّفنى الحتوفَ كأننى — أصبحتُ عن عُرْضِ الحتوف بمعزل

فأجبتها إنّ المنية منهلٌ — لا بدَّ أن أُسْقى بكأس المنهل

فاقنىْ حياءكِ لا أبالكِ واعلمى — أنى امرؤ سأموتُ إن لم أُقتل

إن المنيةَ لو تُمَثَّلُ مُثِّلَتْ — مثلى إذا نزلوا بضَنْك المنزل

والخيلُ تعلمُ والفوارسُ أننى — فرّقت جمعَهم بضربة فيصل

لما سمعتُ دعاء مُرَّةَ ، إذ دعا — ودعاء عبس ، فى الوغى ومحلِّلِ

ناديتُ عبساً فاستجابوا بالقنا — وبكلِّ أبيضَ صارمٍ لم يَنْحَل

إن يُلْحَقوا أَكْرُرْ وإن يُستلحَموا — اشدد ، وإن يُلْفَوْا بضنك أنزل

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلُّه — حتى أنال به كريمَ المأكل [٢]

وإذا حُملت على الكريهة لم أقل — بعد الكريهة ليتنى لم أفعل

فاستخذى قيس بن زهير ومن كان يحسد عنترة بعد سماعهم هذه القصيدة ،

---

(١) أى أن شطره من جهة أبيه من خير عبس ، ويحمى شطره الثانى من جهة أمه بسيفه

(٢) يعرض بهذا البيت والذى بعده بقيس بن زهير لأنه كان أكولا ، وكان يتندم على خوضه المعارك ، ويعتمد فى الحرب على دهائه لا على شجاعته حتى لقب بقيس الرأى ، ولما أنشد النبى عليه السلام هذا البيت قال : ما وصف لى أعرابى قط ، فأحببت أن أراه إلا عنترة — راجع الأغانى ط بولاق ج ٧ ص ١٥١ .

وازداد فى عيون سائر قومه رفعةً ومكانةً . وجاءه أخوه حنبل بعد أن وصلَ إلى هذه المنزلة السامية ، يلح عليه فى أن يعمل على أن يعترف قومه بأخوته لأمه ، كما اعترفوا به وقد أصبحَ سيداً من أعز أشرافهم ، وما أن عرض عنترةُ على قومه هذا الرأى حتى لبوا مُسْرعين إكرامًا لعنتره وتحيةً له .

وهكذا حقق عنترة ما كان يصبو إليه إلا أمراً واحداً خلَّف فى نفسه الحسرة والألم ، ألا وهو عدم نيله عبلة ، ولبث ما بقى من حياته يتغنى بحبه الذى لا أمل فيه ، حتى صار مثلا فى الحب والوفاء ، كما كان مثلا فى الشجاعة والبأس والمضاء .

هلال *

— ها قد أقبل هلالٌ بإبله ، تالله إن الأمير سَيُسَرُّ بمقدمه سروراً لا يعدله نزولُ الحيا غِبَّ جدب ، وإن نفوسنا المغيظة المحنقة الموتورة لتتعطش إلى القصاص من ذلك العبد الجبار الذى صرع كلَّ فتيان المدينة ، وتطامنت تحت قبضة يده الرءوس العزيزة ، وريعت منه القلوب الأبية الجريئة . كان خالد المازنى يقول هذا لرفيقه ووجهه يتهلل بشراً ، ويفصح عن نفس حَزَبَها الهم وأمضها الحزن فأصابت فرحاً ومسرة على حين غفلة ، ثم انفلت خالد من رفيقه مهرولا وهو يصيح خلفه :

إلى أين أنت ذاهب ؟

— إلى الأمير .

قال هذا وهو يَجِدُّ فى ركضه فما تمهل حتى دخل على أمير المدينة المنورة وهو فى مجلسه وحوله وجوه أهلها وأشراف العرب ، فلما رآه الأمير يلهث بادره سائلا :

— ما بك يا خالد ؟

— أصلح الله الأمير ! عندى خبرٌ يسرك ، فقد قدم هلال بن الأسعر المدينة بإبل له تحمل عَروضاً لبعض تجارها ، ولعل الأمير قد سمع ببطشه وقوته . إن ذلك العبد قد آذانا وطعن كرامتنا ، وصرع خيرة شبابنا ، وذوى الأيْد منا ،

(*) الاغانى ج ٣ ص ٥٦ ، وهلال بن الأسعر شاعر فارس اشتهر فى العصر الأموى وكان مشهوراً بالشجاعة والبأس ، ومات نحو سنة ١٣٠ هـ

فلو سمح الأمير – حفظه الله – لهلال بمصارعة هذا العبد حتى يغسل عنا العار ، و يأخذ الثأر ، و ينعش النفوس المستخذية فإنا لا ننام على وِتْر وقد أمكننا الله منه .

— ومَنْ هلالٌ هذا ؟ إنى لم أسمع به من قبل ، وما إخاله قادراً على هذا العبد العملاق ، وما أظنه إلا كهؤلاء الذين اشتهروا بالفتوة والقوة من شباب المدينة وما جاورها ، حتى إذا رأوا العبد الرومى دَبَّ فى قلوبهم الرعب وأخذتهم الرَّجْفة ، وكانوا فى يده كُخُذْروفٍ[1] فى يد صبي يطوحهم يَمْنةً ويَسْرةً و يلقيهم تحت قدميه مغشياً عليهم من شدة الإعياء والألم .

— أعز الله الأمير ! إن هلالا فتى لا كالفتيان ، إذا رأيته هالك منظره ، فما شئت من جسم فارع كأنه رجل على صهوة جواد ، ومن جثة مكتنزة ، وعنق ضخم ، وهامة كبيرة ، وكتفين عريضين ، وساعدين كذراعى البكر أو أشد ، وقبضة يد كالحديد ، وقد ملأ جلدته من كل أقطارها ونواحيها ، فهو يموج فى بدنه قوة وعافية ، إنى أعهده فارساً شجاعاً شديد البأس والبطش ، أكثر الناس أكلا ، وأعظمهم فى حرب غناء ، وإنه لَيَرِدُ مع الإبل على أهله فيأكل ما وجد ثم يرجع إليها ولا يتزود طعاماً ولا شرابا حتى يرجع يوم ورودها ، ولا يذوق فيما بين ذلك شيئا .

— وكيف هو فى الصراع ؟ فإنى أربأ بى وبكم أن يخلع علينا هذا العبد مرة أخرى أثواب الخزى والشماتة ، فحسبنا ما لاقيناه آنفاً .

---

(١) الخذروف : النحلة التى يلعب بها الصبيان .

-- هل لى أن قص على الأمير — لا زال مؤيداً — بعض حوادثه حتى يستوثق مما أقول ؟ .

— امض فى حديثك .

— لقد خرجت وهلالا ذات يوم ننشد إبلاً لنا ، حتى دُفعنا إلى قوم من بكر بن وائل ، وقد أخذ منا اللغوب والـكلال كل مأخذ ، فإذا نحن بفتيةٍ شباب عند بئر لهم ، وقد وردت إبلهم فلما رأوا هلالا استعظموا خلقه ، وقام إليه رجلان ودعاه أحدهما للصراع ، فاعتذر هلال بحاجته إلى ما يطفىء ظمأه من لبن وماء ، فأبى عليه ذلك حتى يستجيب له . فاعتذر ثانيةً بأنه ضيفٌ والضيف لا يصارع ربَّ منزله ، ولـكنْ يعمد إلى أشد فحل فى إبلهم وأهيبه صولةً ، و إلى أشد رجل منهم ذراعاً ، وأنه سيقبض على هام البعير وعلى يد الرجل فلا يمتنع الرجل ولا البعير حتى يدخل هذا فى فم ذاك ، و إن لم يفعل فقد صرعوه .

فعجبوا من مقالته وأومأوا إلى فحل من إبلهم هائج صـائل ، فأتاه هلال وضغط بيده على هامته ضغطةً جَرْجَرَ[1] لها الفحلُ واستخذى ورغى ، وقال : ليعطنى من أحببتم يده أولجها فى فم هذا الفحل ؛ فامتنعوا وهم يتعجبون .

حسبك يا خالد ! ولا ريب عندى فى صدق حديثك ، ولقد هِجْت شوقى إلى رؤية هلال ، فإن ما ذكرت ينبىء عن قوة جبارة ، وفتوة خارقة . فعلىَّ به .

وأرسل الأمير بعضَ رجاله مع خالد ليحضروا هلالا ، فجاءوه وهو يضع

---

(١) جرجر البعير : بكى .

عن إبله ، وأخذوا بيده قائلين : أجب الأمير .

— ويلكم ؟ إبلي وأحمالي .

لا بأس على إبلك وأحمالك ؟

— ما حاجة الأمير إليّ ، وليس لي غرماء ، ولا أحدثت حدَثاً ، ولقد قدمت الساعة من رحلة مضنية ؟

ثم التفت إلى خالد المازني وقال :

— ويحك يا خالد ! ألا تخبرني بجلية هذا الأمر ؟ أو من حق الأخوة أن تسعى بي مع حرس الأمير دون أن توضّح لي ما أنا مقبل عليه ؟

— هدئ روعَك يا هلال ! فهناك كلُّ خير إن شاء الله .

ثم انطلقوا به حتى دخلوا على الأمير فسلم عليه هلال وقال :

— جُعلت فداك ! إبلي وأمانتي .

— نحن ضامنون لإبلك وأمانتك حتى نؤديها إليك .

— فما حاجة الأمير إليّ ، جعلني الله فداه ؟

حينئذ أخذ الأمير يتأمل هلالا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، فرأى رجلا عملاقاً ، متينَ البناء ينطق كلُّ عضو من جسده بحياةٍ متدفقة ، وصلابة عارمة ونمو كامل . كان في العقد الرابع من عمره ؛ ترتسم على وجهه سِماتُ السّذاجة والرحمة على الرغم مما أوتي من قوة و بأس ، عند ذلك أشار الأمير إلى رجل أصفر بجانبه وقال :

إن هـــذا العبد الذي ترى ، لا والله ما ترك بالمدينة عربياً يصارع

إلا صرعه ، و بلغنى عنك قوة ، فأردت أن يجرى الله صرع هذا العبد على يدك فتدرك ما عنده من أوتار العرب .

طفق هلال يتأمل هذا العبد الجبار فرأى خلقة هائلة ، وسحنة غريبة ، وجسما ضخما ، لم يدر أطوله أكثرُ أم عرضه ، وعضلاتٍ مفتولةً بارزة ، وعنقاً غليظاً و يداً جاسية خشنة ثم أطرق برهة وقال :

— جعلنى الله فداء الأمير ، إنى لَغِبٌ نَصِبٌ جائع ، فإنْ رأى الأمير ، أن يدعنى حتى أضع عن إبلى وأؤدى أمانتى وأريح يومى هذا وأجيئه غداً فليفعل .

— رأي الأمير فى قول هلال ما ينبىء عن نفس هادئة مطمئنة ، وما يدل على عقل ناضج وقلب جرىء فأجابه إلى طلبته ، وقال لكبير أعوانه :

انطلقوا معه فأعينوه على الوضع عن إبله وأداء أمانته ، وانطلقوا به إلى المطبخ فأشبعوه ، ثم التفت إلى جلسائه وحاشيته وقال : لم أر رجلين قد تكافآ فى الخلقة والجسم ، ولعل هلالا يحقق ظننا فيه ، وإن غدا لناظره قريب .

ذهب هلالٌ مع أعوان الأمير فأراح إبله وأدى أمانته ، وانصرف معهم إلى المطبخ فقدموا إليه طعاماً شهياً كثيراً ، فأتى على كل ما قدِّم إليه ، وبدا عليه كأنه لم يأكل ، فجهزوا له طعاماً جديداً يكفى خمسة رجال جياع فأكل حتى شبع ، ثم ظل بقية يومه على أحسن حال ، وبات ليلته شبعا هادئا مرتاحا مَعْنياً به .

وأخذ خالد المازنى منذ سمع هلالا يقبل مصارعة العبد الرومى يشيع الخبر فى المدينة ، وبات الناس ليلتهم تلك يفيضون فى حديث هلال والمصارعة ، ومنهم من يروى عن هلال أخباراً عجيبة ونوادرَ فى القوة والفتوة ، وأخذ

هؤلاء الذين صُرعوا على يد العبد يهولون فى شأنه ، و يعظمون من قوته ، و يبالغون فى صلابته ودُربته بالصراع ، و يشككون الناس فى أمر هلال ، اعتذاراً لأنفسهم من الهزيمة المنكرة ، وكان كلامهم هذا يزيد الناس تشوقا إلى رؤية الصراع و باتت نفوس أهل المدينة يساورها القلق ، وكأن كرامة العرب وضعت فى كفة ميزان ، وتواعد سَراة المدينة وأثرياؤها فيما بينهم إنْ صرع هلالٌ العبد ، وغسل بقوته العار الذى لحقهم ، و برهن على أن فى العرب رجالا قد كملت رجولتهم واشتدت شكيمتهم ، وعَظُم بأسهم ، أن يجْزلوا له الصلاتِ و يكرموه ، بقدر ما كرّمهم وأخذ بثأرهم .

كل هذا وهلال لا يدرى من أمر الناس ولغطهم واهتمامهم شيئاً ، إذ كان يَغُطُّ فى نومه بعد ما حَلَّ به من الأَيْن والكلال طوال يومه ، و بعد ما امتلأت معدته طعاما شهياً ، غِبَّ جوع طويل وظمأ قتال ، و بعد ما أخذت هذه المعدة الضخمة تهضم ما استوعبت وتتمثله ، وتوزعه على هذا الجسم الهائل .

ونهض فى غده قبل أن تنفض الدنيا الكرى عن أجفانها ، والطيور لا تزال بعدُ فى وُكُناتها ، وضوء الفجر يشق أستار الظلام ، ونسيم الصحراء يترقرق صفاء ولينا ، فأدى فريضةَ ربه ، وتفقد إبله ، وسار بعيدا فى الوادى كأنه يستقبل موكب الشمس ، وقد طفقت طلائعه تطل على الدنيا الغافية ، فتهب من سباتها ، وتدب فيها الحياة والحركة ، ثم عاد من رياضته موفور النشاط رخىَّ البال ، متهلل الوجه تدب العافية والصحة فى أعضائه بقوة وعنفوان . ويمّم مجلس الأمير فى الضُّحى وعليه جبةُ صوفٍ و بَتٌّ [1] وليس عليه إزار ،

(١) البت : الطيلسان ونحوه ، وهو ثوب يشبه العباءة له أكمام ، وهو من ثياب الأعاجم .

وقد شدَّ بعمامته وسطه ، فكان بصورته تلك يمثل الصحراء بخشونتها وامتدادها ووعورة مسالكها . ولما طالع بيت الإمارة رأى جموعا زاخرة تحيط به ، فتقدم فى سذاجة دون أن يعيرها التفاتا ، وما أن أشرف عليهم حتى امتدت إليه العيون واشرأبت الأعناق وفُتحت الأفواه عجباً ورهبة ، ثم ارتفعت الأصوات بخليط من الإعجاب والتحية والتهليل والتكبير والدعاء . وأخذ هلالٌ يتصفح تلك الوجوه بدهشة واضطراب وحياء جم وتواضع كثير ، فلما دلف إلى مجلس الأمير ، وأقبل يسعى بين يديه — وقد فرش له فى ناحية من فناء رحب يتصل ببيته ، يحيط به أشراف المدينة وندماؤه وأعوانه ازداد ما بهلال من حياء ، وحيًّا فى أدب مفرط ، فردوا عليه تحيته وملأوا أعينهم منه ، فدخلت فى أفئدتهم الروعة والإعجاب ، ووجه إليه الأمير الخطاب قائلا : —

— لا أريد أن أزودك بنصح ، فمخايلك وأسارير وجهك تنم عن فرط قوة وثقة ، إن كرامة العرب رهنُ يمينك فاحرص عليها واخرجها من الصراع موفورة مصونة .

ثم قال للأصفر :

قم إليه ، فقد أرى الله أتاك بما يخزيك .

فنهض العبد كالبناء المتطاول ، وكان يلبس تُبَّانا[1] ودِرْعا[2] غليظاً من الصوف ، ونظر إلى هلال وقال : إئتزر يا أعرابى .

فأخذ هلال بَتَّه فأتزر به على جبته فقال العبد : هيهات ! هذا لا يثبت ، إذا قبضت عليه جاء فى يدى .

(١) التبان : السراويل القصيرة (شورت) . (٢) الدرع : القميص .

فقال هلال : والله مالى من إزار ! فدعا الأمير بملحفة ما رأى هلال ولا علا جلدَه مثلها ، فشد بهـا على حِقْوه[١] وخلع جُبَّته . ثم تقابل الخصمان ، وأخذت الجموعُ الحاشدة تتطلع فى لهفة وشوق إلى صراع عجيب بين جبارين عاتيين كأنهما شيطانان قد تركا الجحيم لساعتهما .

جعل العبد يدور حول هلال ، ويدب إليه فى عنف وبطء كأنه الذئب يريد خَتْله ، وبدا على هلال كأنه منه وَجِلٌ ، وارتسمت على وجهه الحيرة كأنه لا يدرى ماذا يصنع به ، وهو يتقهقر أمامه خطوة خطوة ، ثم دنا العبد منه دنوة ، فنقذ جبهته بظفره نقذة شخب منها وجهه دما ، وتراجع العبد على إثرها وهو يسخر من هلال ، ويضحك ملء شدقيه ، وكأن ذلك غاظ هلالا فتجَهَّم وجهه واربد ، وتطاير الشرر من عينيه ، فجعل يتأمل العبد فى حنق وسخط كأنه يبحث عن جزء من جسمه يقبضه منه ويعصره بين يديه ، ولـكن هيهات ! فإن الرومى كان فطناً خبيراً بالصراع ، فرده بضربة خاطفة على فكه الأسفل ترنح لها هلال وفقد توازنه واغرورقت عيناه ، وسال الدم من فمه ، وعلت الضجة من الجميع ، وطرقت أصواتُ التحميس أذنىْ هلال ، وكانت الضربة قد آلمته وأوجعته فاشتاط غضبا ، ولـكنه ضبط أعصابه ، وأخذ يدور حول العبد فى سرعة وحذر ، ثم انقضّ على رأسه فجذبها بين يديه الغليظتين ، ووضع إبهاميه فى صُدغيه وأصابعه الأخرى فى أصل أذنيه ، ثم غمزه غمزة شديدة ، وهو يَصِرُّ على أسنانه فصاح العبد : قتلنى ! قتلنى ! فقال الأمير لهلال : اغمس رأس العبد فى التراب .

---

(١) الحقو : آخر العمود الفقرى من أسفل .

— ذلك لك علىّ .

وغمس رأسه فى التراب وما تركه حتى خر مغشياً عليه .

فتجاوب الفضاء العريض بصيحات الفرح والإعجاب والانتصار والتهنئة وتدفقت الجموع تحيط بهلال وهو يتأمل غريمه الملقى على الأرض ، وكأنه يقول لنفسه : كيف صرعت كل هذه القوة والدُّربة والعضلات ؟ وهو فى ذهول عمن حوله ثم أفاق من إطراقته فرأى الدم قد لوث ثيابه ، وجىء له بماء نضح به على وجهه ومسحه فى جبهته . فتقدم إليه الأمير ضاحكا ملء شدقيه وأخذ يربت على ظهره ، وأمر له بجائزة وصلة وكسوة .

وأخذ سَراة المدينة وأعيانها يتسابقون فى دعوة هلال لبيوتهم كى يكرموه ، فاعتذر فى أدب جم بأنه مزمع الرحلة فى أصيل يومه ، فقدموا إليه جوائزهم وهداياهم وترك مجلسَ الأمير بين الهتاف والإعجاب والتكرمة ، وقد شفى غليلَ النفوس الموتورة وثأر للفتوة العربية .

جحـــدر (*)

نشأ جحدرُ بن ربيعة باليمامة ، واحتضنته الصحراء منذ حبا ، فشارك الغزلان سرعة عدوها ، والذئاب شراسة خلقها ، وضراوة طبعها ، والنسور والعِقبان هُوِيَّها وانقضاضها ، والصخورَ وعورتها وصرامتها وصلابتها ، والأسودَ شدة فتكها وجرأتها .

كان نحيفاً مديد القامة قد لوَّحَ حرُّ البيدِ وجهه فخف عارضاه ، واسمرت بشرته ، له عينان كالجمرة الملتهبة إذا غضب ، وكالنجم المتألق إذا رضي عن نفسه ، يداه معروقتان وساعداه مفتولان ، وأبرز سجاياه الحذر فما يُخدع أو يختل ، له لسان عَضْبٌ ، وجنان ثَبْتٌ ، و بصيرةٌ نافذة ، وبديهة خاطفة ، وحيلة واسعة ، وذكاءٌ عجيب .

تمرَّس جحدرُ باليمامة منذ حداثته يبحثُ عن المكارِه ، فيردُها بنفس رَضِيَّة ، وشهوة قوية ، فاشتد أيْده وقويت منته ، ونَمت تجاربه ، فالتف حوله الصعاليك والفُتَّاك ، قد اتخذوه لهم إماماً وقائداً ، يدبر أمورهم ويحيك شباكهم ، وينفذ كيدَهم ، وهم له أطوع من بنانه وأقرب من ظله ، يجلونه ويرهبونه ، كما تخشى الشياطين إبليس أو أشد خشية .

وعظمت وطأة جحدر على عرب اليمامة : يغير على أحيائهم جهراً ، فينهب ويفتك بمن تعرض له ويبطش برعاتهم ، ويسوق نَعَمهم إلى مكمنه ، والويل

(*) المستطرف ص ٢٢٤ ج ١ ، والمحاسن والمساوئ ص ٧٧ ، وقصص العرب ج ٢ ص ٣٧

لمن تحدثه نفسه فى قصٍّ أثره أو مطاردته ؛ لأنه كان أصوب الناس سهماً ، وأعداهم جواداً ، وأقطعهم سيفاً ، وأجرأهم فؤاداً ، تحيط به شِرْذمة فاتكة من لصوص العرب وشُطّارهم ، لا يبالون فى النضال أى ميتةٍ تهيأت لهم . قد نعموا فى صحبته بالعيش الرغد ، والمال الوفير فأحبوه وقدموا نفوسهم فدىً له .

كان ذلك فى أيام الوليد بن عبد الملك ، والحجاج واليه على العراق والبادية ، فبلغ الحجاجَ أمرُ جحدر وأنه عاث فى الأرض فساداً ، وملأ الصحراء شراً ، واستبد بمسالكها ودروبها ، وأباد خلقاً عديداً ، فأهم ذلك الحجاج وحَزّ فى نفسه التى تعودت تذليل الصعاب وتيسير العَسِر أن يكون فى حواشى ولايته مثل ذلك العاهر الفاتك ، فأرسل إلى عامله باليمامة يوسعه ذمًا وتأنيباً ؛ لعجزه عن الضرب على يدىْ ذلك السفاح وأمره أن يوقع به أو يحمله إليه أسيراً ، وإلا فله الويل والثبور .

لم يكن العامل على جهل بأمر جحدر ، فطالما جأر إليه الناس بالشكوى وطالما استمع لقصص كيده ، وعنف غاراته ، وعظيم فتكه ونادر جرأته ، فى أسف وَهم ، وقد أرسل فى أثره الثُّلة من الفرسان تِلو الثلة لأشهرٍ عديدة ، وفى كل مرة يُمنى بهزيمةٍ نكراء فيُقتلون ويشردون ، ولا ينجو منهم إلا من تعلق بأذيال الهرب ونجا بنفسه . وفى كل مرةٍ يروى الفارون كيف أوقع بهم جحدر ، ونكل بشجعانهم ، وأضلهم فى فجاج الصحراء ودروبها ، فكم صعد بهم فى الجبال وأهبطهم الوديان ، وكلما أحكموا أمرهم وظنوا أنه قد أحيط به ، وأن لا منجاةِ له ولا مهرب ، إذا هو يفر من بين أيديهم كالسهم ، يضحك فى وجوههم ويستهزئ بهم ، حتى إذا أخذ منهم اللغوب والأعياء كل مأخذ ،

ودارت رءوسهم من الأين والكلال حمل عليهم ورجاله ، فأذاقوهم مُرَّ العذاب ، وأوردوهم حياضَ الموت إلا من لاذ بالفرار .

ولما أيس العامل من أخذ جحدر بالعنف لجأ إلى الحيلة ، فأوطأ جماعةً من فتية بنى حنظلة كلهم فارس شجاع ، اشتهر بالفتك والصَّعكة ، ووعدهم الجعائل العظيمة ، إنْ هُمْ أتوه بجحدر مغلولا أو مقتولا .

وعلم هؤلاء أنْ لا قبل لهم بجحدر وقبيله إن هم صارحوه العِداء ، وأنه لا سبيل لهم إلا الخديعة والمكر ، فأرسلوا إليه يقولون : إنهم يتوقون إلى السير تحت لوائه والانقطاع إليه والخضوع لأمره ، لما بلغهم عنه من عظيم الهمة ، وطول الباع فى الغارة والحرب . فأخلد جحدر إلى قولهم وأدخلهم فى صحبته ، ليزيدَ من قوته ، ولأنه كان يستقلُّ خطرهم ، فلم يظن بهم سوءاً فأخذوا ينهبون معه ، وهم يتربصون به الدوائر طمعاً فى جعائل الأمير ، وحسداً لجحدر على بالغ سطوته ، وعظيم نفوذه ، وسعة رزقه وقد حمى الصحراء فلا يَنْهب ولا يفتكُ إلا مَنْ يمشى فى ركابه .

ظل فتيان بنى حنظلة فى صحبة جحدر رَدَحاً من الزمان ، وعينُه الحَذِرة ترقبهم عن كثب ، فلا يظهر منهم إلا طاعةٌ عمياء وإخلاصٌ فى القتال وحسنُ تصرُّفٍ فى المآزق ، فوثق بهم وأمن لهم ، بيد أنهم لم يغفلوا عن هدفهم ، وهو أسر جحدر أو قتله . فلما رأوا أنه قد اطمأن إليهم أبرموا أمرهم بينهم ، إلى أن صادفوا منه غِرَّةً فشدو وَثاقه وهو بمنأى عن خُلصائه وأعوانه ؛ وعلم جحدر أنه غُلب على أمره ، فلم يتوسلْ ، أو يحاول النجاة ، بل كَظَمَ غيظَه وتقبل المحنة بما عُهد فيه من قوة احتمال ، وراحت جيادُهم تطوى البيد طيا ، حتى

قدموا به إلى عامل اليمامة ، فكان فرحه بأسر جحدر عظيما وخشى أن يحتال على الخلاص أو ينصره رجاله ، فوجهه مع آسريه إلى الحجاج قبل أن يطمئن بهم المقام .

تسامع الناس فى البصرة بأسر جحدر ، فاحتشدوا فى طرقاتها يرتقبون مقدمه ، حتى يمتعوا أنظارهم بمرأى ذلك الرجل الذى جعل من بادية اليمامة جحيما والذى فتك بمئات من الخلق ، وأعياء شأنه أولى الأمر سنين ، فلما أقبل الركب لم يروا إلا رجلا نحيفاً مشدود الوثاق مُنَكَّس الرأس ، وقد توهموا أن جحدر عملاق ضخمُ الجثة ، كبيرُ الهامة ، غليظ العنق ، عريض المنكبين فزاد إعجابهم به وإكبارهم له وخوفهم منه فعلا صراخهم وتهديدهم .

فلما مثلوا بين يدى الحجاج ألقوه على الأرض تحت قدميه فأخـذ الحجاج يتأمله ويصوب فيه بصره . ثم سأله :

— أنت جحدر ؟

— نعم ؟

— ما جرأك على ما بلغنى عنك ؟

— جور الزمان وجرأة الجنان !

— ما مبلغ جرأتك ؟

— لو أطلقنى الأمير ، وجعلنى مع الفرسان لرأى منى مايعجبه .

— إنى قاذف بك إلى حَظيرةٍ بها سَبُعٌ شَرِس فإن قتلك كفانا مؤونتك وإن قتلته عفونا عنك لشجاعتك .

— أصلح الله الأمير ، لقد قرب الفرج !!

— أمر الحجاج به فحمل إلى السجن ، وأوصى أن تُحْكم أغلاله ويزيدَ

حراسه؛ حتى لا يفلت أو يبطش بهم ، بعد ما سمع من استهتاره بالأسد ، وأن الفرج سيواتيه عما قريب بعد أن يصرعه . ثم كتب الحجاج إلى عامله باليمامة أن يرتاد له سَبُعًا عَتِيًا ، ويحمله إليه ، وكان صيـــد السبع أخف على نفس العامل من أسر جحدر ، فارتاد له أسداً خبيثاً ، كريه المنظر قد أفنى جميع ما باليمامة من حيوان ، ووضعه فى قفص حديد وأنفذه إلى الحجاج ، رأى الحجاج الأسد فراعه منظرهُ ، وأيقن أن جحدر هالكٌ لا محالةَ ، وأنه لا قبل لآدمى بمصارعة هذا الوحش البَشِع ومع ذلك فقـــد أمر الحجاجُ بأن يلقى السبعُ فى حفيرة ، ولا يطعم شيئاً ثلاثة أيام ليزداد ضراوة وشراسة .

فلما انقضى الأجل المضروب أقبل الناسُ زَرافات ووُحـدانا على مكان الحفيرة وهم يتحرقون شوقا لرؤية هذا الصراع الموعود ، وأخذوا يتنبأون بالعاقبة ويتجادلون فى مصير جحدر بحدة وعنف ، فهذا يدَّعى بأن جحدر سينخلع فؤاده حين يرى الأسد الجائع ، وأنه سيقطعه بمخالبه ويمزقه بأنيابه ويطحنه بأضراسه ثم يلتهمه التهاماً ، وأن جحدر المسكين الذى طالما روَّع الآمنين . وانتهك الحُرمات وأراق الدماء البريئة وادَّعى السطوةَ والبطش وجُرِّد من الرحمة والعطف ، سيلقى حتفه بين يدىْ وحش عَتِىٍ ، قد استبد كذلك طويلا بملك البيداء ، ومن الناس من تحمس لجحدر وآمن بالقوة الإنسانية ، والحيلة والشجاعة وأن الأسد مهما كان ضاريا جائعا كثيبَ الطلعة ، فسيجد فى جحدر نِداً يفوقه أيدا وصبرا ، وبأساً وجرأة وأن الصراع سيكون عنيفاً رهيباً ، ولـكن جحدر لسابق حُنكته وتمرّسه بالشدائد وصلابة عوده سيفلج ويردى الأسد هالـكا .

وبينا الناس فى هـذا الجدال إذ طلع عليهم الحجاج فخشعت الأصوات إلا همسا ، ثم استوى على مقعد مشرف على الحفيرة ، وأمر الحراس بإخراج جحدر ، فأتى به يتعثر فى قيوده ، وعليه أمارات الواثق بمُنته وقوته ، المطمئن لمصيره وعاقبته ، المدلّ بمهارته وشجاعته ، ثم حَطَّم الحراسُ أغلاله ، وأعطوه سيفا صارما ، أخذ يفحصه ويهزه ، والتفت إلى الأمير قائلا :

— هل الأمير أصلحه الله عند وعده ؟

— أجل ؟! فامض إلى الحفيرة فإن الأسد ينتظرك .

فمضى جحدر لطِيَّته صوبَ الحفيرة فما أن رآه الأسد مقبلا عليه حتى نهض وزأر زئيراً رَجَّ الجبال ، وروع الحاضرين فأنشد جحدر :ــ

ليثٌ وليثٌ فى مجال ضَنْك   كلاهما ذو قــوةٍ وسَفْك

وصـولةٍ وبَطْشَةٍ وفَتْك   إن يكشف الله قناعَ الشكّ

فأنت لى فى قبضتى وملْكى

* * *

ثم وقف على الحفيرة وأخـذ ينظر إلى الوجوه المتطلعة هُنيهة ، ويتأمل ما حوله كأنه يتملى من الدنيا قبل أن يودعها هالـكا ولـكن وقفته لم تطل ، فسَرعانَ ما أُدلى به فى الحفيرة فصرخ الأسدُ عند رؤيته صرخة عظيمة ، فأجابه هو بأعظم منها . وأقبل عليه الأسد منقضا كالصاعقة وعيناه تقدحان بالشر ، وأنيابه تتلمظ على الفريسة ، ومخالبه مشحوذة كأنها رُسُل الموت ، ووقف جحدر وسيفه مُصْلت فى يده وقفة الأشوس البطل ، الذى يوقن أن حياته رهنُ يمينه ، وحبس الناس أنفاسهم ، وكادت حَدقاتُ أعينهم تثب من

محاجرها ، وقد ساد الفزع وتملكتهم الرعشة لهذا المنظر الرهيب .

ولما أصبحَ الأسد فى متناول سيف جحدر ضربه ضربةً فلقت هامته وزأر لها زأرة المنكسر الهلوع ، وترنح يمنةً ويسرة ثم خرّ كأنه بناء مشمخر قد زُلزل من قواعده وكبّر الناس وعلا ضجيجهم .

وخرج جحدرٌ يتهادى فى مِشيته مقبلاً على الحجاج فقال له : « لله درُّك ما أنجدك ! إنك أهلٌ للكرامة والعفو » وأقبل وجوه القوم يهنئونه ويبدون إعجابهم به . ثم خيَّره الحجاج بين أن يقيم عنده مكرما ، فى عز ورغد من العيش ، أو يلحق ببلاده على ألا يؤذىَ أحدا ، ولا يُحْدث حدَثا ، وكان جحدر سئم حياة الصعلكة والمخاطرة ، فروّى قليلا كأنه يعقد موازنة بين ذلك الملك الشاسع فى البيداء ، وتلك السطوة الغلابة والحرية الطليقة مع ما يصحبها من حنق الأمير وسخط الناس ، والتعرض لغضب الله جل وعز لإيذائه الأبرياء ، وبين مُقامه عند الأمير فى أمن ودعة وطمأنينة وأخيراً قال :

بل أقيم معك أيها الأمير — لا زلت مرفوع اللواء ميمون النقيبة .

تغيرت بجحدر سُبُل العيش ولكن ذكاءه الفطرى ، وذهنه الثاقب ، مكناه من التأدب سريعا بأدب جلساء الأمير وحاشيته ، فزاد إعجاب الحجاج به ، وحظى عنده ، وأصبح من خواصه ، وبعد ذلك بزمن غير طويل ولاّه اليمامة مَرْتع طفولته ومدرجَ شبابه ، فرجع إليها أميراً مطاع الكلمة بالحق بعد أن خلفها أميراً مطاع الكلمة بالرهبة والباطل .

١ — المراجع العربية

المؤلف	الكتاب
١ — الدكتور ابراهيم سلامة	الخطابة لأرسطو
٢ — ابن أبى الفضائل	النهج السديد ، والدر الفريد
٣ — ابن الأثير	الكامل فى التاريخ
٤ — ابن بطوطة	تحفة الأنظار (رحلة ابن بطوطة)
٥ — ابن تغرى بردى (أبو المحاسن)	النجوم الزاهرة
٦ — ابن تيمية	رسائل ابن تيمية
٧ — ابن جبير	رحلة ابن جبير
٨ — ابن خلدون	العبر وديوان المبتدأ والخبر
٩ — ابن سعد	الطبقات
١٠ — ابن سلام	طبقات الشعراء
١١ — ابن طباطبا	الفخرى
١٢ — ابن عبد ربه	العقد الفريد
١٣ — ابن عربى	١ — ديوان ترجمان الأشواق (ترجمة نيكلسون)
	٢ — الفتوحات المكية
١٥ — ابن الفوطى البغدادى	الحوادث الجامعة
١٦ — ابن الفرات	تاريخ ابن الفرات
١٧ — ابن فضل الله العمرى	مسالك الأبصار
١٨ — ابن قتيبة	١ — الميسر والقداح

	٢ — عيون الأخبار
	٣ — الشعر والشعراء
٢١ — ابن القيم	الفروسية
٢٢ — ابن كثير	البداية والنهاية
٢٣ — ابن الكلبى	الأصنام
٢٤ — ابن منظور	لسان العرب
٢٥ — ابن نباتة	سرح العيون
٢٦ — ابن هشام	السيرة النبوية
٢٧ — أبو تمام	الحماسة
٢٨ — أبو حنيفة الدينورى	الأخبار الطوال
٢٩ — أبو الريحان البيرونى	الجماهر فى تعريف الجواهر
٣٠ — أبو شامة	كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين
٣١ — أبو على القالى	الأمالى ، وذيل الأمالى
٣٢ — الدكتور أبو العلا عفيفى	الملامتية والصوفية وأهل الفتوة
٣٣ — أبو الفداء	المختصر فى أخبار البشر
٣٤ — أبو الفضل ابراهيم	١ — أيام العرب فى الإسلام
	٢ — أيام العرب فى الجاهلية
	٣ — قصص العرب أربعة أجزاء
٣٧ — أبو يوسف	الخراج
٣٨ — الإبشيهى	المستطرف فى كل فن مستظرف

٣٩ — أحمد صبرى شويمان — التصوف فى نظر الإسلام

٤٠ — الأزدى — فتوح الشام

٤١ — أسامة بن منقذ — الاعتبار

٤٢ — الأصفهانى — الأغانى

٤٣ — الألوسى — بلوغ الأرب

٤٤ — الدكتور بشر فارس — بحث عن المروءة

٤٥ — البغدادى — خزانة الأدب

٤٦ — البلاذرى — فتوح البلدان

٤٧ — البيهقى — المحاسن والمساوىء

٤٨ — التبريزى — شرح القصائد العشر

٤٩ — التهانوى — كشف اصطلاحات العلوم

٥٠ — الجاحظ — المحاسن والأضاد

٥١ — جورجى زيدان — تاريخ التمدن الإسلامى

٥٢ — حاجى خليفة — كشف الظنون

٥٣ — حسن عبد السلام — الأغذية

٥٤ — الحلاج — الطواسين

٥٥ — الذهبى — دول الإسلام (مخطوط)

٥٦ — السهيلى — الروض الأنف

٥٧ — شكيب أرسلان — تاريخ غزوات العرب

٥٨ — الضبى — المفضليات

٥٩ — الطبرى تاريخ الأمم والملوك

٦٠ — الدكتور على إبراهيم حسن المماليك البحرية

٦١ — على البجاوى
١ — أيام العرب فى الإسلام
٢ — أيام العرب فى الجاهلية
٣ — قصص العرب

٦٤ — عمر الدسوقى النابغة الذبيانى

٦٥ — الغزالى
١ — إحياء علوم الدين
٢ — المنقذ من الضلال

٦٧ — فيليب حتى
١ — مقدمة كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ
٢ — تاريخ العرب (ترجمة فيليب حتى)

٦٩ — القشيرى الرسالة القشيرية

٧٠ — كشاجم أدب النديم

٧١ — لويس شيخو شعراء النصرانية

٧٢ — الماوردى الأحكام السلطانية

٧٣ — المبرد الكامل

٧٤ — محمد بن منكلى الأحكام السلطانية (مخطوط)

٧٥ — محمد الخضرى بك
١ — تاريخ الأمم الإسلامية
٢ — مهذب الأغانى
٣ — نور اليقين

٧٨ — محمد كامل علوى الرياضة عند العرب

٧٩ — مصطفى جواد — الفتوة والفتيان قديماً — مجلة لغة العرب إبريل سنة ١٩٣٠

٨٠ — المقرى — نفح الطيب

٨١ — المقريزى — ١ — الخطط
٢ — السلوك

٨٣ — الميدانى — مجمع الأمثال

٨٤ — نور الدين الحلبى — السيرة الحلبية

٨٥ — وليم آل ورد — العقد الثمين

٨٦ — ياقوت الحموى — معجم البلدان

٢ - المراجع الأجنبية

1 — Aristotle, Nicomachean Ethics.
2 — Arnold - Sir, T. W. The Preaching of Islam.
3 — Alfred de Vigay, Servitude et Grandeur militaire.
4 — Ampére. J. J. Mélange d'Histoire Littéraire et de Littérature.
5 — Atiya. A. S. The Crusade in the Latter Middle Ages.
6 — Barthélemy. Saint - Hilaire, Mohamet et le Coran.
7 — Beaumount - de, A. Reacherches sur L'origine de blason.
8 — Chateaubriand, 1. Etude Historiques, étude Sixiéme : Mœurs de Barbare
2. Analyse Raisonnée de L'Histoire de Françe.
9 — Corneille, le Menteur.
10— Daumas. (Génral), Les Chevaux du Sahara.
11— Delard. l'Art équestre.
12— Dozy. Histoire de Musulman d'Espagne.
13— Edourd Monetet, la Propagande Chrétienne et ses adversaires Musulmans.
14— Fauriel, Histoire de la poesie Provençal.
15— Florian, Précis Historique sur Maures.
16— Gautier, La Chevalerie.
17— Gibb. The Lagacy of Islam.
18— Goldziher, 1. Muruwa und Din.
2. Vorlesungen über der Islam.
19— Guizot, Histoire de La Civilisation en Europe.
20— Guys, Mémoire de l'Academie des Science, Belle - Lettres, Art de Marseille.
21— Hammer - Purgstall. J. Asiatique.
22— Herder. Idées sur la Philosophie de l'Histoire de l'Humanitie
23— Hérodote, Histoire.
24— Huart, Histoire es Arabes.
25— Lacurn de Saint-Palaye, Mémoires sur L'ancienne Chevalerie
26— Le Bon, (G), Civilisation des Arabes.

27— Laviss et Rambaud, Histoire Générale.
28— Lefray (Dr. G. A.) Mankind and Church.
29— Leon Caetani. Annali dell Islam.
30— Mækail. Lecture on Poetry.
31— Mairn, Histoire de Saladin Sulthan d'Egypte.
32— Marett, Anthropology.
33— Mignet, Mémoire de l'Academie de Science morales et polotiques.
34— Michæl. (The Elder), Chro que.
35—Morgan, Mahometism explained.
36— Noeldeke. Veterum Carmimum Arabicorum.
37— de Perceval, Essai sur l'Histoire dcs Arabes.
38— Pierre Damien, Chronique du Turpin.
39— Prutz, Kulturgeschte der Kreuzzuge.
40— Qutremér Hist, de Sultans Mamloukes, par Makrizi.
41— Raymaund, Dictionaire de Langue de Traubadours.
42— Reinaud. Invasion des Sarrazins en Francc, en Savoie. . etc.
43— Ritter, Der Islam.
44— Roger Hoveden, Chronica Magistri.
45— Schlumberger (Gustave), Récits de Bysance et de Croisade.
46— Shafik Ghorbal, The Begining of The Egyptian Question and Rise of Moh-. Ali.
47— Sismondi, de la Littérature de Midi de la France.
48— Sidgwick, History of Ethics.
49— Sprenger, Das Leben und die Lehere des Mohammed.
50— Stanley Lane-Pool. Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem.
51— Tacite, Mœure dc Germains.
52— Thierry (Augstin) Lettre sur l'Histoire de France.
53— Thorning, Beitrage Zur Kenntnis Islamichen . . . .
54— Taylor (E. B.) Anthropology.
55— Viardot, Histoire des Arabes.
56— Viollet-le-Duc, Dictionnaire de Mobilier.
57— Wacyf Ghali, Tradition Chevaleresque des Arabes.

كشاف الاعلام

(أ)

إبراهيم بن كنيف النبهانى ١١٤
ابن الأثير ١٦٧ ، ١٧٤
ابن أذينه الثقفى ١٠٠
ابن أهبان الفقعسى ١٣
ابن بطوطه ٢٣١
ابن تيمية ٢٢٩
ابن جبير ٢٣٠ ، ٢٤٠
ابن خلدون ١٦٧ ، ١٧٤
ابن عربى ١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤
ابن عراده ٢١٢
ابن عمر ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٩
ابن الفارض ٢٢٣
ابن قتيبة ٨٧
ابن القيم ١٤٥ ، ١٤٧
ابن كلال ٨٨
ابن الكلبى ١١٠
ابن ناشرة ١٤
ابن هرمه ١٥
أبى بن خلف ١٤٨
أبو بكر الجحيش ٢٤٣
أبو بكر الصديق ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٢٥ ، ٣٠٠
أبو البلهاء ١٨
أبو تمام ١١٨
أبو جعفر المنصور ٣١٥
أبو الحسن بن الشاربان ٢٤٣
أبو الحسن النجار ٢٤٢
أبو حفص الحداد ٢٢٤
أبو حفص النيسابورى ٢٢٤
أبو حنيفة ٢٨
أبو رواغ اليشكرى ٢١٥
أبو سفيان بن حرب ٣٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ٢٠٧
أبو عبيد بن مسعود ١٩٣
أبوعبيدة بن الجراح ٢١٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠
أبو عثمان الهندى ٢١٦
أبو العز النوبى ٢٤١
أبو عزيز بن عمير ٣١٧
أبو على الصوفى ٢٤٥
أبو العلا عفيفى ٢٢١ ، ٢٢٧
أبو الفضل بن الترهان ٢٤٢
أبو قيس بن الأسلت ٣٤
أبو كبير الهذلى ٢٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠
أبو محجن الثقفى ٢٠٩
أبو مسلم الخراسانى ٢٤١
أبو نواس ٢٣٨
أبو هريرة ١٤٩
الأخطل ٣١٥
الاخنس بن شهاب ٥٢
أرسطو ٦٢ ، ١٠٢ ، ٢٢٢
أسامة بن منقذ ٢٣٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨

إسحق بن حنين ٣١٥
أسد بن كرز ١٢٤
الأعشى ١٢٣
الأعور الشنى ١٩٥
أكثم بن صيفى ٦٢
الألوسى ٤٣
أم حكيم بنت الحارث ١٥٣
امرؤ القيس ١٠٩
أم عمارة بنت كعب ٢٠٧
أم الفضل بنت الحارث ٣٨
أمية بن أبى الصلت ٨٢
أوس بن حارثة ٩٩ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢
أوس بن حجر ١٨

(ب)

بختيشوع ٣١٥
برسفال ١٠٤
بشامة بن حزن النهشلى ١٥
بشر بن أبى حازم ٩٩ ، ٣٧٣
بشر فارس ١٧
البلاذرى ١٦٨
بهرام الديلمى ٢٤١
بهمن جاذويه ١٩٨
بهيسة بنت أوس ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١١
بودوا ٢٧٩
البيرونى ١٥ ، ١٦ ، ١٧
بيير القاسى ٣٠٦

(ت)

تأبط شرا ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ،
تيلر ٢٤ ، ٤٠
تيمورلنك ٢٥٧

(ث)

ثابت بن قره ١٣٥
ثابت بن قيس ٢٠٩
ثورنتنج ٢٢١ ، ٢٢٢

(ج)

جابر بن حيان ٧٦
جان دى برين ٣١٦
جبرائيل بن بختيشوع ٣١٥
جبير بن مطعم ١٧٧
جب ٢٨٧ ، ٢٩٠
جحدر بن ربيعة ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣
الجرجانى ١٨
جرير ٨٥
جزء بن ضرار ١١٤
جساس بن مرة ١٢٣
جعفر بن أبى طالب ١٧٠ ، ١٨١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
جوشن الفزارى ٢٤٢
جولد تسهير ١٧ ، ١٨ ، ١٤٤
الجنيد ٢٢٥ ، ٢٢٦

(ح)

حاتم الطائى ٦١ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٩١ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١
حاجى خليفة ٢٤٠ ، ٢٤٥
الحارث بن سعد ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٩

الحارث بن ظالم المرى ٥٧ ، ٩٨ ، ٣٥٢ ،
٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧
الحارث بن ظبيان ١٩٨
الحارث بن عباد ١١٨
الحارث بن عوف ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥
الحارث بن وعلة ٩٧
الحارث المحاسبى ١٠٢
الحافظ الكندى ٢٤١
الحجاج ٤٤٧ ، ٤٥٠
حذيفة بن بدر ٥٦
حذيفة بن اليمان ٢٤٠
حسان بن ثابت ٦٣
حسان بن ربيعة ٢٤١
الحسن البصرى ٢٢٠ ، ٢٤١
حسيل بن سجيح الضبى ٤٧
الحسين بن على ٣١٠
الحصين بن الحمام ٥٤
الحطيئة ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٩١ ،
١٢٢ ، ١٢٧
الحلاج ٢٢٣
حمدون القصار ٢٢٦
حمزة بن عبد المطلب ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧
حمل بن بدر ٥٦
حنظلة بن أبى عفرة ١١٩ ، ٣٢٣

(خ)

خارجة بن سنان ٤٠١
خالد بن جعفر الكلابى ٣٥١ ، ٣٥٣ ،
٣٥٧ ، ٣٥٩
خالد بن الوليد ١٦٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ،
١٩٧ ، ٢٤٠
خبيب بن عدى ٢٠٧
خداش بن زهير ٥٢
خديجة بنت خويلد ١٤٣
خليل بن قلاوون ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣
الخنساء ١٨ ، ٣٣ ، ١٢٨ ، ١٣٠

(د)

دريد بن الصمة ١٨ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٩٨ ،
٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩
دلارد ٤٢
دوماس (الجنرال) ٤١

(ذ)

ذو الإصبع العدوانى ٢٠ ، ٧٤

(ر)

الربيع بن زياد ١٢٦
ربيعة بن مكدم ٩٨ ، ١٢٩ ، ٣٤٩
ركانة بن عبد يزيد ١٤٤
روزبة الفارسى ٢٤١
روبرت أوف سانت أليانس ٢٧٨
ريتشارد قلب الأسد ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١
٣١٥ ، ٣١٨

(ز)

الزبرقان بن بدر ١٢٢
الزبير بن العوام ١٧٩
زرعة بن عمرو ٨٣
زهير بن أبى سلمى ٦٨ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ،
١٢٩ ، ٢٣٤ ، ٤١١
زهير بن خديجة ٥٧ ، ٣٥١
زهير بن عروة المازنى ٦٨
زيد الخيل ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
٤٧ ، ٣٧٥

زيد بن حارثة ١٧ ، ١٨١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ .
زيد بن الخطاب ٢٠٩
زيد بن الدمنة ٢٠٧

(س)

سالم بن نصر الله الحموى ٢٤٤
سحيم الأزدى ٤١٢
سعد بن أبى وقاص ١٧١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
سعد بن معاذ ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩
سعيد بن جودى ٢٨٩
سعيد بن العاص ٣١١
سلمان الفارسى ٢٤٠
سلمى بن ربيعة ٩٠
سلمة بن الأكواع ١٤٦
سهيل بن عمرو ١٥٠ ، ١٥٥
سويد بن أبى كاهل اليشكرى ٢٧ ، ٤٧
السيد القمبيطار ٣٠٦ ، ٣١٨
سيدجوك ٦٢

(ش)

شاتو بريان ٥١ ، ٢٨٤
شارلمان ٣١٢
شداد بن عمرو ٤٢٣ ، ٤٢٤
شرف الدين الشرابى ٢٤٩
الشماخ بن ضرار ٩١
الشميذر الحارثى ٥٠
الشنفرى ٤٩
الشريف أبو العز ٢٤١
الشريف المرتضى ٢٦٩
شريك بن عمرو ٣٢٦

(ص)

صلاح الدين الأيوبى ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٣١٥
صفوان بن أمية ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ٢٤٠

(ض)

ضبعة العبسى ٤١ ، ٤٣

(ط)

طارق بن زياد ٢١٥
الطبرى ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٤
طرفة بن العبد ١٤ ، ١٥ ، ٦٦ ، ٨١
طلحة بن عبيد الله ١٧٩
طريف بن تميم ٥٣

(ع)

عائشة أم المؤمنين ٢٠٦
عامر بن الطفيل ١٢٣ ، ٢٠٨
العباس بن مرداس ٥٦
عبد الجبار بن صالح ٢٤٣
عبد الرحمن بن حسان ١٣
عبد الرحمن بن الحسين الصوفى ٢٥٥
عبد الرحمن الثالث ٢٧٤
عبد الشارق الجهنى ٥٧
عبد القيس بن خفاف البرجمى ٤٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧
عبد الله بن أبى ١٧١
عبد الله بن أبى الحمساء ١٦٠
عبد الله بن جدعان ٨١ ، ٨٢
عبد الله بن جعفر ٣١١
عبد الله بن رواحه ١٧٠ ، ١٨١ ، ٢٠٩
عبد الله بن سعد بن أبى السرح ١٥٣
عبد الله بن سعد الطائى ٣٧٢
عبد الله الشر مساحى ٢٤٨
عبد الله بن العباس ٣٨ ، ١٥١
عبد الله بن مروان ٣٣٩

عبد الله بن مسعود ١٧٩
عبد الملك بن مروان ٨٤
عبد الله الحجام ٢٢٤
عبيد بن الأبرص ٣٧٣
عبيدة بن ربيعة التميمى ٤٢
عتبة بن أسيد الثقفى ١٦١
عثمان بن أبى طلحة ١٨٠
عثمان بن عفان ١٥٣، ٢٢٥، ٢٤٣، ٢٤٥
عدى بن ربيعة ١١٨
عدى بن زيد ١٢٤
عرابة بن أوس ٩٣ ، ٤١١
العرندس ٨٦
عروة بن الورد ٨٣ ، ٨٤
عقبة بن نافع ٢١١
عكرمة بن أبى جهل ١٥٣
على بن أبى بكر الأهوازى ٢٢١
على بن أبى طالب ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٩ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٦٩
على بن الجعد ٢١٦
على بن دغيم ٢٤٣
عمر بن الخطاب ٥٠ ، ١٢٠ ، ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٢٥٣ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥
عمر بن عبد العزيز ٨٥ ، ٩٩
عمر الرهاش ٢٤٣
عمران بن حطان ٢١٢
عمرو بن الإطنابة ٥٧ ، ٩٨ ، ١٣٠ ، ٣٧٥
عمر بن الأهتم ٦٣
عمرو بن براقة ٣٥ ، ١٠٣
عمرو بن الجموح ١٠٩
عمرو بن العاص ١٢٧ ، ١٨٠ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٣٠٥
عمرو بن عبد ود ١٧٨
عمرو بن عنبسة ١٤٧
عمرو بن كلثوم ٥٤، ١٠٢، ١٢٩
عمرو بن معد يكرب ٤٨، ٥٠، ٣٣٢، ٣٣٦
عمرو بن هند ١٠٢
عمير بن الحمام ١٧٠
عمير بن وهب الجمحى ١٥٤
عنترة ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٢ ، ١٣٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣١
عوف بن عطية بن الخرع ٥٢
عيسى بن فاتك ٢١١

(غ)

الغنوى ٨٧
غنية بنت عفيف ٦١ ، ٣٧٤

(ف)

فاطمة بنت الخشرب ١٢٦
فخر الدين أبو طالب الدامغانى ٢٤٨
فضالة بن كلدة ١٨
الفضل ٢٤٢
الفضل بن زياد الفارسى ٢٤٢
الفضيل ١٢
فلك الدين بن سنقر ٢٤٨

الفند الزمانى ١١
فيليب أوجست ٢٧٨

(ق)

قتادة بن النعمان ١٤٨
قتيبة بن مسلم ٢١٤
قراد بن أجدع ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨
القشيرى ١٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٧
القعقاع بن عمرو ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
قطبة بن أوس ١١٧
قطرى بن الفجاءة ٢١٢ ، ٢١٣
قطز ٢٥٥
قلاوون ٢٧٦
قيس بن الخطيم ٦٤
قيس بن زهير ٥٦ ، ٤٣٥
قيس بن عاصم ٣١٧

(ك)

كاترمير ٣٥٣
كعب بن زهير ١٥٤
كعب بن مامة ١٦ ، ٨٤ ، ٨٥
كليب وائل ١٠٣
كنزة المنقرية ٣٩
كورنى ١١٥

(ل)

لا كورن دى سانت بالاى ١٢٠
لبيد بن ربيعة ٨٦
لحى بن حارثة بن عامر ١١٠
لقيط بن يعمر الإيادى ٣٠

(م)

ماريت ٤٠ ، ٦٠
مالك بن دينار ٢٢١
مالك بن قيس ١٨٥
مالك بن كعب ٤٨
ماوية بنت عبد الله ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩
المتلمس ٣١
متمم بن نويرة ٨٥ ، ٨٧
متى بن يونس ٣١٥
المتنبى ٢٥٤
المثقب العبدى ١٢٤
المثنى بن حارثة ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٣١٣
محمد الباقر ٢٣٩
محمد بن أحمد الحاسى ٢٥٤
محمد عليه السلام ٣٨ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥
محمد بن عبد الله بن طاهر ٢٣١ ، ٢٣٢
محمد بن القاسم ٢١٥
مرة بن محكان السعدى ٧٥
مرداس بن أدية ٢١٢
المستعصم ٢٥٢
مستقيم زاده ٢٦٩
المستنصر ٢٥٢
مسعود بن أبى سالم ٧٤
مسلمة بن عبد الملك ٢١٥

مصعب بن عمير ١٤٨ ، ١٧٨ ، ٢٠٧
مضرس الربعى ٧٨
معاوية بن أبى سفيان ٣٨ ، ٩٣ ، ١٥١ ، ٣١٠
معن بن أوس ٩٣ ، ٩٤
مفروق بن عمرو ١٣٥ ، ١٣٧
المقداد بن الأسود ٢١١
المقداد بن عمرو ٢٠٥ ، ٢٤٠
المقنع الكندى ٧٣
اللاميراوى ٢٤٢
المهاجر بن عبد الله ٤١٢
المهلب بن أبى صفرة ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤
المهلهل ٤٦ ، ٩٦ ، ١١٨
مهنى العلوى ٢٤٢
المنتشر بن وهب ١٣٠
المنصور بن أبى عامر ٣٠٧
موسى بن عقبة ١٤٥
موسى بن نصير ٢١٥
ميشيل اليعقوبى ٢٩٨

(ن)

النابغة الجعدى ٧٢
النابغة الذبيانى ٣٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٨٥ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ٢٣٧ ، ٣٧٣
نابليون ٢٥٧
الناصر لدين الله ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨
ناصر الدين بن أبى نعجة ٢٤٢
الناصر (السلطان) ٢٥٦ ، ٢٥٧
النضر بن الحارث ١٥٦
النعس سلمان ٢٤٢
نعمان ٢٤٣
النعمان بن شريك ١٣٥
النعمان بن مقرن ٢٠٢ ، ٢٠٣
النعمان بن المنذر ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣
نعيم بن مقرن ٢٠٣
النمرى ٧٧
نور الدين ٢٧٩

(هـ)

هاشم بن عتبة ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢١٠
هانىء بن قبيصة ١٣٥ ، ١٣٧
هبار بن الأسود ١٥٣
هذيل بن مشجعة ٨٢
هردر ٢٦٦
هرقل ١٥٦ ، ١٦٠ ، ٣٠٠
هرم بن سنان ٦٨ ، ٤٠٩
هرمز ١٨٣
هلال النبهانى ٢٤١
هلال بن الأسعر ٤٣٨
هند بنت أبى سفيان ٣٨ ، ١٣١ ، ١٧٧

(و)

وداك المازنى ١٢٧
واصف غالى ٧١ ، ١٠٤ ، ٢٩٧

(ى)

يزيد بن أبى سفيان ١٥١ ، ٢١٠
يزيد بن حنظلة ١٢٩
يزيد بن عبد المدان ١٨
يزيد بن مزيد الشيبانى ١٨

الفهـرس

ص

المقدمه ٣

معنى الفتـوة ... ... ١١ — ٢٠

الفتوة فى اللغــة ١١ ـ الفتوة فى الأدب ١٣ ـ الفرق بين الفتوة والمروءة ١٥ ـ معانى الفتوة ٢٠

الفتوة عند العرب ... ... ٢١—١٣٢

نشأة الفتوة ٢١ ـ أثر الطبيعة فى الحواس ٢٢ ـ الشجاعة ٢٦ ـ أثر الصحراء فى الجسم ٢٧ ـ معنى الشجاعة ٢٩ الثأر ٣٥ ـ فضل الأمهات فى الشجاعة ٣٧ ـ الرأى العام والشجاعة ٤٠ ـ الخيل ٤١ ـ السلاح ٤٦ ـ الرمح ٤٧ ـ الدرع ٤٨ ـ السهام ٤٩ ـ السيف ٥٠ ـ ملابسهم فى الحرب ٥٤ ـ معاملتهم للأعداء ٥٥ ـ الكرم ٥٩ ـ معانيه ٥٩ ـ كرم اليد ٥٩ ـ بواعثه ٦٠ ـ عنايتهم بالضعف ٧٠ ـ أفضل الكرم ٧٢ ـ مظاهر الكرم ٧٦ ـ البشاشة ٧٦ ـ السخاء ٧٧ ـ جلب الضيفان ٧٨ ـ نار الكريم ٧٨ ـ الكلب ٧٩ ـ التعرض للضيــوف فى الطرقات ٨١ ـ جفان الكرماء ٨١ ـ الإيثار ٨٣ ـ

ص

الميسر ٨٥ ـ الكرم والشجاعة متلازمان ٨٧ ـ كرم القلب ٩٢ ـ معناه ٩٢ ـ مواطن الحلم ٩٥ ـ كرم العقل ١٠٤ ـ أثر الصحراء فى كرم عقولهم ١٠٥ ـ أثر المجتمع العربى فى كرم عقولهم ١٠٧ ـ أثر ديانة العرب فى كرم عقولهم ١٠٨ ـ الجن والغول ١١١ ـ الوفاء بالوعد ١١٥ ـ أثر الصحراء فى الوفاء ١١٦ ـ الحرب والوفاء ١١٦ ـ المجتمع والوفاء ١١٧ ـ حماية الضعيف ١٢٠ ـ حماية الجار ١٢١ ـ النجدة ١٢٧ ـ فك العانى ١٢٨ ـ الدفاع عن المرأة ١٢٩

الفتوة فى الإسلام ... ... ١٢٣ — ١٤٢

الإسلام دين الفطرة ١٣٣ ـ الإسلام وأخلاق الجاهلية ١٣٤ ـ توجيه الإسلام للعرب ١٣٩ ـ الفرق بين رشد العقل الجاهلى ورشد العقل الإسلامى ١٤٠ ـ الإسلام وصفات الفتوة ١٤٠

سيد الفتيان ... ... ١٤٣ — ١٦٥

استعمال القوة فى الإسلام وأسبابها ١٤٣ ـ مصارعة النبى ١٤٤ ـ مسابقته لسواه ١٤٥ ـ مسابقته بين الخيل ١٤٥ ـ النضال بالرّمى ١٤٦ ـ شجاعته عليه السلام ١٤٩ ـ كرمه ١٥١ ـ كرم قلبه ١٥٢ ـ كرم عقله ١٥٥ ـ وفاؤه ١٦٠ حمايته للضعيف ١٦١

ص

فتيان المسلمين ... ... ١٦٦ — ٢١٩

قوة الصحابة فى الحروب ١٦٦ ـ أدبهم ١٦٧ ـ الشجاعة ١٦٨ ـ بواعثها الإسلامية ١٦٩ ـ يوم مؤتة ١٧٠ ـ حمزة بن عبد المطلب ١٧٥ ـ على بن أبى طالب ١٧٨ ـ خالد بن الوليد ١٨٠ ـ المثنى بن حارثة ١٩٢ ـ القعقاع ابن عمرو ١٩٦ ـ سعد بن معاذ ٢٠٦ ـ مصعب بن عمير ٢٠٧ ـ خبيب بن عدى ٢٠٧ ـ زيد بن الدَّثِنة ٢٠٧ ـ أبو محجن الثقفى ٢٠٩ ـ هاشم بن عتبة ٢١٠ ـ الخوارج ٢١١ ـ المهلب بن أبى صفرة ٢١٢ ـ قطرى بن الفجاءة ٢١٣ ـ قتيبة بن مسلم ٢١٤ ـ محمد بن القاسم ٢١٥ ـ موسى بن نصير ٢١٥ ـ تعاليم عمر بن الخطاب فى الفروسية ٢١٦ ـ كرم فتيان المسلمين ٢١٨

الفتوة الصوفية ... ... ٢٢٠ — ٢٣٣

التصوف يأخذ من الفتوة ٢٢١ ـ معانى الفتوة عند المتصوفة ٢٢٣ ـ أهل الملامة ٢٢٤ ـ متصوفة نيسابور ٢٢٥ ـ العيَّارون والشطار ٢٢٦ ـ رأى ابن تيمية فى الفتوة الصوفية ٢٢٨ ـ ابن جبير يتكلم عن الفتوة والفتيان ٢٣٠ ـ ابن بطوطة والفتيان ٢٣١

ص

فتوة المترفين .. .. ٢٣٤—٢٥٨

الصيد ٢٣٤ ـ الطرد فى الجاهلية ٢٣٤ ـ أسامة بن منقذ والصيد ٢٣٩ ـ الناصر لدين الله ٢٤٠ ـ سلسلة الفتيان ٢٤٠ ـ أنظمة الفتوة ٢٤٣ ـ رمى البندق ٢٤٥ ـ كأس الفتوة ٢٤٦ ـ شجاعة أسامة بن منقذ ٢٤٧ ـ الفتوة بعد الخليفة الناصر لدين الله ٢٤٨ ـ صلاح الدين الأيوبى وفتوة الناصر ٢٥٠ ـ المماليك ٢٥٢ ـ نظم الفتوة لديهم ٢٥٣ ـ المماليك والحروب الصليبية ٢٥٥ ـ السلطان الناصر ٢٥٧ ـ

بين فتوة العرب وفروسية الغرب ... ... ٢٣٥ — ٣١٩

تعريف الفروسية الغربية ٢٦٠ ـ أطوارها ٢٦٠ ـ الطور الإقطاعى ٢٦١ ـ الطور المسيحى ٢٦٢ ـ طور الحب ٢٦٣ ـ روافد الفروسية الغربية ٢٦٤ ـ الألمان ٢٦٥ ـ أثر العرب فى الفروسية الغربية ٢٦٧ ـ أثر الأندلس ٢٦٩ ـ لغة البروفنسال ٢٧١ ـ الروايات والقصص ٢٧٣ ـ الشعر ٢٧٤ ـ نماذج من أخلاق العرب بأسبانيا ٢٧٥ ـ الحروب الصليبية وأثرها فى فروسية الغرب ٢٧٦ ـ صلاح الدين الأيوبى ٢٧٨ ـ أثر المماليك ٢٨٢ ـ أثر العرب فى احترام المرأة ٢٨٤ ـ التروبادور ٢٨٧ ـ موازنة بين فروسية الغرب وفتوة العرب ٢٩٤ ـ تعاليم الدين ٢٩٤ ـ التسامح ٣٠٠ ـ

ص

الديموقراطية العربية ٣٠٣ ـ الأصول الدينوية للفروسية الغربية والموازنة بينها و بين الأصول العربية ٣٠٥ ـ القتال ٣٠٦ ـ الـكرم ٣٠٨ ـ التعصب الدينى ٣١٣ ـ كرم القلب ٣١٥ ـ تعاليم العرب فى القتال ٣١٨ ـ الوفاء بالوعد ٣١٨

صور من الفتوة العربية ... ... ٣٢٠ ـ ٣٥٣

مروءة ووفاء	٣٢١	السخى العداء	٤١٢
فارس الشهباء	٣٣١	عنترة الفوارس	٤٢١
حامى الظعينة	٣٤٢	هلال	٤٣٨
ثأر	٣٥١	جحدر	٤٤٧
تأبط شرا	٣٦١	المراجع العربية	٤٥٤
فتى كريم	٣٨٢	المراجع الأجنبية	٤٥٩
لا حر بواد عوف	٣٨٩	كشاف الأعلام	٤٦١
همة	٣٩٨	الفهرس	٤٦٨

